
Bibliotheca Alexandrina
0617698

٢ / ٤ / ٢٠٠٧ بالتفويض

سيدة اسماعيل كاشف أستاذ التاريخ الحديث
بالعلوم (رحمها)

بدر عبد الرحمن محمد أستاذ التاريخ الإسلامي بالآداب

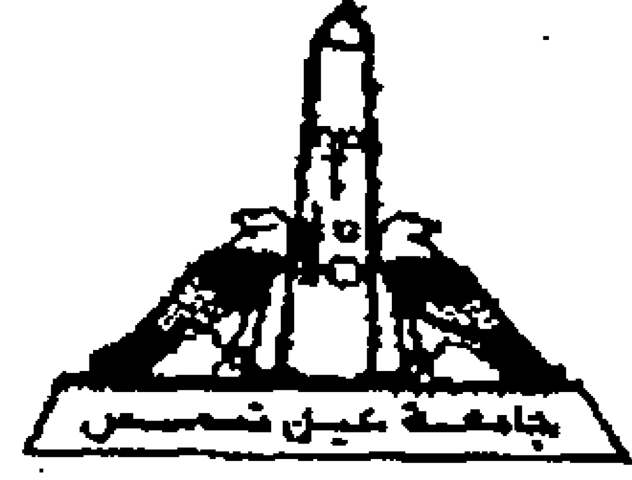
آمال محمد حسن خليل أستاذ التاريخ المساعد بالعلوم

٨ / ٩ / ٢٠٠٧ بالتفويض



حفني مراد الأكابر
٢٠٠٧/٩/١٨

المشرف
أ.د
سيدة اسماعيل كاشف



كليــة البنـات
قسم التاريخ

دور وخزائن الكتب في المشرق الإسلامي

إيران ، خراسان ، وما وراء النهر

منذ عصر المأمون وحتى القرن السابع الهجري

بحث مقدم للحصول على درجة الدكتوراه

في الآداب فرع التاريخ الإسلامي

إعـــداد

هالة شاكر عبد الرحمن

إشراف

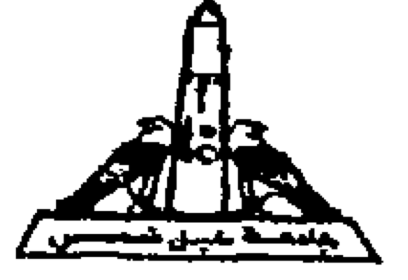
أ . د / سيدة اسماعيل كاشف

أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي والوسيط

بكلية البنات

جامعة عين شمس

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م



جامعة عين شمس

الكلية :.................

رسالة ماجستير / دكتوراه

اسم الطالب : هالة شاكر عبد الرحمن محمد

عنوان الرسالة : دور خزائن الكتب في المشرق الإسلامي (إيران / خراسان / ما وراء النهر) منذ عصر المأمون حتى القرن السابع الهجري

اسم الدرجة : (ماجستير / دكتوراه)

لجنة الإشراف :

١ ــ الاسم : أ.د/ سيدة إسماعيل كاشف ٢ ــ الوظيفة : أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي والوسيط

١ ــ الاسم :.................... ٢ ــ الوظيفة :....................

١ ــ الاسم :.................... ٢ ــ الوظيفة :....................

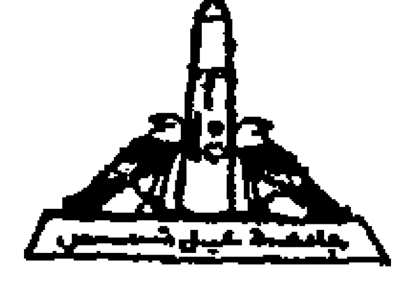
تاريخ البحث : / / ٢٠٠م .

الدراسات العليا :

ختم الإجازة : أجيزت الرسالة بتاريخ : / /

موافقة مجلس الكلية موافقة مجلس الجامعة

/ / ٢٠٠م / / ٢٠٠م



جامعة عين شمس

الكلية :..................

صفحة العنوان :

اسم الطالب : هاله شاكر عبدالرحمن محمد

الدرجة العلمية : دكتوراه في الآداب

القسم التابع له : قسم التاريخ / التاريخ الإسلامي

اسم الكلية : كلية البنات

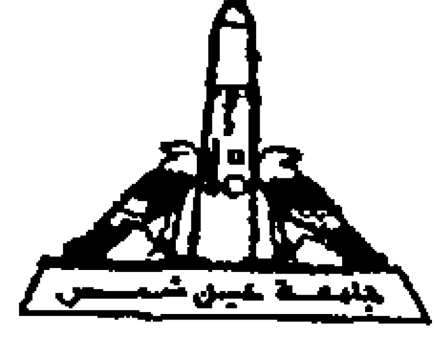
الجامعة : جامعة عين شمس

سنة التخرج :

سنة المنح : ٢٠٠٤م

شروط عامة :

يوضع شعار الجامعة على الغلاف الخارجي



جامعة عين شمس
كلية البنات

((شـــكر))

أشكر السادة الأساتذة الذين قاموا بالإشراف وهم :

الأستاذة الدكتورة / سيدة اسماعيل كاشف .

أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي والوسيط

جامعة عين شمس ـ كلية البنات

ثم الأشخاص الذين تعاونوا معي في البحث وهم :

(١) د . رشوان محمود جاب الله ـ قسم التاريخ ـ بكلية الآداب ـ جامعة الزقازيق.

(٢) د . محمد علي محمد عثمان ـ قسم التاريخ ـ بكلية الآداب ـ جامعة الزقازيق.

(٣) د. محمد عبد العظيم الصوفي ـ قسم التاريخ ـ بكلية الآداب ـ جامعة الزقازيق.

وكذلك الهيئات :

(١) مكتبات جامعة عين شمس .

(٢) مكتبات جـــامعة الزقازيق .

(٣) مركز الدراسات الشـــرقية .

شكـــر وتقديـــر

نتقدم بخالص الشكر والامتنان والتقدير

إلى من علمتنا

كيف يكون الغوص والبحث في بحار العلم

وكيف تستخرج لآلئ العلم من محارها

إلى من علمتنا

الأمانـــة في البحـــث

والوضوح في الرؤية

والصــدق في التحليل

إلى أستاذتنا الفاضلة

الأستاذة الدكتورة / سيدة اسماعيل كاشف

أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي والوسيط

بكلية البنات

جامعة عين شمس

هالة شاكر عبد الرحمن

المقدمة

(المقدمـــة)

لا جدال في أن الحضارة الإسلامية حضارة غنية وفياضة وثرية بالكثير من المظاهر التي كانـــت شعاعاً قادنا وقاد الكثير من المؤرخين إلى البحث والاستقصاء للتعرف على المزيد من جوانب إعجاز هذه الحضارة .

فمن الناحية الثقافية أفرزت هذه الحضارة الكثير من المؤسسات الثقافية التي كان لها دور رائد وفعال في نشر العلوم والمعارف والآداب بين المسلمين ، ومن جاورهم من الأمم والإمبراطوريات ، ومن هذه المؤسسات المسجد والمدرسة وأسواق وحوانيت الوراقة ودور العلم ، ودور وخزائن الكتب وغيرها .

وتعتبر دور وخزائن الكتب من أبرز وأهم هذه المؤسسات فهي ــ وكما يبدو لنا ــ إحدى الدعائم الأساسية التي شكلت وبلورت الجانب الثقافي والتعليمي في الحضارة الإسلامية ، فقد فتحت دور وخزائن الكتب ــ بكافة أنواعها ــ أبوابها للعامة والخاصة من الناس ، كبيرهم وصغيرهم ، عالمهم وأديبهم ، محدثهم وفقيههم ، ولم يكن هذا الأمر قصراً على ناحية معينة من بلدان العالم الإسلامي ، بل شكل هذا الأمر ظاهرة عامة شهدتها كافة بلدان العالم الإسلامي مشرقه ومغربه .

وقد أدرك مؤرخونا القدامى ما لدور وخزائن الكتب من أهمية في بلورة وتشكيل الحضارة الإســـلامية ، فأشادوا بها ، فقد أشاد القلقشندي بأبرز مكتبات الإسلام ، مثل دار الحكمة بالقاهرة وبيت الحكمة ببغداد ، ثم مكتبة الحكم بالأندلس ، كما أشاد المقريزي أيضاً بدار الحكمة بالقاهرة وأفاض في وصفها .

وبرغم إدراك مؤرخينا القدامى لأهمية دور وخزائن الكتب كإحدى المؤسسات التعليمية والثقافية . وبرغم تسليطهم الأضواء عليها ، إلا أنها لم تلق الاهتمام اللائق من المؤرخين المحدثين ، خاصة فضلاً عن قلة الدراسات التي تناولت هذه المؤسسات ، والتي تناولتها في بعض بلدان العالم الإسلامي ، كمصر والعراق وبلاد الأندلس ، وأغفلت هذه الدراسات في بلدان المشرق كإيران وخراسان وما وراء النهر .

ولعل هذا هو ما دفع بنا إلى دراسة هذا الموضوع (دور وخزائن الكتب في بلدان المشرق الإسلامي ، إيران ، خراسان ، وما وراء النهر) ، ذلك إذ كان المشرق الإسلامي ينبوعاً فياضاً أمدنا بالكثير والكثير من العلماء والأدباء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة ، كالرازي ، وابن سينا وأبي حامد الغزالي ، والبيروني ، والبخاري ، ومسلم وابن مسكويه ، وأبي حيان التوحيدي ... وغيرهم .

هذا مما جعلنا نتساءل من أي المصادر استقى هؤلاء علومهم ومعارفهم ؟ ومن أي المصادر تشكلت ثقافاتهم ؟ !

لاشك في أن دور وخزائن الكتب ببلدان المشرق والتي شهدتها بخارى، وسمرقند، ونيسابور ومرو، وأصفهان، والري ، وشيراز كانت مصدرهم في هذا ، إذ اطلعوا عليها ونهلوا منها ونتج عن ذلك الإطلاع الكثير والكثير من الكتب والمؤلفات التي أثرت الحياة الثقافية والعلمية في العالم الإسلامي ، بل وفي جميع أنحاء العالم .

وقد نتج عن ذلك بطبيعة الحال انتشار وازدياد حجم خزائن الكتب الخاصة ، فسعى الجميع إلى جمع وتحصيل الكتب واقتنائها وإيداعها خزائنهم الخاصة ، مما أحدث بدوره انتعاشاً ثقافياً أثر في المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية بشكل بارز .

ويبدو ذلك الأثر الإيجابي لدور وخزائن الكتب من خلال بعض الأنشطة والممارسات التي زخرت بها دور وخزائن الكتب، فقد كانت خزائن الكتب ملجأ ليس فقط للعلماء والأدباء والفقهاء بل كانت أيضاً منتدا ثقافياً شهد المناقشات والمناظرات ، والمحاورات والاستعارات ، بل شهدت الكثير من مظاهر الحضارة الثقافية كالنسخ والتجليد والوراقة والتذهيب .

ولما كان لدور وخزائن كتب بعض بلدان المشرق الإسلامي (إيران ، خراسان ، ما وراء النهر) ذلك الأثر البارز ، فقد كان ذلك مما دفع بنا لدراسة هذا الموضوع .

وهذا الموضوع يشغل فترة زمنية تربو على ستة قرون ، وهذا مما أتاح لنا فرصة تتبع نشأة المكتبات ، وتتبع دور كل من أهل الحكم والرياسة ، ودور العلماء والأدباء وغيرهم من

العامة والخاصة في إثراء هذه المؤسسات الثقافية ، وتمكينها من الاضطلاع بدورها في إثراء الجوانب الثقافية للحضارة الإسلامية .

وقد آثرنا أن نبدأ هذه الدراسة بعصر المأمون ، وذلك لأن عصر المأمون شهد في المقام الأول نهضة ثقافية وتعليمية رائعة ورائدة ، فكان بزوغ بيت الحكمة البغدادي كأكبر مؤسسة ثقافية ، ثم كان على الجانب الآخر تغلغل وازدياد نفوذ العناصر الفارسية في شتى مناحي الحياة الإدارية والثقافية ، إذ ساهمت هذه العناصر مساهمات جديرة بالاعتبار في إرساء قواعد بيت الحكمة ، وذلك مما قامت به من دور فعال متميز في إثراء حركة الترجمة والنقل من اللغات الأخرى .

ويبدو أثر عصر المأمون واضحاً على المعاصرين له من أبناء الدولة الطاهرية ، كعبد الله أبن طاهر وغيره ممن عشقوا الكتب والمؤلفات ، وسعوا إلى تحصيلها وإيداعها خزائنهم .

وتنتهي الفترة الزمنية التي تناولتها الدراسة بالقرن السابع الهجري ، وهو القرن الذي شهد الغزو المغولي ، الذي نال من هذه المؤسسات الثقافية البارزة ، كما نال من غيرها ، لولا عناية الله تعالى التي أنقذت الكثير من الكتب والمؤلفات التي وصلت إلينا .

على أية حال فإنه ولما كان الموضوع ــ من وجهة نظرنا ــ يستأهل البحث والدراسة ، فقد قمنا بتقسيم هذه الدراسة إلى خمسة فصول مسبوقة بمقدمة وفصل تمهيدي ومذيلة بخاتمة ، عرضنا فيها لأهم نتائج البحث .

وقد جاء الفصل التمهيدي بعنوان " عرض تاريخي للكتب وخزائن الكتب منذ صدر الإسلام وحتى عصر المأمون " وتناولنا من خلاله نشأة فكرة الاحتفاظ بالكتب والمدونات خلال العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، وخزائن الكتب في عهد بني أمية ، كما عرضنا لخزائن الكتب في العصر العباسي ، خاصة عصر المأمون الذي شهد الازدهار الحقيقي لبيت الحكمة ، وتناولنا العوامل التي أثرت على انتشار خزائن الكتب وذيوعها .

وتناولنا في الفصل الأول (خزائن كتب الحكام والوزراء في المشرق الإسلامي) (إيران ، خراسان ، وما وراء النهر) وظاهرة شغف أهل الحكم والرياسة من الحكام والوزراء بالعلم

وأهله ، وبالكتب والمؤلفات ، كما عرضنا لأشهر خزائن كتب الحكام ، كخزانة كتب الطاهريين وخزانة كتب السامانيين ، وخزانة كتب عضد الدولة البويهي ، وخزانة كتب الغزنويين . وتناولنا أيضاً بالعرض والدراسة أشهر خزائن كتب الوزراء ، كخزانة كتب أبي الفضل بن العميد ، وخزانة كتب الصاحب بن عباد ، وخزانة كتب ابن سينا ، وخزانة كتب نظام الملك ، وحاولنا ــ من خلال هذا الفصل ــ وضع تصور لطبيعة هذه الخزائن ومحتوياتها ، والعاملين فيها ، وأبرز وأهم الأنشطة التي تم ممارستها من خلالها .

وجاء الفصل الثاني بعنوان " **دور وخزائن الكتب العامة بالمشرق الإسلامي** " ، وعرضنا في هذا الفصل إلى دور وخزائن الكتب العامة التي شهدتها بلدان المشرق كالري ورامهرمز وساوه وجنزه وفيروز آباد وغيرها، كما عرضنا لخزائن الكتب العامة والملحقة، وهي تلك التي ألحقت بالمدارس والمساجد ، فعرضنا بداية لخزائن كتب المساجد في كل من نيسابور وأصبهان وبخارى وخوارزم ، كما عرضنا لخزائن كتب المدارس والتي كان منها خزانة كتب مدرسة ابن حبان البستي وخزائن كتب مدارس مرو، وخزائن كتب المدارس النظامية ، وتناولنا بعض النماذج الأخرى لخزائن الكتب الملحقة والتي ألحقت بالخانقاوات والرباطات والمراصد ، وختمنا الفصل بعرض لظاهرة وقف الكتب والمكتبات ، وكيف أثرت هذه الظاهرة في ازدهار عالم الكتب والمكتبات ، وظهر لنا من خلال هذا الفصل إبراز الدور الفعال الذي لعبته دور وخزائن الكتب العامة بكافة أنواعها في إثراء الحضارة الإسلامية .

وتناولنا في الفصل الثالث (**خزائن الكتب الخاصة في بلدان المشرق الإسلامي**) فعرضنا لنماذج من خزائن كتب بعض العلماء والأدباء ، وأبرزنا من خلالها محتويات هذه الخزائن وطبيعتها ، كما عرضنا لظاهرة المكتبات المتنقلة ، وجمّاعي الكتب ، والعوامل والضوابط التي تحكم عملية جمع الكتب والمؤلفات ، ثم عرضنا لكيفية جمع بعض مؤرخي المشرق للكتب والمؤلفات .

وجاء الفصل الرابع بعنوان "عرض لبعض مظاهر التنظيم الفني لخزائن الكتب التعامل مع حوادث الكتب والمكتبات " ، وتناولنا من خلال هذا الفصل شقين : الشق الأول تناولنا فيه آداب الكتب والمكتبات ، وآداب إعارة الكتب والعاملين بخزائن الكتب ، ونظم الفهرسة والتصنيف ،

وأبرز الأنشطة والممارسات لخزائن كتب بلدان المشرق ، كما عرضنا في الشق الثاني : إلى أبرز حوادث الكتب والمكتبات ، كالحوادث الناجمة من الصراعات السياسية والمذهبية وحوادث سرقة الكتب والمكتبات ، والحوادث الناجمة عن تدهور الأحوال الاقتصادية والثقافية ، وحوادث حرق الكتب .

وتناولنا في الفصل الخامس والأخير: (السمات العامة لخزائن الكتب ، وعوامل إثراء المكتبات) وابرز وأهم السمات التي اتسمت بها دور وخزائن كتب بلدان المشرق ، والتي كان منها الحرص على اقتناء أصول الكتب ، والكتب التي تتسم بالصحة والضبط وحسن الخط ، وحسن التجليد والتذهيب ، ثم التنوع والكثرة وغلبة الميول والاتجاهات عليها . كما تناولنا عوامل إثراء دور وخزائن الكتب .

وختمنا هذه الدراسة بخاتمة احتوت على أهم نتائج البحث، وأتبعناها بمجموعة من الملاحق التي استعنا بها لإتمام البحث بصورته هذه .

والواقع أن الصعاب التي واجهتنا في بحثنا هذا كثيرة ومتعددة ، ومنها أن المادة العلمية الخاصة بالبحث جاءت مبعثرة ومتناثرة في ثنايا المصادر ، كما أنها لم تأت بصورة مباشرة ، إلا في القليل النادر ، أضف إلى هذا اتساع مساحة المكان موضوع الدراسة ، وطول الفترة الزمنية أيضاً لموضوع الدراسة ، والذي تطلب الإطلاع على الكثير والكثير من المصادر التي تعددت وتنوعت ما بين مصادر جغرافية،ومصادر أدبية، هذا إلى جانب كتب التراجم والطبقات والمصادر الفارسية المترجمة والغير مترجمة ، خاصة أن المنطقة موضوع البحث شهدت الكثير من الدويلات المستقلة ، كالسامانية ، والبويهية ، والغزنوية ، والسلجوقية .

أضف إلى هذا بعض التعقيدات الإدارية التي وضعتها بعض المكتبات ، والتي كانت تعوق الإطلاع على بعض المؤلفات، أو توصد الباب أمام دخول المكتبة، أو تحدد عدد مرات الزيارة.

والواقع فإن ما خفف عنا هذه الصعاب ، هو وقوف الكثيرين من الأساتذة الأفاضل بجانبنا، وفي مقدمتهم أستاذتنا الفاضلة الأستاذة الدكتورة / سيدة إسماعيل كاشف ــ أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي والوسيط بكلية البنات ــ بجامعة عين شمس ، المشرف على الرسالة ، والتي أولتنا

برعايتها وعنايتها وعطفها ، ولم تبخل بوقتها الثمين ، ومجهودها المعين ، ونصحها القويم ، وإرشادها الأمين ، حيث قرأت الرسالة وراجعتها ، وأشارت بالكثير من التعديلات التي أثرت البحث ، فلها منا جزيل الشكر والتقدير ، وجزاها الله عنا خير الجزاء . كما نتقدم بخالص الشكر والتقدير والعرفان للأستاذين الجليلين ، الأستاذ الدكتور/ بدر عبد الرحمن محمد ــ أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية الآداب ــ جامعة بنها والأستاذة الدكتورة / آمال محمد حسن ــ أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي ، ورئيس قسم التاريخ بكلية البنات ــ جامعة عين شمس ، على تفضلهما بقبول مناقشة الرسالة فجزاهما الله عنا خير الجزاء .

كما نتوجه بالشكر والتقدير إلى كل من الدكتور/ أحمد نادي ــ مدرس اللغة الفارسية بمعهد الدراسات والبحوث الآسيوية بجامعة الزقازيق ، على تفضله بترجمة بعض النصوص الفارسية إلى اللغة العربية . والدكتور/ محمد عبد العظيم ــ أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي بجامعة الزقازيق ، حيث أمدنا بالكثير من المصادر التي أفدنا منها فائدة جمة، والدكتور/ رشوان محمود جاب الله ــ مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة الزقازيق، حيث أمدنا سيادته ببعض المراجع التي أثرت البحث . وأخص بالشكر زوجي الدكتور / محمد علي محمد عثمان ــ مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة الزقازيق ، على كل ما أبداه من تعاون ومساعدة فجزاه الله عني خير الجزاء.

وكذلك فإننا نتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى القائمين على مكتبات جامعة عين شمس ، ومنها المكتبة المركزية ، ومكتبة كلية البنات ، ومكتبة كلية الآداب ، والقائمين على المكتبة المركزية بجامعة القاهرة، والقائمين على المكتبة المركزية بجامعة الزقازيق، ودار الكتب العامة بالزقازيق ، ودار الكتب والوثائق المصرية ، فلهم مني جميعاً خالص الشكر والعرفان .

وأخيراً فإنني أتقدم بخالص الشكر والتقدير لوالدي ووالدة زوجي، فلهم مني كل الشكر والتقدير.

دراسة نقدية لأهم المصادر

لقـــد قمنا في سبيل إتمام هذه الدراسة ، بالاستعانة بمجموعة من المصادر ، التي تعددت وتنوعت من حيث اللغة والمضمون ـ خاصة واتساع مساحة المكان موضوع الدراسة ، وطول الفترة الزمنية التي تناولتها الدراسةـ فكان أكثرها باللغة العربية،وبعضها بالفارسية، أو الفارسية المترجمة للعربية ، وكان منها المصادر الجغرافية والأدبية ، وكتب التراجم والطبقات وغيرها.

المصادر الجغرافية :

وتأتي في مقدمة هذه المصادر، المصادر الجغرافية والتي كان من أهمها ـ أحسن التقاسيم للمقدسي ، وتكمن أهمية هذا المصدر في أن المقدسي مؤلف الكتاب كان من أبناء القرن الرابع الهجري الذي شهد ازدهاراً فائقاً للحضارة الإسلامية ، كما أنه كان ممن عمل بالوراقة والتجليد ـ وهو ما ذكره بنفسه في ثنايا الكتاب ، إذ كان من أسمائه الوراق والمجلد ، هذا مما جعله من أكثر المؤرخين حرصاً على ذكر بعض الأخبار التي تتعلق بالكتب والمكتبات خاصة وارتياده لبعض خزائن كتب الحكام المعاصرين له ، وهو ما أقره المقدسي نفسه ، وترجع أهمية هذا المصدر أيضاً إلى أنه المصدر الوحيد ـ فيما اطلعنا عليه من مصادر ـ الذي أرخ لخزانة من أعظم خزائن الكتب التي شهدتها الحضارة الإسلامية ألا وهي خزانة كتب عضد الدولة البويهي بشيراز .

ومن المصادر الجغرافية التي أفدنا منها فائدة جمة (معجم البلدان لياقوت الحموي) وتكمن أهمية هذا المصدر في أن ياقوت الحموي كان ممن عمل في تجارة وبيع الكتب ، فكان من أحرص الناس على ذكر ما يتعلق بها في ثنايا كتاباته ، كما أنه كان ممن سافر ورحل إلى بلدان المشرق ، وأقام بها عدة سنوات ، فأقام في مرو حوالي ثلاث سنوات ، تردد خلالها على دور كتبها واستعار منها الكثير ، فكان في كثير مما كتبه عن خزائن كتبها شاهد عيان . كما أنه كان من المهتمين بالترجمة والتأريخ لأبرز وأهم علماء وأدباء أية بلدة يتناولها بالحديث، مما ساهم في رسم صورة واضحة المعالم لجوانب الحياة العلمية والثقافية ببلدان المشرق الإسلامي.

ومنها أيضا (آثار البلاد وأخبار العباد) للقزويني، وتأتي أهمية هذا المصدر من كونه الوحيد ـ فيما اطلعنا عليه ـ الذي يؤرخ لدار كتب الخجندي ، أضف إلى هذا ما قام به القزويني من وضع تراجم لبعض أدباء وعلماء وفقهاء بلدان المشرق ، إيران ، خراسان ، وما وراء النهر .

هذا إلى جانب بعض المصادر الأخرى، كالمسالك والممالك للأصطخري ، والمسالك والممالك لأبن خردذابة ، والأعلاق النفيسة لابن رستة ، وسفرنامة لناصر خسرو ، وقد ساهمت هذه المصادر في وضع تصور لجغرافية المكان، وأوضحت لنا بعض جوانب الحياة العلمية والثقافية لبلدان المشرق الإسلامي .

المصادر الأدبيـــــة :

أما فيما يتعلق بالمصادر الأدبية فيأتي في مقدمتها مؤلفات الثعالبي النيسابوري ، وهي يتيمة الدهر ، ولطائف المعارف ، والإعجاز والإيجاز ، ولطائف اللطائف ، وثمار القلوب ، وخاص الخاص ، وتكمن أهمية مؤلفات الثعالبي في كونه أحد أبناء وعلماء نيسابور ، والتي كانت تعد قلعة من قلاع العلم والثقافة في بلدان المشرق الإسلامي ، وهو ما يمكن استنتاجه من خلال مطالعة مؤلفات الثعالبي ، أضف إلى هذا تفرد الثعالبي بالترجمة لواحد من أشهر خازني الكتب في بلدان المشرق الإسلامي ، ألا وهو أبو عبد الله محمد خازن كتب الصاحب بن عباد ، ولعل كتاب "يتيمة الدهر" يعد من أكثر كتبه ثراءاً ، إذ عكس لنا ذلك المصدر جانباً من جوانب الحياة الثقافية والعلمية بنيسابور ، وما كان يحدث بينه وبين معاصريه من استعارة للكتب وتبادل لأبرز وأهم المؤلفات. كما أفدنا من كتاب (الصاحبي) لأبي الحسين أحمد بن فارس خاصة وأن ذلك الكتاب كان إحدى الكتب التي أهديت للصاحب بن عباد .

ومن المصادر الأدبية التي أفدنا منها فائدة جمة (معجم الأدباء) لياقوت الحموي ، وهو أحد كتب التراجم ، حيث ترجم فيه لمجموعة من الأدباء والعلماء ، منهم من شاهده بنفسه ، ومنهم من قرأ عنه ، وتأتي أهمية هذا المصدر من كونه المصدر الوحيد ــ فيما أطلعنا عليه من المصادر الذي عرض لبعض الرسائل التي أتهم فيها أحد العلماء،أحد المعاصرين له بسرقة كتبه ويعرض لرد هذا العالم ــ وهو ما سنعرض له تفصيلاً ــ كما أنه الوحيد الذي تفرد بالإشارة إلى أحد خازني خزانة كتب عضد الدولة ، كما سنوضح . أضف إلى هذا ما ساهم به هذا المصدر من وضع تصور لبعض محتويات بعض الخزائن ، كخزانة كتب ابن عباد ، وعضد الدولة ، وابن العميد وغيرهما ، وذلك من خلال قراءة التراجم الخاصة بهم ، وتراجم المعاصرين لهم من العلماء والأدباء .

وأفدنا أيضاً من مؤلفات ابن القفطي ، " إخبار العلماء بأخبار الحكماء" و " إنباه الرواه " ، حيث ساهمت هذه المصادر في الترجمة لبعض العلماء والأدباء ممن عرضنا لهم أثناء الدراسة وتأتي أهمية كتاب " انباه الرواة " في كونه الوحيد الذي عرض لرسالة ياقوت الحموي لابن القفطي واصفاً له جانباً من الحياة العلمية والثقافية بمرو وما أصابها على يد التتار .

كتب التراجم والطبقات :

وقد لعبت كتب التراجم والطبقات دوراً فعالاً في إثراء البحث ، بما قدمته لنا من معلومات وافية عن علماء وأدباء وفقهاء بلدان المشرق الإسلامي ، ساهمت بدورها في وضع تصور لبعض الجوانب الثقافية المتعلقة بدور وخزائن الكتب ، ومن أبرزها كتاب طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والعبر وتذكرة الحفاظ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي. وقد أفدنا من كتابي الوافي بالوفيات للصفدي ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، خاصة فيما يتعلق بخزانة كتب مرصد مراغة والقائمين عليها ، وكان الصفدي الوحيد ــ فيما اطلعنا عليه من مصادر ــ الذي تفرد بالإشارة إلى أحد خازني خزائن كتب الصاحب بن عباد .

ومن المصادر التي أثرت البحث كتاب الأنساب للسمعاني ، وتكمن أهمية هذا المصدر في كون السمعاني أحد أبناء مرو وهو أحد أفراد عائلة عرف عنها الاهتمام بالعلم والعلماء، والسعي والرحلة لطلب العلم ، وإنشاء المدارس في مرو ، فهو حين يترجم لعلماء وأدباء بلدان المشرق الإسلامي ، يعكس لنا صورة واضحة المعالم عن الحياة العلمية والثقافية بهذه المناطق وهو في كثير من الأحداث والوقائع التي يعرض لها، شاهد عيان خاصة في تراجم المعاصرين له من أهل العلم والمعرفة .

كذلك استعنا ببعض المصادر التاريخية أثرت البحث ثراءً ملموساً ، منها رسالة الإرشاد للقوبائي الأصبهاني ، والتي اختصت بذكر أحوال الصاحب بن عباد ، وكتاب محاسن أصفهان للمافروخي ، وكتاب أخبار أصبهان لأبي نعيم الأصفهاني .

وتأتي أهمية هذه المصادر من حيث أنها اختصت بالتاريخ لأصفهان ، أضف إلى هذا ما تفرد به كتاب محاسن أصفهان من التاريخ لإحدى دور الكتب الهامة ، ألا وهي دار كتب أبي

العباس الضبي . كما يعد كتاب تجارب الأمم ذا أهمية خاصة في التأريخ لخزانة كتب أبي الفضل بن العميد الوزير البويهي ، حيث كان ابن مسكويه مؤلف الكتاب نديماً لأبي الفضل بن العميد وخازناً لخزانة كتبه .

ويعد كتاب زبدة التواريخ للحسيني من المصادر الهامة ، إذ تفرد هذا الكتاب بالإشارة إلى خزانة كتب غزنة ، وتفرد كل من أبي الفداء في كتابه " المختصر في أخبار البشر " وابن الوردي في كتابه تتمة المختصر " بالتاريخ لخزائن كتب مسجد عقيل بنيسابور .

كما يعد كتاب "سيرة جلال الدين منكبرتي" للنسوي من المصادر الهامة حيث تفرد بالإشارة إلى دار كتب جامع الشافعية بخوارزم . وما تعرضت له محتوياتها من الكتب والمؤلفات .

المصادر الفارسية :

أما المصادر الفارسية سواء المترجمة ، أو غير المترجمة فقد أفادت البحث أيما فائدة ، ويأتي في مقدمتها كتاب تاريخ بيهق لابن فندق ، الذي ترجم لطائفة من علماء وأدباء بلدان المشرق ، وتفرد بالإشارة إلى خزانة كتب سرخس ، وخزانة كتب مسجد عقيل بنيسابور ، وكتاب تاريخ البيهقي لأبي الفضل البيهقي ، الذي يعد شاهد عيان لكثير من الأحداث التي أشار إليها ، والتي أفادت بحثنا فوائد جمة . وأفدنا أيضاً من كتابي زين الأخبار للكرديزي ، وتاريخ بخارا للنرشخي خاصة فيما يتعلق ببعض أخبار الطاهريين ، وآل سامان وبعض العلماء المعاصرين لهم . كما أفدنا من كتابي دستور الوزراء لخواندمير ، وكتاب الوزارة في عهد السلاجقة لعباس إقبال ، خاصة في التأريخ لكل من ابن سينا ونظام الملك ، وما قام به كلاهما في عالم المكتبات ، وأفدنا أيضاً من كتابي " راحة الصدور " للراوندي ، و " دولة آل سلجوق " للبنداري ، خاصة فيما يتعلق بخزانة كتب غزنة ، وبعض الحوادث المتعلقة بالكتب والمكتبات .

ومن المصادر الفارسية الهامة التي أثرت البحث كتاب جامع التواريخ (غازان) وتكمن أهمية هذا المصدر في أنه الوحيد الذي تفرد بالعرض لنص وقفية لإحدى دور الكتب التي شهدها القرن السابع الهجري .

المصادر المخطوطة :

أمـــا فيما يتعلق بالمصادر المخطوطة ، فلعل أهمها كان مخطوط كتاب العصا لأسامة بن منقذ الذي أشار فيه إلى خزانة الكتب الخاصة بنظام الملك . أضف إلى هذا الرسالة النيروزية لابن سينا ، والتي تمثل نموذجاً للكتب المهداة . ومخطوط عمدة الكتاب الذي تناول عملية تجليد الكتب والمواد المستخدمة فيها .

الفصل التمهيدي

أولا : دراسة جغرافية لتلك الأقاليم .

ثانياً : العرض التاريخي للكتب وخزائن الكتب

الفصل التمهيدي

أولاً : دراسة جغرافية لتلك الأقاليم .

ثانياً : (عرض تاريخي للكتب وخزائن الكتب منذ صدر الإسلام وحتى عصر المأمون)

أولا :

فكرة الاحتفاظ بالكتابات والمدونات في العصر الجاهلي وصدر الإسلام .

ثانيا:

خزائن الكتب في عهد بني أمية :

١ ــ خزانة كتب معاوية بن أبي سفيان .

٢ ــ خزانة كتب خالد بن يزيد بن معاوية .

٣ ــ خزانة كتب الوليد بن عبد الملك .

٤ ــ خزائن كتب بني أمية عهد عمر بن عبد العزيز .

٥ ــ خزائن كتب العامة في عصر بني أمية .

ثالثا:

العصر العباسي والازدهار الحقيقي للكتب وخزائن الكتب :

١ ــ أبو جعفر المنصور والاهتمام بالكتب .

٢ ــ هارون الرشيد وظهور بيت الحكمة .

٣ ــ المأمون والازدهار الحقيقي لبيت الحكمة .

٤ ــ نماذج لخزائن كتب بعض العلماء وعامة الناس .

رابعا:

العوامل التي أثرت على انتشار خزائن الكتب :

أولاً : دراسة جغرافية للمنطقة موضوع البحث

(إيران ، خراسان ، ما وراء النهر)

(١) إيــران :

يبدو لنا من خلال مطالعتنا لمصادر البحث أن إيران هو اسم جامع ، فيدرج تحته مجموعة من الأقاليم والبلدان ، وقد أشار إليها ابن رستة ومن بعده ياقوت الحموي باسم إيرانشهر ، وذكرا أنها تشتمل على بلدان مسماة منها على سبيل المثال: "بلاد العراق وفارس والجبال وخراسان" [١] ، وأشار ياقوت الحموي إلى أن الاسم يرجع إلى أحد أبناء سام بن نوح عليه السلام، وقد يزعم بعض الفرس أن الاسم " إيران " إنما يرجع إلى أحد أبناء أفريدون الملك ، على أن ما يعنينا حقاً هو الحد الجغرافي ، أو الإطار الجغرافي للمسمى " إيران " .

ويشير د. جمال فوزي[٢] إلى أن منطقة إيران القديمة ، كانت تمتد من وادي دجلة والفرات غرباً إلى وادي نهر السند وجبال الهندكوس وجبال سليمان التي تفصلها عن الهند شرقاً ومن خليج فارس " الخليج العربي " وبحر العرب والمحيط الهندي جنوباً ، إلى بحر الخزر وقزوين ، ونهر جيحون وآموداريا ، ويشير سيادته إلى أن هذه المنطقة تشمل في الوقت الحاضر دولتي إيران ، وأفغانستان ، وبعض أجزاء من دول أخرى مجاورة ، في الجنوب الشرقي باكستان ، وفي الشمال الشرقي بعض الجمهوريات الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفييتي المنحل".[٣]

كما يشير د. حسين مؤنس إلى أن إيران تشمل " الجبال ، وفارس ، وسجستان ، وكرمان وخراسان" وأنها تتبع الجمهورية الإسلامية الإيرانية منذ ١٩٧٩م .[٤]

ومما تجدر الإشارة إليه ، أنه استخدم للدلالة على هذه المنطقة أسمان مختلفان ، ولكنهما ليسا مترادفين تماماً منذ القدم، وهما إيران وفارس، ويرجح الدكتور جمال فوزي

---

(١) انظر: ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ط ١ ، إحياء التراث العربي ، ١٩٨٨، ص ١٠٢ وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، ببيروت ، ١٩٩٠م ، ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٢) د. جمال فوزي محمود : الأحوال الحضارية في إيران من سنة ٤٨٥ هـ إلى سنة ٦٢٨ هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٧م ، ص ٢ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٢.

(٤) د . حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ط ١ ، الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ٤٠ .

أن اسم إيران ينسب إلى الأقوام الآرية التي هاجرت من موطنها الأصلي جنوبي بحر آرال ، إلى الهضبة المرتفعة أسفل بحر قزوين عند نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأولى قبل الميلاد ، أما الاسم الثاني ــ أي فارس ــ فهو اسم لإقليم من إيران يقع شمال شرقي رأس الخليج الفارسي[١] (الخليج العربي حالياً) ، ويشير سيادته إلى أن اسم فارس أطلق على الدولة كلها من قبل إطلاق الجزء على الكل ، كما أن اسم إيران ورد صريحاً في بعض الآثار الأدبية ، وقد أورد ابن خرداذبة بعض أبيات الشعر التي تؤكد على هذا فقال :   ولإيران جعلنا عنوة   ∴   فارس الملك وفزنا بالنعم[٢]

وهو بهذا يجعل فارس جزء من إيران ، وهو ما سبق وأقره كل من ابن رسته وياقوت الحموي ، وأخذ برأيهما د. حسين مؤنس .

على أن أهم ما يعنينا حقاً هو مقدار ما ساهم به هذا الإقليم في إثراء الحياة العلمية والثقافية بما أخرجه من علماء وأدباء وفقهاء وغيرهم . فقد كان من أبناء هذا الإقليم عبد الحميد بن يحيى كاتب بني أمية ، الذي كان له باع طويل في عالم الكتابة ، ومنه أيضاً خرج ابن المقفع ، وسيبويه عالم النحو واللغة وغيرهم.[٣]

ومن أشهر مدن هذا الإقليم مدينة شيراز ، وهي مدينة إسلامية ليست بالقديمة ، وإنما بنيت في الإسلام على يد محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج بن يوسف الثقفي[٤] وترجع أهمية هذه المدينة إلى أنها شهدت بناء إحدى دور وخزائن الكتب ، التي شيدها عضد الدولة البويهي ، وأشاد بها المقدسي ، وهو ما سنعرض له في حينه .

(٢) خراســان :

أشار بعض الجغرافيين إلى أن خراسان جزء من إيران ، وذكر ياقوت في إطار الوصف الجغرافي لها أنها بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلي العراق ، وآخر حدودها مما يلي الهند وطخارستان وغزنة وسجستان وكرمان ، وهي تشتمل على أمهات من

---

(١) د/ جمال فوزي : الأحوال الحضارية في إيران ، ص ٢ ـ ٣ .
(٢) انظر: ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ص٢٩ .
(٣) انظر: الاصطخري : المسالك والممالك ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦١م ، ص ٨٨ .
(٤) المصدر نفسه ، وانظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٣١ ، وكي لي سترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٨٥ .

البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس(١) وغيرها من المدن التي تقع قبل نهر جيحون ، وقد كانت هذه البلدان جميعها معقلاً للعلم والثقافة ومعقلاً لدور وخزائن الكتب العامة والخاصة ، كما سيتضح لنا من البحث .

ويشير ياقوت الحموي إلى أن هناك من يجعل خوارزم وما وراء النهر من أقاليم خراسان ، ويدلل على هذا مما ذكره البلاذري في هذا الصدد ، ويعارض ياقوت هذه الرؤية ويرى أن ما دفعهم إلى هذا الأمر تبعية خوارزم في بعض الأوقات إلى والي خراسان(٢) .

والذي كان ــ على ما يبدو لنا ــ يقيم في ما وراء النهر في كثير من الأحيان ، وقد ذهب المقدسي(٣) إلى القول بهذا الأمر ، فرفض فكرة تقسيم خراسان إلى جانبين ، أحدهما جانب ما وراء النهر ، وقد علل ذلك الأمر بقوله : " ... إنا لم نحب أن نفرق هنا مملكة آل سامان ، إذ المشهور في الإسلام أنهم ملوك خراسان ، وإنما دار ملكهم في هيطل " والمعروف أن بلاد ما وراء النهر هي بلاد الهياطله . (٤)

ويبدو لنا أن وضع حدود فاصلة لإقليم خراسان ، أمر تشوبه بعض الصعوبات ، خاصة وتداخل بعض أقاليم المشرق بصفة عامة ، والتي تسبب فيها تعاقب الكثير من الدويلات المستقلة على هذه المناطق ، كالدولة السامانية والبويهية ، والغزنوية ، والسلجوقية ، ثم ما نجم عن ذلك من توسعات وفتوحات أدت إلى فقدان الدول السالفة لبعض ممتلكاتها ، واكتساب الدول الناشئة إياها .

ولعل هذا ما جعل البعض يرى أن التحديد الجغرافي لإقليم خراسان ، كان في معظم الأحوال يخضع لقوة السلطة السياسية ، وأنه لم تكن توجد ضوابط اعتبارية تتحكم في مساحته دون هذه السلطة .

---

(١) انظر: ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ١٠٢ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠١ ، ولمزيد من التفاصيل أنظر: ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٣١ ـ د. حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ص ١٢٩ ، حيث أشار سيادته إلى أن إقليم خراسان هو قلب ايران .
(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .
(٣) أحسن التقاسيم : ط ٣ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١م ، ص ٦٨ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .

ويشير الباحث التوم الطالب محمد يوسف إلى أن الإقليم الذي يسمى الآن خراسان ، يزيد على نصف خراسان القديمة ، أما النصف الآخر فهو تابع لأفغانستان[١] .

وما يعنينا في هذا الأمر هو تحديد المدن الواقعة في إطار هذا الإقليم ، والتي سبق واشرنا إليها استناداً لما ذكره ياقوت الحموي، وقد قمنا في هوامش المتن بعرض لكل مدينة على حدة.

(٣) ما وراء النهـــر :

يرى بعض الجغرافيين على أن المقصود بإقليم ما وراء النهر ، هو المناطق الواقعة وراء نهر جيحون[٢]، فقال ياقوت الحموي[٣] :" ما وراء النهر يراد به نهر جيحون ، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة ، وفي الإسلام سموه ما وراء النهر ، وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم" .

وهذا الإقليم من أخصب أقاليم الإسلام وأكثرها خيراً ، عرف أهله بالسماحة والخير والرغبة في العلم ، وقد ذكر المقدسي[٤] هذا فقال : " ... هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيراً وفقهاً وعمارة ورغبة في العلم واستقامة في الدين ... به السعد النفيسة وسمرقند الجليلة ... والمدارس والأئمة والمشايخ والأجلة ... والدرس بالليل والنهار ، والتعاهد والإجراء بالدوام ، مع الرغبة في الأدب وكتبة الحديث ، فهو دار جهاد وموضع سداد " . وحالياً يتبع ذلك الإقليم الاتحاد السوفييتي منذ عام ١٩١٧م ، وكان قبلها تابعاً لروسيا القيصرية[٥] .

ومن أشهر مدن هذا الإقليم (بخارى) التي كانت ولفترة طويلة قاعدة ملك آل سامان[٦]وقد بدأ فتح بخارى عام ٥٤ هـــ على يد عبيد الله بن زياد بن أبيه، وأعيد فتحها مرة أخـــرى عام ٨٧هـــ على يد قتيبة بن مسلم الباهلي ، حيث تم له فتحها فتحاً نهائياً عام ٩٠هـــ /٧١٥م.

---

(١) مظاهر الحضارة في ولاية خراسان في العصر العباسي الأول ١٣٢ ـ ٢٣٢هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ، ص ٤٢٣ .

(٢) انظر : الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٦١ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٥٤٠ .

(٣) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠١ .

(٤) أحسن التقاسيم : ص ٢٦١ .

(٥) د / حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤٠ .

(٦) انظر الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٧٠ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

وكان أول من جعلها مقراً للحكم والإمارة إسماعيل بن أحمد الذي كان يعرف بوالي خراسان [١]، وكان مقر الحكم قبل ذلك إما بسمرقند، أو بالشاس، وقد أفاض الإصطخري في وصف هذه المدينة ، وأهم ما يعنينا هو المكانة العلمية لها ، إذ أفرزت الحياة العلمية والأدبية لهذه المدينة عدداً هائلاً من العلماء والأدباء ، ورجال الدين ، أضف إلى هذا اشتمالها على خزانة كتب كانت من أعظم الخزائن التي شهدتها الحضارة الإسلامية ، وهو ما سنعرض له في حينه .

ومن أبرز مدن هذا الإقليم أيضاً مدينة سمرقند التي حازت شهرة فائقة في إنتاج الورق الكاغد والذي كان من أبرز وأهم عوامل إثراء الحياة العلمية والثقافية[٢].

ويبدو أن الاشتهار بإنتاج الكاغد لم يكن قصراً على سمرقند فقط، بل هو سمة إقليم ما وراء النهر بأكمله ، حتى أن الأصطخري يقول :"... وليس في شيء من بلدان الإسلام قاصراً ، والكاغد إلا في ما وراء النهر "[٣] .

وقد بدأ فتح سمرقند أثناء ولاية سعيد بن عثمان على خراسان في عهد معاوية بن أبي سفيان ، حيث نزل سعيد بن عثمان سمرقند محاصراً لها عام ٥٥ هـ/٦٧٩م ، وأقسم ألا يبرح حتى يدخل المدينة [٤] ثم كان فتحها فتحاً نهائياً عام ٩٣ هـ/ ٧١٨م ، على يد قتيبة بن مسلم الباهلي[٥] .

ومن الأقاليم التي نعرض لها في ثنايا البحث إقليم خوارزم ، وقد كان هذا الإقليم موضع خلاف بين بعض الجغرافيين ، حيث أعدها ياقوت ناحية قائمة بذاتها[٦] ، في حين ألحقها الاصطخري بإقليم ماوراء النهر ، وقد قال في هذا الأمر : " ... وأما خوارزم فإنا نذكرها فيما وراء النهر لأن مدينتها وراء النهر وهي إلى مدن ما وراء النهر على السمت أقرب منها إلى مدن خراسان ... وهي أقرب إلى بخارى منها إلى مدن خراسان " [٧] .

---

(١) انظر الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٧٦ .
(٢) سنعرض لقيمة الورق ودوره في إثراء الكتب والمكتبات ، من خلال الفصل الرابع للبحث .
(٣) الإصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٦٢ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ .
(٥) د /حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٣١ .
(٦) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ .
(٧) الاصطخري : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

وقال في موضع آخر :" ... وأما خوارزم فإنه اسم الإقليم ، وهو إقليم منقطع عن خراسان وعما وراء النهر... وقد كان في التقدير أن نصور نصف خوارزم في صورة خراسان ونصفها في صورة ما وراء النهر ، غير أن الغرض في هذا الكتاب معرفة صور الأقاليم ومدنها ، فاخترت أن تكون خوارزم مجموعة في الصورة وجعلتها في صورة ما وراء النهر ، فأبلغ بذلك غرضي من غير تكرار في الصورتين "[١].

وذكرها المقدسي[٢] فقال: "... فأما خوارزم فهي كورة على حافتي جيحون قصبتها العظمى بهيطل ، ولها قصبة أخرى بخراسان ... أهل علم وفقه وقرائح وأدب ، وأقل إمام في الفقه والأدب والقرآن لقنته ... إلا وله تلميذ خوارزمي تقدم وزكا عنه" .

وتتبع مدن هذا الإقليم في هذه الآونة الاتحاد السوفييتي منذ عام ١٩١٧م ، وكانت كلها تتبع روسيا القيصرية [٣].

وعلى أية حال فإن أهم ما يعنينا حقاً هو ، مقدار ما ساهم به هذا الإقليم من إثراء للحياة العلمية والثقافية لبلدان المشرق الإسلامي ، وما ساهمت به دور خزائن كتب هذا الإقليم في إثراء هذه الجوانب وهو ما سيتم توضيحه من خلال البحث .

وهناك عدة مدن أخرى ورد ذكرها في ثنايا البحث أثبتت مصادرنا أنها لعبت دوراً هاماً في إثراء الحياة العلمية والثقافية بما كانت تحويه من دور وخزائن الكتب عامة وخاصة ، ومن هذه المدن مدينتا الري وأصبهان .

أما الري ؛ فيشير الإصطخري[٤] إلى أنها مدينة قائمة بذاتها ، وأن هناك من يشير إليها على أنها من مدن إقليم الجبال ، وأخرى على أنها من عمل خراسان ، ويشير المقدسي[٥] إلى أن الري تتبع إقليم الجبال ، وإن كان البعض لا يعدها لذلك ، وعلى أية حال فإنها في كلتا الحالتين تتبع إيران ، استناداً لما سبق وأشرنا إليه من قبل ، كما أن د.

(١) الإصطخري : المسالك والممالك ، ص٣ ١٦٨ .
(٢) أحسن التقاسيم : ص ٢٨٤ .
(٣) د . حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ٤٠ .
(٤) المسالك والممالك ، ص ١١٩ .
(٥) أحسن التقاسيم : ص ٣٨٥ .

حسين مؤنس جعل الري ضمن أقاليم دولة إيران الساسانية ، هذا إلى جانب الجبال وطبرستان وفارس وكرمان وقوهستان وخراسان[١].

وقد كانت الري إحدى المدن التي عرفت بنشاطها الثقافي الرائد والملموس خاصة في عهد الصاحب بن عباد ، الذي أولى العلم والعلماء عناية فائقة ، وهي الآن تمثل أحدى المدن في شمال إيران الحالية ، وتعتبر أحد المزارات الدينية[٢] ، وقد شهدت هذه المدينة داراً للكتب كان لها اعتبارها في تاريخ دور وخزائن الكتب ببلدان المشرق الإسلامي .

أما أصفهان فقد تحدث عنها الإصطخري وأشار إلى أنها أحسن مدن إقليم الجبال[٣] وأشار المقدسي إلى أنها من فارس وتحدث عنها في إطار حديثه عن إقليم الجبال [٤]، وأشار إليها ابن رسته وأفاض في وصفها ، ووصف هواءها وتربتها ومساحتها ، خاصة وأنه كان أحد أبناء أصبهان[٥] .

وأشار المقدسي إلى أثارهم العلمية والأدبية فقال : " ... أهل سنة وجماعة وأدب وبلاغة ، وكم أخرجت من مقرئ وأديب وفقيه ولبيب " [٦] ، وكانت بداية فتح أصبهان عام ٢٣هـ ، وقيل عام ٢٤ هـ / ٦٤٧م في عهد عمر بن الخطاب[٧] ، وذكر أبو نعيم الأصبهاني أن فتح أصبهان كان في آخر سنة عشرين وقيل إحدى وعشرين من الهجرة ، أي ستمائة وثلاثة وأربعون ميلادية.[٨]

---

(١) د / حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، ص ١٣٠ .
(٢) انظر ص ١٠٠ من الفصل الثاني .
(٣) انظر الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ١١٥ .
(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٨
(٥) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٣٩ ـ ١٤٧ .
(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٨ .
(٧) البلاذري : فتوح البلدان . ص ٤٣٨ .
(٨) أبو نعيم الأصبهاني : ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٠م ، أخبار أصبهان ، ج ١ ، ص ٤٠ .

ثانياً: عرض تاريخي للكتب وخزائن الكتب منذ صدر الإسلام وحتى عصر المأمون:

أولا : فكرة الاحتفاظ بالكتابات والمدونات في العصر الجاهلي وصدر الإسلام :

لاشك في أن الدافع والهدف الرئيسي وراء ظهور خزائن الكتب والمكتبات بصفة عامة ، إنما هو حفظ الكتب والمؤلفات وصيانتها ، ثم تسهيل تداولها بين راغبيها ، فلولا الكتب ما كانت المكتبات ، ولولا الكتابة ما كانت الكتب ، وعليه فإنه ينبغي علينا أولاً أن نعرض لتاريخ نشأة الكتابة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام بشئ من الإيجاز.

بدأت الكتابة في عصر ما قبل الإسلام بداية متواضعة ، شأنها في ذلك شأن أية ظاهرة ، إذ كانت قاصرة على فئات معينة ، واستخدمت لأغراض خاصة جداً ، ككتابة العهود والصكاك والعقود والتحالفات ، ويعطينا الجاحظ تصوراً لأوجه استخدام الكتابة فيقول " .... لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك ، وكل أقطاع ، وكل اتفاق وكل أمان وكل عهد وعقد وكل جوار وحلف "[١].

وهكذا فقد استخدمت الكتابة في السجلات والعهود والعقود والصكاك والأحلاف ، كما استخدمت أيضاً في كتابة الديون وتسجيلها ، فقد ذكر ابن النديم[٢]، إنه كان في خزانة المأمون[٣] كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على ما يبدو وثيقة دين لصالح عبد المطلب بن هاشم ، كتبت في جلد أديم[٤].

وذكر ابن سعد[٥] أن أهل مكة كانوا يكتبون ، وقد ورد بالقرآن الكريم ما يؤكد على معرفة العرب قبل الإسلام بالكتابة ، إذ قال تعالى :" ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ "[٦] ، هذا مما يشير إلى معرفة العرب بالقلم واستخدامهم له قبل الإسلام ، وكذلك قوله تعالى:" وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا "[٧] .

وهكذا فقد عرفت الكتابة في عصر ما قبل الإسلام ، ومارسها بعض عرب الجاهلية في تسجيل العهود والمواثيق والأحلاف وكتابة الصكوك والاتفاقات ، على أنه لا ينبغي لنا أن نبالغ في مسألة معرفة العرب بالكتابة قبل الإسلام ، فالله سبحانه وتعالى هو القائل في كتابه الكريم :

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج ١ ، ط ٣ ، المجمع العلمي العربي الإسلامي، إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م ، ص ٦٩ .

(٢) الفهرست : دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م ، ص ٨ .

(٣) المأمون هو الخليفة العباسي عبد الله أبو العباس بن الرشيد ، ولد ١٧٠هـ ولي الخلافة في الفترة من ١٩٨هـ إلى ٢١٨ هـ ، وكان ممن يحبون العلم ويؤثرن أهله ، وللمزيد أنظر السيوطي: تاريخ الخلفاء ط ٢ ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ٢٠٠٤هـ ، ص ٢٤٥ : ٢٦٥ .

(٤) الأديم : هو الجلد ، أنظر المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط ٢٠٠٥م ، ص ١٠ ، وهو نوع من الجلد الأحمر المدبوغ بصبغة حمراء تعرف بالصرف .

(٥) الطبقات الكبرى : م ٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧ - ١٩٥٨م ، ص ٢٢ .

(٦) سورة القلم الآية ١ .

(٧) سورة الفرقان الآية ٥ .

" هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ "(١).وكما يبدو من الآية الكريمة بأن سمة الأمية كانت هي الغالبة على العرب قبل الإسلام، ولم تكن معرفتهم بالكتابة لتعني بأي حال من الأحوال شيوعها ، بالقدر الذي تحتاج معه هذه الكتابات إلى ظهور ما عرف بخزائن الكتب ، خاصة وأن عدد الممارسين للكتابة كان لا يزال ضئيلاً ، فقد كانت الرواية الشفهية ومازالت في تلك الفترة تلعب دورها لدى عرب الجاهلية في نقل الأحداث والأخبار بين القبائل والعشائر(٢).

على إننا نتساءل : كيف كان العرب في الجاهلية يحتفظون بهذه الكتابات على قلتها ؟ !!

حقيقة لم يرد فيما أطلعنا عليه من مصادر ما يشير من قريب أو بعيد إلى ظهور ما عرف بخزائن الكتب بمعناها المعروف في تلك الفترة المبكرة ، إلا أن فكرة الاحتفاظ بالكتابات الهامة، خاصة تلك التي تعبر عن عقود أو عهود أو أحلاف أو مواثيق كانت واردة ، وليس أدل على ذلك من احتفاظ قريش بصحيفة المقاطعة التي قاطعوا فيها بني هاشم وبني عبد المطلب ، حيث احتفظوا بها في جوف الكعبة(٣)، كما احتفظوا أيضاً بالكثير من هذه الكتابات في جوف الكعبة(٤) ولعل هذا يعكس لنا أن فكرة الاحتفاظ بالكتابات الهامة ، والتي هي أساس قيام خزائن الكتب — كانت راسخة في أذهانهم .

ومع ظهور الإسلام وانطلاق دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من جبل النور في مكة ، جاءت الدعوة صريحة وواضحة ، بالحث على طلب العلم والقراءة ، فكان قوله تعالى : "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " (٥). وقوله تعالى: " الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ "(٦).

حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذا لهذه الدعوة الإلهية ، فرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ، ولا يستطيع أن يفدي نفسه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين(٧)، وكان زيد بن ثابت كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد هؤلاء الذين علمهم

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢ .
(٢) لمزيد من المعلومات حول أثر الرواية الشفهية ودورها في نقل الأحاديث والروايات من جيل على جيل ، أنظر د . سيدة إسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٢ .
(٣) أنظر ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١ ،المكتبة العلمية ، بيروت ، لبنان د.ت ، ص ٣٥٠ .
(٤) لم يكن عرب ما قبل الإسلام هم أول من عمدوا إلى الاحتفاظ بالكتابات الهامة في جوف الكعبة ، بل إن السابقين عليهم كانوا يسلكون نفس المسلك ، فقد ذكر ابن هشام أن قريش وجدت في جوف الكعبة كتابا بالسريانية قراه لهم رجل من اليهود ـ أنظر ابن هشام : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٦ .
(٥) سورة العلق الآيات ١ : ٥ .
(٦) سورة الرحمن الآيات ١ : ٤ .
(٧) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

الأسرى ، وقد أمره الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأن يتعلم كتب اليهود والنصارى من السريانية لغة النصارى ، والعبرانية لغة اليهود ، فكان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتبهم.[١]

وكان حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على محو أمية المسلمين نابعاً من حاجتهم إلى تسجيل وكتابة كلام الله عز وجل والرسالة ، ثم حاجتهم إلى نشر الدعوة ومراسلة الأمم المجاورة ، ومخاطبتهم للدخول في الإسلام ، ومن هنا فقد كان الدافع لدى المسلمين لتعلم الكتابة نابعاً من عقيدتهم ، فكان أن بدأت الكتابة في الانتشار بشكل ملحوظ ، حتى أن أصبح عدد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حوالي أربعين كاتباً [٢].

على أية حال فقد ازداد عدد الكتاب وازدادت أغراض الكتابة وتنوعت ، فلم تعد قاصرة فقط على تسجيل كلام الله والوحي ، بل استخدمت الكتابة في المراسلات والمكاتبات ، وتسجيل الصدقات والمداينات ، وغير ذلك من المعاملات[٣].

وقد كان المسلمون في صدر الإسلام يحتفظون بهذه الكتابات في بيوتهم ، ودليلنا على ذلك ما يذكر بصدد جمع القرآن الكريم ، فقد جمع القرآن الكريم بعد ما كان متفرقاً في العسب واللخاف والرقاع والأقتاب وغيرها من مواد الكتابة التي احتفظ بها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في بيوتهم[٤].

وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه[٥] كانت حفصة[٦] ابنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتفظ لديها بالصحف التي نسخ عليها القرآن وجمع في عهد أبي بكر الصديق[٧] ، هذا مما يدلل على أن فكرة الاحتفاظ بالكتابات الهامة كانت قابعة في الأذهان — وإن لم تعبر عن نفسها في الشكل المعروف بخزائن الكتب .

---

(١) عبد الرحمن الصايغ : مخطوط صناعة الكتابة ، دار الكتب والوثائق القومية ، مخطوط رقم ١٤ ، علوم معاشية ، ميكروفيلم ١٢٥٢٩ ، الورقة ٢ ، ٣ .

(٢) الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفي البابي ، القاهرة ، ١٩٣٨م ، ص ١٣.

(٣) حول ازدياد عدد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعدد أوجه الكتابة التي مارسها هؤلاء الكتاب . انظر: الجهشياري : المصدر السابق ، ص ١٣ ، وانظر أيضا القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م ، ص ١٢٦.

(٤) جمع القرآن أول ما جمع في عهد أبي بكر الصديق خاصة بعد موت الكثير من القراء والحفظة في موقعة اليمامة ، وكان قبل ذلك متفرقاً في العسب واللخاف والرقاع والأقتاب عند صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وللمزيد من المعلومات أنظر السجستاني: كتاب المصاحف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ١٣ والسيوطي : الاتقان في علوم القرآن ، ج ١ ، ط ٣ ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ١٩٨٥م ص ١٦٤.

(٥) عثمان بن عفان : هو أحد الخلفاء الراشدين ، ولي الخلافة من ٢٣ هـ إلى ٣٥ هـ ، وللمزيد أنظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ص ١٢٠ ـ ١٣٣ .

(٦) توفيت حفصة عام خمس وأربعين من الهجرة ، أنظر ابن سعد ، الطبقات ، م ٨ ، ص ص ٨١ ـ ٨٦ .

(٧) أنظر السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

والواقع إننا لا نستبعد وجود خزائن للكتب في صدر الإسلام ، وعصر النبوة والخلفاء الراشدين خاصة ، وما يذكر عن اهتمامهم بكتابة العلم وتدوينه[١] ، فالفكرة كانت قائمة ، ويتم ممارستها .

وندلل على ذلك بتلك الرواية التي ذكرها الخطيب البغدادي[٢] من أن الحسن بن على بن أبي طالب دعا بنيه وبني أخيه وقال لهم :" يابني وبني أخي إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين فتعلموا العلم ، فمن لم يستطع منكم أن يرويه فليكتبه ويضعه في بيته "[٣] ، وهكذا يدعو الحسن بن علي أبناءه وأبناء أخيه إلى تعلم العلم ليس فقط بقراءته ، بل وبنسخه وكتابته والاحتفاظ به في بيوتهم وهذا مما يدلل على وجود خزائن للكتب ، أو على أقل تقدير أماكن لحفظ الكتابات أو صحف العلم التي يتأتى لهم جمعها ، هذا مع ملاحظة أن خزائن الكتب كمصطلح لم تكن قد ظهرت بعد .

على أية حال فقد شهد عصر ما قبل الإسلام وعصر صدر الإسلام قلة من عامة الناس ممن كان لهم اهتمام بالعلم ، والحرص على جمع القليل من الكتابات ، ومن هؤلاء الحارث بن كلدة [٤] المعروف بطبيب العرب، الذي سافر ورحل وتعلم الطب في بلاد فارس واليمن[٥] وكان له بعض الكتب ، والتي منها كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنوشروان ، ومنهم أيضاً أهرن القس الذي ذكره ابن النديم[٦] ، فأشار إلى أن له كتباً بالسريانية ، كما ذكر الخطيب البغدادي وابن عبد البر[٧] ما يشير إلى أن أبا هريرة كان في بيته كتباً كثيرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ورد بالمصادر أن عبد الله بن عمرو كان يسجل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما يسمع في صحيفة عرفت بالصادقة كان يحتفظ بها[٨].

هذا مما يدلل على أن ذلك العصر قد عرف خزائن الكتب كفكرة ومضمون ، وإن لم يدركها كمصطلح ، إذ تأخر ظهور مصطلح خزائن الكتب قليلاً .

---

(١) ورد الكثير من الروايات حول حرص صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين على تدوين العلم وكتابته ، خاصة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا بعد ما لاقى هذا الأمر الكثير من التحرج ، وللمزيد حول هذا الموضوع أنظر الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ط٢ ، دار إحياء السنة النبوية ، ١٩٧٤م ، ص ٥٢ ، ص ٩٠.

(٢) المصدر نفسه : ص ٩١ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٩١ .

(٤) الحارث بن كلدة كان من أطباء العرب المعروفين ، وكان من الطائف تعلم الطب ببلاد فارس ومارسه ، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل أنه عاش حتى أيام معاوية بن أبي سفيان . أنظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨م ص ١٤٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٥.

(٦) الفهرست : ص ٤١٣ .

(٧) الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ص ٨٤ . ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، ج ١ ، إدارة الطباعة المنيرية ، مصر د.ت ، ص ٧٤ .

(٨) الخطيب البغدادي : المصدر السابق ص ٨٤ .

ثانيا : خزائن الكتب في عهد بني أمية :

١ ـ معاوية بن أبي سفيان :

كان لمعاوية بن أبي سفيان(١) اهتمام كبير بأمور العلم والمعرفة ، ولا عجب في ذلك فقد كان ملماً بالكتابة مجيداً لها حتى أنه كان أحد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) ، وكان له اهتمام بسير الملوك وأخبار الأمم السابقة ، يسعى إلى معرفتها وتدوينها والاحتفاظ بها ، ويشير المسعودي(٣) إلى ما يؤكد ذلك ، في إطار تعرضه لمعاوية وكيف كان يقضي يومه ، فيقول مشيراً إليه : " ... ويستمر على ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه وغيرها من المآكل اللطيفة ، ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وُكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار ، وأنواع السياسات " .

وكما يبدو فإن هذا النص المأخوذ عن المسعودي غاية في الأهمية ، إذ هو يكشف لنا أموراً منها :

أولاً : أن معاوية بن أبي سفيان كان له اهتمام وعناية بأمر معرفة أخبار الأمم الماضية من العرب والعجم وسير حكامها ، وذلك من خلال مطالعته للكتب التي تحوي تلك السير .

ثانياً : أن معاوية كان لديه خزانة كتب تحوي كتباً ودفاتر تضم أخبار وسير الملوك والأمم الماضية.

ثالثاً : أن هذه الخزانة كان يقوم على العمل فيها بعض الغلمان ، ممن يمكننا أن نطلق عليهم مصطلح (خازني الكتب) ، وأن هؤلاء الغلمان لم يكن يقتصر دورهم على حفظ هذه الكتب ، وتلك الدفاتر والعناية بها ، بل إن دورهم تعدى ذلك إلى القيام بالقراءة للخليفة الأموي معاوية ، وعلى ما يبدو لنا فقد تكون هذه أول خزانة تطالعنا المصادر بما يفيد بأن هناك بعض القائمين عليها من خازني الكتب ، وممن وكل لهم أمر الحفاظ عليها .

رابعاً : فإننا نرجح أن هذه الخزانة كانت كبيرة الحجم ، تضم إلى حد ما الكثير من الكتب ، وإلا ما كان الخليفة ليوكل أمرها إلى من يقوم بحفظها والقيام عليها .

خامساً: أن هذه الخزانة كانت تحوي أكثر ما تحوي كتباً تحمل الطابع التاريخي ، إذ كانت سير وأخبار الأمم والملوك الماضية هي جل عنايته .

---

(١) معاوية بن أبي سفيان : هو من أبرز خلفاء بني أمية ، ولي الخلافة من ٤١ : ٦٠ هجرية ، وكان من الموصوفين بالدهاء والحلم ، للمزيد أنظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥ .

(٢) أنظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ، ص ١٣ والقلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٢٦ ، والسيوطي: المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٣ ، المكتبة العصيرية ، صيدا ، بيروت ، ط ١٩٨٨م ص ص ٤٠ ـ ٤١ .

وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن النديم(١) في إطار ترجمته لعبيد بن شرية الجرهمي إذ يقول : " ... عبيد بن شريه الجرهمي ، في زمان معاوية وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يسمع منه شيئاً ، ووفد على معاوية بن أبي سفيان فسأله عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد ، وكان استحضره من صنعاء اليمن ، فأجابه إلى ما أمر ، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية ، وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبد الملك بن مروان " .

على أية حال فإن خزانة كتب معاوية بن أبي سفيان التي أشرنا إليها ، بحاجة منا إلى وقفة إذ تناول ذكرها بعض ممن كان لهم اهتمام وعناية بأمر دور وخزائن الكتب من هؤلاء الأستاذ: يوسف العش الذي أطلق على هذه الخزانة مصطلح بيت الحكمة(٢) ، مستنداً في ذلك إلى أن أحد المتناظرين وهو عثمان بن سعيد الدارمي (ت ٢٠٠هــ ٨١٥م) ذكر ما يفيد أنه كان لمعاوية ابن أبي سفيان بيت يسمى بيت الحكمة ، وكان كلما وجد حديثاً ألقاه فيه(٣).

والواقع إننا لا نختلف مع الأستاذ يوسف العش فيما يرنو إليه من وجود هذه الخزانة لدى معاوية بن أبي سفيان ، وبأنها كانت كما يشير مؤسسة واضحة المعالم ، إلا أننا لا نتفق معه في إطلاق مصطلح بيت الحكمة ، ونرى أن استخدام عثمان بن سعيد الدارمي لمصطلح بيت الحكمة هو أمر طبيعي ، إذ هو يتحدث بلغة عصره ، حيث عاش الدارمي في الفترة من ٢٠٠ : ٢٨٠ هجرية ، وهذه الفترة التي عاشها الدارمي شهدت في بدايتها خزانة بيت الحكمة للمأمون وغيرها من خزائن الكتب التي اشتهرت وعرفت في تلك الفترة ببيوت الحكمة(٤) ، فكان من الطبيعي أن يستخدم هذا المصطلح على خزانة معاوية بن أبي سفيان ، ونرى أن مصطلح بيت الحكمة والذي أطلق على خزائن الكتب الكبرى ، كتلك الخاصة بالرشيد والمأمون ، لم يكن قد عرف وتبلور بعد عهد معاوية بن أبي سفيان ، ولا يعني هذا إنكاراً منا لحقيقة وجود خزانة معاوية .

على أية حال فقد كانت خزانة كتب معاوية بن أبي سفيان ، خزانة واضحة المعالم ، فكانت بمثابة الوعاء الذي يصب فيه النسابة والإخباريون كتاباتهم بأوامر من معاوية بن أبي سفيان .

---

(١) الفهرست : ص ١٣٢ .

(٢) يوسف العش : دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط ، ط ١ دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، ودار الفكر ، دمشق ، سورية ، ١٩٩١م ، ص ٤٤ .

(٣) المرجع نفسه ص ٤٣ .

(٤) تأثر بعض العلماء ومحبي العلم بخزانة بيت الحكمة للمأمون ، فأنشأوا خزائن كتب خاصة بهم ، عرفت أيضاً ببيوت الحكمة ، كخزانة كتب الفتح بن خاقان ، وخزانة كتب أبناء موسى بن شاكر الذين عملوا في بيت الحكمة للمأمون صغاراً ، ونشأوا فيها وتأثروا بها ، وللمزيد حول هذه الخزائن انظر د.يحيى وهيب الجبوري : الكتاب في الحضارة الإسلامية ، ط ١ دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٨م ص ١٨٢ ، ٢١٦ .

٢ـ خالد بن يزيد بن معاوية :

وتطالعنا في العصر الأموي شخصية أخرى كان لها مزيد اهتمام وعناية بالكتب والمؤلفات ألا وهي شخصية خالد بن يزيد من معاوية بن أبي سفيان ، وكان كما يذكر ياقوت الحموى(١) : " من رجالات قريش المتميزين بالفصاحة والسماحة ، وقوة العارضة ، علامة خبيراً بالطب والكيمياء ، شاعراً ... كان موصوفاً بالعلم ، قيل عنه : قد عَلِمَ علمُ العرب والعجم ... وروى خالد الحديث عن أبيه ... وكان إذا لم يجد أحداً يحدثه حدث جواريه " .

وعليه فلم يكن عجيباً أن يسمي بحكيم آل مروان(٢) وكان خالد دائماً ما يقول مشيراً لنفسه: "كنت معنياً بالكتب فما أنا من العلماء ، ولا من الجهال "(٣)هذا مما يؤكد على امتلاكه لخزانة كتب يحتفظ فيها بما يجمع من الكتب .

وواقع الأمر أن خالد هذا يعد ظاهرة ثقافية جديرة بالبحث والدراسة ، وقد تناول دوره الثقافي غير واحد من مؤرخينا القدامى والمحدثين ، خاصة وما كان من أمر اهتمامه بعلوم الصنعة وهي الكيمياء ، ثم ما كان له من دور في ترجمة بعض الكتب والمؤلفات إلى العربية ، وما كان له من دور ثالث في تأليف بعض المؤلفات ، فيقول ابن النديم بصدده :" كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلاً في نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة ، فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصح العربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة "(٤).

هكذا وصفه ابن النديم بالحكمة وأوضح ما كان من أمر اهتمامه بالعلوم خاصة علم الكيمياء واهتمامه بنقل وترجمة بعض الكتب اليونانية والقبطية إلى العربية ، وكان هذا من وجهة نظره أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة ، وهذه الرؤية أكد عليها أيضاً حاجي خليفة(٥)فذكر استناداً لما قال ابن النديم أن هذا كان أول نقل في الإسلام .

والواقع أننا لا نميل إلى ما ذهب إليه كل من ابن النديم وحاجي خليفة من أن هذا على إطلاقه كان أول نقل في الإسلام ، وإلا فبم نفسر أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى زيد

---

(١) معجم الأدباء : ج ١١ ، ط ٣ ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٠م ، ص ٣٥ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ .
(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج ١ ص ١٣٢ . وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج١١ ، ص ٣٧ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ . وانظر أيضاً حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، نشر جامعة استانبول د . ت ، ص ٦٨١ .
(٥) كشف الظنون ، ص ٦٨١ .

ابن ثابت بمعرفة وتعلم لغة اليهود والسريانية ، خاصة وأنه صلوات الله وسلامه عليه كانت تأتيه كتبهم بهذه اللغات[١]، ونرى أن ابن النديم ومن بعده حاجي خليفة ، ربما كانا يقصدان أنه أول نقل فيما يختص بالعلوم العقلية والحكمية كالطب والكيمياء والفلسفة .

على أية حال فقد أعد ابن النديم خالد بن يزيد من الفلاسفة أيضاً وذكر اسمه تحت عنوان "أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة" ، وفي محاولة منه لتفصيل ذلك قال تحت عنوان "خالد ابن يزيد بن معاوية إسلامي محدث" "...عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان خطيباً شاعراً ، فصيحاً حازماً ، ذا رأي ، وهو أول من ترجم له كتب الطب والعلوم وكتب الكيمياء ، وكان جواداً "[٢]. وقد ذكر ابن النديم أيضاً اسم أحد النقلة ممن كلفهم خالد بنقل وترجمة بعض الكتب ، ألا وهو اصطفن القديم ، وكان ممن نقل له كتب الصنعة وغيرها[٣] .

وقد يبدو غريباً أن يكون لشخص كخالد بن يزيد مثل هذه الاهتمامات في تلك الفترة المبكرة من عمر الدولة الإسلامية الناشئة ، والتي كان التركيز فيها على ترسيخ أمور العقيدة وزيادة رقعة الإسلام ، إلا أن ابن النديم يعطينا في إطار تناوله لشخصية خالد بن يزيد تحليلاً لذلك فيذكر أنه قيل له (أي لخالد) : لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة ، فقال خالد : ما أطلب بذلك إلا أن أغني أصحابي وأخواني ، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني ، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ هذه الصناعة ، فلا أحوج أحد عرفني يوماً أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان"[٤].

وهكذا فإن خالد بن يزيد إنما كان يطمح إلى خلافة المسلمين بعد يزيد بن معاوية المعروف بأبي خالد الأموي[٥]، إلا أنه لم يتمكن ، فكان أن وجه اهتماماته لعلوم الصنعة خاصة والاعتقادات التي سادت بشأن هذه الصناعة "[٦].

على أية حال فقد نجح خالد بن يزيد بن معاوية في ذلك الاتجاه العلمي الذي سار فيه ، حتى أن ابن النديم يذكر أن له بعض المؤلفات عاينها ابن النديم بنفسه فيقول:" ... ويقال والله

---

(١) حول أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود والسريانية أنظر ابن النديم : الفهرست ص ٤٩٧.
(٢) المصدر نفسه س ٤٩٧.
(٣) المصدر نفسه : ص ٣٤٠ .
(٤) ابن النديم : المصدر نفسه ، ص٣٤٠.
(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٦٤ .
(٦) حول الاعتقادات التي سادت حول صناعة الكيمياء وما يتعلق بفكرة تحويل بعض المعادن إلى الذهب أنظر: ابن خلدون : المقدمة دار بن خلدون ، الإسكندرية ، د .ت ، ص ٣٧٣ وما بعدها .

أعلم أنه صح له عمل الصنعة وله في ذلك عدة كتب ورسائل ، وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ، ورأيت من كتبه كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير[١] وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة " ، ويضيف ياقوت الحموي[٢] فيقول :" ومما نسبوا إليه من التصانيف في الكيمياء : السر البديع في فك الرمز المنيع وكتاب الفردوس ورسائل أخرى " .

وهكذا فقد كان لخالد بن يزيد مؤلفاته الخاصة والتي دارت كلها حول علم الكيمياء ، ونحن نرى أن معاينة ابن النديم بنفسه لبعض كتب ومؤلفات خالد بن يزيد إنما هو دليل على ما كان لخالد من باع في هذا المجال على حداثة عهدهم به . ولا شك في أن مؤلفات خالد هذه كانت نتاج ما اطلع عليه خالد من مؤلفات الفلاسفة والمؤلفات الطبية والكيميائية التي ترجمت له كما سبق وأشرنا ، ولا شك أن مصير هذه المؤلفات المترجمة ، وتلك التي ألفها خالد كان هو خزانة كتبه التي أشير إليها ضمناً في المصادر ، خاصة وقوله (كنت معنياً بالكتب)[٣].

على أنه لا ينبغي علينا أن نبالغ في ذكر اهتمام خالد بعلم الكيمياء والتأليف فيه ، فإننا وإن لم ننكر وجود مؤلفات له في هذا المجال ، إلا أننا لا نستبعد أن هذه المؤلفات كانت بسيطة متواضعة في مضمونها ، مقارنة بما أُلف بعدها في نفس المجال في القرون التالية ، وهي في هذا شأنها شأن أية بداية تكون متواضعة ، وتأخذ في التطور حتى تصل إلى الذروة وهو ما شهده القرنان الثالث والرابع الهجري (التاسع والعاشر الميلادي) .

ونخلص مما سبق إلى أمور منها :

أولاً : التأكيد على اهتمام خالد بن يزيد بجمع الكتب وهو ما أقره قدامى المؤرخين ، هذا مع الوضع في الاعتبار معنى ودلالة الكتب في تلك الفترة الزمنية .

ثانياً : التأكيد على اهتمام خالد بترجمة وتعريب بعض الكتب الطبية والكيميائية وهو أمر أقره غير واحد من المؤرخين .

ثالثاً : إبراز ما كان لخالد بن يزيد من دور في تأليف بعض المؤلفات ، والتي وإن كانت متواضعة كما نتوقع لها ، إلا أنها كانت بالنسبة له ولظروف العصر بداية جديرة بالاعتبار .

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨ .
(٢) معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ٤٢ .
(٣) أنظر ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج ١، ص ١٣٢ـ وياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج١١ ص ٣٧

وبناء عليه فإننا لا نستبعد امتلاك خالد بن يزيد لخزانة كتب عظيمة وهائلة بمقاييس العصر ليضع فيها ما جمعه من كتب ، وما قام بترجمته له هؤلاء الفلاسفة اليونانيين الذين جلبهم من مصر ، وليحتفظ فيها بمؤلفاته التي اشرنا إليها[١].

ولكن تُرى كيف كانت تبدو هذه الخزانة ؟ وهل وكل بها من يقوم بالإشراف عليها ؟ وما هي محتوياتها ؟ !!

يبدو لنا أن هذه المكتبة كانت تحوي على مؤلفات دينية ، تجمع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة وما ذكر عن اهتمامه بالحديث الشريف ، حتى أنه كان إذا لم يجد من يحدثه حدث جواريه[٢]، كما نتوقع اشتمالها أيضاً على بعض الآلات التي تخدم دراسته لعلم الكيمياء والنجوم[٣].

كما إنها لاشك كانت تحوي تلك الكتب الطبية والكيميائية ، وكتب النجوم التي ترجمت له ، أضف على هذا مؤلفاته التي سبق وأشرنا إليها ، كما أننا لا نستبعد أنه وكل بها من يقوم بالإشراف عليها اقتاداءً بمعاوية بن أبي سفيان جده ، فإنه وإن كان قد جلب المترجمين ليترجموا له بعض المؤلفات من مصر ، فليس من المستبعد أن يتخذ من يقوم بالإشراف عليها ، هذا وإن لم تذكر المصادر التي أطلعنا عليها ذلك صراحة .

ويرى د. يوسف العش أن خزانة الكتب الخاصة بمعاوية بن أبي سفيان ، والتي سبق وأن أشرنا إليها انتقلت إلى خالد بن يزيد عن طريق الميراث ، فيقول :"... وانتقلت الكتب المودعة في بيت الحكمة بقصر الخليفة الأموي الأول من أيدي وارثيه فآلت مع القصر إلى خالد بن يزيد ابن معاوية "[٤]، وهو تصور لم نجد عليه أي دليل ، إذ يبني الأستاذ يوسف العش ذلك التصور مستدلاً عليه بحب خالد وعشقه للكتب ، فهو القائل :" كنت معنيا بالكتب "، ولا يعد ذلك دليلاً على أنه كان الوارث لمكتبة معاوية بن أبي سفيان ، فربما يكون قد جمع الكتب من مصادر أخرى ، أضف إلى هذا أن الأستاذ يوسف العش لم يذكر ولو نصاً واحداً من خلال المصادر التي أطلع عليها يشير من قريب أو بعيد إلى أن خالد بن يزيد ورث مكتبة معاوية بن أبي سفيان

---

(١) ذكر ابن النديم هذه المؤلفات ، وذكر أنه عاينها بنفسه ، أنظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٤٩٧ .
(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ٣٥ .
(٣) حول اهتمامات خالد بن يزيد ، وحول امتلاكه لبعض هذه الآلات والأدوات ، أنظر سعيد الديو جي : مقال بعنوان خالد بن يزيد : مجلة المعلم الجديد ، ج ١ ، ١٩٤٦م ، السنة العاشرة ، ص ٣٨ .
(٤) د. يوسف العش : دور الكتب العربية ، ص ٤٥ .

ولا يعني ذلك نفياً منا لما يرنو إليه الأستاذ . يوسف العش ، فمن المحتمل أن تكون قد آلت إليه بعض محتويات هذه الخزانة بطريق أو بآخر .

على أن ما يعنينا حقاً هو التأكيد على وجود خزانة كتب لدى خالد بن يزيد ، وبأنها كانت مرحلة جديرة بالاعتبار على طريق إنشاء خزائن الكتب .

ويرى د. يحيى وهيب استناداً إلى ما ذكر بالموسوعة الإسلامية[١] أن خزانة كتب خالد بن يزيد كانت أول خزانة كتب عامة في الإسلام[٢]، وواقع الأمر أننا لم نجد فيما أطلعنا عليه من مصادر ما يشير من قريب أو بعيد إلى تأكيد هذه الصفة بخزانة خالد بن يزيد ، حتى أن د . يوسف العش يرى أنه لم يكن في ذلك العصر خزانة عامة أبداً [٣].

على أية حال فإن الاهتمام بالكتب والمؤلفات لم يكن قصراً على خالد بن يزيد بن معاوية فقط في ذلك العصر ، بل جاء بعده أيضاً من ساهم بمواقفه في ذلك المضمار ، وتطالعنا بعض المصادر ببعض شذرات من الأخبار تشير إلى اهتمام بعض حكام بني أمية بأمر الكتب ، فيذكر ابن العبري[٤] في إطار ترجمته لماسرجويه الطبيب البصري ، فيقول :" قال ابن جلجل الأندلسي أن ماسرجويه الطبيب البصري سرياني اللغة ، يهودي المذهب ، وهو الذي تولى في أيام مروان تفسير كناش أهرون القس إلى العربي"[٥]، وهكذا شهد عهد مروان على قصره محاولة لترجمة مؤلف من أهم المؤلفات لأنه من أوائل المؤلفات التي شهدها صدر الإسلام ، ودليلنا على ذلك ما ذكره ابن النديم[٦] في إطار تناوله لشخصية أهرون القس صاحب هذا الكتاب ، إذ قال : " أهرون القس ، في صدر الدولة وعمل كتابه بالسريانية ونقله ماسرجيس[٧]، وله من الكتب كتاب الكناش وجعله ثلاثين مقالة وزاد عليها ماسرجيس مقالتين" .

وعليه فإننا في إطار تناولنا لشخصية خالد بن يزيد بن معاوية ومحاولته القيام بترجمة بعض المؤلفات لا نستبعد تأثره بما سبق وقام به مروان بن الحكم ، من تكليف ماسرجويه بترجمة كتاب أهرون القس ، فكان في سعيه لترجمة بعض المؤلفات متأثراً بمروان ، خاصة

---

(١) د. يحيى وهيب : الكتاب في الحضارة الإسلامية ، ص ١٧١ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٧١.
(٣) د. يوسف العش : دور الكتب العربية ، ص ٤٥ .
(٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، د . ت ، ص ١١١ - ١١٢ .
(٥) المصدر نفسه ، ١١٢.
(٦) الفهرست : ص ٤١٣ .
(٧) ماسرجيس : أحد الأطباء ممن عمل بالنقل والترجمة من السريانية إلى العربية ن وله كتب ومؤلفات ، وقد عرف أيضاً بماسرجويه. انظر ابن النديم: الفهرست ص ٤١٣ ، وابن العبري: المصدر السابق ، ص ١١٢.

وما ذكر عن خالد من أنه ربيب مروان[١] ، فقد ورد في كتاب الأغاني[٢] ما يشير إلى أن مروان تزوج بأم خالد .

٣ ـ الوليد بن عبد الملك :[٣]

ومن حكام بني أمية ممن كان لهم بعض الاهتمام بأمر الكتب الوليد بن عبد الملك ، إذ أشار ابن النديم على ما يفيد بأنه كان له خزانة كتب ، وهو أمر ليس بعجيب فلاشك أنه كان شأنه شأن أسلافه في الاهتمام بأمر الكتب ، فاتخذ خازناً وناسخاً لكتبه ، وهو ما أشار إليه ابن النديم ضمناً في إطار تحدثه عن خالد بن أبي الهياج فقال:" إن أول من كتب المصاحف في الصدر الأول ويوصف بحسن الخط خالد بن أبي الهياج ، رأيت مصحفاً بخطه وكان سعد نصبه لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك ، وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالذهب ... "[٤].

ويرى الدكتور يوسف العش أن سعد هذا هو سعد المصاحفي ، أو سعد صاحب المصاحف تلميذ ابن عباس ، وقد رأى أنه أول خازن للكتب عند العرب[٥]، وحقيقة الأمر فإنه وإن فهم أن سعداً هذا كان يقوم على خزانة الوليد بن عبد الملك ، فإننا لا نتفق مع ما ذهب إليه د. يوسف العش من أنه كان أول خازن للكتب عند العرب ، فقد سبقه هؤلاء الغلمان ممن وكل إليهم معاوية أمر القيام على خزانة كتبه والقراءة له .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن مكتبة الوليد ـ التي أشير إليها ضمناً فيما سبق ـ كانت تستقبل بعض المؤلفات الدينية والأدبية والتاريخية ، فقد كان خالد بن أبي الهياج يكتب للوليد المصاحف والشعر والأخبار ، ولاشك أن مثل هذه الكتابات كانت تستقر في هذه المكتبة.

٤ ـ خزائن بني أمية في عهد عمر بن عبد العزيز: [٦]

ثم كان زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ويذكر ابن العبري ما يفيد وجود خزائن كتب لدى حكام بني أمية السابقين عليه ، فيقول بصدد كتاب أهرون القس الذي سبق وأشرنا إليه:

---

(١) ابن خلدون هو الذي لقبه بربيب مروان . انظر : المقدمة ، ص ٣٧٤.
(٢) الأصفهاني : كتاب الأغاني ج ١٧ ، ط ١٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ٣٤٦ .
(٣) الوليد بن عبد الملك : من أبرز خلفاء بني أمية ، ولي من ٨٦ : ٩٦ هـ ، شهد عهده الكثير من الفتوحات الإسلامية ، وللمزيد من المعلومات انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٧٧ وما بعدها .
(٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ٩ .
(٥) د. يوسف العش : دور الكتب العربية ص ٤٩ ـ ٥٠ .
(٦) عمر بن عبد العزيز : عُرف بخامس الخلفاء الراشدين ، ولي الخلافة من ٩٩هـ : ١٠١هـ ، عُرف بالعدل والصلاح وللمزيد من المعلومات انظر ابن عبد الحكم : الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ١٩٩٤م ص ٣٠ وما بعدها من صفحات ، وانظر أيضا السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٢ ـ ١٩٧ .

"... ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب ، وأمر بإخراجه ووضعه في مصلاة ، واستخار الله في إخراجه إلى المسلمين لينتفع به ، فلما تم له في ذلك أربعون يوماً أخرجه إلى الناس وبثه في أيديهم"(١)، وهكذا فإن هذا النص يشير إلى وجود خزائن كتب لدى حكام بني أمية كما يؤكد على استمرارها حتى عهد عمر بن عبد العزيز ، الذي فحص محتوياتها ، ووجد فيها كتاب أهرون القس الذي ترجمه ماسرجويه عهد مروان ابن الحكم ، ولشدة ما عرف عن عمر ابن عبد العزيز من التقوى والورع والتمسك بالسنة ، كان يخشى أن يكون بهذا الكتاب ما يضر المسلمين فاخذ يستخير الله في ذلك الأمر بصلاة الاستخارة أربعين يوماً ، حتى تم له ذلك ، فأخرجه إلى الناس لنسخه والانتفاع به .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الاهتمام والعناية بأمر الكتب ، خاصة الدينية منها ، والتي تخدم أمور الدين والعقيدة ، ولذلك فقد سعى إلى كتابة سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كانت هذه المسألة تلاقي الكثير من التحرج في عهد الخلفاء الراشدين خشية الخلط بينها وبين كتاب الله القرآن الكريم ، وفي هذا قيل على لسان سعد بن إبراهيم :" أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً ، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً "(٢) وهكذا فإن عمر بن عبد العزيز كان لا يكتفي بكتابة السنن ، بل إنه كان يحرص على نسخها وتوزيعها على جميع الأمصار ، سعياً لنشر العلم .

ومما يذكر عنه أيضاً في إطار اهتمامه بالكتب خاصة الديني منها ، أنه كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم قاضي المدينة وواليها ... "أن أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكتبه لي ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ولتفشوا العلم ، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً " (٣)، وكانت هذه دعوة صريحة منه إلى نشر العلم خاصة السنن .

ولشدة حرص عمر بن عبد العزيز على نشر العلم ، وخاصة سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب إلى كل أمير من أمراء الأجناد ما نصه " ... ومُر أهل العلم والثقة من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك ، وليتحدثوا به في مساجدهم والسلام عليكم "(٤). وهكذا فقد كان

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص
(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج ١ ، ص ٧٦ .
(٣) حول اهتمام عمر بن عبد العزيز بنشر العلم وخاصة العلم الديني . أنظر : الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٠٦ .
(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز (الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين) ، ص ٨١ .

عمر بن عبد العزيز حريصاً على نشر العلم وخاصة الديني منه كأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه ، وقد أخذ على نفسه عهداً بأن يعلمها للناس ويحملهم على تعليمها فقال :" إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً فمن عمل بها استكمل الإيمان ... فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص"(١).

ولم يكن عهد عمر بن عبد العزيز نهاية المطاف في أمر الاهتمام بخزائن الكتب والكتب ، ونشر العلوم والمعارف في عصر الدولة الأموية ، فقد شهد عصر هشام بن عبد الملك بعض الاهتمام بالكتابة والكتب ، فبعث هشام بن عبد الملك إلى أبي محمد سليمان بن مهران المعروف بالأعمش(٢) الكوفي ليكتب له كتاباً في مناقب عثمان ومساوئ علي(٣) ، وأياً كان الهدف من هذه المسألة ، فهي دعوة للتأليف، فمن الطبيعي وهو الأموي أن يسأل كتابه مناقب عثمان بن عفان. كما شهد عصر هشام بن عبد الملك شخصية سالم المكني بأبي العلاء ، وكان كاتباً لهشام بن عبد الملك ، وكان أحد الفصحاء البلغاء ، وقد كان له دور هام في الترجمة ، فكان له مجموع رسائل بلغ نحو مائة ورقة.(٤)

كذلك كان للوليد الثاني مكتبة ، وقد حملت محتويات هذه المكتبة ونقلت على دواب عديدة بعد وفاته ، وكانت مما تحوي دفاتراً ، كانت تضم في معظمها أحاديث ورد آيات ابن شهاب الزهري(٥)، هذا مما يؤكد على أن الكتب الدينية ككتب الحديث والسنن وغيرها كانت أبرز وأهم ما تحويه خزائن كتب بني أمية ، هذا إلى جانب بعض كتب الشعر والتاريخ والكيمياء والنجوم والطب ، وهو ما استنتجناه من خلال دراستنا لخزائن معاوية بن أبي سفيان ، وخالد بن يزيد وغيرهم من أبرز حكام ذلك العصر .

كانت هذه إطلالة على خزائن الكتب في عصر بني أمية من خلال تعرضنا لبعض أولي الأمر من حكام وخلفاء بني أمية ممن كان لهم اهتمام وعناية بأمر الكتب ، جمعها ونسخها

---

(١) المصدر السابق : ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٧٢ .
(٢) عنه أنظر ابن خلكان وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص ص ٤٠٠ ، ٤٠٢ . دار صادر ، بيروت ، د.ت . ولد الأعمش ٦٠هـ وتوفي ١٤٨هـ ، وكان عالماً ثقة .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٠٢ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٧١ .
(٥) الزهري : هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري ، أحد الفقهاء المحدثين ، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى الآفاق : عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه " ، ولد سنة أحدى وخمسين للهجرة ، وتوفي سنة أربع وعشرين ومائة . أنظر ابن خلكان : المصدر السابق .. ج ٤ ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .

وترجمتها وتصنيفها وخزنها ، فقد كان اهتمامهم بهذا الأمر ، كما بدا لنا من الأمور التي دعت الناس ودفعت به إلى مزيد من الاهتمام بالكتابة والنسخ والتأليف ، وليس أدل على ذلك مما قاله ابن شهاب الزهري مشيراً لأمراء بني أمية ، إذ قال : " ... كنا نكره كتاب العلم ، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا ألا نمنعه أحداً من المسلمين"[١] ، ولعله يرمي إلى ما كان يطلبه بعض الخلفاء ، وبعض أولي الأمر من العلماء من التأليف والكتابة في جانب معين من جوانب المعرفة ، كما طلب معاوية بن أبي سفيان من عبيد بين شريه الجرهمي ، وكما طلب خالد بن يزيد من المترجمين .

٥ ـ خزائن كتب العامة :

هذا وتطالعنا المصادر ببعض المعلومات التي تؤكد على أن خزائن الكتب كانت قد بدأت في هذا العصر تعرف طريقها إلى العامة من الناس ، ممن كان لهم اهتمام بأمر العلم ، حقيقة أن عصر الخلفاء الراشدين شهد بدايات اهتمام بأمر حفظ الكتب وخزنها ، إلا أن ظاهرة امتلاك كتب فيما عرف بخزائن الكتب ، بدت في هذا العصر أكثر وضوحاً ، فقد روي عن عروة بن الزبير[٢]، أنه أحرق يوم الحرة[٣] كتب فقه كانت له ، وأنه كان يقول متحسراً عليها:" لأن تكون عندي أحب علي من أن يكون لي مثل أهلي ومالي"[٤]، وقد كان عروة هذا على حد تعبير ابن سعد ثقة كثير الحديث ، فقيهاً عالياً مأموناً ثبتاً ، حتى أن ابن شهاب الزهري وصفه بأنه بحر لا ينزف.[٥]

كذلك روى عن موسى بن عقبه أنه قال وضع عندنا كريب (ت ٩٨هـ / ٧٢٣م) حمل بعير من كتب ابن عباس(ت ٦٨هـ / ٦٩٢م) ، فكان على بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب ، كتب إليه: "ابعث إليَّ بصحيفة كذا أو كذا " لينسخها فيبعث بها[٦] ، هذا مما يؤكد على امتلاك بعض العامة من الناس ممن لهم عناية بأمر الكتب والمؤلفات لخزائن كتب ، تحوي الكثير من المؤلفات ، وبرغم أننا لا نعلم على وجه التحديد الدواعي والأسباب التي تجعل كريب يحتفظ بمؤلفات ابن عباس لدى موسى بن عقبة ، إلا أننا نرى أن كريب هنا كان يقوم بدور خازن

---

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج ١ ص ٧٦ .
(٢) عروة بن الزبير : هو عروة بن الزبير بن العوام ، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، كان ثقة كثير الحديث روى الحديث ، ت ٦٤هـ . أنظر : ابن سعد : الطبقات ، ج٥ ، ص ١٧٨ ـ ١٨٢ .
(٣) عن يوم الحرة ـ أنظر : المصدر نفسه .
(٤) ابن سعد : الطبقات الكبري ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .
(٥) ابن عبد البر : جامع بيان العلم .. ، ج ١ ، ص ٧٥ .
(٦) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ن ص ١٣٦ .

الكتب ، خاصة وأن على بن عبد الله بن عباس كان إذا أراد الكتاب ، بعث إليه طالباً الكتاب لنسخه، ثم يرده عليه مرة أخرى كشأن خزائن الكتب التي قد تسمح بالإعارة للنسخ والاقتباس.

وليس أدل على انتشار خزائن الكتب لدى عامة الناس من شخصية الزهري ، الذي عرف بحبه للكتب وتقديره لها ، وقد أرخ له كثير من المؤرخين ، فيذكر ابن خلكان[١] عنه أنه كان "إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله واشتغل بها عن كل شئ من أمور الدنيا ، حتى قالت له امرأته ذات يوم ، والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر" ، وقد كان الزهري معنيا بكتابة السيرة والمغازي ، كما كان عالماً بأخبار العرب وأنسابهم ، وبالأنبياء وأهل الكتاب ، وكان له باع طويل في الكتابة والتدوين ، حتى أن البعض أعده أول من دون العلم ، فقد روى أن :" أول من دون العلم وكتبه ابن شهاب "[٢]، كما أنه كان كثير العلم ، كثير الكتب ، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن عبد البر ، إذ قال " ... أقام شهاب بن عبد الملك كاتبين يكتبان عن الزهري ، فأقاما سنة يكتبان عنه "[٣] هذا مما يدلل على كثرة ما كان له من علم وكتب .

ومن أهم الأمور التي ينبغي ملاحظتها عن خزانة كتب الزهري ، أنها كانت متنوعة ، فإذا كانت مؤلفاته تتنوع ما بين الأنساب والسير والمغازي ، فلاشك في أن ذلك يعكس لنا أيضاً تنوعاً في نوعية الكتب التي يستقي منها معلوماته ، والتي تحويها خزانة كتبه ، وبلغ التنوع بها أن شملت أيضاً كتباً في الشعر ، ودليلنا على ذلك ما ذكره يونس بن يزيد عنه ، إذ قال : " قلت للزهري أخرج إلى كتبك ، فأخرج إلى كتباً فيها شعر"[٤] ، هذا مما يؤكد على ما ذهبنا إليه من تنوع ما تحويه خزانة كتب الزهري ، حتى أنها حوت فيما حوت كتب شعر .

ومن الأمور الجديرة بالذكر ، أن الزهري كان يبيح الاستعارة من كتبه ، ودليلنا على ذلك ما قيل عنه ، إذ قال: " إياك وغلول الكتب ، فقيل له وما غلولها ؟ قال حبسها عن أهلها "[٥] ، وما سبق ذكرناه بصدد إخراجه كتب الشعر التي لديه إلى يونس بن يزيد .

ولدينا من الأخبار المتناثرة ما يدلل على انتشار خزائن الكتب الخاصة في ذلك العصر ، ومن ذلك ما ذكره الخطيب البغدادي إذ قال :" ... حدثنا إبراهيم بن هاشم قال : دفنا لبشر بن

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .
(٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ... ، ج ١ ، ص ٣ .
(٣) ابن عبد البر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٧ ، ولعله يقصد هشام بن عبد الملك .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٧.
(٥) د. يحيى وهيب : الكتاب في الحضارة الإسلامية ، ص ٤٩ .

الحارث ثمانية عشر ما بين قمطر وقوصرة "[1]، ونحن نعلم أن القمطر هو ما يحفظ فيه الكتب كما قال في موضع آخر من مؤلفه تقييد العلم :" ... حدثنا أبو يحيى الكناس قال : كان مجاهد يصعد بي إلى غرفته ، فيخرج إليّ كتبه فأنسخ منها"[2], هذا مما يدلل على انتشار خزائن الكتب الخاصة بأهل العلم والمعرفة ، بل وأبعد من ذلك ، فإن فيها ما يدلل على إباحة الاستعارة من مثل هذه الخزائن كما كان يفعل الزهري ومجاهد .

وتطالعنا المصادر بشخصية أخرى كان لها كثير اهتمام وعناية بالكتب ، ألا وهو ربّان بن العلاء ، المعروف بأبي عمرو بن العلاء ، الذي ولد بمكة عام ثمان أو خمس وستين هجرية ، وتوفى عام مئة وأربع وخمسين هجرية بالكوفة، وعاش في العصر الأموي أكثر من ستين عاماً وعنه يقول ياقوت الحموي أنه: كان أعلم الناس بالعربية والقرآن وأيام العرب والشعر"[3]... وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف ، ثم تنسك فأحرقها "[4] ، وقد كان أبو عمرو هذا من رجال الحديث أيضاً ولعل هذا الخبر الذي ذكره ياقوت الحموي بصدده يدلل بما لا يدع مجالاً للشك على أن خزائن الكتب كانت قد بدأت في الانتشار خاصة عند هؤلاء ممن كانت لهم عناية واهتمام بأمر العلم والمعرفة ، حتى بلغت عند واحد كأبي العلاء حتى سقف بيته .

هذا وتدلل الروايات السابقة على أن التنوع كان قد بدأ يعرف طريقه إلى خزائن الكتب في ذلك العصر ، فلم تعد خزائن الكتب قاصرة على بعض الكتابات الخاصة بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما غلب عليها عهد الخلفاء الراشدين ، بل إنها شهدت تنوعاً فضمت مؤلفات دينية في القرآن والحديث والسنة ، ومؤلفات أدبية في اللغة وأصولها وآدابها ، كما ضمت أيضاً مؤلفات تاريخية خاصة بالأنساب والمغازي والوقائع والأحداث .

هكذا بدأت خزائن الكتب الخاصة بأهل العلم والمعرفة في الانتشار في ذلك العصر بشكل ملحوظ ، لكن ترى هل شهد ذلك العصر أيضاً ظهور ما عرف بخزائن الكتب العامة ؟ التي يباح فيها لعامة الناس القراءة والإطلاع وربما الاستعارة ؟

حقيقة لم تجد علينا المصادر بكم من المعلومات يمكننا من خلاله الجزم بوجود وانتشار خزائن الكتب العامة، اللهم إلا خبر ذكره الأصفهاني،صاحب كتاب الأغاني مؤداه أن عبد الحكم

---

(١) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ٦٣ .
(٢) المصدر نفسه : ص ١٠٥ .
(٣) ياقوت الحموي : معجم اللأدباء ، ج ١١ ص ١٦٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ج١١ ، ١٦٠ .

ابن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي " اتخذ بيتا فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاد ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ثم جر دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به "[١] .

ولعل هذا البيت الذي اتخذه عبد الحكم بن عمرو ، كان يمثل إحدى صور خزائن الكتب العامة حتى أن الدكتور عبد الستار الحلوجي يرى أنه " كان صاحب فكرة أول مكتبة عامة تفتح أبوابها للجمهور "[٢] ، ويقول أيضاً : " ... ولم تكن المكتبة قائمة بذاتها ، وإنما كانت جزءاً مما يمكن أن نطلق عليه بمصطلح العصر الحديث نادياً ثقافياً "[٣]

على أية حال فخلاصة القول أن العصر الأموي شهد تبلور فكرة المكتبات الخاصة وتنوع محتوياتها ، وإسهامها في إثراء الحركة العلمية والثقافية لذلك العصر ، بإباحة بعض الناس الاستعارة من مكتباتهم كما سبق وأشرنا ، كذلك شهد ذلك العصر أيضاً بزوغ المكتبات العامة ، ودليلنا على ذلك ما ذكر بصدد عبد الحكم بن عمرو بن صفوان الجمحي ، أضف إلى هذا ما سبق وأشرنا إليه من ازدياد حجم حركة التأليف والترجمة التي شهدها ذلك العصر .

---

(١) الأصفهاني : كتاب الأغاني ، ج٤ ، ص ٢٥٠ ، النردات : من النرد ، وهي لعبة ذات صندوق وحجارة وزهرين وتعرف عند العامة بالطاولة ، ويقال لعب النرد .انظر المعجم الوجيز : ص ٦١٠ ، والقرقات : جمع قرق وهي لعبة للصبيان ، تعتمد على حصيات صغيرة يلعب بها على طريقة مخصوصة .
(٢) د . عبد الستار الحلوجي : المخطوط العربي : ط ٣ ، دار الثقافة العلمية ، الأسكندرية ، ١٩٩٨م ص ٩٤.
(٣) المرجع نفسه ، ص ٩٤ .

ثالثاً : العصر العباسي والازدهار الحقيقي للكتب وخزائن الكتب :

على أن التواصل والتوسع في حركة التأليف والتدوين وإنشاء المكتبات لم ينقطع بانتهاء العصر الأموي ، والانتقال إلى العصر العباسي[١]، ذلك أن العصر العباسي شهد طفرة هائلة في تاريخ الكتاب الإسلامي والمكتبات الإسلامية ، وهو ما سنعرض له بإيجاز ، إذ سنعرض لهذا التطور الذي شهده ذلك العصر حتى عهد الخليفة العباسي المأمون ، الذي شهد الازدهار الحقيقي لخزانة من أهم خزائن الكتب في الحضارة الإسلامية ، ألا وهي خزانة بيت الحكمة ، والتي كان لها ولاشك أثر كبير في قيام وإنشاء الكثير من الخزائن فيما بعد ، أضف إلى هذا ما شهده عصر ذلك الخليفة من ازدياد نفوذ بعض العناصر الفارسية التي كان لها دور بارز في الأنشطة الثقافية الخاصة بخزانة بيت الحكمة للمأمون .

شهد العصر العباسي طفرة هائلة في تاريخ الكتاب الإسلامي والمكتبات الإسلامية ، خاصة وما كان لمعظم خلفاء ذلك العصر من اهتمام بأمور العلم والثقافة ، كما أن ذلك العصر شهد أيضاً تبلور الكثير من الظواهر الثقافية التي أثرت بشكل أو بآخر في حركة الكتب والمكتبات في ذلك العصر ، ومن ذلك تبلور حركة الترجمة ، وظهور الورق واستخدامه في شتى ميادين الحياة ، وظهور حركة الوراقة ، وظهور ذلك العدد الهائل من الوراقين ، ثم ازدياد المؤلفات إلى حد لم يسبق له مثيل ، مما ظهرت وبدت معه الحاجة ملحة إلى الإكثار من إنشاء دور وخزائن الكتب العامة والخاصة لحفظ هذه المؤلفات وتسهيل تداولها بين ذوي الحاجة .

ويطالعنا العصر العباسي ببعض الأحداث السياسية الهامة والتي كان لها بشكل أو بآخر بعض الآثار على طبيعة وشكل وسير الحياة الثقافية في ذلك العصر ، ولعل أبرز هذه الأحداث هو انتقال العاصمة إلى بغداد الذي جعل التأثيرات الشرقية وخاصة الفارسية والهندية أوضح مما كانت عليه سابقاً[٢]، ثم ازدياد نفوذ العنصر الفارسي ، فنرى العناصر الفارسية وقد امتدت لتمس شتى مظاهر الحكم من وزارة وكتابة وما إلى ذلك حتى المؤسسات الثقافية كدور وخزائن الكتب فقد امتد أثرهم إليها ، فكان كثير ممن يعملون بهذه المؤسسات خاصة تلك الخاصة بالخلفاء وأولي الأمر من العناصر الفارسية ، وهو ما سنعرض له فيما بعد تفصيلاً .

وفي إطار التعرض لحركة الكتب وخزائن الكتب في العصر العباسي ، نعرض أولاً لموقف بعض الخلفاء ، ممن كان لهم عناية بالكتب والمكتبات حتى عصر المأمون ، إيماناً منا

---

(١) حول انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، أنظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ط ١ ، ج ٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م ، ص ٩٠ .

(٢) د . محمد ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام ، ط ٧ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٩٦م ص ٥٢ .

بتأثر العامة بأولي الأمر ، وهو أمر يقره ابن خلدون وغيره ، فيقول ابن خلدون : "أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه " ، كما يقال في الأمثال الحكمية الناس على دين الملك ... والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة[1] .

١ ــ أبو جعفر المنصور والاهتمام بالكتب :

يرى بعض المؤرخين أن عصر أبي جعفر المنصور[2] كان عصراً له خصوصية ، خاصة فيما يتعلق بأمر الاهتمام بالعلوم والمعارف التي تبتعد عن العلوم الدينية ، فمن المعروف أن الناس والعامة والخاصة في عصر بني أمية كان جل اهتمامهم بالعلوم والمعارف الدينية ، والتي عرفها ابن خلدون بالعلوم النقلية ، وهي كما يقول " الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيئها للإفادة ، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن"[3]، ولعل مثل هذا الاهتمام بالعلوم الدينية في العصر الأموي هو الذي جعل حاجي خليفة يقول: " وأعلم أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية "[4] ، والمقصود بعلوم الأوائل هي علوم الحكمة الفلسفية التي تضم علوم الفلسفة والنجوم والمنطقيات وما إلى ذلك ، هذا إلى جانب العلوم الطبيعية ، على أنه ينبغي لنا أن نستثني من ذلك ما قام به خالد بن يزيد بن معاوية ، على أية حال فقد كانت تلك سمة غالبة على العصر الأموي ، حتى كان الانتقال للعصر العباسي ، وعصر أبي جعفر المنصور على وجه الخصوص .

وفي هذا يقول ابن العبري مشيراً إلى بني العباس " .. وكان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور ، وكان مع براعته في الفقه كلفا في علم الفلسفة وخاصة علم النجوم"[5]، وهذا أمر أقره أيضاً حاجي خليفة فقال : " .. وأعلم أن علوم الأوائل كانت مهجورة في عصر الأموية " ولما ظهر آل العباس كان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور ، وكان رحمه الله مع براعته في الفقه مقدماً في علم الفلسفة ، وخاصة في النجوم محباً لأهلها"[6] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢ .
(٢) أبو جعفر المنصور ولي الخلافة بعد أخيه السفاح ، وبويع له وهو ابن إحدى وأربعين سنة ، ولد ٩٥ هـ ، وعرف لحرصه الشديد على المال حتى عرف بأبي الدوانيق ولي الخلافة من ١٣٦ هـ : ١٥٨هـ ، أنظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج١ ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، د.ت ، ص ٥٤ وما بعدها . وانظر أيضاً السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ص ٢٠٧ ، ٢١٧ .
(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٣٠٦ .
(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ص ٣٤ .
(٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٦ .
(٦) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص ٣٤ .

وهكذا فإن كل من ابن العبري وحاجي خليفة يؤكدان على اهتمام الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور بأمر العلوم الفلسفية ، وعلم النجوم هذا إلى جانب اهتمامه بالعلوم الدينية ، خاصة وبراعته في الفقه على حد تعبيرهما ، وعليه فلم يكن من العجيب أن نجد أبا جعفر المنصور يراسل ملك الروم[١]، سائلاً إياه أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات[٢] ، ويقول ابن خلدون تعليقاً على ذلك "...فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقى منها "[٣] ، ولفظ " الظفر " الذي يستخدمه ابن خلدون يحمل معنى الانتصار والحصول على شئ كان من الصعب الحصول عليه ، فمن المعروف أن كتب هذه العلوم هجرت بعد ما تنصرت بلاد الروم ، ودانت بالمسيحية ، فظلت وبقيت في صحفها ودواوينها مجلدة ، باقية في خزائنهم[٤] ، وعلى ما يبدو فإنه لم يكن يسمح لأحد بالإطلاع عليها، ولعل ما يذكره ابن خلدون من أن " المسلمين اطلعوا على ما في هذه الكتب ، وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها " يشير بداية إلى أن مثل هذه العلوم قد تمت ترجمة بعضها عصر المنصور ، كما يفسر ما سوف يحدث بعد ذلك من سعي حكام المسلمين وخاصتهم وعامتهم للحصول على كتب الطبيعيات والمنطقيات والفلسفة ، وما سوف نجد في عصر المأمون ، وهو ما سنعرض له من ازدهار لحركة الترجمة .

ولما كان المنصور حريصاً على جمع الكتب وترجمتها لتتم الاستفادة منها ، فلم يكن عجيباً والحالة هذه أن نرى جورجس بن جبريل ذلك الطبيب السرياني يترجم للمنصور بعض الكتب من اليونانية إلى العربية [٥]. وقد شهد عصر المنصور أيضاً ترجمة كتاب الأركان ، وهو أبسط ما وضع للمتعلمين في علوم الهندسة .

ومن المترجمين الذين أمرهم أبو جعفر المنصور بترجمة بعض المؤلفات ، البطريق الذي ذكره ابن النديم[٦]وقال:" كان في أيام المنصور، وأمره المنصور بنقل أشياء من الكتب القديمة.

وكما كان للخليفة أبي جعفر المنصور اهتمام بعلوم الأوائل وترجمتها ، كان له أيضاً اهتمام بأمر العلوم الدينية ، كتابتها ونسخها ، ودليلنا على ذلك ما أشار إليه ابن عبد البر[٧] من

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ٣٣٧.
(٣) المصدر نفسه ، ٣٣٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٣٦ .
(٥) الزركلي : الأعلام (قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين ، ج ٢ ، ط٧ ، بيروت ١٩٨٦م ، ص ١٤٦ .
(٦) الفهرست : ص٣٤٠ .
(٧) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، ج ١ ص ١٣١ .

سعي المنصور إلى نسخ كتب مالك بن أنس وتوزيعها على الأمصار ، لولا ما كان من مالك وإثنائه المنصور عن هذه الخطوة ، إلا أنها تعد دليلاً على مدى اهتمام المنصور بأمر كتب العلم حتى الديني منها .

وقد كان طبيعي وهذا الاهتمام بالعلوم أن يمتلك الخليفة المنصور خزانة كتب ، وورد ذكر هذه الخزانة في خبر أورده الخطيب البغدادي[1] في إطار ترجمته لمحمد بن إسحاق ، " فذكر أن محمد بن إسحاق دخل على المنصور وبين يديه المهدي ، فقال له المنصور أذهب فصنف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا ، قال : فذهب فصنف له هذا الكتاب فقال له : طولته يا ابن إسحاق ، اذهب فاختصره ، قال فذهب فاختصره ، فهو هذا الكتاب المختصر ، وألقى الكتاب في خزانة أمير المؤمنين "[2].

ولاشك أن هذه الخزانة حوت كل الكتب التي ترجمت للخليفة أبي جعفر المنصور ، هذا إلى جانب الكتب التي أُلفت له ، أضف إلى هذا احتمالية احتوائها على عدد هائل من كتب الفلسفة ، وعلم النجوم ، والكتب الدينية خاصة ما يتعلق منها بأمر الفقه ، استناداً لما سبق وذكرنا عن اهتمامه بمثل هذه العلوم .

هكذا كان عصر الخليفة أبي جعفر المنصور بداية نقلة حضارية على المستوى الثقافي من العصر الأموي إلى العصر العباسي .

٢ ـ هارون الرشيد وظهور بيت الحكمة :

كان هارون الرشيد شغوفاً بالكتب ، حريصاً على قراءتها واقتنائها ، فيذكر ياقوت الحموي[3] في إطار ترجمته لمعمر بن المثني[4]: "... أنه أتي على الرشيد فقال له : يامعمر بلغني أن عندك كتاباً حسناً في صفة الخيل ، فأحب أن أسمعه منك " .. هذا مما يدلل على مدى حرص هارون الرشيد على سماع الكتب .

وقد شهد عصر هارون الرشيد تبلور بعض الظواهر الثقافية ، التي أثرت في المسيرة الثقافية للحضارة الإسلامية ، والتي تمثل مع بعضها البعض منظومة حضارية جديرة بكل بحث

(١) تاريخ بغداد : ج ١ ، ص ٢٢١ .
(٢) المصدر نفسه، ج١ ، ص ٢٢١ .
(٣) معجم الأدباء : ج ١٩ ، ص ١٥٤ .
(٤) معمر بن المثني : هو أبو عبيدة البصري عالم باللغة وأنساب العرب وأخبارها ت ٢٠٨هـ وذكر له ياقوت أكثر من ثمانين كتاباً ، أنظر ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ١٥٤ .

وتحليل . ولعل أبرز وأهم هذه الظواهر الثقافية هو ظهور الورق الكاغد وتداوله في عاصمة الخلافة وباقي بلدان الدولة الإسلامية ، وقد عرف المسلمون صناعة الورق وتعلموها عن طريق بعض الأسرى الصينيين ممن حضروا إلى سمرقند ، فقد ذكر الثعالبي[١] عن صاحب كتاب المسالك أنه وقع من الصينيين إلى سمرقند في سبي سباهم زياد بن صالح ، من اتخذ الكواغيد بها ، ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة ، حتى صارت متجراً لأهل سمرقند ، فعم خيرها والارتفاق بها في الآفاق ".

ثم انتقلت صناعة الكاغد إلى بغداد ، خاصة وتبنى الخلافة ممثلة في هارون الرشيد لذلك الأمر،إذ أعطى أوامره "بألا يكتب الناس إلا في الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير ، بخلاف الكاغد ، فإنه متى محي منه فسد ، وإن كشط ظهر كشطه ، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار وتعاطاها من قرب وبعد ، واستمر ذلك إلى الآن"[٢]. وهكذا كانت أوامر الرشيد بعدم الكتابة إلا في الكاغد انطلاقة جديدة على طريق الحياة العلمية والأدبية والثقافية في العصر العباسي ، ثم كان ظهور ما عرف بالوراقين المنوط بهم نسخ الكتب وتبيضها وتجليدها وتذهيبها ثم بيعها ، وقد كان منهم من يقوم بضبط الكتب وتصحيحها حتى تبدو في أبهى صورة تؤهلها للبيع"[٣].

ومن الظواهر الثقافية التي شهدها ذلك العصر أيضاً انتعاش حركة الترجمة والتي كانت بذورها قد بدأت في الإنبات منذ عصر الدولة الأموية ، ثم كان أن ترعرعت وازدهرت في ذلك العصر ، وواقع الأمر أن هارون الرشيد كان ممن لهم باع طويل في تشجيع هذه الحركة خاصة بعد أن تأتى لهم بعض الفتوحات في أنقرة وعمورية وغيرها ، حيث عثروا على بعض الكتب والمؤلفات[٤] ، وكان الرشيد قد عهد بعملية ترجمة الكتب إلى يوحنا بن ماسويه ، وعنه يقول ابن أبي أصيبعة[٥]:" يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانياً ، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، حين سباها المسلمون ووضعه أمينا على الترجمة وخدم هارون والأمين والمأمون ، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل" . وهذا النص الذي

---

(١) الثعالبي : لطائف المعارف : لندن ، مطبعة بريل ، ١٨٦٧م ، ص ١٢٦ ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ص ٤٣١ ، مطبعة الظاهر ، القاهرة ، ١٩٠٨م .
(٢) القلشقندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٥١٥ـ ٥١٦ .
(٣) ولمزيد من التفاصيل حول الورق والوراقين أنظر : هالة شاكر عبد الرحمن : الورق والوراقون في العصر العباسي ، رسالة ماجستير منشورة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠٤م ، الفصل الأول والثاني .
(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٢٣ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢٣.

يذكره ابن أبي أصيبعة غاية في الأهمية ، فهو يوضح بجلاء أن عهد الرشيد شهد جلب بعض الكتب من البلدان المفتوحة كعمورية وأنقرة وغيرهما ، وبأنه سعى لترجمتها لتتحقق الاستفادة منها ووضع لهذا الغرض أميناً يشرف على عملية الترجمة هذه .

هذا ويذكر ابن العبري ما يفيد بأن يوحنا بن ماسويه كان مختصاً بترجمة الكتب الطبية بالذات ، خاصة وممارسته للطب ، فقال :" ومن أطباء الرشيد يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة "[١].

وقد عمل بالترجمة للرشيد نخبة هائلة من العلماء منهم : منكة الهندي[٢]، والحجاج بن يوسف بن مطر ، الذي نقل وترجم كتاب أصول الهندسة لاقليدس نقلين ، أحدهما يعرف بالهاروني ، وهو الأول والثاني يعرف بالمأموني[٣] ، وعلى ما يبدو فإن الأول ترجم لهارون الرشيد وفي عهده ، أما الثاني فكان مختصاً بالخليفة المأمون .

كذلك شهد عصر الرشيد شخصية هامة لعبت دوراً هاماً في عملية الترجمة ، ألا وهو أبو سهل الفضل بن نوبخت ، الذي ذكر ابن النديم أنه كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وكان له نقل من الفارسي إلى العربي ، ويلاحظ أن أبا سهل هذا كان فارسي الأصل.[٤] ويبدو أن حركة الترجمة شهدت في عصر هارون الرشيد يقظة وازدهار ، كما شهدت أيضاً تنوعاً في النقول والترجمات لغة وموضوعاً .

على أن أهم ما يعنينا في هذا العصر هو ظهور ما عرف ببيت الحكمة أو خزانة الحكمة كما يذكرها البعض، والتي تناول ذكرها بعض المؤرخين القدامى والمحدثين، خاصة وأنه كان لها من أثر ثقافي ملموس على شكل الحياة الثقافية في الحضارة الإسلامية ، فذكرها القلقشندي فقال: " أن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن " إحداها خزانة العباسيين ببغداد ، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى ولا يقوم عليه نفاسة ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ، وذهبت

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣١ .
(٢) منكه الهندي ، كان عالماً بصناعة الطب ، فيلسوفاً من المشار إليهم في علوم الهند ، متقناً لغة الهند والفرس أنظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٣٦ .
(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٧١ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٨٢ .

معالمها وأعضت آثارها "[١] ، كما ذكرها كل من ابن النديم[٢]، وياقوت الحموي[٣] ، في إطار تعرضهما لترجمة بعض الشخصيات ممن عمل في هذه المكتبة أو عمل لها .

وكما نالت هذه المكتبة أو المؤسسة اهتمام القدامى ، استأثرت أيضاً باهتمام بعض المحدثين نذكر منهم الأستاذ كوركيس عواد الذي قال عنها : لاشك أن خزانة الحكمة ببغداد من أعظم خزائن الكتب في الإسلام على اختلاف عصوره ودوله ، لأنها حوت من الأسفار العتيقة كل جليل نفيس ، ولم تكن كتبها إلا نتاج ثقافات شرقية وعربية مختلفة ، العربية والفارسية والسريانية واليونانية" [٤]، كما تناولها أيضاً بالدراسة كل من يوسف العش[٥]، والدكتور ناجي معروف[٦] ، وهنري لامنس[٧] ، وغير هؤلاء الكثير.

وفيما يتعلق بتاريخ إنشاء هذه المكتبة والتي عرفت ببيت الحكمة ، فإننا نري أنه ليس هناك تاريخ بعينه يمكننا أن نقول أنه في هذا العام أنشئت خزانة بيت الحكمة ، خاصة وقد تضاربت الأقوال في هذا الصدد ، فمن المحدثين من يرى أن مكتبة بيت الحكمة إنما هي نتاج ما ورثه الخليفة هارون الرشيد عن أبيه المهدي ، وجده المنصور ، ومن هؤلاء د . يحيى وهيب الذي يقول :" ... انتقلت مكتبة المنصور وما أضيف إليها زمن المهدي إلى الخليفة هارون الرشيد"[٨]، وهو أمر غير مستبعد ، كما يرجح الأستاذ ناصر محمد أن مجموعة الكتب التي ضمتها مكتبة الخليفة المنصور ، وما أضيف إليها من كتب في فترات تالية ، كانت نواة للمكتبة التي أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد في أواخر القرن الثاني الهجري ، والتي عرفت باسم بيت الحكمة.[٩]

ويرى د. محمد ماهر أن هارون الرشيد هو مؤسس هذه المؤسسة الكبرى[١٠] . كما يذكر د. عبد الستار الحلوجي أن كل الدلائل تشير إلى أنها كانت موجودة في عصر هارون الرشيد ، وذلك قبل أن يبلغ القرن الثاني نهايته[١١].

---

(١) صبح الأعشى : ج ١ ص ٥٣٧ .
(٢) الفهرست ، ص ١٥٣ ، ص ٣٨٢ .
(٣) معجم الأدباء ، ج ١٢ ، ص ١٩١ ومواضع أخرى .
(٤) خزائن الكتب في العراق ، مطبعة دار المعارف بغداد ، ١٩٤٨م ، ص ١٠٥ .
(٥) د. يوسف العش : دور الكتب العربية ، ص ٥٤ وما يليها .
(٦) د . ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية ، ط ٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٥م ص ٤٤١ .
(٧) هنري لامنس: مقال بعنوان دور العلم وبيوت الحكمة، مجلة المشرق ،سنة ٣٨،عام ١٩٤٠م، ص١٣٢:١٢٩
(٨) د. يحيى وهيب : الكتاب في الحضارة الإسلامية ، ص ١٧٤ .
(٩) انظر: ناصر محمد عبد الرحمن : الاتصال العلمي في التراث الإسلامي ، من صدر الإسلام حتى نهاية العصر العباسي ، دار غريب للطباعة والنشر ١٩٩٤م ، ص ١٥٥ .
(١٠) المكتبات في الإسلام ، ص ٥٣ .
(١١) المخطوط العربي ، ص ٩٨ .

وواقع الأمر أنه ليس هناك تعارض فيما قيل بصدد هذه الجزئية ، فكون أن عصر الرشيد هو الذي شهد بزوغ هذه المكتبة ، فإن ذلك لا ينفي احتمالية أن تكون الكتب التي ورثها الرشيد عن أجداده قد آلت إلى هذه المكتبة .

ويطالعنا في هذا الإطار رؤية لهنري لامنس مؤداها أن عصر المأمون هو الذي شهد تأسيس هذه المؤسسة(١) ، وهو ما لا نميل إليه ، إذ كيف لنا أن نفسر ما ذكره ابن النديم(٢) من أن بعض من عمل بالترجمة كان يعمل في خزانة الحكمة ، أو بيت الحكمة لهارون الرشيد ، ونحن نعلم أن ابن النديم مؤرخ ثقة .

هذا عن العهد الذي شهد ظهور هذه المؤسسة التي عرفت ببيت الحكمة ، أما عن دواعي إنشائها ، فإن د. محمد ماهر يذكر في إطار حديثه عن عملية النقل والتعريب التي شهدها عصر الرشيد أن الرشيد أسس هذه المؤسسة للاضطلاع بمهمة الترجمة فيقول :" وقد أسس الخليفة هارون الرشيد مؤسسة كبرى للقيام بهذا العمل الجليل ، وهي مؤسسة كان عملها أول الأمر مركزاً للنقل والملازمة "(٣).

على أية حال فأياً كانت آراء المحدثين بصدد ظروف نشأة هذه المكتبة ، والسبب الذي من أجله أنشأت فإن أهم ما يعنينا هو وجودها بالفعل عصر هارون الرشيد ، وهو أمر أقره ابن النديم ضمناً في إطار تعرضه مرة لشخصية علان الشعوبي ، وأخرى في إطار تعرضه لشخصية أبي سهل الفضل بن نوبخت ، فقال مشيراً لعلان الشعوبي "... كان منقطعاً إلى البرامكة ينسخ في بيت الحكمة لهارون الرشيد"(٤). وقال بصدد أبي سهل الفضل بن نوبخت : " كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد " (٥)ولعل هذا مما يؤكد على أن عصر الرشيد شهد بالفعل بزوغ تلك المؤسسة التي عرفت ببيت الحكمة .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو كيف كانت طبيعة هذه المكتبة ؟ وما الأنشطة التي كانت تمارس فيها عهد الرشيد ؟ !

---

(١) أنظر هنري لامنس : دور العلم وبيوت الحكمة ، ص ١٣١ بمجلة المشرق ، وانظر أيضا ابن النديم : الفهرست ص ١٥٣ .
(٢) الفهرست ص ١٥٣ ، ص ٣٨٢ .
(٣) المكتبات في الإسلام ، ص ٥٣ .
(٤) الفهرست ، ص ١٥٣ .
(٥) المصدر نفسه: ص ٣٨٢ .

واقع الأمر أن أهم ما تم ممارسته من أنشطة داخل هذه المكتبة هو عملية نقل بعض المؤلفات من اليونانية والفارسية وغيرها إلى اللغة العربية ، وهو أمر يمكن استنتاجه من خلال ما ذكره ابن النديم حول أبي سهل الفضل بن نوبخت ، إذ قال : " أبو سهل الفضل بن نوبخت فارسي الأصل ... وكان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، ولهذا الرجل نقل من الفارسي على العربي ، ومعوله في علمه على كتب الفرس "[١] ، ولعل ما ذكره ابن النديم من أن معوله في علمه كان على كتب الفرس يعكس لنا إلى أي مدى كان تغلغل الثقافة الفارسية في بيت الحكمة ، ولاشك أنه إنما كان يعمل في بيت الحكمة بالترجمة . خاصة وما ذكره ابن النديم بشأن ما له من نقل من الفارسي إلى العربية .

وقد سبق وذكرنا أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة ، مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون[٢]. وقد ذكر ابن العبري[٣] أن يوحنا بن ماسويه : " كان معظماً ببغداد جليل القدر ، وله تصانيف جميلة ، وكان يعقد مجلساً للنظر ، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة ، كان يدرس ويجتمع إليه تلامذة كثيرون"[٤].

ولعل هذا الذي يذكره ابن العبري يؤكد على وجود بعض الأنشطة الثقافية التي مارسها ابن ماسويه ، كمجالس النظر ، وهي على ما يبدو تشبه إلى حد كبير السيمينارات العلمية التي تعقد لمناقشة موضوع معين ، كما كان أيضاً يمارس التدريس ، حيث يجتمع إليه تلاميذ كثيرون ، ولما كان الرشيد قد نصبه أميناً للترجمة كما سبق وأشرنا ، ولما كانت الترجمة كما سبق وأثبتنا تمارس داخل بيت الحكمة ، حيث تؤول الكتب المترجمة إليها ، فإننا نضع احتمالية أن بيت الحكمة كان يشهد مثل هذه المجالس العلمية ، والتي كانت تناقش في المرتبة الأولى تلك العلوم القديمة ، والتي كانت جديدة بالنسبة للعرب آنذاك .

كان النسخ أيضاً من الأنشطة التي تم ممارستها في بيت الحكمة عهد الرشيد ، وذلك استناداً لما ذكره ابن النديم بصدد علان الشعوبي ، إذ قال تحت عنوان أخبار علان الشعوبي : "هو علان الشعوبي أصله من الفرس، وكان راوية عارفا بالأنساب والمثالب والمنافرات منقطعاً إلى

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٨٢ .
(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٢٣ .
(٣) تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣١ .
(٤) المصدر نفسه : ص ١٣١ .

البرامكة ، وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة "[1] ، وهذا أمر أقره أيضاً ياقوت الحموي[2]، كما إننا لا نستبعد أن علان الشعوبي هذا إنما كان يقوم بنسخ تلك الكتب التي كان يقوم أمين الترجمة يوحنا بن ماسويه ومساعدوه بترجمتها ، هذا إلى جانب ما ينسخ من مؤلفات أخرى تضم إلى خزانة الحكمة .

ومن الأمور العجيبة حقاً ، ما ورد بالمصادر من أخبار تشير إلى أن بيت الحكمة إنما كان يخضع لإدارة منظمة ، فقد ذكر ابن النديم في إطار حديثه عن كتاب المجسطي[3] ، أن أول من عنى بتفسيره وأخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك ، ففسره له جماعة فلم يتقنوه ولم يرض ذلك ، فندب لتفسيره أبا حسان وسلم صاحب بيت الحكمة فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن احضرا النقلة الموجودين فاختبروا نقلهم وأخذا بأفصحه وأصحه "[4] .

وكما هو واضح من النقل فإن يحيى بن خالد بن برمك استعان بأبي حسان وسلم صاحب بيت الحكمة لتفسير كتاب المجسطي ، وأنهما بذلا قصارى جهدهما في تصحيحه بعدما اختارا أصح النقول لذلك الكتاب .

وواقع الأمر أن هذا النص غاية في الأهمية ، لأمور منها :

أولاً : أن هذا النص يعرفنا بشخصية هامة ، ألا وهي شخص سلم صاحب بيت الحكمة الذي استدعاه يحيى بن خالد بن برمك لتفسير كتاب المجسطي ، ولاشك أن ذلك كان في عهد الرشيد إذ كان يحيى هذا معاصراً للرشيد ، ولاشك أن هذا أيضاً كان قبل نكبة البرامكة ، هذا مما يعني أن سلماً هذا كان يقوم بدور مدير هذه المؤسسة ، وإلا فبما نفسر قوله " صاحب بيت الحكمة ".

ثانياً : يعكس لنا هذا النص أمر آخر غاية الأهمية وهو : احتمالية وجود بعض المترجمين ، أو النقلة ممن كانوا يعملون تحت إشراف صاحب بيت الحكمة وهو سلم ، ولا نستبعد أن أمين الترجمة يوحنا بن ماسويه إنما كان يعمل هو ومترجميه تحت إشرافه .

هذا وقد ذكر ابن النديم سلماً هذا في موضع آخر من مؤلفه في إطار حديثه عن كتاب كليلة ودمنة إذ قال " .. ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات عملها جماعة منهم ابن المقفع ، وسهل بن

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٥٣ .
(٢) معجم الأدباء : ج ١٢ ، ص ١٩١ .
(٣) كتاب المجسطي : هو أحد كتب علوم الأوائل ، وللمزيد من التفاصيل انظر ابن النديم : الفهرست ص ٣٧٤
(٤) ابن النديم : المصدر نفسه ، ص ١٥٣ .

هارون ، وسلم صاحب بيت الحكمة "[١] ، هذا مما يؤكد على أن سلماً هذا كان بمثابة مدير لبيت الحكمة ، كما أنه كان يعمل بالترجمة فيه أيضا .

وقد ذكر سلم صاحب بيت الحكمة في مؤلف آخر ، إذ ذكره ابن عبد ربه في مؤلفه العقد الفريد ، وذكر أن اسمه سلمان ، وفي هذا يقول :" دخل جعفر بن يحيى البرمكي في زي العامة على سلمان صاحب بيت الحكمة ، ومعه ثمامه بن أشرس ، فقال ثمامة : هذا ابو الفضل ، فنهض إليه سلمان فقبل يده ، وقال بأبي أنت ما دعاك على أن تحمل عبدك هذه المنه التي لا أقوم بشكرها ، ولا أقدر أن أكافئ عليها "[٢] ، وهذا النص يوضح أن سلماً كان صاحباً لبيت الحكمة ، وهذا تأكيداً على ما سبق أن أوضحناه .

هكذا ظهرت مكتبة أو مؤسسة بيت الحكمة كظاهرة ثقافية ملموسة في عهد الرشيد ، ومارست دورها في النسخ والتوريق ومجالس العلم والترجمة كما ينبغي لها ، حتى كان عصر المأمون ، والذي شهد الازدهار الحقيقي لتلك المؤسسة ، وهو ما سنعرض له .

٣ ـــ المأمون والازدهار الحقيقي لبيت الحكمة :

كان الخليفة المأمون[٣]ممن يعشقون العلم ويقدرون العلماء ، وقد كان المأمون يعني بالعلم قبل ولايته ، حتى جعل لنفسه مجلس نظر[٤]، وعنه يقول ابن النديم: " هو ... أعلم الخلفاء بالفقه والكلام"[٥]، ولشدة ما كان له من اهتمام بأمور العلم فقد كان حريصاً على القراءة والإطلاع حتى وصل إلى حد التأليف ، فيذكر ابن النديم[٦] أن له من الكتب " كتاب جواب ملك البربر فيما سأل عنه من أمور الإسلام والتوحيد ورسالته في حجج مناقب الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته في أعلام النبوة " .

وكان المأمون من الحريصين على العلم ومعرفة أخبار العرب وأيامها وأشعارها ، وكان أشد حرصاً على مصاحبة أهل العلم ، وفي هذا يذكر ياقوت الحموي[٧].... " لما وصل المأمون

(١ الفهرست ، ص ٤٢٤ .
(٢) العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .
(٣) المأمون : حول اهتمام المأمون بالعلم . أنظر ابن النديم : الفهرست ص ١٦٨ ، وأنظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١٠ ، ص ١٨٣ . وولد المأمون سن' ١٧٠ هـ وولي الخلافة وهو ابن سبع وعشرين سنة ، حيث بويع له في خراسان . أنظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٠ ، ص ١٨٣ ـ ١٩١ ، وانظر أيضا السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ص ٢٤٥ ـ ٢٦٥ .
(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ١٠، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م، ص ٥١
(٥) ابن النديم : الفهرست : ص ١٦٨ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ١٦٨.
(٧) معجم الأدباء : ج١٢ ، ص ٢٧٩ .

إلى بغداد وقر بها قال ليحيى بن أكثم : وددت لو أني وجدت رجلاً مثل الأصمعي ممن عرف أخبار العرب وأيامها وأشعارها فيصحبني كما صحب الأصمعي الرشيد " ، وذلك مما يعكس لنا الحرص الشديد على العلم وأهله .

وليس أدل على مدى حرص المأمون على العلم ونشره ، مما ذكره كل من الخطيب البغدادي وياقوت الحموي وغيرهما بصدد قصته مع الفراء[١]: " ... إذ أمر أمير المؤمنين المأمون الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ، ووكل بها جواري وخدماً للقيام بما يحتاج إليه ، حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوق نفسه إلى شئ ، حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصير له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين ، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود ، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن "[٢].

والنص في غاية الأهمية فهو يكشف لنا كيف أعطى المأمون أوامره بتهيئة الظروف المناسبة للفراء ليؤلف كتابه في النحو ، حتى أنه خصص له حجرة من حجر الدار ، وخصص له خدماً وجواري يقمن بما يشاء ، حتى لا تتطلع نفسه إلى شئ ، لدرجة أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وأخضع له بعض الوراقين لكتابة ما يؤلف حتى انتهى من تأليف كتابه الحدود فأمر المأمون بنسخه وكتابته ، ثم وضعه في الخزائن ، ولا نستبعد أن تكون الخزائن المقصودة هنا هي خزائن بيت الحكمة ، كما نتوقع أيضاً أن تكون الحجرة التي خصصت للفراء لكتابة مؤلفه هي إحدى الحجرات الملحقة ببيت الحكمة ، كما أن النص يعطينا انطباعاً أنه كان لدى المأمون أكثر من خزانة للكتب ، ولذلك قال المؤرخ:" .. وأمر المأمون بكتبه في الخزائن "[٣] ولم يكن الفراء وحده من ألف للمأمون ، بل إن ابن النديم يذكر أن كتاب الحيل للهرثمي الشعراني ، ألف للمأمون في الحروب ، وقد جود الهرثمي في تأليفه وجعله مقالتين[٤].

ولشدة ما كان حرص المأمون على العلم ، فإنه لم يكتف بتشجيع العلماء في داخل بلاد العالم الإسلامي ، بل أنه سعى أيضاً لجلب الكتب والمؤلفات من البلدان الأخرى ، وفي هذا يقول ابن العبري[٥] مشيراً إلى بني العباس " ..... لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، تمم ما بدأه جده المنصور ، فأقبل على طلب العلم في

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١٤ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ . وياقوت الحموي معجم الأدباء ، ج٢٠ ، ص ١٠ ـ ١٣ ، وابن القفطي : أنباه الرواه ، ج ٤ ط ١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ومؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص ١٦ ـ ١٧ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج٦، ص ١٧٦ ـ ١٧٨.

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١٤ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٤) الفهرست ، ص ٤٣٧ .

(٥) تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٦ .

مواضعه ، وراسل ملوك الروم ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة ، فبعثوا إليه منها ما حضرهم ، فاستجاد لهم مهرة التراجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن " . وهكذا يسعى المأمون لجلب علوم الأمم الأخرى وترجمتها ، لتحقيق الفائدة المرجوة منها ، حتى أنه يراسل ملوك الروم طلباً لمزيد من كتب الفلسفة ، ولاشك أن مثل هذه الترجمات كانت تتم في بيت الحكمة حيث تستقر فيه هذه الكتب وغيرها من الكتب ، وهو ما سنعرض له فيما بعد .

والواقع أن سعي المأمون لجلب علوم الأمم الأخرى بحاجة منا لوقفة ، فقد سعى المأمون لهذا مقتفياً آثار جده ووالده المنصور والرشيد ، ويرجع بعض المؤرخين سعي المأمون لجمع علوم الأمم الأخرى وترجمتها إلى حلم رآه المأمون ، فيذكر ابن النديم[١] تحت عنوان " ذكر السبب الذي من أجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد " فيقول:" أحد الأسباب في ذلك أن المأمون رأى في منامه ، كأن رجلاً ابيض اللون مشرباً حمرة ... حسن الشمائل ، جالس على سريره، قال المأمون: وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة ، فقلت من أنت ؟ قال : أنا أرسطاليس ، فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك ، قال : سل ... " فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب ، وأن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في انفاذ ما هو مختار من العلوم القديمة المخزونة والمدخرة ببلاد الروم ، فأجاب إلي ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا وما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ، وقيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم"[٢].

وهذا النص الذي ذكره ابن النديم غاية في الأهمية ، حيث يوضح لنا كيف سعى المأمون لجلب علوم ومعارف الأمم الأخرى على أثر حلم رأى فيه شخصية من أهل العلم ممن عرفوا قديما وهو " أرسطاليس " ، حتى أنه راسل ملوك الروم طلباً لهذه الكتب ، بل وبعث البعثات لجلبها ، ثم خصص من المترجمين من يقوم على ترجمتها ونقلها إلى العربية .

وواقع الأمر فإن حرص المأمون على جلب كتب الأمم الأخرى وترجمتها ، أمر أقره كثير من المؤرخين ، فيذكر ابن خلكان[٣]، مشيراً إلى حب المأمون للكتب وترجمتها فيقول : وكان المأمون مغرماً بتعريبها وتحريرها وإصلاحها ، ومن قبله جعفر البرمكي ، وجماعة من أهل

---

(١) الفهرست ، ص ٣٣٩ وحاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٦٨١ .
(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٦٨١ .
(٣) وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

بيته اعتنوا بها ، لكن عناية المأمون كانت أتم وأوفر" ، وهكذا فإن المأمون يفوق سابقيه في سعيه لترجمة الكتب وحفظها ، وهو أمر أقره ابن خلدون(١) في مقدمته إذ قال في هذا الصدد : "وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له رغبة في العلم رغبة بما كان ينتحله ، فانبعث لهذه العلوم حرصاً ، وأوفد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبعث المترجمين لذلك ، فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا في فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول ، واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ، ودونوا في ذلك الدواوين وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم " .

وهكذا فإن ابن خلدون يؤكد على ما قام به المأمون من السعي إلى جلب علوم الأمم الأخرى ، حيث أوفد الرسل لملوك الروم وطالبهم باستخراج علوم اليونانيين لانتساخها وترجمتها . ومما ينبغي ملاحظته فيما ذكر ابن خلدون ، هو ما يشير إليه من أن دواعي سعى المأمون لذلك ، إنما يرجع إلى ما كان ينتحله المأمون على حد تعبير ابن خلدون(٢).

ومن الأمور التي تستحق التقدير والإعجاب أن المأمون إنما سلك مسلك الدبلوماسيين ، فبعث بجماعة ممن لهم اهتمام وعناية بأمر الكتب والترجمة لاختيار ما يحملوه من هذه الكتب ، فكانت هذه الجماعة بمثابة بعثة ثقافية أرسل بها المأمون لهذا الغرض ، وكان من أفراد هذه البعثة الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، كما ذكر ابن النديم(٣)، وهذا مما يؤكد على أمرين :

أولهما : أن عملية جلب الكتب وترجمتها ، إنما كانت تتم في عهد المأمون تحت رعاية وإشراف بيت الحكمة للمأمون ، ولذلك كان سلم صاحب بيت الحكمة أحد أفراد هذه البعثة ، إن لم يكن رئيسها على ما نتوقع .

ثانياً : أن سلماً هذا عمل أيضاً للمأمون كمدير لبيت الحكمة ، كما سبق وعمل لوالده الرشيد ، مما يشير إلى أن المأمون كان يبقي على بعض الخبرات السابقة محاولاً الاستفادة منها في مجال إدارة خزائن كتبه ، وما يتم فيها من الممارسات الثقافية المختلفة .

---

(١) المقدمة ، ص ٣٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣٧.
(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٣٩ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٦٨١ .

ولم يكتف المأمون بهذه البعثات لجلب الكتب وترجمتها ، بل إنه سعى لتحقيق أعلى مستوى من الترجمة لتلك المؤلفات ، فكان أن أحضر حنين بن إسحاق(١) ليضطلع بهذا الأمر ، خاصة وما عرف عن حنين من جودة النقل ، وفي هذا يقول ابن أبي أصيبعة :" أن المأمون ... أحضر حنين بن إسحاق ، إذ لم يجد من يضاهيه في نقله ، وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين إلى اللغة العربية ، وبذل له من الأموال والعطايا شيئاً كثيراً " (٢).

ولاشك أن حنين بن إسحاق إنما كان يقوم بعملية الترجمة والمراجعة لما ترجم في خزانة الحكمة للمأمون ، خاصة إذا ما علمنا أن حنيناً هذا كان تلميذا ليوحنا بن ماسويه الذي كان يعمل أميناً للترجمة عهد الرشيد والتي كانت تقوم كما ذكرنا في بيت الحكمة .

ومما يؤكد على ذلك أيضاً ــ أن حنين كان يمارس الترجمة في بيت الحكمة للمأمون ، وأن الترجمة إنما كانت تتم تحت إشراف خزانة الحكمة ــ ما ذكره ابن أبي أصيبعه إذ قال: .. " وقد رأيت أشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخطه وبعضها عليه تتكيت بخط حنين بن إسحاق باليوناني وعلى تلك الكتب علامة المأمون"(٣) ، ولعل علامة المأمون هذه كانت تعطي صلاحيات لتلك الكتب لتوضع وتستقر في بيت الحكمة .

وعلى ما يبدو لنا فقد كان لحنين بن إسحاق أكثر من رحلة لجلب الكتب التي يرغب في ترجمتها ، وفي هذا يقول ابن أبي أصيبعة : " قال حنين بن إسحاق ، أنه سافر إلى بلاد كثيرة ووصل على أقصى بلاد الروم لطلب الكتب التي قصد نقلها "(٤). وقد كان حنين مهتماً بنقل الكتب الطبية وخصوصاً كتب جالينوس ، حتى أنه في الغالب لا يوجد شئ من كتب جالينوس إلا وهي بنقل حنين ، أو بإصلاحه لما نقل غيره(٥)، ولاعجب في ذلك فقد كان حنين على حد تعبير بن أبي أصيبعة أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية والدراية فيهم ، مما لا يعرفه غيره من النقلة الذين كانوا في زمانه ، مع ما دأب أيضاً في إتقان العربية ، والاشتغال بها ، حتى صار من جملة المتميزين فيها (٦).

---

(١) هو حنين بن إسحاق العبادي ، وكان فصيحا لسنا بارعا ، شاعرا اقام مدة في البصرة ، وكان شيخه في العربية الخليل بن أحمد ، عرف بجودة النقل ، وفاق الكثيرين في هذا المجال ، أنظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٦ .
(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٢٣٤ .
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٧ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٣٧.
(٦) المصدر نفسه ص ٢٣٤ .

ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب على العربية مثلاً بمثل[١]، هذا مما يدلل على مدى تقدير المأمون للعلم والعلماء ، وحول بعض هذه الكتب يقول ابن أبي أصيبعة :"... أقول : وجدت من هذه الكتب كتباً كثيرة ، وكثير منها اقتنيته ، وهي مكتوبة مولد الكوفي بخط الأزرق كاتب حنين ، وهي حروف كبار بخط غليظ في أسطر متفرقة ، ورقها كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع ، وذلك في تقطيع مثل ثلث البغدادي ، وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب ، وتكثير وزنه لأجل ما يقابله من وزنه دراهم ، وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد ، ولا جرم أنه لغلظه بقي هذه السنين المتطاولة"[٢].

وهكذا يتعمد حنين الكتابة على ورق يتسم بالغلظ ، ويكتب بحروف كبار وعلى أسطر متفرقة بغية الحصول على مزيد من الدراهم التي كان المأمون يبذلها له مقابل ما يترجم وزناً بوزن ، وعلى ما يبدو لنا فإن بقاء كتب حنين بصفة أوراقها إنما يرجع إلى ما شهدته هذه الفترة من عناية واهتمام بتصنيع الورق الكاغد ، خاصة وأن تلك الفترة شهدت بدايات تصنيع الورق بعاصمة الخلافة ، بعد ما كان من أوامر الرشيد بألا يكتب الناس إلا في الكاغد ، فكان طبيعياً أن يظهر الورق بهذه المواصفات .

هذا وقد اتخذ حنين كاتباً ووراقاً ليساعدانه على إنجاز ما يقوم بترجمته ، وكان كاتب حنين يدعى الأزرق[٣]، في حين كان محمد بن الحسن بن دينار[٤]عالم اللغة والشعر يعمل وراقاً ، كان ينسخ ويورق لحنين بن إسحاق في منقولاته[٥] من اللغات الأخرى .

وممن عمل بالترجمة للمأمون : العباس بن سعيد الجوهري مولاه ، الذي نقل له كتاب السموم لشاناق الهندي ، وكان هو المتولي قراءته على المأمون[٦]، ومنهم أيضاً يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويذكر ابن العبري[٧] "أنه كان أميناً على ترجمة الكتب الحكمية، وحسن التأدية للمعاني، ألكن اللسان في العربية، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب".

---

(١) المصدر السابق : عيون الأنباء ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .
(٢) المصدر نفسه : عيون الأنباء ، ص ٢٤٨ .
(٣) المصدر نفسه : عيون الأنباء ، ص ٢٣٤ .
(٤) محمد بن الحسن بن دينار كان وراقاً لابن حنين وكان من العلماء باللغة والشعر ، كان يورق لحنين منقولاته انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ١٨ ، ص ١٢٥ وابن القفطي : أنباه الرواه ج ٣ ص ص ٩١ ، ٩٢ .
(٥) انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء ، ج١٨، ص ١٢٥ ، وابن القفطي: انباه الرواه ، ج٣، ص٩١ وما بعدها
(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٣٦ .
(٧) تاريخ مختصر الدول ص ١٣٨ .

ولعل ما يذكره ابن العبري بصدد يوحنا بن البطريق يجعلنا نخرج بشيئين :

أولهما : أنه كان للمأمون أكثر من أمين على الترجمة، خاصة وأن فترة حكم المأمون امتدت .

ثانيهما: أن عملية الترجمة عهد المأمون من المحتمل أن تكون قد شهدت نوعاً من التصنيف ، فهذا فريق يترجم كتب الحكمة ، وذاك آخر يختص بكتب الطب ، وثالث يختص بكتب الهندسة والرياضيات ، وكان لكل فريق أمين يقوم بعملية الإشراف على سير عملية الترجمة ، وهذا الاحتمال نضعه استناداً إلى ما ذكره ابن العبري من أن يوحنا بن البطريق كان أميناً على ترجمة الكتب الحكمية .

هذا ولم يكتف المأمون بالحرص على ترجمة كتب الأمم الأخرى ، بل إنه سعى لتشجيع الناس على قراءة هذه الكتب ، وهو أمر أقره ابن العبري ، إذ يقول مشيراً لكتب الأمم الأخرى والمأمون : " ... فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها ، فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ، ويلذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده "(١). وهكذا سعى المأمون لجلب علوم الأمم الأخرى ، وسعى لترجمتها ، ثم شجع الناس على قراءتها ، ولعب بيت الحكمة في ذلك دوراً رئيسياً ، فكانت خزانة بيت الحكمة هي المسرح الذي شهد هذا الازدهار لحركة الترجمة عهد المأمون .

ومن الأنشطة الأخرى التي تمت ممارستها في بيت الحكمة للمأمون ، النسخ وهو ما أشار إليه كل من ابن النديم ، وياقوت الحموي في إطار الترجمة لعلان الشعوبي ، إذ أشارا إلى أنه كان يعمل بالنسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة(٢) ، ولاشك أن علاناً هذا كان ينسخ ما يقوم المترجمون بترجمته ، إلى جانب قيامه بنسخ ما يُؤلف للخزانة .

كذلك كان التجليد من أهم الأنشطة التي تمت ممارستها في بيت الحكمة للمأمون ، وهذا استكمالاً لشكل الكتاب المترجم أو المؤلف الذي يُنسخ خصيصاً لخزانة بيت الحكمة ، ومن المجلدين الذين ورد ذكرهم ابن أبي الحريش ، وقد ذكر ابن النديم صراحة أنه كان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون(٣).

ولا نستبعد أن يكون بيت الحكمة قد شهد بعض الأنشطة الخاصة بعلم الفلك ، خاصة ما ذكر من أن المأمون كان له عناية بهذا الشأن ، وفي هذا يقول بن خلدون في إطار حديثه عن

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول: ، ص ١٣٦ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٣ ، وياقوت الحموي : معجم الأنباء ج ١٢ ، ص ١٩١ .
(٣) ابن النديم : المصدر السابق ، ص ١٤ .

علم الهيئة : " هو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتغيرة ، وكان اليونانيون يعتنون بالرصد كثيراً ويتخذون له الآلات التي توضع ليرصد بها حركة الكوكب المعين ، وكانت تسمى عندهم ذات الحلق ...وأما في الإسلام فلم تقع به عناية إلا في القليل وكان في أيام المأمون شئ منه وضع الآلة المعروفة بالرصد المسماة ذات الحلق وشرع في ذلك ولم يتم"(١). وهكذا فقد كان المأمون أبرز من سعى للاهتمام بهذا العلم ، ويذكر ابن النديم " أنه لما أراد الرصد تقدم إلى ابن خلف المرورذي فعمل له ذات الحلق"(٢) . ولا نستبعد أن تكون هذه الآلة التي صنعت للمأمون هي نتاج أبحاث ودراسات تمت على ما يبدو في بيت الحكمة ، كما يبدو أن بيت الحكمة شهد بعض المناظرات التي كانت تعقد حول موضوعات مختلفة"(٣)

وننتقل الآن لمناقشة نقطة غاية في الأهمية ، ألا وهو التنظيم الإداري لبيت الحكمة الخاص بالمأمون ، وأبرز ما نلحظه على الشكل الإداري والتنظيمي لبيت الحكمة زمن المأمون أنه كان يخضع لإشراف ومراقبة شخصية كبرى كانت تعرف بصاحب بيت الحكمة ، والمأمون في هذا يسلك مسلك أبيه الرشيد الذي عين سلماً من قبل كمدير لبيت الحكمة ، حيث لقب صاحب بيت الحكمة .

وأول من يطالعنا كصاحب لبيت الحكمة عهد المأمون هو سلم المعروف بسلم صاحب بيت الحكمة ، وقد سبق وأشرنا من قبل إلى أن سلماً هذا تولى إدارة بيت الحكمة للرشيد(٤) ، ولا نستبعد أن يكون المأمون قد أبقى عليه بعد والده الرشيد خاصة وما ذكره كل من ابن النديم وحاجي خليفة أن سلماً صاحب بيت الحكمة كان ضمن أفراد البعثة التي بعث بها المأمون لاختيار الكتب التي سيتم ترجمتها من بلاد الروم وهو مما سبق وأشرنا إليه(٥) .

وهناك شخصية أخرى ذكرت كصاحب لبيت الحكمة أو خزانة الحكمة عهد المأمون ، ورد ذكرها بالمصادر ، ألا وهي شخصية سهل بن هارون المعروف بابن راهيون(٦)، وعنه يقول دكتور يوسف العش : كان سهل بن هارون أول من عين صاحباً لبيت الحكمة(٧)، وهو ما لا نميل إليه خاصة وما أثبتناه من أن سلماً كان صاحب بيت الحكمة للرشيد قبل المأمون .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤٢ .
(٢) ابن النديم : المصدر السابق ، ص ٣٨٤ .
(٣) ذكر المسعودي أن المأمون كان يجلس للمناظرات في الفقه يوم الثلاثاء ولا نستبعد أن يكون ذلك ببيت الحكمة . أنظر المسعودي : مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٩ .
(٤) أنظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٧٤ .
(٥) أنظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٣٩ .
(٦) ابن النديم : المصدر نفسه، ص ١٥ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ٢٢٦ .
(٧) دور الكتب العربية ، ص ٦٩ .

على أية حال ، فقد ذكر ابن النديم صراحة أن سهل بن هارون كان صاحب بيت الحكمة للمأمون ، وقد ذكره ياقوت الحموي أيضاً فقال : " سهل بن هارون بن راهيون أبو محمد الفارسي الأصل الدستمسياني ، دخل البصرة واتصل بالمأمون ، فولاه خزانة الحكمة ، وكان أديباً كاتباً شاعراً حكيماً شعوبياً يتعصب للعجم على العرب شديداً في ذلك "(١).

وقد ذكره ابن النديم في مؤلفه الفهرست في أكثر من موضع(٢)، ولكن الأمر الذي يسترعي الانتباه هو ما قاله بصدده ، فقد قال ما يشير إلى أن سهل بن هارون كان صاحب بيت الحكمة مع سلم صاحب بيت الحكمة، والذي أثبتنا فيما سبق أن المأمون أبقى عليه ، فقال : " ... سلم صاحب بيت الحكمة مع سهل بن هارون"(٣)، وذكر في موضع آخر في إطار ذكره لبلغاء ذلك العصر وتحت عنوان أسماء البلغاء ما يفيد بأن سهل بن هارون هذا كان له شريك في إدارة بيت الحكمة فقال : " سهل بن هارون صاحب بيت الحكمة للمأمون ، سعيد بن هارون شريك سهل ابن هارون على بيت الحكمة"(٤) ، وفي موضع ثالث ذكر سعيد بن هارون الكاتب فقال : " شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة وكان بليغاً فصيحاً "(٥) . هذا مما يجعلنا في حيرة من ذلك الأمر ، فمن منهم كان المدير الفعلي لبيت الحكمة عهد المأمون ، وأيهم كان شريكاً له ؟ .. وفي محاولة منا لوضع تصور لما كان عليه الوضع في بيت الحكمة ، نرى أنه من المحتمل أن يكون سلم ــ المعروف بصاحب بيت الحكمة ــ قد تولى إدارة بيت الحكمة للمأمون في أوائل عهده إبقاءاً عليه ، خاصة وأنه كان المتولي لبيت الحكمة عهد والده الرشيد ، وللاستفادة من خبراته في هذا المجال ، ثم يحتمل أن يكون المأمون قد قلد سهل بن هارون الشعوبي رئاسة بيت الحكمة إلى جانب سلم استناداً إلى ما ذكره ابن النديم ، إذ قال سلم صاحب بيت الحكمة مع سهل بن هارون(٦) ، مما يعني أنهما معاً كانا يديران بيت الحكمة ، وبعد سلم قلد المأمون سعيد بن هارون شريكاً لسهل بن هارون على بيت الحكمة .

على أن هذا يدفعنا لتساؤل ألا وهو : ما الذي يدفع بالمأمون بأن يسند رئاسة بيت الحكمة وإدارته إلى شخصين معاً في وقت واحد ؟ ولماذا لم يكتف بمدير ورئيس واحد لبيت الحكمة ؟!

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٨٢ ، وانظر أيضاً ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ٢٢٦ .
(٢) أنظر ابن النديم : المصدر السابق ، ص ١٥ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ٤٢٨ .
(٣) ابن النديم : المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٧٤ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .

حقيقة لم تجد علينا المصادر بما يجيب على تساؤلنا هنا إلا أننا نضع بعض الاحتمالات تفسيراً لذلك المسلك الذي سلكه المأمون .

أولا: نحن لا نستبعد أن يكون بيت الحكمة زمن المأمون قد اتسع اتساعاً هائلاً من حيث مساحته ، مما جعل من الصعوبة بمكان أن يخضع لإدارة وإشراف شخصية واحدة ، فكان أن أسندت إدارته إلى شخصين ، ونستند إلى مسألة الاتساع هذه إلى ما ذكر من أن المأمون كان له أكثر من خزانة ، في إطار ما ذكر بصدد الفراء وكتابه الذي ألفه للمأمون ، من أن المأمون أعطى أوامره بخزنه في الخزائن ، مما يدلل على أنه كان له أكثر من خزانة . كما لا نستبعد أن تكون كل خزانة اختصت بوجه من وجوه النشاط التي مورست في بيت الحكمة .

ثانياً : فإننا نضع احتمالية اتساع حجم الأنشطة التي كانت تمارس داخل بيت الحكمة ، فهذا نسخ قام به علان الشعوبي وغيره، وهذه ترجمة قام بها حنين بن إسحاق وغيره من المترجمين وذاك تجليد قام به ابن أبي الحريش وغيره من المجلدين وهذا تأليف قام به كل هؤلاء . فقد ورد بالمصادر ما يشير إلى أن كل شخصية عملت أو اتصلت ببيت الحكمة كان لها مؤلفاتها الخاصة[1] ولاشك أن مثل هذه المؤلفات كانت تستقر في بيت الحكمة، أو على الأقل نسخاً منها هذا بعد أن يقوم نساخ بيت الحكمة بنسخها ، ولعل مثل هذا الاتساع في حجم الأنشطة التي ظهرت ومورست ببيت الحكمة كان دافعاً للمأمون بأن يتخذ أكثر من مدير لبيت الحكمة .

هذا وقد حاول بعض المؤرخين الفصل ما بين بيت الحكمة وخزانة الحكمة ، وأشاروا إلى أن بيت الحكمة كان مؤسسة كاملة ، وأن الخزانة إنما هي جزء من تلك المؤسسة[2]، وواقع الأمر أننا نرى أن خزانة الكتب ، أو خزائن الكتب التي شملها بيت الحكمة ـــ استناداً لما أثبتنا من أن بيت الحكمة يشمل أكثر من خزانة ـــ كان أهم ما يميز هذه المؤسسة ، والتي من أجلها أنشئت تلك المؤسسة لخدمة هذه الخزانة ، فكل ما يصب فيها من العلوم والمعارف ، إنما كان بغرض خدمة المكتبة ، فالترجمة كانت لكتب المكتبة التي جلبت من الخارج ، والنسخ كان للإكثار من حجم المكتبة ، والتجليد كان للحفاظ على محتويات المكتبة ، حتى مجالس العلم والمناظرات إنما كانت تقوم على كتب ومحتويات المكتبة .

---

(١) كان لكل من عمل في بيت الحكمة مؤلفاته الخاصة ومن أمثلتنا على ذلك ما ذكر من أن علانا الشعوبي كان له مؤلفات منها كتاب المثالب ، وكتاب فضائل ربيعه ، وكتاب المنافرة وغيرهم : أنظر ابن النديم : الفهرست ص ١٥٣ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١٢ ، ص ١٩١ ، كذلك كان لسهل بن هارون مؤلفات منها كتاب ثعلة وكتاب النمر والثعلب ، وغيرها كثير . أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١١ ، ص ٢٦٦ وأنظر أيضاً ابن النديم : الفهرست ص ١٨٤.

(٢) أنظر : د. يوسف العش : دور الكتب العربية ، ص ١٠٠

وننتقل الآن لمناقشة نقطة غاية في الأهمية تختص بطبيعة بيت الحكمة ، وهل كان بيت الحكمة مكتبة عامة ، أو شبه عامة ، أم خاصة ، وهي أصناف المكتبات التي يميل المؤرخون المحدثون إلى تصنيفها ، وفي هذا يفترض الأستاذ يوسف العش : أن بيت الحكمة كان مكتبة عامة أو شبه عامة ، مستنداً في ذلك إلى ما ذكر عن المأمون وأنه كان يحض الناس على قراءة الكتب المترجمة ، ويشجعهم على دراستها[1]، وواقع الأمر أن هذا لا يمكن الجزم به .

ولتحديد صفة بيت الحكمة وهل كان مكتبة عامة أم خاصة ، فإنه ينبغي لنا أولاً تحديد صفة وهوية المترددين عليه ، ومن أتيح لهم دخول هذه المؤسسة وممارسة الأنشطة المختلفة فيها ، وقد أشرنا إلى طرف منهم ضمناً ، وكان معظمهم إنما يعملون لخدمة هذه المؤسسة ، أو في خدمتها إما في ترجمة ، وإما في نسخ أو تجليد أو توريق أو مناظرات ، حتى مجالس العلم التي كانت تقام بداخلها إنما هي لخدمة هذه المؤسسة ، ويذكر ابن النديم أن الخوارزمي[2]" كان منقطعاً إلى خزانة الحكمة " ، ولعل ما ذكره ابن النديم بصدد الخوارزمي يضعنا في حيرة ، فهل كان الخوارزمي من العاملين ببيت الحكمة ، أم كان من المترددين عليه ، وهذا ما لم نجد الدليل على أي منه فيما أطلعنا عليه من مصادر ، على أن ابن النديم يذكر أنه كان من أصحاب علوم الهيئة ، وقد سبق وأشرنا إلى أن المأمون كان له اهتمام بهذا العلم ، هذا مما يجعلنا نضع احتمالية أنه إنما كان يعمل ببيت الحكمة ، وهكذا كان تردد العلماء على بيت الحكمة إنما هو لخدمة المكتبة وخدمة أغراض المأمون التي من أجلها اهتم ببيت الحكمة ، وأولاه اهتمامه وعنايته ، ولعل أهم أغراضه كانت جمع علوم الأمم الأخرى وترجمتها ونسخها ولا نستبعد أن يكون هؤلاء العلماء قد استفادوا من محتويات هذه المكتبة ، هذا كما إننا لم نجد فيما اطلعنا عليه من مصادر ما يشير إلى أن أحداً من عامة الناس اتيح له دخول هذه المؤسسة وممارسة الإطلاع والقراءة بها ، وعليه فإننا لا نميل إلى القول بأنها كانت مكتبة عامة أو شبه عامة ، ونؤيد د. عبد الستار الحلوجي فيما ذهب إليه من أن بيت الحكمة إنما كان من المكتبات الخاصة وفي هذا يقول الدكتور/ عبد الستار الحلوجي :" على أنه لا ينبغي ألا نظن أن خزانة الحكمة أو مثيلاتها من المكتبات التي أنشئت فيما بعد ، وألحقت بقصور الخلفاء كانت مفتوحة لجماهير الشعب ، فقد كانت في الواقع مكتبات خاصة بأصحابها ، وكانت مقصورة على

---

(١) د. يوسف العش ، دور الكتب العربية ، ص ٦٨ .

(٢) الخوارزمي : هو محمد بن موسى ، أصله من خوارزم ، من أصحاب علوم الهيئة ، وكان الناس قبل الرصد وبعده يولون على مؤلفاته . انظر : ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٨٣ .

أرستقراطية القوم ، أرستقراطية الفكر على أقل تقدير ، ولكنها في الوقت نفسه كانت نموذجاً احتذاه أولوا العلم والمعرفة من ذوي السعة"[١].

هذا عن صفة بين الحكمة ، فماذا عن محتوياتها ، لاشك أن بيت الحكمة حوى كل الكتب التي ترجمت ، والتي جلبت من بلاد الروم ، والتي دارت موضوعاتها حول علوم الفلسفة ، والمنطق ، وعلوم الهيئة والنجوم ، والطب والكيمياء وغيرها مما أشرنا إليها ضمناً في إطار التعرض لحركة الترجمة داخل بيت الحكمة ، كما أنها لاشك حوت مؤلفات فقهية عديدة خاصة وما ذكره المسعودي[٢] من أن " المأمون كان يجلس للمناظرات في الفقه يوم الثلاثاء ، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة .... ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس" هذا مما يدلل على ما كان له من اهتمام بالعلوم الفقهية ، فلاشك أن مكتبة بيت الحكمة حوت مؤلفات حول هذه الموضوعات ، كما حوت كل المؤلفات التي ألفت للمأمون ، والتي اشرنا إليها فيما سبق ككتب الفراء والهرثمي وغيرهم . فقد كانت خزانة الحكمة وعلى ما يبدو لنا تتسم بالموسوعية .

هكذا شهد عصر المأمون ظاهرة ثقافية هامة عبرت عن نفسها في مؤسسة بيت الحكمة ، التي كانت بحق علامة مضيئة على طريق إنشاء دور وخزائن الكتب في الإسلام ، فكانت مثلاً أحتذي به الكثير من العلماء والمفكرين فسعوا إلى إنشاء خزائن كتب على غرارها ، والواقع أن عصر المأمون كان انعكاساً لشخصه ، فكما أحب المأمون العلم وسعى لجمعه وترجمته ونسخه وإفادة الناس منه ، فقد انعكس ذلك أيضاً على عامة الناس في عصره وعصر أبيه وجده من قبله ـــ خاصة وما كان لهما من دور في إثراء الحركة العلمية والثقافية ـــ فنجد الكتب وقد بدأت في الانتشار مقارنة بما سبقها من عصور ، ونجد المكتبات وقد بدأت في الانتشار والاتساع وأدلتنا على ذلك كثيرة .

---

(١) د . عبد الستار الحلوجي : المخطوط العربي ، ص ١٠٠ .
(٢) مروج الذهب : ج ٤ ، ص ١٩ .

٤ ــ نماذج لخزائن كتب بعض العلماء والعامة :

تأثر الناس العامة والخاصة بما كان الخفاء بني العباس (المنصور والرشيد والمأمون) من اهتمامات بأمر الكتب والمكتبات، وبما شهده ذلك العصر من اتساع للحركة العلمية والثقافية وكان من أثر ذلك أن انتشرت المكتبات الخاصة بشكل لم يسبق له مثيل ، وفي هذا يذكر ابن النديم(١)أن الواقدي(٢) خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً كل قمطر منها حمل رجلين ، كما يذكر أنه كان له غلامان مملوكان يكتبان له الليل والنهار ، وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار(٣)، وقد ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء فقال مشيراً إليه : "هو من طبق الأرض شرقها وغربها ذكره ... وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم والأحداث الكائنة في وقته وبعد وفاته ، وكتب الفقه واختلاف الناس في الحديث وغير ذلك "(٤) ، فقد كان الواقدي هذا على حد تعبير ياقوت الحموي أحد أوعية العلم وصاحب التصانيف الكثيرة ، ومما قيل بصدد خزانة كتبه ، أنه لما تحول من الجانب العربي يقال أنه حمل كتبه على عشرين ومائة وقر ، والوقر كما نعلم هو الحمل الثقيل .

ومما يجدر الإشارة إليه أن خزانة كتب الواقدي التي اشرنا غليها كانت تتسم بالتنوع هذا استناداً إلى ما ذكره ياقوت الحموي بصدد الواقدي والمجالات التي كتب فيها ، فكما أن كتاباته تنوعت ، لاشك أن خزانة كتبه حوت كتباً متنوعة ، وعلى ما يبدو لنا أن الواقدي قد أتخذ من يعمل له في خزانة كتبه حتى كان له كاتبان يكتبان له الليل والنهار كما سبق واشرنا ، هذا إلى جانب محمد بن سعد المعروف بكاتب الواقدي(٥).

ومن خزائن الكتب الخاصة التي شهدها ذلك العصر والتي يروق لنا ذكرها اقتناعاً منا بأنها إنما كانت تعبر عن روح ذلك العصر ، وما ساده من اهتمام بأمر الكتب والمكتبات ، خزانة كتب اسحق بن إبراهيم الموصلي(٦)، والذي عاصر كل من الرشيد والمأمون ، وكان على علاقة وثيقة بهما ، وقد اشتهر إسحاق بن إبراهيم الموصلي بالغناء إلا أنه كان من أهل العلم والمعرفة ، وعنه قال ياقوت الحموي " إسحاق بن إبراهيم الموصلي كنيته أبو محمد ...

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤٤ .
(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ، كان يتشيع ، كان عالماً بالمغازي والفتوح ، والفقه والأحكام ، ولد ١٣٠ هجرية وتوفي ٢٠٧ هجرية . المصدر نفسه ص ١٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٤٤ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ص ٢٧٧ .
(٥) كان كاتباً للواقدي ، وكان له مؤلفاته الخاصة ، أنظر ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤٥ .
(٦) كنيته أبو محمد ، وكان له موضعه من العلم ، ومكانة من الأدب والشعر ، وكان الغناء أصغر علومه ، أنظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٦ ، ص ٥ ـ ٧٥ .

وموضعه من العلم ومكانه من الأدب والشعر لو أردنا استيعابه طال الكتاب وخرجنا عن غرضنا من الاختصار ، ومن وقف على الأخبار وتتبع الآثار علم موضعه"[١]، وهكذا فقد كان إسحاق الموصلي من أهل العلم ، حتى أنه سأل المأمون أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنيين ، ويذكر الأصمعي بصدد كتبه فيقول : خرجت مع الرشيد ، فلقيت إسحاق الموصلي بها ، فقلت له :" هل حملت شيئاً من كتبك ؟ فقال : حملت ما خف ، فقلت : كم مقداره ، فقال : ثمانية عشر صندوقاً ، فعجبت وقلت : إذا كان هذا ما خف فكم يكون ما ثقل ؟ فقال : أضعاف ذلك "[٢]. ولنا أن نتخيل حجم هذه الأضعاف التي أشار إليها إسحاق الموصلي .

وممن عرف عنهم كثرة الكتب والمؤلفات هشام الكلبي[٣]، الذي توفي في عام ست ومائتين من الهجرة ، وقد ذكر له ابن النديم مجموعات متنوعة من الكتب والمؤلفات ما بين كتب في المآثر والأحلاف ، وأخرى في أخبار الإسلام وأخبار البلدان ، وأخبار الشعر وأيام العرب ، وكتب في الأسمار وغيرها في الأنساب ، وقد ذكر له ابن النديم أكثر من مائة وأربعين كتاباً[٤] فإذا كان هذا حجم مؤلفاته ، فما بالنا بالحجم الفعلي لمكتبته ، ومنهم أيضاً المدائني الذي ذكر له ابن النديم أكثر من مائتين وثلاثين مؤلفاً ، وتعددت موضوعاتها ، وتنوعت ما بين أخبار قريش وأخبار الخلفاء، وكتبه في الأحداث والفتوح وأخبار العرب ، وأخبار الشعراء وما إلى ذلك [٥].

على أية حال فقد انتشرت المكتبات الخاصة بشكل هائل لم يسبق له مثيل[٦]، وقد دللنا على ذلك ببعض المكتبات التي اشرنا إليها . وهذه في حقيقتها ليست سوى أمثلة بسيطة تعكس لنا الروح التي سادت العصر من الحرص على الكتب والمكتبات ، والواقع أن لدينا الكثير من الأمثلة ، إلا أننا اكتفينا بذلك القدر حتى لا نخرج بالموضوع عن مضمونه ، ولعل هذا الانتشار لخزائن الكتب يجعلنا نتساءل عن الأسباب والدواعي الكامنة وراء هذا الإقبال على الكتب والسعي لإنشاء خزائن الكتب الخاصة وهو ما سنعرض له فيما هو آت .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٨ ، وأنظر أيضاً الأصفهاني : كتاب الأغاني ، ج ٥ ، ص ٣١٣ .
(٣) وهو عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ودقائقها ت ٢٠٦ هـ ، أنظر : ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤٠.
(٤) الفهرست : ، ص ص ١٤١ ـ ١٤٣ .
(٥) المصدر نفسه : الفهرست ، ص ١٤٧ ـ ١٥١ .
(٦) لإدراك حجم الاتساع والازدياد الذي بلغته خزائن الكتب الخاصة في كل من العراق وبلاد الشام ومصر يرجع إلى كوركيس عواد : خزائن العراق ، ود. يوسف العش : دور الكتب العربية .

رابعاً : العوامل التي أثرت على انتشار خزائن الكتب :

لاشك أن ذلك الازدهار والاتساع الذي شهدته حركة إنشاء خزائن الكتب ، لم يكن لينبع من فراغ ، بل كان هناك بعض العوامل التي أثرت بشكل أو بآخر في إثراء هذه الحركة ، وأبرز هذه العوامل : حركة الفتوحات الإسلامية ، ثم ظهور الورق والوراقة وازدهار حركة الترجمة ، وظهور العناصر الفارسية التي لعبت دوراً هاماً في الارتقاء بهذه الحركة ، واهتمام الخلفاء بالكتب والمكتبات .

وقد لعبت حركة الفتوحات الإسلامية[1] دوراً بارزاً في التأثير على سير حركة الكتب والمكتبات في العالم الإسلامي ، خاصة وأن حركة الفتوحات هذه أتاحت للمسلمين الفرصة للإطلاع على ثقافات وحضارات الأمم الأخرى ، فكان أن تأثروا بها وأخذوا بأحسنها . ودليلنا على ذلك ما ذكره ابن أبي أصيبعة[2] إذ أشار إلى أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة ، مما وجد بأنقرة وعمورية ، وسائر بلاد الروم ، كما يشير ابن خلدون[3] ضمنا في مقدمته إلى أثر حركة الفتوحات الإسلامية على ما نتج عنها من كثرة المؤلفات ، إذ جعل من اتساع نطاق الدولة وضخامتها سبباً وراء كثرة المؤلفات ، والحرص على تناقلها فقال : "كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية ، والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط ، وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة .... إذ هذا كله من توابع العمران ، واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما فكثر التأليف العلمي والدواوين ، وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين واختصت بالأمصار العظيمة والعمران " ، كما قال : " طما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغوا فيه"[4] ، كما أشار أيضاً في الفصل الذي عقده للحديث عن الخط والكتابة ، أن الفتوحات الإسلامية كانت وراء الاستجادة في الخطوط ، وبالتالي في الكتب وخزائن الكتب ، فقال :" ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة ، واحتاجت الدولة إلى الكتابة

---

(١) حول حركة الفتوحات الإسلامية أنظر د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ، ط ١٣ ، دار الجيل ، بيروت ومكتبة النهضة العربية - القاهرة ، ص ٢٤٥ وما بعدها ١٩٩١م .
(٢) عيون الأنباء ، ص ٢٢٣
(٣) المقدمة ، ص ٢٩٦ .
(٤) ابن خلدون : المصدر نفسه: ، ص ٢٩٥ .

استعملوا الخط وطلبوا صناعته ... فتفرقت الإجادة فيه ... ثم انتشر العرب في الأقطار والممالك وافتتحوا أفريقية والأندلس ، واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت في العمران"(١) .

ولاشك أن هذا كله ساعد على ازدياد أعداد الكتب والمؤلفات مما ظهرت معه الحاجة ملحة إلى الزيادة في عدد خزائن الكتب لحفظ هذه المؤلفات ، وتسهيل تداولها بين الناس .

كذلك كان ظهور الورق والوراقة من العوامل التي أثرت وبشكل مباشر على انتشار خزائن الكتب ، ذلك لأن ظهور الورق ساهم في ازدياد عدد الكتب والمؤلفات فكثرت التأليف وازداد النسخ وازداد عدد الوراقين وظهرت مع هذا كله الحاجة إلى زيادة عدد خزائن الكتب حاجة ملحة .

كان لحركة الترجمة التي شهدها العصر العباسي دور هائل في التأثير على خزائن الكتب، خاصة إذا ما علمنا أن الترجمة ارتبطت خاصة لدى الخلفاء والأمراء بخزائن الكتب ، فقد كانت الترجمة تمارس كما سبق واشرنا في بيت الحكمة للرشيد والمأمون ، يبدو أثر الترجمة على دور وخزائن الكتب في ذلك النتاج الهائل الذي أفرزته حركة الترجمة من الكتب والمؤلفات ، ويكفي أن نطالع مصدراً كالفهرست لابن النديم لنعلم حجم هذه الحركة ، وما أنتجته من كتب معربة عن الفارسية واليونانية ، والسريانية والهندية وغيرها ، حتى كان من الطبيعي أن تنشأ دور وخزائن الكتب لحفظ هذا التراث .

كان ظهور العناصر الفارسية من أهم العوامل التي أثرت على انتشار دور وخزائن الكتب خاصة وما عرف عن الفرس من اهتمام بأمر العلوم والمعارف ، حتى أنهم كانوا يتفننون في عمل خزائن الكتب للحفاظ على تراثهم العلمي ، وهو أمر أشار إليه ابن النديم(٢)ضمناً :" إذ قال نقلاً عن أبي معشر من كتاب له : أن ملوك الفرس بلغ من عنايتهم بصيانة العلوم وحرصهم على بقائها على وجه الدهر ، وإشفاقهم عليها من أحداث الجو وآفات الأرض ، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث، وأبقاها على الدهر ، وأبعدها عن التعفن والدروس" .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٤ .
(٢) الفهرست ، ص ٣٣٥ .

ويكفينا لإبراز أثر العناصر الفارسية [1] على انتشار دور وخزائن الكتب أن نطالع مكتبة كبيت الحكمة للرشيد والمأمون ، والتي كان يعمل بها عدد هائل من العلماء ممن يرجعون إلى أصل فارسي ، منهم أبو سهل الفصل بن نوبخت ، وعلان الشعوبي ، وسهل ابن هارون ، وغيرهم كثير .

كذلك كان لاهتمام الخلفاء بأمر الكتب والمكتبات أثره في التوسع في إنشاء المكتبات ، إذ انعكس ذلك الحرص البالغ على اقتناء الكتب المترجمة والمؤلفة على العلماء ممن كانوا على اتصال بأولي الأمر من الخلفاء والوزراء وغيرهم ، فسعوا بدورهم إلى ترجمة الكتب والتأليف في مجالات شتى مختلفة إرضاءاً لأهل الحكم ، ودليلنا على ذلك ما سبق وذكرناه بصدد كل من أبي جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، والخليفة المأمون ، أولئك الذين أحاطوا أنفسهم بأهل العلم والأدب ، فانعكس ذلك على هؤلاء العلماء ، وكان ذلك مشجعاً لهم على إفراز المزيد والمزيد من هذا النتاج الأدبي ، والعلمي الذي ظهرت معه الحاجة الملحة إلى ظهور ما عرف بخزائن الكتب .

نخلص مما سبق إلى أمور منها :

أولا : أن مسألة الاحتفاظ بالكتب والمدونات ، كانت أمراً وارداً لدى عرب الجاهلية ، بدليل احتفاظهم بالكتابات الهامة ــ على قلتها ــ في جوف الكعبة .

ثانياً : أن الإسلام جاء ليدعم العلم ، فجاء داعياً إلى القراءة والتعلم ، فازداد الإقبال على التعليم وازدادت عدد الكتابات ، والمؤلفات ، مما ظهرت معه الحاجة ملحة لظهور ما عرف بخزائن الكتب لتحفظ فيها تلك الكتابات والمؤلفات .

ثالثاً : أن العصر الأموي شهد الظهور الفعلي لخزائن الكتب ، خاصة تلك الكتب الخاصة بالخلفاء ، وأولي الأمر كمعاوية بن أبي سفيان ، والوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، كما شهد أيضاً ظهور المكتبات العامة بدليل ما ذكر عن الجحمي .

---

(١) التأثر بالثقافة الفارسية ، لم يكن وليد العصر العباسي ، بل يرجع إلى العصر الجاهلي ، وليس أدل على ذلك من طبيب العرب الحرث بن كلدة الذي رحل لبلاد فارس لتعلم أصول الطب ، حيث مارسه هناك وظل التأثر بالثقافة الفارسية بحكم الجوار ، حتى كان العصر العباسي الذي شهد ازدياد تلك التأثيرات الفارسية ، وليس ادل على ذلك من تلك الرواية الذي ذكرها ابن خلكان بصدد جلب بعض الكتب الفارسية ، التي ندب لقراءتها سان التنوخي . أنظر ابن خلكان , وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص ١٩٤. ولمعرفة المزيد عن أثر الثقافة الفارسية في الحضارة الإسلامية ، انظر د. حسن مجيب المصري : أثر الفرس في حضارة الإسلام ، مقال بكتاب دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، المجلد الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م ، ص ١٧٠ ، وصفحات أخرى .

رابعاً : أن العصر العباسي هو الذي شهد الازدهار الفعلي والانتشار الحقيقي للمكتبات وخزائن الكتب . وذلك على أثر ازدياد عدد المؤلفات والمصنفات .

خامساً: أن هناك عوامل أثرت بشكل مباشر على ازدياد عدد خزائن الكتب في العالم الإسلامي وكان ابرز هذه العوامل ، حركة الفتوحات الإسلامية التي أتاحت للمسلمين التعرف على تراث الأمم الأخرى ونقله ، ثم حركة الترجمة التي تبعت حركة الفتوحات الإسلامية ، والتي قامت في المقام الأول على ترجمة الكتب التي تم جلبها من البلدان المفتوحة ، وهو ما سبق وأشرنا إليه ، ثم كان ظهور الورق والوراقين ، وما لعبه من دور في ازدياد أعداد الكتب والمؤلفات ، مما ظهرت معه الحاجة ملحة إلى زيادة إعداد خزائن الكتب ، ثم اهتمام الخلفاء بأمر الكتب بجمعها ونسخها وترجمتها والاحتفاظ بها ، لاشك أن مثل هذا الاهتمام كان له أثره على أهل العلم ، ممن كانوا على اتصال بهم ، وكذلك كان لظهور العناصر الفارسية أثره في بلورة شكل خزائن الكتب ، خاصة وما عرف عن الفرس من الاهتمام بالكتب والمكتبات .

سادساً: خلصنا أيضاً إلى أن عصر المأمون كان له خصوصية في هذا الموضوع ، خاصة وما كان من اهتمامه بثقافات الحضارات السابقة ، ثم حرصه على جلب هذا التراث ، فكان أن شهد عهده الازدهار الحقيقي لمكتبة بيت الحكمة ، كما أن عهده شهد ازدياد عدد العناصر الفارسية التي عملت في بيت الحكمة ، هذا مما كان دافعاً لنا لدراسة دور وخزائن الكتب في المشرق الإسلامي (إيران ، خراسان ، وما وراء النهر) لبيان أثر أبناء هذه المناطق في إثراء الحركة الثقافية في الحضارة الإسلامية بصفة عامة ، وإثراء عالم المكتبات بصفة خاصة .

****

الفصل الأول

خزائن كتب الحكام والوزراء في المشرق الإسلامي

(إيران ـ خراسان ـ وما وراء النهر)

« الفصل الأول »

(خزائن كتب الحكام والوزراء في المشرق الإسلامي)
(إيران - خراسان - وما وراء النهر)

أولا: اهتمام حكام المشرق بالعلم وأهله والكتب والمؤلفات:

١ ـ الطاهريون. ٢ ـ السامانيون. ٣ ـ عضد الدولة البويهي. ٤ ـ الغزنويون.

ثانياً: اهتمام وزراء المشرق بالعلم وأهله وبالكتب :

١ ـ أبو الفضل بن العميد. ٢ ـ الصاحب بن عبـــاد .

ثالثاً: خزائـــن كتـــب الحكـــام :

١ ـ خزانة كتب الطاهريين. ٢ ـ خزانة كتب السامانيين .

٣ ـ خزانة كتب عضد الدولة البويهي:

أ ـ محتويات الخزانة .

ب ـ إجراءات دخول الكتب للخزانة .

ج ـ صفة وشكل الكتب بالخزانة .

د ـ كيفية جمع عضد الدولة لمحتويات الخزانة .

هـ ـ العاملون بالخزانة .

و ـ خدمة الاستعارة داخل الخزانة.

٤ ـ خزانة كتب الغزنويين .

رابعاً: خزائـــن كتـــب الوزراء :

١ ـ خزانة كتب أبي الفضل بن العميد :

أ ـ محتويات الخزانة .

ب ـ كيفية جمع ابن العميد لمحتويات الخزانة .

ج ـ العاملون بالخزانة .

٢ ـ خزانة كتب الصاحب بن عبـــاد:

أ ـ طبيعة محتويات الخزانة . ب ـ كيفية جمع الصاحب لمحتويات الخزانة

ج ـ إجراءات دخول الكتب للخزانة . د ـ العاملون بالخزانة .

٣ ـ خزانة كتب ابن ســـينا .

٤ ـ خزانة كتب نظـــام الملك .

(خزائن كتب الحكام والوزراء في المشرق الإسلامي)

(إيران - خراسان - وما وراء النهر)

أولا : اهتمام حكام المشرق بالعلم وأهله والكتب والمؤلفات :

شهدت بلدان المشرق الإسلامي اهتماما واضحا بالعلم والعلماء ، وبالكتب والمؤلفات في مجالات الطب والفلسفة والنجوم والرياضيات وغيرها ، منذ عصر الإمبراطورية الفارسية ، ولعل أبلغ دليل على ذلك ، ما تم من نقل مجموعات هائلة من الكتب والمؤلفات من تلك المنطقة إلى بلاد اليونان وغيرها[١]،

وقد زاد هذا الشغف والاهتمام منذ ظهور الإسلام في هذه المناطق ، خاصة وأن الإسلام دعا إلى الاهتمام بالعلم والسعي في تحصيله[٢] ، فكان أبناء المشرق من أسرع الناس استجابة إلى هذه الدعوة ، فظهر منهم المحدثون والفقهاء والعلماء والأدباء في كافة المناحي وشتى المجالات ، ولعل هذا ما دفع المقدسي[٣] إلى أن يشير إلى إقليم المشرق على أنه " أجل الأقاليم وأكثرها أجله وعلماء ... ومستقر العلم ركن الإسلام المحكم ... يبلغ فيه الفقهاء درجات الملوك " ، كما قال أيضا : " هو أكثر الأقاليم علما وفقها "[٤]، وقد أشار الدلجي[٥] إلى أن أكثر علماء الشريعة في التفسير والنحو والأصول والمعاني والحديث ينتمون إلى هذه الناحية ،

ولقد لعب حكام بلدان المشرق وأولو الأمر منهم ، دوراً هاماً في إثراء هذه الروح العلمية ، خاصة واهتمامهم بأهل العلم وشغفهم بالكتب والمؤلفات ، وهو ما نلمسه بوضوح ، منذ عصر الخليفة العباسي المأمون ، الذي كان له دوراً بارزاً في إثراء الحركة العلمية في بلاد المشرق الإسلامي خاصة ، وتقريبه للعلماء والأدباء ووصلهم بالأعطيات والأموال ، ثم ما كان له من دور هام في الارتقاء ببيت الحكمة الذي كان مركز إشعاع حضاري في تلك الآونة ، ولعل أبرز من تأثر بهذه الروح العلمية والثقافية التي سادت عصر المأمون ، بنو طاهر .

---

(١) ذكر أحمد بن على الدلجي أن مملكة فارس والعجم كانت أكثر تمدنا وحضارة،ولذلك انتشرت العلوم فيها وأحكمت إحكاما بليغا . أنظر الدلجي : الفلاكة والمفلوكون ،مطبعة الشعب ،مصر ١٣٢٢ هـ ،صـ ٤٨ . كما أشار الثعالبي إلى ثراء بلاد فارس بالكتب وإلى حرص ملوكها وقاداتها على نسخ الكتب والمؤلفات التي احرقت ونقل معظمها إلى بلاد الروم .
أنظر الثعالبي : غرز أخبار ملوك الفرس وسيرهم ،مكتبة الأسدي طهران، ١٩٦٣ ، صـ ٤٨٥ ،حول ثراء المنطقة بالكتب والمؤلفات .
أنظر ابن أبي أصيبعه : عيون الأبناء صـ ١٤ وأنظر أيضا ابن العبري : تاريخ مختصر الدول صـ ٥٩ ،

(٢) حول دعوة الإسلام وحثه على طلب العلم : أنظر ابن حيان البستي " روضة العقلاء ،مطبعة السنة المحمدية د.ت،صـ ٣٣ وأبن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله . صـ ٧٠ وما بعدها،

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ،صـ ٢٦٠.

(٤) المصدر نفسه : صـ ٣٢٣ ،

(٥) الفلاكة والمفلوكون : صـ ٤٧ ،

١ــ الطاهريون :

سار بنو طاهر[١]على نهج المأمون في الاهتمام بالعلم وأهله ،فكانوا ممن يحبون العلم ويؤثرون أهله ، ويصلون المشتغلين به بصلات وأعطيات هائلة ، ولعل أبرزهم كان عبد الله ابن طاهر[٢] "الذي كان شاعرا مترسلا بليغا[٣]"، "كما كان أديبا فاضلا عالما بأخبار الناس[٤]"، وكذلك كان والده طاهر بن الحسين[٥]، ومنهم أيضا منصور بن طلحة بن طاهر بن الحسين الذي عُرِفَ بحكيم آل طاهر ... وقد كان له العديد من الكتب والمؤلفات .

ومما يدل على مدى شغف بني طاهر بالعلم وأهله، ما يذكر من أن عبد الله طاهر عندما تقلد ولاية خرسان عام ٢١٧ هــ سأل المأمون أن يصطحب معه جماعة من العلماء [٦] المشهورين إلى جانب طبيب حاذق ، وقد أجابة الخليفة المأمون إلى ذلك، فصحب منهم عددا لا بأس به. ولم يكن عبد الله بن طاهر ليكتفي بما اصطحب من العلماء ، بل كان كثيرا ما يستدعي العلماء والأدباء الفصحاء إلى حيث يقيم بنيسابور[٧]حيث يعقد لهم مجالس العلم والمباحثة والمناظرة.

وكان عبد الله بن طاهر كثير البذل والعطاء لأهل العلم ، ومن ذلك أنه منح عيينـــه بن عبد الرحمن المهلبي[٨] العالم والأديب مائة ألف درهم[٩] كما منح أبا العميثل[١٠] جائزة ، خاصة وأنه كان معلما لأبنائه [١١].

على أية حال ، فقد أفرز ذلك الإهتمام بالعلم وأهله شغفاً ملموساً بمؤلفات الكتب ، فحقا كان عبد الله بن طاهر كثير البذل والعطاء لأهل العلم ، إلا أنه كان أكثر وصلا وعطاء خاصة إذا

---

(١) بنو طاهر ، مؤسسو الدولة الطاهرية ،وينتسبون إلى طاهر بن الحسين ،اتخذوا نيسا بور عاصمة لهم ،شجعوا العلم واهتموا بالعلماء . ولمزيد من التفاصيل أنظر د. محمد جمال الدين سرور ؛ تاريخ الحضارة الإسلامية ... ،ط ٢ ،دار الفكر العربي ،١٩٧٦م ،صـ ٧٩ .

(٢) عبد الله طاهر من أبرز حكام الدولة الطاهرية ،كان المأمون قد ولاه خراسان فخرج إليها وأقام بنيسا بور ،ت ٢٣٠هـ . وللمزيد أنظر الكرديزي : زين الأخبار ،طهران ،١٣٣٣ هـ ،ص ص ١٠٨ - ١١٠ والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ،جـ ٩ ,ص ص ٤٨٣ - ٤٨٨. وابن الجوزي : المنتظم ،جـ ١١ ،ص ص ١٥٦- ١٥٨.

(٣) ابن النديم : الفهرست ،صـ ١٧٠ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٦ ،صـ ١٤٠ .

(٥) طاهر بن الحسين : هو والد عبد الله بن طاهر ،وهو المؤسس الفعلي للدولة الطاهرية ،ت. وللمزيد الكرديزي : المصدر السابق صـ ١٠٨ .

(٦) ياقوت الحموي : المصدر نفسه ،جـ ٣ ،صـ ٢٣ وما بعدها .

(٧) أنظر ياقوت الحموي : المصدر نفسه ،جـ ٣ ،ص ١٥ وما بعدها .

(٨) كان عيينة بن عبد الرحمن المهلبي يعرف بأبي المنهال ،وكان أحد معلمي عبد الله بن طاهر ،وأحد العلماء الذين جاءوا معه إلي نيسا بور . أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٦ ،صـ ١٥٦ .

(٩) المصدر نفسه : جـ ١٦ ،ص ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(١٠) ابو العميثل : هو عبد الله بن خليد ،كان كاتب عبد الله بن طاهر وشاعره ،وهو أحد علماء اللغة ،/ ت ٢٤٠هـ أنظر ابن القفطي : أنباه الرواة ،جـ ٤ ،صـ ١٤٩ ،وابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٣ ،صـ ٨٩ وما بعدها .

(١١) ابن القفطي : المصدر السابق جـ ٤ صـ ١٤٩.

ما أهداه أحدهم كتاباً ، أو ألف له مؤلفاً ، ومن ذلك أنه أمر لأبي عبيد القاسم بن سلام[١] بألف دينار، وذلك عندما أهداه كتابه غريب المصنف ، كما أمر له بعشرة آلاف درهم تصرف له شهريا ، وذلك بعدما ألف له كتابه غريب الحديث[٢]، وكان أبو عبيد القاسم بن سلام قد اعتاد إهداء مؤلفاته إلى عبد الله بن طاهر ، بعد ما لمس فيه شغفه بالكتب والمؤلفات .

كما كان الفراء عالم اللغة والأدب ممن ألف كتبا لعبد الله بن طاهر، فألف له كتاب البهي[٣] بـناء على أوامر والده طاهر بن الحسين ، وألف له كتاب المذكر والمؤنث[٤]، ويفهم من كلام ياقوت الحموي فيما ذكره بصدده أنه ألف له كتبا كثيرة [٥].

٢ – السامانيون :

وعلى الجانب الآخر ، كان آل سامان[٦] أيضا يهتمون بالعلم والعلماء ،وقد ذكر المقدسي[٧] أنهم: " ... من أحسن الملوك سيرة ونظرا وإجلالاً للعلم وأهله ، ولشدة إجلالهم وتقديرهم لأهل العلم ، فإنهم لم يكلفوا أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم " . وكانوا كثيرا ما يعقدون مجالس العلم والمناظرات [٨]، كما كانت بخاري في عهدهم مركز إشعاع ثقافي وحضاري هائل ،حتى قال عنها الثعالبي[٩] "...كانت بخاري في الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ،ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ،وموسم فضلاء الدهر.

ومن أشهر حكام الدولة السامانية الذين عُرِفُوا باهتماماتهم بالعلم وتقديرهم للعلماء وشغفهم بالكتب والمؤلفات نوح بن نصر الساماني[١٠] الذي كان من أدباء ملوك آل سامان[١١] ومنهم أيضا الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني[١٢] الذي كان يحسن إلى محمد بن نصر المروزي[١٣]

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام ،أحد علماء الفقه والحديث والأدب والقراءات ،ولي القضاء لفترة ،وله مؤلفات ، منها كتاب غريب الحديث وغريب المصنف ، وللمزيد أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٦ ،صـ ٢٥٥ ،وابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٤ ـ ص.٦٠ وما بعدها .

(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٦ ،ص ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦ .

(٣) المصدر نفسه : جـ ٥ ،صـ ١١٣ و جـ ٢٠ ،صـ ١٣ .

(٤) المصدر نفسه : جـ ٥ ،صـ ١١٣ .

(٥) ياقوت الحموي : المصدر نفسه ،جـ ٥ ،صـ ١١٣ .

(٦) آل سامان : يقصد بهم الدولة السامانية ،قامت فيما وراء النهر ،واتخذوا بخاري عاصمة لهم ،امتد حكمهم من ٢٦١ هـ إلى ٣٨٩ هـ ،وحول حكامها أنظر النرشخي : تاريخ بخارا ،نشرات : كتابفروشي سنائي ،د. ت ،ص ص ٩ ـ ١١٠

(٧) أحسن التقاسيم : صـ ٣٣٨ .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) يتيمة الدهر : جـ ٤ / ط ١ ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٨٣ م. ،صـ ١١٥ .

(١٠) نوح بن نصر الساماني : أحد حكام الدولة السامانية ،تولى الحكم منذ ٣٣١ : ٣٤٣ هـ ،للمزيد أنظر : النرشخي تاريخ بخارا ، ص ص ١١٢ ــ ١١٥ .

(١١) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٨ ،صـ ١٧٨ .

(١٢) إسماعيل بن أحمد الساماني ، أحد أمراء الدولة السامانية ،اهتم بالعلم والعلماء . تولى الإمارة ٢٨٠هـ ،وللمزيد أنظر النرشخي : تاريخ بخارا ،ص ص ٩١ ــ ١١١ ،وابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١١ ،مكتبة المعارف ،بيروت ،١٩٩٠م. ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،وعن النشاط الفكري في بخاري في عهده ،أنظر ارمينيوس فامبري : تاريخ بخاري ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ،ص ص ١٠٥ ــ ١١٠.

(١٣) محمد بن نصر المروزي ؛ أحد العلماء والفقهاء و له مؤلفات كثيرة ،ولد ببغداد و نشأ بنيسابور ،واستوطن سمرقند ،ولد ٢٠٢هـ وللمزيد أنظر الخطيب البغدادي ،تاريخ بغداد ،جـ ٣ ،ص ٣١٥ ــ ٣١٧ ،وابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١١ ،صـ ١٠٢ .

العالم ويصله في كل عام بأربعة آلاف درهم[١]، ومنهم أيضا الأمير السعيد نصر بن أحمد[٢] الذي أولى العلم عنايته واهتمامه ، حتى ألف له أبو الطيب الطاهري كتاب أدب النفوس[٣]، وغير هؤلاء الكثير ممن لا يتسع المجال لذكرهم .

وقد كان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي[٤] من أبرز العلماء الذين حرص السامانيون المعاصرون له على الاستفادة من علمه،وكانت بينه وبين منصور بن إسماعيل،وهو أحد أمراء آل سامان ، صداقة فألف له الرازي كتابه المنصوري[٥]، كما اختص الرازي بعض أبناء آل سامان بتأليف الكثير من الكتب،فألف كتاب شرف القصد للأمير أبي على أحمد بن إسماعيل[٦]، كما ألف كتاب برء الساعة لأحد وزرائهم[٧]، هذا إلى جانب مقالة في الأمور الطبيعية أضافها إلى كتاب المنصوري[٨].

٣ – عضد الدولة البويهي

ومن أبرز حكام المشرق الذين شغفوا بالعلم وأهله وشغفوا بالكتب والمؤلفات عضد الدولة فنا خسرو بن ركن الدولة [٩] ، الذي كان وبرغم مشاغله واتساع ملكه يتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، كما كان يقول شعراً كثيرا [١٠] .

ولشدة حبه وشغفه بأهل العلم وبالكتب والمؤلفات فقد كان كثيرا ما يجزل لهم الأعطيات والصلات ، وقد عبر أبو شجاع صاحب ذيل تجارب الأمم عن هذا الأمر فقال : " أما محبته للعلوم وتقريب أهلها فإنه كان يكرم العلماء أوفي إكرام ،وينعم عليهم أهنأ إنعام ، ويقربهم من حضرته ويدنيهم من خدمته ، ... فاجتمع عنده من كل طبقة أعلاها ... " [١١] .

---

(١) أنظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٣ ص ص ٣١٥ ، ٣١٧ وابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص١٠٢.

(٢) نصر بن أحمد الساماني،أحد أمراء الدولة السامانية ،وللمزيد أنظر النرشخي : تاريخ بخارا ،ص ١١١ - ١١٣

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٤ ،صـ ٢٧٩ .

(٤) الرازي هو : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ،الطبيب والعالم المشهور ،صاحب مؤلفات كثيرة في الطب وللمزيد أنظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٥ ،ص ص ١٥٧ — ١٦١ .

(٥) اختلف المؤرخون حول كتاب المنصوري هذا ولمن قام الرازي بتأليفه ،فذكر ابن أبي اصيبعة أنه ألفه للمنصور بن إسماعيل بن خاقان صاحب خراسان ،أنظر عيون الأنباء صـ ٣٨٣ في حين ذكر ياقوت الحموي أنه كتبه إلى صالح منصور بن إسحاق ابن أخي أحمد بن إسماعيل الأمير الساماني ،وقد كان واليا على الري من قبل أحمد بن إسماعيل ،أنظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ،جـ ٣ ،ط ١ ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٩٠م. ،صـ ١٣٧ ،وذكر ابن خلكان أنه شاهد نسخة كتاب المنصوري هذا وقد كتب على ظهره أنه باسم المنصور بن اسحق بن أحمد بن نوح صاحب كرمان وخراسان وكنيته أبو صالح . أنظر وفيات الأعيان ، جـ ٥ ،صـ ١٦٠ .

(٦) ابن أبي أصيبعه : المصدر السابق ،صـ ٣٨٢ .

(٧) المصدر نفسه : صـ ٣٨٨ .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) عضد الدولة هو: أول من خوطب بالملك في الإسلام ،وأول من خُطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة ،ت ٣٧٢ هـ ،أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٤ ،ص ص ٥٠ — ٥١ .

(١٠) الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٢ ،صـ ٢٥٧ .

(١١) ذيل تجارب الأمم ،جـ ٣ ،دار الكتاب الإسلامي ،القاهرة ،د. ت . صـ ٦٨

ومما يذكر في تقديره لأهل العلم ، أنه عند ما دخل بغداد في عام ٣٦٩ هـ أجرى الأموال على الأئمة والعلماء والقراء [١] .

وقد كان كل من أبي الطيب المتنبئ [٢] وأبي الفتح محمد بن الحسين الأزدي [٣] وأبي بكر محمد بن العباسي الخوارزمي[٤] من أولئك العلماء الذين اتصلوا بعضد الدولة وأجزل لهم الأعطيات ، حتى يقال أنه خصص للخوارزمي المذكور مبلغا من المال يصل إليه في بلدته نيسا بور مع الأموال التي كانت تحمل من فارس إلى خراسان [٥] .

وواقع الأمر أن أعطيات عضد الدولة لأهل العلم والمعرفة من العلماء والأدباء كانت تفوق كل تصور ، ويكفينا ما قال له أبو بكر الخوارزمي مشيداً بأعطياته ، إذ قال :

لعَمْرِكَ لَولاَ آلُ بُوَيْهٍ فِي الْوَرَى ∴ لَكَانَ نَهَـاري مِثْلَ لَيْلِ الْمُتَيَّـمِ
هم جعـلوني بين عبد وقينـة ∴ ودار ودينـار وثـوب ودرهـم
وهم غمروني دائما بصلاتهـم ∴ وصنت عن الإيطاء شعري فيهم[٦]

علـى أن أهم ما يعنينا هنا هو التركيز على ما أفرزه حبه وتقديره لأهل العلم من شغف بالكتب والمؤلفات، إذ هي أساس خزائن الكتب ، ومن ذلك انه شغف بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصـفهاني [٧] ،فقـد كان عضد الدولة لا يفارق هذا الكتاب حتى أثناء سفره وترحاله ،وكان على حد تعبير ياقوت الحموي [٨] جليسه الذي يأنس إليه وخدينه الذي يرتاح نحوه. كما شغف أيضاً بكتاب الإيضاح ، لأبي على الحسن بن أحمد الفارسي[٩]، فكان محبا للاختصاص بقراءته[١٠].

ولقد أدرك علماء وأدباء العصر مدى شغف عضد الدولة بالعلوم والمعارف و الآداب ، فكانوا يؤثرونه ببعض مؤلفاتهم ، فألف له أبو على الحسن بن أحمد الفارسي كتاب التكملة [١١] بعد ما ألف له الإيضاح ، كما ألف له على بن هارون[١٢] كتاب القوافي[١٣] ، وألف له على ابن

---

(١) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ،صـ ١٧١ .
(٢) المتنبئ : هو أحمد بن الحسين الكوفي ،ت ٣٥٤ ،شاعر معروف ،مدح عدة ملوك و قيل انه وصله من أبن العميد ثلاثون ألف درهم ووصله من عضد الدولة مثلها ،للمزيد أنظر ،الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ،جـ ٤ صـ ١٠٢ ،والذهبي: العبر في خبر من غبره ،جـ ٢ ص ٩٤ ط ١ ،دار الكتب العلمية ،بيروت ١٩٨٥م.
(٣) الأزدي هو ،أبو الفتح محمد بن الحسين الأزدي الموصلي ،ذكره السمعاني وأشار إلى أعطيات عضد الدولة له. أنظر السمعاني : الأنساب ،جـ ١ ،ط ١ ،دار الجنان ،بيروت ،لبنان ،١٩٨٨م. ،صـ ١٢٠ .
(٤) أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي هو أحد الأدباء المشهورين ،له ديوان شعر ،جمع بين الفصاحة والبلاغة وعلوم اللغة ،ت ٣٨٣ ،وقد أفاض الثعالبي في وصفه ،أنظر الثعالبي: يتيمة الدهر جـ ٤ ص ٢٢٣ ـ ٢٣٩ .
(٥) الثعالبي : المصدر السابق ،جـ ٤ ،صـ ٢٣٧ .
(٦) الثعالبي : الإعجاز والإيجاز ،المكتب العالمي للطباعة والنشر ،بيروت ،١٩٩٢م. ،صـ ٢١٥ .
(٧) أبو الفرج الأصفهاني : هو على بن الحسين الأموي الأصفهاني الأصل ،من الأدباء والشعراء والمصنفين ولد ٢٨٤ هـ ،ت ٣٥٦ هـ . أنظر الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٣ ،صـ ١٢٧ ،والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ،جـ ٤ ،ص ١٠٢ ـ ١٠٥ ،وابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٣ ،صـ ٣٠٧ وما بعدها .
(٨) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٣ ـ صـ ٩٧ .
(٩) أبو على الحسن بن أحمد الفارسي هو ؛ أحد الأعلام في النحو واللغة ،ت ٣٧٧هـ ،صحب عضد الدولة ،وتتلمذ على يديه عضد الدولة في النحو واللغة ،أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٢ ،صـ ٨٠ وما بعدها ،والذهبي: العبر ،جـ ٢ ،صـ ١٤٦ ،وابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١١ ،صـ ٣٠٦ .
(١٠) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ،جـ ٣ ،صـ ٦٨ .
(١١) ابن كثير : المصدر السابق ،جـ ١١ ،صـ ٣٠٠ .
(١٢) على بن هارون ؛ كان راوية وشاعر وأديب ،ولد ٢٧٧ هـ ،ت ٣٥٢ هـ ،أنظر ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،جـ ١٥ ،صـ ١١٢ .
(١٣) المصدر نفسه ، ج ١٥ ، ص ١١٢.

العباس المجوسي كتاب الملكي[١]، وهو كتاب طبي قد أشار ابن العبري إلى أن الناس أقبلت على هذا الكتاب ولزموا دراسته،كما ألف له كتاب آخر عرف بالكناش[٢] العضدي ، وألف له أبو سعيد سنان بن ثابت[٣] كتاب السيرة الذي اشتمل على بعض مفاخر الديلم وأنسابهم وذكر أصولهم وإسلامهم[٤]، كما ألفت له رسالة في الأشكال الهندسية التي تقع على الدائرة[٥] وألفت له بعض المقالات الرياضية والهندسية الأخرى[٦].

وألف له اللجلاج[٧] كتاب منصوبات الشطرنج[٨]، وكان أشهر ما ألف له كتاب التاجي[٩] لأبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ[١٠] ٠

هكذا اختص بعض علماء وأدباء العصر عضد الدولة ببعض الكتب والمؤلفات التي كتبت إما لتهدى إليه ، وإما امتثالا لأمره ، مما يعكس لنا شغفا بالكتب ما بعده شغف ، ولعل هذا الشغف يفسر لنا امتلاك عضد الدولة لخزانة كتب ، كانت من أبرز خزائن الكتب التي شهدتها بلدان المشرق ، وهو ما سنعرض له في حينه ٠

٤ – الغزنويون :

شهدت الدولة الغزنوية اهتمام بعض حكامها وعنايتهم بأمر العلم والعلماء والكتب والمؤلفات، ولعل أبرزهم كان محمود بن سبكتكين[١١]الذي حرص على استقدام العلماء والأدباء

---

(١) ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ،صـ ٢٩٤ وما بعدها ،وعلي بن العباس طبيب مجيد متميز في الطب ، أصله من الأهواز و وكان معاصرا لعضد الدولة ،أنظر ابن أبي اصيبعة : المصدر نفسه ٠

(٢) الكناش هو مجموعة أوراق تجمع إلى بعضها البعض كالدفاتر ،تكتب فيها بعض الفوائد والشوارد ،أنظر الزبيدي : تاج العروس ،جـ ٤ ،دار مكتبة الحياة ،بيروت ،د. ت. صـ ٣٤٧ ،والمنجد في اللغة والأعلام . ط ٣ دار المشرق ،بيروت ،١٩٨٨م ،صـ ٧٠٠ ٠

(٣) أبو سعيد سنان بن ثابت ،كان أديبا ومؤرخا عارفا ببعض العلوم ،ماهر في الطب و خدم الخلفاء ،ت ٣٣١ أنظر ابن النديم : الفهرست ،صـ ٤٢١ ،وياقوت الحموي : معجم الأدباء: ،جـ ١١ ،صـ ٢٦٣ ٠

(٤) ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ،صـ ٢٨٠ ،وياقوت الحموي : المصدر السابق: ،جـ ١١ ،صـ ٢٦٣ ٠

(٥) ابن أبي اصيبعة : المصدر نفسه ص ٢٨٠ ،وياقوت الحموي : المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٦٣.

(٦) أبو شجاع : ذيل التجارب ،جـ ٣ ،صـ ٦٨ ٠

(٧) اللجلاج هو ؛ أبو الفرج محمد بن عبيد الله ،ذكر ابن النديم أنه خرج إلى شيراز قاصدا عضد الدولة ،ت بها سنة نيف وستين وثلاثمائة . أنظر ابن النديم : الفهرست ،صـ ٢٢٢ ٠

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٢ ٠

(٩) سمي هذا الكتاب بالتاجي نسبة إلى لقب عضد الدولة تاج الملة ،والذي لقبه به الخليفة الطائع لله ،انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ،جـ ٤ ،صـ ٥١ ،وقد وصف أبو شجاع هذا الكتاب وأفاض في وصفه . أنظر ذيل تجارب الأمم : جـ ٣ ،صـ ٢٣ ٠

(١٠) أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ ،شاعر بليغ ،علم بالهندسة ،وكان من الكتاب المشهورين ،ت ٣٨٤ هـ . أنظر ابن النديم : الفهرست ،صـ ١٩٣ . والثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٢ ،صـ ٢٨٧ ،وابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ١ ،ص ص ٥٢ – ٥٣ ٠

(١١) محمود بن سبكتكين : يمين الدولة وأمين الملة ،ولد ٣٦٠ هـ ،ت ٤٢١ هـ ،له فتوحات كثيرة في بلاد الهند ,كان يحب العلماء ويكرمهم ،ت ٤١٢ هـ ، للمزيد أنظر ابن الجوزي : المنتظم ،جـ ١٥ ، صـ ٢١١ وانظر أيضا : الذهبي : العبر ،جـ ٢ ،صـ ٢٤٥ وابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١٢ ،صـ ٢٧ ،ص ٢٩، ص٣٠ ٠

للسماع عليهم والانتفاع بمعارفهم و فكان مجلسه بحق مورد العلماء[١] ، ومن هؤلاء على بن عبد الله النيسا بوري[٢] الذي استقدمه السلطان محمود عام ٤١٤ هـ للسماع منه ، والاستغداديزي[٣] الذي خرج من بلاده قاصداً غزنة ،حيث استقر بصحبة محمود بن سبكتكين وصار مؤدبا لأولاده[٤] .

وقد اختص بعض هؤلاء العلماء بعض حكام وأمراء غزنة بتأليف الكتب والمؤلفات ، ومن هؤلاء على بن فضبال بن على المجاشعي[٥]، الذي صنف عدة مؤلفات بأسماء أكابر غزنة سارت في البلاد على حد تعبير ياقوت الحموي[٦] ، كما ألف البديع الاصطرلابي للسلطان محمود مؤلفا سماه المعرب المحمودي [٧] ويذكر الذهبي [٨] أنه صنفت في أيام السلطان محمود تواريخ حفظت حركاته وسكناته وأحواله لحظة بلحظة .

ولعل أشهر من ارتبط ذكره من العلماء بحكام غزنة أبا ريحان البيروني [٩] الذي ألف للسلطان محمود كتاب تاريخ أيام السلطان محمود وأخبار أبيه[١٠]، كما ألف البيروني للسلطان مسعود[١١] عدة مؤلفات ، خاصة وما عرف عن السلطان مسعود من إقبال على علوم النجوم محبه لحقائق العلوم ، فألف له كتابا في اعتبار مقدار الليل والنهار ، وقد أجزل له السلطان عطاء هذا الكتاب[١٢]،وصنف له كتاب لوازم الحركتين[١٣]،وألف له كتاب القانون المسعودي[١٤] الذي أشاد به ياقوت الحموي وذكر انه يفوق كل كتاب صنف في تنجيم وحساب ، وقد كافأه

---

(١) الذهبي : العبر ،جـ ٢ ،صـ ٢٤٥ .

(٢) على بن عبد الله النيسا بوري ،عرف بأبي الطيب وهو ؛ عالم ومصنف له الكثير من المؤلفات ،كان معاصرا للسلطان محمود ،أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٣ ،ص ص ٢٧٤ ــ ٢٧٦ .

(٣) الاستغداديزي هو ،أبو أحمد بن محمد الاستغداديزي ،عالم وأديب ،ت ٤٣٩ هـ ،أنظر السمعاني : الأنساب ،جـ ١ ،ص ص ١٣٣ ــ ١٣٤ .

(٤) السمعاني : المصدر السابق ،جـ ١ ،صـ ١٣٤ .

(٥) المجاشعي هو ؛ أحد أئمة النحو واللغة والتفسير ،صنف كتبا كثيرة ،أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٤ صـ ٩٠ .

(٦) المصدر نفسه : جـ ١٤ ،صـ ٩١ .

(٧) ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ،صـ ٣٤٨ ،والبديع الاصطرلابي-هو بديع الزمان أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادي ،كان من الحكماء الفضلاء ،أنظر المصدر نفسه .

(٨) العبر ،جـ ٢ ،صـ ٢٤٥ .

(٩) البيروني هو ،محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني ،أحد العلماء المنكبين على تحصيل العلم وتصنيف الكتب ،سافر في طلب العلم إلى بلاد الهند أربعين سنة ,وصنف كتبا كثيرة ،أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جـ ٧ ،ص ص ١٨٠ - ١٨٦. وابن أبي اصيبعة : المصدر السابق ،صـ ٤٢١ ،وابن العبري : تاريخ مختصر الدول صـ ١٨٦،والخوانساري: روضات الجنات ،مخطوط بدار الكتب رقم ٢٦٠٩ ،ميكروفيلم ٣٦٤١٨،ورقة ٣٦٠ .

(١٠) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١٧ ،صـ ١٨٥ .

(١١) هو السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين ،ملك أصفهان والري وطبرستان وجرجان وغيرها ،وكان يحب العلماء ،ت ٤٣٣ هـ . أنظر ابن الجوزي : المنتظم جـ ١٥ ،صـ ٢٨٣ ،والذهبي : العبر ،جـ ٢ ،صـ ٢١٧ ،وابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١٢ ،صـ ٥٠ .

(١٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١٧ ،صـ ١٨٤ و ١٨٥.

(١٣) المصدر نفسه: ج ١٧، ١٨٤ .

(١٤) المصدر نفسه : ج ١٧ ، ص ١٨٤، وأنظر ايضا : ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، صـ ٤٢١ . والخوانساري : روضات الجنات ،مخطوط بدار الكتب المصرية الورقة ٣٦٠ .

السلطان مسعود بحمل فيل من الأموال ،إلا أن البيروني رد الأموال بعذر الاستغناء [١] عنها وألف له أيضا الزيج المسعودي[٢] ، كما ألف كتابا آخر بعنوان الدستور ، كتبه خصيصا لشهاب الدولة أبي الفتح كودود ابن السلطان الشهيد مسعود بن محمود[٣]،وألف له أيضا كتاب الجماهر في الجواهر وأنواعها وما يتعلق بهذا المعنى[٤]، وكان من مؤلفاته أيضاً الآثار الباقية عن القروق الخالية ، هذا مما يعكس لنا شغفا هائلا بالكتب.

شهدت منطقة المشرق عددا آخر من الحكام ممن كان لهم عناية بالعلم والعلماء،فكان منهم خوارزمشاه [٥] حاكم خوارزم الذي أولى العلم والعلماء عنايته ورعايته ، ودليلنا على ذلك ما كان يلقاه بعض العلماء من الرعاية والاهتمام في ظل حكمه ، وهو ما أقره خواندمير إذ قال مشيرا إلى بعض العلماء " ... وكان خوارزمشاه يرعاهم جميعا رعاية تامة ... "[٦]، وكان من نتائج هذا الاهتمام ،بعض المؤلفات التي الفت خصيصا لخوارزمشاه ،لتعبر عن مدى شغفه بالكتب والمؤلفات ، وتأتي في مقدمتها بعض المؤلفات التي كتبها له الثعالبي. فقد أشار أبو الفضل البيهقي[٧] إلى أن الثعالبي اختص خوارزمشاه ببعض المؤلفات ولعل أبرزها كتاب "لباب الآداب" الذي ألفه له الثعالبي بناء على أمر منه بذلك[٨] ،خاصة واهتمام خوارزمشاه وشغفه بكتب الأدب، فكان على حد تعبير الثعالبي. ممن.. نسوا في خدمتها ال شهوات وجابوا الفلوات ونادموا لاقتنائها الدفاتر وسامروا القماطر والمحابر ،وأنفقوا على تخليد كتبها أعمارهم"[٩].

ثانيا : اهتمام وزراء المشرق بالعلم وأهله وبالكتب والمؤلفات :

لم يكن الاهتمام بالعلم والعلماء والشغف بالكتب والمؤلفات قصرا على الحكام ، بل كانت هناك فئة أخرى من أولي الأمر كان لها دورها في إثراء الحياة الثقافية في بلدان المشرق بما أولوه من اهتمام بالعلم والعلماء والكتب والمؤلفات ،وهؤلاء هم الوزراء :

---

(١) معجم الأدباء ،جـ ١٧ ،صـ ١٨١ ٠

(٢) ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ،صـ ٤٢١ ٠

(٣) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١٧ ،صـ ١٨٥ ٠

(٤) ابن أبي اصيبعة : المصدر السابق نفسه، وللمزيد انظر :د. أحمد سعيد الدمرداش : البيروني ، دار المعارف ١٩٨٠م ص ١٧ ـ ٢٩ .

(٥) خوارزمشاه ،هو لقب حاكم خوارزم و والمقصود هو أبو العباس مأمون بن مأمون خوارزماشاه ، الذي قتل ٤٠٧هـ ، انظر: ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٧٩ ، وحول اللقب خوارزم شاه انظر : د/ إبراهيم الدسوقي : المعجم الفارسي الكبير ، القاهرة ، د ـ ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

(٦) خواندمير : دستور الوزراء ضمن كتاب غياث الدين خواندمير كما يبدو في كتابه دستور الوزراء ،الهيئة المصرية للكتاب ،١٩٨٠ ،صـ ٢٢٧ ٠

(٧) أبو الفضل البيهقي : تاريخ البيهقي ،دار النهضة العربية ،بيروت ،١٩٨٢م،صـ ٧٣٦ ٠

(٨) الثعالبي : لباب الآداب ،ط ١ ،دار الكتب العربية ،بيروت و ١٩٩٧م. ،صـ ١٩ وما بعدها ٠

(٩) المصدر نفسه، ص ١٩ .

١- أبو الفضل بن العميد :

من أبرز وزراء المشرق الذين عرفوا بتقديرهم للعلم وأهله واهتموا بجمع الكتب والمؤلفات كان أبو الفضل بن العميد [١] ،الذي ذكره الثعالبي [٢] فقال " هو أبو الفضل محمد أبن الحسين،عين المشرق .. وعماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم،وأوحد العصر في الكتابة"،

وقد أشاد ابن مسكويه[٣] بمعرفة ابن العميد بأنواع العلوم والمعارف على اختلافها ، وتبحره في الشعر، وإلمامه بعلوم القرآن الكريم ، ومعرفته بفقهاء الأمصار ، ثم درا الأمصار ثم درا منطق وعلوم الفلسفة وغيرها من العلوم الغامضة، التي لا يدعيها أحد كعلوم الحيل[٤] والطبيعة والحركات الغريبة وجر الأثقال ، ومعرفة مراكز الأثقال .. وعمل آلات غريبة لفتح القلاع ،

وقد كان طبيعيا والحالة هذه ، أن يقصده ذوو العلوم والمعارف والآداب خاصة وأنه كان يقضي نهاره مشغولا بالعلم وأهله [٥] وقد أقر ابن مسكويه [٦] بأنه رأي بحضرته جماعة ممن يتقربون إليه بضروب من الآداب والعلوم ، حيث كان يعقد لهم مجالس العلم بحضرته ، وقد كانت هذه المجالس أملا ومطمحا لكل ذي علم ، وليس أدل على ذلك مما قاله أبو محمد الخلادي [٧]، واصفا مجالس علمه ،ومشيرا إلى اشتمالها على ابرز كتاب وشعراء وفقهاء العصر [٨] .

وكان أبو الفضل بن العميد ممن يجزلون العطاء للعلماء والأدباء [٩] المترددين على مجالسه ، ومن ذلك أنه منح المتنبئ الكثير من المال ، ويقال أن ما وصله من جهته حوالي ثلاثين ألف دينار [١٠] .

---

(١) أبو الفضل بن العميد هو : أبو عبد الله الحسين بن محمد الكاتب ،كان وزيرا لركن الدولة بن بويه والد عضد الدولة وذلك سنة ٣٢٨ هـ ،وكان له باع طويل في الكتابة الأدبية ،ولذلك قيل بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد ،ت. ٣٦٠ هـ وقيل ٣٥٩ هـ ، وعبد الحميد الكاتب هو : كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، قتل ١٣٢هـ وكان بارعا في الكتابة الأدبية ، وللمزيد انظر ابن مسكويه : تجارب الأمم ،جـ ٢ ،صـ ٢٧٣ . وأبن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٥ ،صـ ١٠٣ وما بعدها ،

(٢) يتيمة الدهر : جـ ٣ ،صـ ١٨٣ ،

(٣) ابن مسكويه : المصدر السابق ،جـ ٢ ،صـ ٢٧٨ ،

(٤) علوم الحيل المقصود بها علم الميكانيكا ،وقد كان للمسلمين باع طويل في وضع بعض الأسس الخاصة بهذا العلم وللمزيد أنظر: د. ناهد محمد سالم: نظم تصنيف المعرفة عند المسلمين ،دار الثقافة العلمية ،الإسكندرية د.ت صـ ٤١

(٥) ابن مسكويه : المصدر السابق ،جـ ٢ ،صـ ٢٨١ ،

(٦) المصدر نفسه ،جـ ٢ ،صـ ٢٧٧ ،

(٧) من المحتمل أن يكون هو الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي ،من الأدباء المعروفين .اختص بابن العميد ،وجمعتهما كلمة الأدب ،وجرت بينهما مكاتبات بالنثر والنظم ،ت ٣٦٠ هـ . أنظر الثعالبي : يتيمة الدهر جـ ٣ ،صـ ٤٩، ،وياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٩ ،صـ ٥ ،

(٨) أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٩ ،ص ص ١٤ - ١٥ ،

(٩) أنظر: ابن مسكويه : تجاب الأمم ،جـ ٢ ،صـ ٢٧٨ ،

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١١ ،صـ ٢٥٦ ،

على أية حال فقد أفرز هذا الشغف بالعلم وأهله شغفا بالكتب والمؤلفات ما بعده شغف ، حتى أُطلق عليه الجاحظ الأخير أو الجاحظ الثاني[١] تشبها بالجاحظ خاصة ، وحرصه على جمع الكتب ، وقد بالغ أبو الفضل بن العميد في جمع هذه الكتب والمؤلفات ، حتى حاز خزانة كتب هائلة ، سنعرض لها في حينه ٠

٢ – الصاحب بن عباد [٢] :

شهد المشرق الإسلامي مجموعة أخرى من الوزراء ممن كان لهم عناية خاصة بالعلماء وبالكتب والمؤلفات ، ومن هؤلاء الصاحب بن عباد أشهر وزراء المشرق الإسلامي الذي كان شغوفا بالعلم محبا للعلماء والأدباء،شديد الحرص على الالتقاء بهم،وعقد مجالس العلم والأدب للينهل من ثمار معارفهم وآدابهم،نستدل على ذلك بما قاله عنه الثعالبي[٣] وكان من المعاصرين له ومن المترددين عليه ، إذ قال " ... ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب ،وجلالة شأنه في الجود والكرم ، لأن همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ... ولكني أقول هو : صدر المشرق ... وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ومرتع آمالهم ، وأمواله مصروفه إليهم ... ولما كان نادرة عطارد في البلاغة وواسطة عقد الدهر في السماحة ،جلب إليه من الآفاق وأقاصي البلاد كل خطاب جزل،وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام وبدائع الإفهام،وثمار الخواطر،ومجلسه مجمعا لصوب العقول وذوب العلوم ،ودرر القرائح ... واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل من يربي عددهم على شعراء الرشيد " ٠

وهذا الذي ذكره الثعالبي يؤكد على ما أولاه للعلماء والأدباء والشعراء من الاهتمام ،حتى صارت حضرته ومجالسه مقصدا يقصدونه ،وقد ذكر الثعالبي أسماء بعض العلماء ممن كانوا يجتمعون في مجالسه [٤] ٠

ولقد كان الصاحب بن عباد يبذل كل غال ونفيس في سبيل جذب أهل العلوم والمعارف والآداب إلى حضرته ومجالس علمه ،ويعبر ياقوت الحموي عن هذا الأمر فيقول " ... وكان

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٣ ،صـ ١٨٣ ،وابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٥ ، صـ ١٠٤ ٠

(٢) الصاحب بن عباد هو ؛ أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن أحمد الطالقاني ،المعروف بالصاحب كافي الكفاة ولد بطالقان ،من أعماله قزوين عام ٣٢٦ هـ وت ٣٨٥ هـ ،كان وزيرا وأديبا وكاتبا ،له رسائل أدبية ومؤلفات مشهورة ،وللمزيد انظر : الثعالبي :يتيمة الدهر ،جـ ٣ ،ص ص ٢٢٥ – ٢٤٠ ،ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ ٦ ،صـ ١٦٨ وما بعدها من صفحات ، والقوباني الأصفهاني : رسالة الإرشاد في أحوال الصاحب الكافي إسماعيل بن عباد ،مطبعة المجلس ،طهران ،د ت ،جميع الصفحات ٠

(٣) يتيمة الدهر : جـ ٣ ،صـ ٢٥٥ ٠

(٤) انظر الثعالبي : المصدر نفسه ،جـ ٣ ، صـ ٢٢٦ ٠

ما يخرج لكافي الكفاة [١] في السنة في وجوه البر والصدقات والمبرات وصلات الأشراف وأهل العلم ... ومن يجري مجرى ذلك ... ما يزيد على مائة ألف دينار" [٢] ، كما ذُكر أن الصاحب بن عباد كان يراعي من ببغداد والحرمين ، من أهل الشرف والشيوخ والكتاب والشعراء وأولاد الأدباء والزهاد والفقهاء ، مما يحمله إليهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومنازلهم ،فكان يحمل إلى أبي إسحاق إبراهيم بن هلال خمسمائة دينار ،وإلى هلال ابن المحسن بن إبراهيم الصابي ألف درهم[٣] ، وقد أقر الصاحب بن عباد نفسه بما كان ينفقه على أهل العلم ،فقال : " ... وقد أنفقت أموالي على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد " [٤] .

وأفرز ذلك الاهتمام بالعلم وأهله شغفا هائلا بالكتب والمؤلفات ,كان من نتاجه أن قصده الكثير من العلماء بمؤلفاتهم وكتبهم حتى حاز خزانة كتب هائلة أشاد بها المؤرخون ، وهو ما سنعرض له في حينه .

ومن أبرز ما أُلف للصاحب بن عباد كتاب " الصاحبي " لأبي الحسين أحمد بن فارس[٥] ، كما ألف له القاضي أبو الحسن قاضي الري كتاب " الوساطة " [٦] بين المتنبي وخصومه ،ردا على الرسالة التي ألفها الصاحب بن عباد في إظهار مساوئ المتنبي بعدما رفض الامتثال لأوامره والحضور بحضرته،كما ألف له الثعالبي كتابي "لطائف المعارف"[٧] و"يتيمة الدهر"[٨] هذا إلى جانب بعض المؤلفات الطبية التي ألفها له جبرائيل بن عبيد الله [٩]،والتي كان منها الكناش الصغير والكناش الكبير ،الملقب (بالكافي) والمقال الطبي[١٠] وغيرها ،وواقع الأمر أن المؤلفات التي أهديت له أكثر من هذا بكثير ،وهو ما سنعرض له تفصيلا فيما بعد .

---

(١) كافي الكفاة ،هو أحد ألقاب ابن عباد ،أنظر الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٣ ،صـ ٢٢٥ وما بعدها ،لقبه به مؤيد الدولة بن بويه وكان يكتب له ،ولقد شهد منه مؤيد الدولة كفاية وشهامة فلقبه بالصاحب كافي الكفاة ،أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٦ ،صـ ١٧٢ .

(٢) ياقوت الحموي : المصدر نفسه ،جـ ٦ ،صـ ٢٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ،جـ ٦ ،صـ ٣٠٠ .

(٤) المصدر نفسه ،جـ ٦ ،صـ ٢٦٣ .

(٥) أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي ،ذكره الثعالبي فقال : " هو الإمام اليوم في النحو بعد خاله أبي الحسن بن أحمد الفارسي المعروف بأبي على الفارسي ،وكان خاله قد أوفده على الصاحب فأكرم مثواه ،وورد نيسا بور وأملي بها في الأدب ما سارت به الركبان ،ت ٣٩٠ هـ ،وقيل ٣٩٥ هـ ،أنظر الثعالبي : يتيمة الدهر جـ ٤ ،صـ ٤٤٤ وما بعدها،والذهبي : العبر ،جـ ٢،صـ ١٨٦ ،وابن كثير:البداية والنهاية ،جـ١١،ص ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٦) أبو الحسن قاضي الري هو:على بن عبد العزيز بن الحسن الجر جاني ،كان اديبا أريبا ،سافر كثيرا ورحل في طلب العلم والعلماء ،كانت له مكانته عند ابن عباد ،فولاه قضاء جرجان ثم الري ،ت ٣٩٢ هـ انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٤ ،صـ ٤ وما بعدها ،وابن الجوزي : المنتظم ،جـ ١٥ ،صـ ٣٤ وما بعدها ،وياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٤ ،ص ص ١٤ ــ ٢٥ .

(٧) الثعالبي : لطائف المعارف ،دار الطلائع للنشر والتوزيع : د. ت ،صـ ١٧ .

(٨) انظر القوباني الأصفهاني : رسالة الإرشاد ،صـ ٣٥ .

(٩) هو جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع ،كان عالما فاضلا متقنا لصناعة الطب ،وكان من أطباء المقتدر ،اتصل بعضد الدولة وبالصاحب بن عباد ،ألف بعض المؤلفات الطبية للصاحب بن عباد وغيره من أولى الأمر ،أنظر أيضا ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ،ص ص ١٨٧ ــ ١٩١ .

(١٠) أنظر : ابن أبي اصيبعة : المصدر السابق ،صـ ١٨٩ ،صـ ١٩١ .

وتطالعنا المصادر بأسماء العديد من الوزراء ممن كانت لهم عناية بالعلم وأهله وممن شغفوا بالكتب والمؤلفات ،ومن هؤلاء أبو نصر الطرفي وزير أسفار بن شيرويه الذي صنف له أبو محمد الكوفي خطيب جرجان كتابا في أخبار ولد العباس ،وكان ذلك سنة خمس عشر وثلاثمائة[١]،كما ألف الحسن بن الحارث الحسُوني كتابا لأحمد بن محمد أبو الحسن السهيلي الخوارزمي ، وهو أحد وزراء خوارزم[٢]، وأهدى المقدسي كتابه أحسن التقاسيم " إلى أحد الوزراء [٣] ،كما كان الأسود الغندجاني يهدي كل مؤلفاته إلى الوزير أبي منصور بهرام بن مارفنه (ت ٤٣٣ هـ) وزير الملك أبي كاليجار خاصة وما كان يجزله من عطاء[٤] .

على أية حال ، فقد عكس لنا العرض السابق إلى أي مدى شغف حكام ووزراء المشرق بالعلم وأهله ، وكيف بذلوا كل غال ونفيس في سبيل استقطابهم وعقد مجالس العلم والمناظرة كما عكس لنا شغفاً بالكتب والمؤلفات أدركه العلماء ذاتهم فسعوا إلى كتابة الكتب وتأليفها وإهدائها إلى الحكام والوزراء ،ولن نبالغ إذا ما قلنا أن كثيراً من الكتب والمؤلفات التي شهدتها تلك الحقبة إنما كانت تكتب لتزدان بها خزائن الحكام والوزراء ، وهذا أمر نلمسه بسهولة من خلال مطالعة مقدمات بعض هذه الكتب ،وقد أقر الدلجي بهذا فقال " ... قل أن يخلو كتاب من كتب العلماء الأقدمين خصوصا في العلوم العقلية والأدبية إلا ويذكر فيه أن الباعث على تدوينه وزير أو قاض أو أمير أو من في معناهم"[٥] ، ونحن نتفق مع الدلجي فيما ذهب إليه .

كما عكس لنا العرض السابق أن حالة من الانتعاش الثقافي كانت قد سادت بلدان المشرق الإسلامي ، إذ أخذ الجميع يتنافسون ويتبارون في كتابة وتأليف كل ما هو جديد لتحظى به خزائن الملوك والوزراء وأولى الأمر ،كما سعى أولو الأمر إلى اقتناء الكتب والمؤلفات مما ساهم بشكل أو بآخر في إثراء خزائن الكتب وظهورها بالصورة التي سنراها .

ثالثا : خزائن كتب الحكام :.....

كان طبيعيا بعد ما لاحظناه من اهتمام حكام ووزراء المشرق بالعلم والعلماء والأدباء وبالكتب والمؤلفات ،أن نراهم حريصين كل الحرص على اقتناء الكتب والمؤلفات في خزائن للكتب ، وقد كان من الطبيعي أن نراهم يتأنقون في إعداد هذه الخزائن ويبالغون في الاهتمام

---

(١) السهمي : تاريخ جرجان ،جـ ٦ ،ط ٨ ،مجلس دائرة المعارف العثمانية ،حيدر أباد ١٩٥٠م. ،صـ ٢١٧

(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٥ ،صـ ٣٢ .

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ،صـ ٦٦ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ ٧ ،صـ ٢٦٤ .

(٥) الدلجي : الفلاكة والمفلوكون ،صـ ٤٦ .

بها ، ولكن تُرى كيف كانت تبدو هذه الخزائن ؟ !! وما محتوياتها ؟ ومن القائمون عليها ؟ وكيف تأتي لهم جمعها ؟!!

١ - خزائن كتب الطاهريين : ٢٠٥ ــ ٢٥٩ هــ

كان لبني طاهر خزانة كتب لم تلق من الاهتمام وعناية مؤرخينا القدامى الشيء الكثير ،أو حتـى القليل ،فالخبر الوحيد الذي عُثر عليه عن هذه الخزانة جاء في كتاب الفهرست [١] لابن الـنديم ،ضـمنا في إطار حديثه عن عالم اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي [٢] وكتابه المسمى بكتاب العين .

فقد قال ابن النديم نقلا عن أحد النحويين الموصوفين بالصدق " ... قرأت بخط أبي الفتح النحوي ، وكان صدوقا منقباً بحاثاً ، قال أبو بكر بن دريد: وقع بالبصرة كتاب العين سنة ثمان وأربعين ، قدم به وراق من خراسان ، وكان في ثمانية وأربعين جزءا فباعه بخمسين دينارا ، وكان سُمع بهذا الكتاب أنه بخراسان في خزائن الطاهرية ، حتى قدم به هذا الوراق ، وقيل أن الخلـيل عمـل كـتاب العـين وحج وخلف الكتاب بخراسان فوجه به إلى العراق من خزائن الطاهرية " [٣] .

والـنص كما يبدو على درجة كبيرة من الأهمية ، إذ هو يقر بوجود ليس فقط خزانة كتب لبني طاهر ، بل أكثر من خزانة ،ودليلنا على ذلك قوله : " ... فوجه به إلى العراق من خزائن الطاهرية " ،مما يعكس لنا جانبا من محتويات هذه الخزائن ، فكتاب العين للخليل بن أحمد هو أحد كتب علوم اللغة ، فلا شك أن خزائنهم حوت هذا النوع من المؤلفات .

كذلك ، يعكس لنا النص ذلك الدور الذي لعبته خزائن كتب بني طاهر في حفظ كتاب من الكـتب الهامـة ثـم نشره ،إذ يوحي لنا قوله : " ... وكان سمع بهذا الكتاب أنه بخراسان في خزائن الطاهرية "، أن الكتاب لم يكن قد عرف طريقه بعد لعامة الناس وخاصتهم ، حتى جيء به من خراسان ، وكان ذلك وعلى ما يبدو عام ٢٤٨ هــ ، كما يعكس لنا النص مدى حرص بني طاهر على تحصيل كل ما هو جديد من الكتب والمؤلفات لخزائن كتبهم بدليل عدم انتشار الكتاب قبل أن يأتي به هذا الوراق .

---

(١) انظر: ابن النديم : الفهرست ،صـ ٦٤ .

(٢) الخليل بن أحمد هو أول من استخرج علم العروض ،وكان من الشعراء والزهاد المنقطعين للعلم ،كان إماما في علم النحو ،ولد سنة ١٠٠ هـ ،وت ١٧٠ ،وقيل ١٧٥ هـ . أنظر ابن النديم : المصدر السابق ،صـ ٦٣ وما بعدها ،وانظر أيضا ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ،ص ص ٢٤٤ ــ ٢٤٨ .

(٣) ابن النديم : المصدر السابق ،صـ ٦٤ .

ولا ندري على وجه الدقة كيف وجد هذا الكتاب طريقه لخزائن كتب بني طاهر ، وقد يكـون ذلـك أما عن طريق النسخ ، أو عن طريق الشراء ، خاصة وأن الخليل ترك الكتاب بخراسان حيث كان مقر بني طاهر بنيسابور .

ولا نعلـم على وجه الدقة ، هل ما بُعث به إلى العراق كان نسخة من هذا الكتاب ، أم هو أصل الكتاب ؟ وما صفة هذا الوراق ؟ وما علاقته بخزائن كتب الطاهريين ؟ والواقع أننا لم نعثـر فيما أطلعنا عليه من مصادر ما يجيب على مثل هذه التساؤلات ، ومن المحتمل أن هذا الوراق كان أحد العاملين بالخزانة ، فاستنسخ نسخة من الكتاب آلت إليه بشكل أو بآخر ،فكان أن سعى لبيعها بالعراق ، خاصة وما عرف من أن الكتاب لم يكن قد وجد بعد بالعراق ،حيث كان أصله بخراسان.

علـى أية حال ، فإن ما يعنينا حقا هو الإقرار بوجود خزائن الكتب هذه ، ولا يستبعد أن يكون مقرها في نيسا بور استنادا إلى كونها مقر حكم بني طاهر .

أما فيما يتعلق بمحتويات هذه الخزائن ، فإننا لا نستبعد اشتمالها على كتب في الحديث ، استنادا إلى ما سبق وذكرناه من أن عبيد القاسم بن سلام ألف لعبد الله بن طاهر كتاب غريب الحديث ، وأنه خصص له بسبب ذلك الكتاب صلة قدرها عشرة آلاف درهم في كل شهر[١] ، كما حوت وعلى ما يبدو كتبا في علوم القرآن ،وهذا استنادا إلى ما ذكره ياقوت [٢] من أن أبا المنهال[٣] ألف كتابا في القرآن لإسحاق بن إبراهيم الطاهري.ولا يستبعد أن تكون هذه الخزائن قد اشتملت على كتب في الآداب وعلوم اللغة استنادا إلى ما سبق وأشرنا إليه من أن الفراء ألف لعبد الله بن طاهر كتاب البهي ، وكتاب المذكر والمؤنث [٤]، وغيرها .

ولا يخالجنا شك في أنها اشتملت على مؤلفات تاريخية خاصة وما ذكر عن عبد الله بن طاهر من أنه كان أديبا فاضلا عالما بأخبار الناس[٥] .

ومن المحتمل أن يكون طاهر بن الحسين هو الذي وضع أسس هذه الخزائن ونواتها ،ثم كان عبد الله بن طاهر هو الذي ارتقى بها وزاد من محتوياتها ، خاصة وكثرة ما ذكر عن اهتمامه بالمعارف والآداب والكتب والمؤلفات .

على أننا نتسائل عن الأسباب والدوافع التي كانت وراء إغفال مؤرخينا القدامى لذكر هذه الخزائن ومحتوياتها ،هذا بالمقارنة بغيرها من خزائن كتب الحكام والملوك ،وللإجابة على هذا

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٦ ،صـ ٢٥٥ وصـ ٢٥٦ .
(٢) المصدر نفسه : جـ ١٦ ،صـ ١٦٥ .
(٣) هو عيينة بن عبد الرحمن المهلبي .
(٤) المصدر نفسه : جـ ٥ ،صـ ١١٣ ،جـ ٢٠ ،صـ ١٣ .
(٥) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١٦ ،صـ ١٤٠ .

التساؤل ، كان ينبغي لنا أن نوضح أن خزائن كتب بني طاهر كانت ، وعلى ما يبدو ، معاصرة لخزانة كتب من أعظم خزائن الكتب في تاريخ المسلمين ، ألا وهي خزانة كتب بيت الحكمة ، والتي ارتقت في عصر المأمون ارتقاءاً هائلا ، فلا شك أن خزانة كتب بيت الحكمة للمأمون استأثر باهتمام كل علماء وأدباء ومؤرخي ذلك العصر فسلطت عليها الأضواء وخبت على ما دونها من الخزائن ، فكانت هي حديث المؤرخين ممن كان لهم اهتمام بأمور العلم والثقافة ، ولما كانت خزانة كتب بني طاهر معاصرة لخزانة بيت الحكمة ، فقد كان طبيعيا ألا تلقى من عناية أهل العلم الكثير ، وعليه فإننا لم نصادف لها ذكر فيما أطلعنا عليه من مصادر كما أننا لا نستبعد كونها أصغر حجما ومحتوى من خزائن كتب بيت الحكمة للمأمون .

٢ - خزانة كتب السامانيين :٢٦١ ــ ٣٨٩هـ

وعلى الجانب الآخر، كان لآل سامان خزائن كتب خلدت ذكرها بعض المصادر التاريخية وذلـك في إطار عرض بعض هذه المصادر وترجمتها لشخص ابن سينا [1] خاصة وأنه دخل دار كتبهم وعاينها وشاهد ما فيها وأطلع على علومها ، إذ تشير المصادر التي أطلعنا عليها أن مرضا ألم بسلطان بخاري ، وكان في ذلك الوقت نوح بن منصور[2]، وكان ابن سينا قد اشتهر بينهم في ذلك الوقت بمعرفته وإلمامه بعلوم الطب .

وفي هذا يقول ابن سينا متحدثا عن نفسه إلى أبي عبيد الجوزجاني الذي صحبه لمدة خمس وعشرين سنة : " ... كان السلطان في بخاري ،في ذلك الوقت ، نوح بن منصور ،واتفق له مرض أتلج الأطباء فيه ، وكان اسمي قد اشتهر بينهم بالتوافر على القراءة ، فأجروا ذكري بين يديه وسألوه إحضاري ، فحضرت وشاركتهم في مداواته وتوسمت خدمته فسألته يوما الإذن لي

---

(١) ابن سينا هو : أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا ،الحكيم المشهور ،ولد ٣٧٠هـ ،ت. ٤٢٨ هـ ،له الكثير من المؤلفات ،قرابة المائة مصنف ،كان أبوه من أهل بلخ ،ثم انتقل منها إلى بخاري ،أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٢ ،صـ ١٥٧ وما بعدها .

(٢) ذكرت المصادر التاريخية اثنين من حكام دولة آل سامان ،عرفا باسم نوح ،أحدهما نوح بن نصر والآخر نوح بن منصور ،وقد أشار ابن خلكان إلى أن دخول ابن سينا لمكتبة آل سامان كان في عهد نوح بن نصر أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٢ ،صـ ١٥٨ ،في حين ذكر ابن ابى أصيبعة أنه دخلها في عهد نوح ابن منصور ،أنظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ،صـ ٤٠٣ ،وبالعودة للمصادر ،لوحظ أن النرشخي لم يشر إلى هذا الأمر،أنظر النرشخي ،تاريخ بخارا ،صـ ١١٣-١١٥ ، كما لم يذكر خواندمير شيء يفيد في هذا الأمر ،واكتفي بأن ذكر انه الأمير نوح ،أنظر خواندمير : دستور الوزراء ،صـ ٢٢٦ ،وبالعودة للمصادر والتحقق من فترة حكم كل منهما ، لوحظ أن الأمير نوح بن منصور ولي إمارة الدولة عام ٣٣١ هـ ،ت ٣٤٣ هـ ، أما نوح بن منصور فوليها ٣٦٦ هـ ،ت ٣٨٧ هـ ،وبالعودة لميلاد ابن سينا ووفاته لوحظ انه ت ٤٢٨ هـ وقد ذكر ابن العبري أنه توفي عن ثمانية وخمسين عاما ،هذا مما يعني أنه ولد بعد وفاة نوح بن نصر بفترة طويلة جدا ،مما يؤكد على أنه إنما دخلها في عهد نوح بن منصور الساماني المتوفى ٣٨٧ هـ ، والذي عرف بالأمير الرشيد أبو القاسم نوح بن منصور ،وهو ما ذهب إليه ابن أبي اصيبعة ،أنظر ابن الجوزي : المنتظم جـ ١٥ ،صـ ٧ ،وابن العبري : والذهبي : العبر ، جـ ٢ ،صـ ١٧٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ص ٣٢٣ و ٣٢٤ .

في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لي ، فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة ، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، وفي بيت فيها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته قبل ، ولا رأيته أيضا من بعد ، فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه ،فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ، ولكنه معي اليوم أنضج " [١].

وقد ذكر دار الكتب هذه أيضا ابن خلكان ، فقال مشيرا إلى ابن سينا : ... وذكر عند الأمير نوح بن نصر[٢] الساماني ، صاحب خراسان ، مرض مرضه فأحضره وعالجه حتى برئ واتصل به ، وقرب منه ،ودخل دار كتبه ، وكانت عديمة المثل ،فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها ،مما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه ،فضلا عن معرفته، فظفر أبو على فيها بكتب من علم الأوائل وغيرها ،وحصل نخب فوائدها ،وأطلع على أكثر علومها ، وكان يقال أن أبا على توصل لإحراقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه إلى نفسه " [٣]، وهو ما نستبعده .

كما ذكرها القزويني ، فقال على لسان ابن سينا : "... فلما بلغت اثنتي عشرة سنة ،صرت أفتـــي في بخاري على مذهب أبي حنيفة ، ثم شرعت في علم الطب ،وصنفت القانون وأنا ابن ستة عشرة سنة ، فمرض نوح بن نصر الساماني ،فجمعوا الأطباء لمعالجته ، فجمعوني أيضا معهـــم ، فرأوا معالجتي خير من معالجات كلهم ، فصلح على يدي ، فسألت أن يوصي لخازن كتـــبه أن يعيرنــــي كل كتاب طلبت ففعل ، فرأيت في خزائنه كتب الحكمة من تصانيف أبي نصر بن طرخان الفارابي [٤] ، فاشتغلت بتحصيل الحكمة ليلا ونهارا حتى حصلتها [٥] .
وقد ذكر هذه الرواية أيضا خواندمير، وأشار إلى دار كتبهم المقصودة باسم مكتبة بخاري [٦].

٨

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأبناء ،صـ ٤٠٣ .
(٢) لم يكن الأمير المشار إليه نوح بن نصر كما ذكر ابن خلكان ،ولكنه كان نوح بن منصور ،وهو ما أثبتناه من قبل.
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٢ ،صـ ١٥٨ .
(٤) الفارابي:هو أحد الفلاسفة الذين انتفع ابن سينا بمؤلفاتهم ،ت ٣٣٩ هـ ،أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان،جـ ٥،ص ص ١٥٣ ــ ١٥٦ ،وعنه أنظر أيضا ديلاس أو ليري : الفكر العربي ومكانه في التاريخ ،ط ٢ الهيئة العامة للكتاب ،١٩٧٧م. ،صـ ١٠٨ وما بعدها .
(٥) القزويني : أثار البلاد وأخبار العباد ،دار صادر ،بيروت ١٩٦٠ ،صـ ٣١١ .
(٦) أنظر : خواندمير : دستور الوزراء ،صـ ٢٢٦ .

ومن خلال مطالعتنا لما ذكر بصدد هذه الخزانة ، يمكننا استنتاج بعض الأمور منها :

أولا : أن دار الكتب المشار إليها لم تكن مجرد حجرة أو خزانة عادية ملحقة بقصر الإمارة ،أو بدار الحكم ، بل من المحتمل أن تكون دار قائمة بذاتها ،ولذلك فقد ذكرها كل من ابن أبي أصيبعة، وابن خلكان ، باسم دار الكتب، والدار عادة ما تكون قائمة بذاتها ،على عكس البيت الذي هو جزء من الدار[١] ، وعليه فإننا لا نستبعد أنها كانت بناية عظيمة قائمة بذاتها ، ملحقة بمقر الحكم ، أو قريبا منه ،احتوت على بيوت ، وَصِفَت بأنها كثيرة .

ثانيا : يبدو أن دار الكتب هذه كانت مصنفة ،والتصنيف [٢] علم من علوم المكتبات بلغ فيه المسلمون باعا طويلا ، وتفوقوا فيه على غيرهم من الأمم [٣] بدليل ما ذكر من أنه كان فيها بيوت كثيرة " ... في بيت فيها كتب العربية والشعر ، وآخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد[٤] ، ولا شك أن أحد بيوتها حوت كتب الطب التي كانت بغية ابن سينا كما نفهم من نص ابن أبي اصيبعة ،كما يفهم أن الكتب والمؤلفات حفظت في صناديق وُصِفَت بأنها منضدة قد ذكر ابن منصور[٥] نضد المتاع ،أي جعله بعضه على بعض ، كما قيل نضد الشيء ،جعل بعضه على بعض متسقا و وقيل أيضا ينضد بعضه فوق بعض[٦] مما يعني أن صناديق الكتب وضعت بعضها فوق بعض .

ثالثا : تعكس لنا الروايات السابقة أن دار الكتب هذه كانت مفهرسة ، والفهرسة [٧] علم يوضح محتويات ومشتملات أي مكتبة ، مما يعكس لنا ما كان للمسلمين من دور في الارتقاء بعلوم المكتبات ، وقد لوحظ أن بها عدة فهارس تعددت وتنوعت تبعا لتعدد وتنوع العلوم

---

(١) ناقش ،يوسف العش ،قضية الفرق بين الدار والبيت ،وتوصل إلى أن البيت جزء من الدار ،وللمزيد ،أنظر : يوسف العش ،صـ كما ذكر المقريزي ما يفيد أن البيت جزء من الدار فقال : والبيت أخص من الدار انظر المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،جـ ٢ ,مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة،١٢٧٠ هـ صـ٥١ .

(٢) التصنيف : هو تميز الأشياء بعضها عن بعض ،ويقال الصنف كل شيء ،وكل ضرب من الأشياء و وصنف على حدة ،وقال الزمخشري ومنها تصنيف الكتب ،أنظر ابن منظور : لسان العرب ،جـ ١١ ،طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ،صـ ١٠٠ ،والزبيدي : تاج العروس ،جـ ٦ ،صـ ١٦٨ .

(٣) ذكرت د. ناهد محمد سالم ،أنه يرجع إلى المسلمين الفضل في جعل التصنيف علما من العلوم ، وتحديد مكان له على سلم المعرفة البشرية،أنظر: د. ناهد محمد سالم : نظم تصنيف المعرفة عند المسلمين ،صـ ١٨

(٤) لوحظ على هذا التصنيف أنه طبق نوعين من التصنيفات يعرفان حديثا بتصنيف الكتب والتصنيف الببليوجرافي ،مما يؤكد على ما كان للمسلمين من أسبقية في هذا المجال،وحول أنواع هذه التصنيفات انظر د. ناهد محمد سالم : المراجع نفسه ،صـ ٦،صـ ٢٨ .

(٥) لسان العرب : جـ ٤ ،ص ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

(٦) الزبيدي : تاج العروس ،جـ ٢ ،صـ ٥١٥ .

(٧) الفهرس هو : الكتاب الذي تجمع فيه أسماء الكتب ،وهو معرب فهرست الفارسية ،ولقد شهدت المكتبات في المشرق الإسلامي عدة فهارس سنعرض لها تفصيلا ،وحول الفهرس ،أنظر د. عبد الستار الحلوجي : المخطوط العربي ،ط ٣ ،دار الثقافة العلمية ،الإسكندرية ،صـ ٢٥٣ وما بعدها ،أنظر ايضا : د. أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط ،ط ١ ،الدار المصرية اللبنانية ،القاهرة ،١٩٩٧ ،صـ ٥٢١ وما بعدها .

والمعارف التي حوتها دار الكتب هذه ، بدليل ما ذكره ابن سينا من أنه طالع فهرست كتب الأوائل[١]، فليس بمستبعد أن تكون هناك فهارس لباقي فروع العلم والمعرفة ، الموجودة بها ٠

رابعا : يوحي لنا قول ابن سينا " ... طلبت ما احتجت إليه منها ... " بأنه كان هناك بعض العاملين بهذه الدار ممن كانوا يقومون بالعناية بأمر الكتب وتوفيرها لمحتاجيها ،وقد ذكر القزويني[٢] صراحة أنه كان بها خازن للكتب ٠

خامسا : أما فيما يتعلق بمحتويات هذه الدار ،فقد أوضح ابن سينا أنه رأى بها ما لم يره من قبل أو من بعد من الكتب والمؤلفات ،وذكر صراحة أن بها قسما لكتب اللغة والشعر وآخر لكتب الفقه ،وثالث لكتب الأوائل ،هذا غير كتب الطب التي رغب فيهيا ،كما أشار القزويني لاشتمالها على كتب الحكمة ٠

سادسا : يبدو أن ابن سينا دخل هذه الدار أكثر من مرة ،ونستدل على ذلك بما أشار إليه من أنه رأى بها من الكتب ما لم يره من قبل ولا من بعد ،وقد أشار إلى أنه قرأ هذه الكتب وظفر بفوائدها ،ولا شك أن هذا الأمر يحتاج إلى وقت طويل ،مما يوحي بأنه أكثر من التردد عليها ٠

سابعا : لم تكن هذه الدار على ما يبدو مفتوحة للعامة من الناس ، إلا فما احتاج ابن سينا إلى الاستئذان لدخولها والإطلاع على ما فيها ٠

على أن ابن سينا لم يكن - على ما يبدو - هو وحده الذي دخل هذه الدار واطلع على ما فيها ، ودليلنا على ذلك ما ذكره المقدسي مشيراً إلى الأشكال التي ذكرها في كتابه ، فقال " ... وأما الأشكال التي مثلناها قد ابذلنا فيها المجهود حتى أصبحت بعد ما تأملت عدة من الصور منها صورة وجدتها بخزانة ملك المشرق عنده كاغدة مصورة " [٣]،

وقد يضعنا قوله " ملك المشرق " في حيرة ، إذ لم يحدد اسمه ولا حتى مكانه ، إلا أنه ذكر في موضع آخر من مؤلفه " أحسن التقاسيم " أن المشرق المقصود به دولة آل سامان ، فقال "... وكلما قلنا المشرق فهي دولة آل سامان "[٤]،

وعليه ، فإننا لا نستبعد أن تكون خزانة كتب ملك المشرق التي أشار إليها المقدسي ، هي دار كتب آل سامان التي ذكرها ابن سينا ، هذا مما يدل على أن دار كتب آل سامان برغم عدم

---

(١) المقصود بها كتب الفلاسفة وحكماء اليونان القدامى وغيرهم من قدامى العلماء ٠

(٢) آثار البلاد ... : ص ٣١١ .

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧ .

تمكن العامة من دخولها ،وهو ما سبق إثباته ، إلا أنه سمح لبعض أهل العلم والمعارف بدخولها والإطلاع علي ما فيها ،ومن ثم فلم يكن ابن سينا وحده هو الذي اطلّع على ما فيها ، وهذا بالتالي يدحض الاتهام الذي سبق وألصقه بعض الحاقدين بابن سينا ، وبأنه هو الذي أحرق هذه الدار لينسب ما فيها من علم إلى ذاته [١]، على اعتبار أنه وحده الذي أطلع علي ما فيها من علوم ، إذ لم يكن وحده الذي علم بمحتوياتها ، وهو ما أثبتناه بدخول المقدسي لها .

على أننا لا نعلم على وجه الدقة الفترة التي ارتاد فيها المقدسي هذه الدار،ولكن إذا علمنا أن المقدسي ت ٣٨٠ هـ ، وأن نوح بن منصور الذي دخل ابن سينا في عهده هذه الدار قد حكم من ٣٦٦ هـ إلى ٣٨٧ هـ ، فإن هذا يجعلنا نضع احتمالية أن المقدسي زار هذه الخزانة أيضا في عهد نوح بن منصور .

٣ – خزانة كتب عضد الدولة البويهي :

ذكر المقدسي في أكثر من موضع ما يؤكد على اطلاعه على محتويات خزانة كتب عضد الدولة ، فقال مشيرا لكتاب الجيهاني : " .... رأيت كتابة في سبع مجلدات في خزائن عضد الدولة " [٢]، كما ذكرها في إطار حديثه عن أحد البحار فقال : " رأيته ممثلا على ورقة في خزانة أمير خراسان ... وفي خزانة عضد الدولة " [٣] ، وذكرها أيضا في إطار حديثه عن دمشق والري ، فقال: "....وجدت في كتاب بخزائن عضد الدولة عروسا الدنيا دمشق والري"[٤] .

وقال أيضا في إطار حديثه عن أقاليم الأعاجم : "... وجدت في كتاب بخزانة عضد الدولة فصلا في المتنزهات " [٥] ، وأشار إليها في ثنايا حديثه عن خراسان ، فقال : " ... وقرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة ... "[٦] ،وذكرها في إطار حديثه عن أهل فارس فقال "... وقرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة أهل فارس أبخع (أكثرهم طاعة) الناس بطاعة السلطان "[٧].

وهكذا ، فقد ذكر المقدسي خزانة كتب عضد الدولة في أكثر من موضع في مؤلفة أحسن التقاسيم ، وهو تارة يشير إليها فيسميها خزانة كتب عضد الدولة ، وتارة أخرى يذكرها بخزائن كتب عضد الدولة [٨] .

---

[١] أنظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٢ ،صـ ١٥٨ .
[٢] المقدسي : أحسن التقاسيم ،صـ ٤ .
[٣] المصدر نفسه : صـ ١٠ .
[٤] المصدر نفسه : صـ ١٥٩ .
[٥] المصدر نفسه ،صـ ٢٨٥ .
[٦] المصدر نفسه : صـ ٢٩٤ .
[٧] المصدر نفسه : صـ ٤٤٨ .
[٨] المصدر نفسه : صـ ٤ ،صـ ١٥٩ .

وقد أعطانا المقدسي وصفا رائعا لتلك الخزانة في إطار حديثه عن إقليم فارس ، فقال مشيرا إلى عضد الدولة "... وبني بشيراز دارا لم أر في شرق ولا غرب مثلها ، ما دخلها عامي إلا أفتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها ، و خرق فيها الأنهار ونصب عليها القباب ، وأحاط بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعدد ، وسمعت رئيس الفراشين يقول فيها ثلاثمائة وستون حجرة ودارا ، وكان محله كل يوم واحدة إلى الحول ، وهي سفل وعلو ، وخزانة الكتب على حده وعليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها ، وهي أزج طويلة في صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه ، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج ، والخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهارس، فيها أسامي الكتب ، لا يدخلها إلا وجيه ، وطفت في هذه الدار كلها سفلها وعلوها ، وقد فرشت فيها الآلات ، فرأيت في كل مجلس ما يليق به من الفرش والستور ، ورأيت بيوت الخيش ينتزع عليها الماء من قني حولها من فوق بالدوام ، ورأيت الأنهار تطرد في البيوت والأروقة وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة ..." (١) .

ويؤكد النص على وجود خزانة كتب لعضد الدولة البويهي ، ويعطينا وصفا شبه تفصيلي لما كانت عليه هذه الخزانة ، وتخرج من النص بأمور منها :

أولا : أن خزائن كتب عضد الدولة كانت في شيراز معقل حكمه ،وأنه كان بها بعض العاملين ، فكان بها وكيل وخازن ومشرف من أبرز علماء البلد فالعدول على ما يبدو صفوة العلماء والأدباء ، ولعل وجود ثلاثة من أهل العلم يقومون بالإشراف على خزانة كتب يعكس لنا مدى عظم هذه الخزائن واتساعها وكثرة ما تحويه .

ثانيا : بالنص إشارة إلى أن هذه الخزائن كانت تحوي عددا هائلا من الكتب ،خاصة وأنه أشار إلى أنه لم يبق كتاب صنف إلى وقته في أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها ،وهذا أمر ليس بمستبعد في ضوء ما أشرنا إليه من شغف عضد الدولة بالكتب ، وتعكس لنا لفظة أنواع أن هذه الكتب اتسمت بالتنوع والتعدد .

ثالثا : بالنص إشارة إلى أنها احتوت على عدة خزائن اتسمت بالعظم والاتساع ،فكانت في كل وجه ، وكانت طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع ، والقامة وحدة قياس تقدر بستة

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ،صـ ٤٤٩ .

أقدام(١) ، أما الذراع فهو أيضا وحدة قياس قدرها كل من أبن منظور(٢) والزبيدي(٣) بأنها من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطي .

وقد ورد بالمعجم الوجيز(٤) أن أشهر أنواعه الذراع الهاشمية ، وطولها ٦٤ سنتيمتر ، هذا مما يعني أن عرضها كان قرابة المترين، أو أقل قليلا ، وهذا اتساع هائل يسمح باحتواء الكثير من الكتب والمؤلفات.

وقد أشار إلى أنها صنعت من الخشب المزوق ، مما يعكس لنا الحرص على الزخرفة والتأنق في صناعة هذه الخزائن ،ويبدو أيضاً أن البناء الذي جمع هذه الخزائن كان كبيرا متسعا بالقدر الذي يتسع معه لمثل هذه الخزائن ، وقد أشير بالنص إلى أنه " أزج طويلة في صفة كبيرة " والأزج ،بناء مستطيل مقوس السقف(٥) ، أما الصفة من البنيان فهي أشبه البهو الواسع الطويل السَمْــك (٦) .

رابعا : بالنص إشارة إلى أن هذه الخزائن عليها أبواب مما يعكس سلنا حرصا تشوبه مبالغة في الحفاظ على الكتب والمؤلفات ،ووصفت هذه الأبواب بأنها تنحدر من فوق مما يعكس سهولة فتحها والتعامل معها .

خامسا : أعطانا النص وصفا لكيفية ترتيب الكتب في هذه الخزائن ،وبأنها كانت منضده وهي في هذا تشبه إلى حد كبير صفة الكتب في خزانة آل سامان ،فقد كانت أيضا منضدة،مما يعطينا انطباعا أن وضع الكتب بهذا الشكل كان أمرا سائدا في تلك الآونة ، ولعلهم آثروا ذلك الوضع خشية أن تصاب الكتب بالالتواء أو التقوس إذا ما وضعت بالشكل الرأسي المعروف لدينا الآن .

سادسا : يعكس لنا النص أن هذه الخزائن كانت مصنفة ، فكان لكل نوع من الكتب والمؤلفات خزائنه الخاصة ، كما أنها كانت مفهرسة ، اشتملت على عدة فهارس توضح محتويات هذه الخزائن، ولا يستبعد أن يكون العاملين عليها ، وهم الوكيل والخازن والمشرف ، هم الذين قاموا بعمليتي التصنيف والفهرسة هذه .

سابعا : أشار المقدسي إلى أن هذه الدار ،ومنها طبعا خزائن الكتب ،فرشت بالآلات ،فكان في كل مجلس ما يليق به من الفرش والستائر ، ولعل قوله: " بالآلات " يشير إلى أن خزائن

---

(١) المعجم الوجيز : مجمع اللغة العربية ،٢٠٠٥ ،صـ ٥٢١ .
(٢) لسان العرب : جـ ٩ ،صـ ٤٤٧ .
(٣) تاج العروس : جـ ٥ ،صـ ٣٢٣ .
(٤) المعجم الوجيز ،صـ ٢٤٤ .
(٥) أنظر: المعجم الوجيز ،صـ ١٤ .
(٦) أنظر: ابن منظور : لسان العرب ،جـ ١١ ،صـ ٩٧ . والزبيدي : تاج العروس ،جـ ٦ ،صـ ١٦٦ .

الكتب لم تشتمل فقط على الكتب ،بل شملت أيضا بعض الأدوات والآلات التي كانت تعين على البحث والدراسة ، وقد يكون ذلك الأمر مقبولا ،إذا ما علمنا أن عضد الدولة ، كان قد أُهْدِيَ اصطر لاباد بقدر الدرهم أهداه إليه أبو إسحاق الصابي ، وُصِفَ بأنه محكم الصنعة[١].

ثامناً : أشار المقدسي إلى أن هذه الخزائن لم تفتح للعامة من الناس ،فلم يكن يدخلها إلا الوجيه ، على حد قوله ، ولعله يقصد صفوة العلماء والأدباء ، ولا شك أن المقدسي كان أحد هؤلاء.

تاسعاً : كانت خزائن كتب عضد الدولة ، وعلى ما يبدو ، معدة لممارسة النسخ والتوريق خاصة وما اكتشف فيها من أرقى أنواع الورق السمرقندي والخرساني ، والذي عثر عليه ابن البواب[٢] والذي عمل خزانا لهذه الخزائن في عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة [٣].

أ – محتويات الخزانة :

أما عن طبيعة محتويات الخزانة، فإنه ينبغي أن نعود إلى ما سبق وذكره الثعالبي[٤] بصدد عـضد الدول ومن أنه كان يتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسه الأدباء على منادمة الأمراء ، فلا شك أن جل ما حوته خزائن الكتب هذه كان في الآداب ، وليس أدل على ذلك من شغفه بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ،الذي لم يكن يفارقه لا في سفره ولا حضره على حد تعبير ياقوت الحموي[٥].

ولا يستبعد أيضا أن تكون خزائنه قد حوت مجموعة من كتب ودواوين الشعر ، خاصة وأنه كان من المهتمين بالشعر والشعراء ، فكان يقول شعرا كثيرا [٦]، وكان يجزل العطاء للشعراء ودليلنا على ذلك ما كان منه تجاه المتنبي الذي أنشده الكافية[٧] التي كانت آخر أشعاره

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٢ ،صـ ٣٤ .

(٢) ابن البواب : هو على بن هلال أبو الحسن ،ت ٤١٣ ،وقيل ٤٢٣ ،وهو صاحب الخط المليح ،كان في أول أمره مزوقا يصور الدور ،ثم صور الكتب ،ثم عمل بالكتابة ،وكان خازنا لدار كتب عضد الدولة في عهد ابنه بهاء الدولة أنظر ياقوت الحموي ،المصدر السابق ،جـ ٥ ،صـ ١٢٠ وما بعدها ،أنظر أيضا : الذهبي : العبر ،جـ ٢ ،ص ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ،وأيضا ابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١٢ ،صـ ١٤ .

(٣) بهاء الدولة : هو السلطان أبو نصر ابن عضد الدولة ،ت ٤٠٣ هـ . انظر الذهبي : المصدر السابق ،جـ ٢ ،صـ ٢٠٥ ،ابن كثير : المصدر السابق ،جـ ١١ ،صـ ٣٤٩ .

(٤) يتيمة الدهر : جـ ٢ ،صـ ٢٥٧ .

(٥) أنظر : معجم الأدباء ،جـ ١٣ ،صـ ٩٧ .

(٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٢ ،صـ ٢٥٧ .

(٧) الكافية ،هي قصيدة للمتنبي مدح بها عضد الدولة ،وكانت آخر قصائده و سميت بالكافية لانتهاء قافيتها بحرف الكاف و أنظر ديوان المتنبي ،دار الكتاب الإسلامي و القاهرة ،د.ت ،صـ ٧٣٢ ،والثعالبي : المصدر السابق ،جـ ١ ،ص ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

كما أننا ندلل على ذلك بما ذكره على بن عيسى الربعي[١] ،إذ ذكر ما يفيد أن عضد الدولة استدعاه يوما وكان بيده كتاب الحماسة ليسأله ويناقشه حول بعض الأبيات[٢]، وقد سبق وأشرنا إلى أن عضد الدولة أُلِفَ له كتاب القوافي ، وقد كتبه له على بن هارون المعروف بأبي الحسن[٣].

من المحتمل أيضا أن تكون خزائنه قد حوت كتبا ومؤلفات في علوم اللغة والنحو استنادا إلى ما ذكر من أنه أُلِفَ له كتاب الإيضاح [٤] ، وكتاب التكملة [٥] على الإيضاح لأبي على الفارسي ، وقد كان كثيراً ما يفتخر بأنه تلميذ لأبي على الفارسي في النحو[٦] .

ويبدو أيضا أن هذه الخزائن حوت كتبا ومؤلفات في علوم النجوم وعلوم الهيئة [٧] ،هذا استنادا إلى ما كان له من اهتمام بهذه العلوم ،فقد كان دائما ما يقول مفتخرا بالعلم والمتعلمين "... معلمي في الكواكب الثابتة ،وأماكنها عبد الرحمن الصوفي ، وفي حل الزيج الشريف بن الأعلم"[٨].وفي التعريف بهؤلاء العلماء,أشار ابن العبري[٩] إلى ما يفيد أن عبد الرحمن بن سهل الصوفي ت ٣٧٦ هـ وابن الأعلم كان من العلماء بعلوم الهيئة .

نستدل على هذا الاهتمام بعلوم النجوم والهيئة واشتمال خزائنه على مؤلفات فيها بموقفه من أبي الفضل جعفر بن المكتفي بالله (ت ٣٧٧ هـ) إذ قيل له أنه رجل فاضل كبير القدر عالم بعلوم متعددة من علوم الأوائل ،متحقق بذلك أتم تحقيق فما كان من عضد الدولة إلا أن استدعاه وسأله في علم أحكام النجوم وغيرها[١٠] ،هذا مما جعلنا نتوقع اشتمال خزائنه على كتب ومؤلفات خاصة بهذه المعارف .

لا شك أيضا أن خزائن كتب عضد الدولة حوت بعض المؤلفات في علوم الطب ومداواة المرضى استنادا إلى ما أُلِفَ لعضد الدولة في هذا المجال ، فقد سبق وأشرنا إلى أنه ألفت له

---

[١] على بن عيسى الربعي،عرف بأبي الحسن النحوي ،كان أحد أئمة النحو ت ٤٢٠ هـ .انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١٤ ،صـ ٧٨ .
[٢] المصدر نفسه : جـ ١٤ ،صـ ٨٢ .
[٣] المصدر نفسه : جـ ١٥ ،صـ ١١٢ .
[٤] انظر أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ،جـ ٣ ،صـ ٦٨ .
[٥] ابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١١ ،صـ ٣٠٠ .
[٦] ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ،صـ ١٧٤ .
[٧] علم الهيئة هو ؛ علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة ،ويستدل على أشكال وأوضاع الأفلاك التي تدور فيها ببعض الطرق الهندسية و للمزيد أنظر : ابن خلدون : المقدمة ،صـ ٣٤١ وما بعدها .
[٨] ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ،صـ ١٧٤ ،الزيج علم يُعَرَفُ به مواضع الكواكب في أفلاكها ،أنظر ابن خلدون : المصدر السابق صـ ١٧٦ .
[٩] ابن العبري : المصدر السابق نفسه .
[١٠] المصدر نفسه ،صـ ١٧٦ .

بعض المؤلفات الطبية مثل " الكناش العضدي " الذي وصفه أبو شجاع بأنه موفي على غيره من الكتب بيانا وترتيبا وكمالا[١]، وكتاب " الملكي في الطب " الذي وصفه ابن العبري[٢] بأنه كتاب جليل وكناش نبيل مال الناس إليه في وقته ولزموا دراسته ، وذكره ابن أبي أصيبعة [٣] وأشار إلى أنه كتاب جليل يشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها .

كذلك لا يستبعد أن تكون خزائنه قد حوت مؤلفات في علوم الرياضيات والعلوم الهندسية ، استنادا إلى ما ألف له من رسائل ومقالات هندسية ورياضية [٤]،هذا إلى جانب المؤلفات التاريخية ، والتي جاء في مقدمتها الكتاب الذي ألفه سنان بن ثابت بن قره ، في مفاخر الد يلم وأنسابهم[٥] ، وكتاب التاجي الذي ألفه أبو إسحاق الصابي[٦] .

ولكن ترى ، ما هي الكيفية التي دخلت بها هذه الكتب إلى الخزانة ؟ !!

ب – إجراءات دخول الكتب إلى الخزانة :

من الأمور الغير مستبعدة أن تلك الكتب لم تكن تدخل إلى خزائن كتب عضد الدولة إلا بعد أن خضعت لعدة إجراءات، وكان على ما يبدو ، يشرف عليها بنفسه ، وهذا استنادا إلى ما كان يذكر بصدده ، من أنه كان يشرف علي الصغير والكبير من أمور خزائنه بنفسه[٧] ، فلم يكن الكتاب ليستقر بخزائن الكتب إلا بعد أن يقرأ على عضد الدولة فيعرف محتواه ، ويراجعه فإن لاقى القبول استقر بالخزائن وإلا فلا ، ودليلنا على ذلك ما ذكر بصدد كتاب (التاجي) لذي كان يؤرخ للديلم ومفاخرهم ،فقد كان أبو إسحاق الصابي ، إذا كتب جزءا من الكتاب حمله إلى عضد الدولة حتى يقرأه ويصلحه ويزيد فيه وينقص منه ،حتى إذا تكامل نُسِخَ وحمل كاملا إلى خزائنه[٨]، وقد ذكر ياقوت الحموي[٩] أن الكتاب قرأ عليه في أسبوع وهذا على ما يبدو وقت كاف لتفحص الكتاب وتحديد مدى صلاحيته لدخوله خزائن الكتب ، وقد يكون ذلك منطقيا ، خاصة وأن الكتاب كان يؤرخ لسيرة وتاريخ بني بويه ، إلا أننا لا نستبعد قيامه بذلك مع كل كتاب يُشترى ، أو يُنسخ ، أو يهدى لخزائنه خاصة وشغفه بالكتب .

---

(١) ذيل تجارب الأمم : جـ ٣ ،صـ ٦٨ .
(٢) تاريخ مختصر الدول : صـ ١٧٤ .
(٣) عيون الأبناء : صـ ٢٩٤ - ٢٩٥ .
(٤) أنظر ذيل تجارب الأمم ،جـ ٣ ،صـ ٦٨ ،وياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١١ ،صـ ٢٦٣ .
(٥) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١١ ،صـ ٢٦٢ ،وابن أبي اصيبعة : عيون الأبناء ،صـ ٢٨٠ .
(٦) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ،جـ ٣ ،صـ ٢٣ .
(٧) انظر: المصدر نفسه : جـ ٣ ،صـ ٤٣ .
(٨) المصدر نفسه : جـ ٣ صـ ٢٣ .
(٩) معجم الأدباء : جـ ٢ ،صـ ٤٢ .

ج - صفة وشكل الكتب بالخزانة :

وعن صفة وشكل الكتب التي اشتملت عليها خزائن كتب عضد الدولة ،فإننا نرجح أنها ظهرت في أبهى صورة من حيث اختيار نوعية الورق المستخدم في نسخها ،ثم من حيث تجليدها وتذهيبها ،وذلك استنادا إلى ما ذكر في إطار الترجمة لعلي بن عيسى أبي الفرج الربعي من أنه قال : " اخرج إليَّ عضد الدولة بيده مجلدا بأدم مبطن بديباج أخضر في أنصاف السلطاني ، مذهب بخط أحسن ،فيه شعر مدبر حسن " (١) .

والكتاب ، وكما هو واضح من الوصف ، مجلدا بالأدم ومبطن بالحرير ، كُتب في ورق أنصاف السلطاني ، وهو نوع من الورق خاص بكتابات الملوك والحكام ، كما أنه كان مذهبا ،كتب بخط حسن و هذا مما يوحي بأن عضد الدولة كان يتأنق في تجليد كتبه وتذهيبها واختيار الورق الخاص بها ، ونذلل على هذا الأمر أيضا بما أشار إليه أبن البواب من أنه وجد بالخزانة أنوعا من الورق الكاغد والسمرقندي العتيق كل عجيب وطريف ، هذا إلى جانب الورق الذي أشار إليه بالبياض الصيني والعتيق(٢)الذي أخذ منه ، وظل يكتب فيه سنين ومما يوحي بامتلاء الخزانة بشتى أنواع الورق .

د - كيفية جمع عضد الدولة لمحتويات الخزانة :

على أننا نتسائل ، كيف جمع عضد الدولة محتويات خزائن كتبه ؟ ! لا شك أن شراء الكتب كان من أهم العوامل التي يسرت على عضد الدولة جمع هذه الخزائن ، ونحن لا نستبعد على الإطلاق أن القائمين على الخزائن كانوا هم المشرفين على عملية شراء الكتب ،فقد ذكر ابن مسكويه ضمنا في إطار عرضه لأسباب الخلاف الذي كان قائما بين عضد الدولة وابن عمه بختيار(٣) إلى أن بختيار كان يمنع عضد الدولة من أن يبعث في شراء بعض الاحتياجات ذكر الكتب ضمنها ، مشيرا إليها بقوله دفاتر عزيزة ، فقال مشيرا إلى عضد الدولة: "... وكان مع ذلك فاسد الرأي في بختيار مضغنا أشياء كان تقدمت بينهما ، من منافسة جرت في وقت منافسة في مرتبة ومنع مما يلتمسه عضد الدولة منه خاصة من دفاتر عزيز كان يضن بها بختيار وجوار صوانع محسنات كان لا يسمح بها وخيل عراب كان يمنع من شرائها له ،يجب أن يستبد بها من البادية ، وكانت هذه الأشياء مجتمعة في نفس عضد الدولة " (٤) .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٤ ،صـ ٨٣ .
(٢) المصدر نفسه : جـ ١٥ ،صـ ١٢٤ .
(٣) بختيار هو عز الدولة ابن معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه الديلمي و كان بينه وبين عضد الدولة منافسات في الممالك أدت إلى التنازع والقتال ،قتل ٣٦٧ هـ ،وللمزيد من المعلومات أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ١ صـ ٢٦٧ ،والذهبي : العبر ،جـ ٢ ،صـ ١٢٦ .
(٤) ابن مسكويه : تجارب الأمم ،جـ ٢ ،صـ ٣٣١ .

كما كان نسخ الكتب من أهم العوامل التي يسرت لعضد الدولة الحصول على الكتب ، ونذلل على هذا الأمر بما حوته الخزانة من كميات هائلة من الورق سبق الإشارة إليها كما كانت الكتب التي تؤلف له وتهدى له من عوامل إثراء خزائن كتبه .

وعلى ما يبدو ، فإن عضد الدولة لم يكن لتشغله حياته السياسية عن اهتماماته بالكتب وتحصيلها ، ومحاولة جلبها لخزائنه بشتى السبل ، بل كان أحيانا ما يسخر هذه لخدمه تلك ، ودليلنا على ذلك ما ذكره ابن مسكويه [١] ، وكان وكما نعلم خازنا لكتب عضد الدولة [٢] ،فقد ذكر ابن مسكويه في إطار حديثه عن فتوحات عضد الدولة ،وخاصة قلعة أردمشت [٣] ،انه كان مع من بعث بهم عضد الدولة إلى القلعة المذكورة لحصر وإحصاء ما فيها ، وكان ذلك في أحداث عام ٣٦٨ هـ ،وقال : " وكنت فيمن أخرج إليها لنقل ما فيها مما يصلح للخزانة " [٤].

ولما كان ابن مسكويه ، وكما أشرنا ،خازنا للكتب ، فلا شك أنه كان يحمل الكتب والمؤلفات ، التي وجدت بالقلعة إلى الخزانة التي كان إليه الإشراف عليها ، ولا يستبعد أن يكون قد حمل مع الكتب بعض الأمتعة والمفروشات التي تصلح لخزائن الكتب و خاصة وأنه أشار إلى أن هذه القلعة كانت مملوءة بالأمتعة الفاخرة .. والفرش .. والصناعات ... وسائر أصناف العدد[٥].

وهكذا فإننا لا نستبعد أن عضد الدولة كان يثري خزائن كتبه بما يتحصل إليه من الكتب والمؤلفات التي كانت موجودة بخزائن القلاع المفتوحة ،هذا إلى جانب ما أشرنا إليه من شراء ونسخ وهدايا .

هـ - العاملون بالخزانة :

وفيما يتعلق بإدارة خزائن كتب عضد الدولة ، فقد سبق وأشرنا إلى أنه عمل بها وكيل وخازن ومشرف ، ولم يذكر لنا المقدسي طبيعة عمل كل منهم ، وعلى ما يبدو ،فإن الخازن كان موكلا إليه خزن الكتب وتحصيلها وهو ما يعكسه لنا ذلك الدور الذي قام به ابن مسكويه خازن كتب عضد الدولة من تحصيل ما كان بقلعة أردمشت من الكتب التي تصلح للخزانة ، ثم كان على المشرف أن يقوم بالإشراف على هذه الأمور وعلى عمل كل من الخازن والوكيل ، وكان يدخل في إطار عملهم ، ولا شك ترتيب الخزائن وتصنيفها وفهرستها .

---

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ٢ ،صـ ٣٩٣ .
(٢) ذكره ابن العبري " باسم مسكويه أبو علي الخازن ،وأشار إلى انه كان خازنا للملك عضد الدولة ،انظر تاريخ مختصر الدول ،صـ ١٧٦ .
(٣) أردمشت ،إحدى القلاع الموجودة في جانب دجلة الشرقي ،انظر ابن مسكوية : تجارب الأمم ،جـ ٢،صـ٣٩٢
(٤) المصدر نفسه : جـ ٢ ،صـ ٣٩٣ .
(٥) المصدر نفسه : جـ ٢ ،صـ ٣٩٢ .

وقد لوحظ على هؤلاء العاملين أنهم لم يكونوا من عامة الناس ،بل كانوا من صفوة أهل العلم ، فقد ذكر المقدسي[١] أنهم كانوا من عدول البلد ، وندلل على ذلك أيضا بما ورد بصدد ابن مسكويه خازن كتب عضد الدولة ، فقد ذكر ابن العبري أنه كان من كبار فضلاء العجم وأجلاء فارس ، وكان له مشاركة حسنة في العلوم الأدبية والقديمة ، كما أشرنا إلى أنه كان خازنا للملك عضد الدولة بن بويه مأمونا لديه أثيراً عنده وله تصانيف [٢] .

وعلى ما يبدو فقد كانت لدي ابن مسكويه خبرة هائلة بطبيعة عمل خازن الكتب ، أهلته لتولي خزانة كتب عضد الدولة ،خاصة وأنه عمل خازنا لكتب أبي الفضل بن العميد ،وهذا أمر أقره ابن مسكويه نفسه [٣]، وسنعرض له في حينه .

ولم يكن ابن مسكويه وحده الذي عمل خازنا لخزانة كتب عضد الدولة ،إذ أن هناك شخصا آخر ذكره ياقوت الحموي وأشار إليه بأنه خازن كتب عضد الدولة ،ألا وهو أبو نصر منصور بن أحمد بن محمد الشيرازي خازن كتب عضد الدولة ، ومعلم ولده صمصام الدولة وقاضي فارس وأعمالها[٤] ، هذا مما يعكس لنا مدى دقة عضد الدولة في اختيار القائمين على خزائن كتبه .

و – خدمة الاستعارة داخل الخزانة :

وحول خدمة الاستعارة داخل خزائن كتب عضد الدولة ،فإننا نستبعد إتاحة هذه الخدمة للعامة من الناس ، وندلل على هذا الأمر بما روى عن كتاب الإيضاح الذي ألفه له أبو علي الفارسي ، فقد أشار أبو شجاع صاحب كتاب ذيل تجارب الأمم إلى أن عضد الدولة كان محبا للاختصاص بقراءة كتاب الإيضاح ، وكان ضنينا به لا يسمح لأحد بقرائته أو الاطلاع عليه ، حتى أن أحد رجاله احتال بحيلة ليصل إلى هذا الكتاب ويطلع عليه وينسخه ،فعلم عضد الدولة بذلك فأصدر أوامره بقطع يد الرجل ، لولا تدخل البعض ليعفو عنه ، وقد علل أبو شـجاع تصرف عضد الدولة هذا بنفاسة الكتاب وحلاوته إلى قلبه [٥] ، أضف إلى ما سبق وأشار إليه المقدسي من أنه لا يدخلها إلا وجيه .

وعلى الرغم من ذلك ،فإنه وعلى ما يبدو ، أتاح فرصة دخول هذه الخزائن والاطلاع على ما فيها إلى بعض العلماء المقربين إليه،بدليل دخول المقدسي لهذه الخزائن ومعاينتها [٦].

---

(١) أحسن التقاسيم : صـ ٤٤٩ .
(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ،صـ ١٧٥ .
(٣) انظر : تجارب الأمم ،جـ ٢ ،صـ ٢٢٤ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٦ ،صـ ٣١٩ .
(٥) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ،جـ ٣ ،صـ ٦٨ .
(٦) انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم ،صـ ٤٤٩ .

٤ – خزانة كتب الغزنويين :

كان من الطبيعي بعد ما لاحظناه من اهتمام حكام غزنة بالعلوم ، والمعارف ، والآداب ، وحرصهم الشديد على تقريب أهل العلم،وبذل العطاء لهم ، ثم تشجيعهم لحركة الكتابة والتأليف أن نراهم يحوزون خزانة كتب تضم شتات هذه الكتب والمؤلفات ، وقد أشار إلى هذه الخزانة الحسيني[١] في إطار حديثه عن دخول بعض القوات الغزنوية إلى أصفهان ،حيث قامت هذه القوات بالإغارة على خزائن ملك أصفهان علاء الدولة أبي جعفر ، وعلى خزائن وزيره ابن سينا ، وكان منها خزانة كتب ابن سينا ، التي نقلها الجنود إلى خزانة كتب غزنة واستقرت فيها إلى أن أُحرقت على يد حشم ملك الجبال الحسين بن الحسن – كما سنوضح فيما بعد .

وفي هذا يقول الحسيني : "... وكان الشيخ الحكيم أبو على ابن سينا رحمة الله وزير الملك علاء الدولة ، فأغار عسكر"تاش فراش"على بيت كتب أبي علي ونقلوا أكثر تصانيفة وكتبه إلى خزانة كتب غزنة ، وكانت فيها مجموعة إلى أن أحرقها حشم ملك الجبال الحسين بن الحسن".

يبدو من الرواية السابقة أن خزانة كتب الغزنويين كان مقرها في غزنة ، وأنها حوت مؤلفات بابن سينا ،التي استولى عليها الجنود في هذه الحرب[٢]،ويبدو أيضا أن هذه الخزانة حوت مؤلفات نادرة لابن سينا وكان منها كتاب الأنصاف الذي أشار ابن أبي اصيبعة إلى أنه كان من جملة ما نهب من كتب الشيخ وامتعته ، على يد عساكر السلطان مسعود وما وُقف له على أثر[٣]، وكان الكتاب في عشرين مجلداً ، شرح فيه كتب ارسطوطاليس[٤].

ولا يستبعد أن تكون خزانة كتب غزنة قد حوت كتبا ومؤلفات ، من هذه التي حوتها دار كتب الري التي أحرقها السلطان محمود بن سبكتكين[٥]، إذ أقر السلطان محمود نفسه في إحدى رسائله للخليفة العباسي القادر بالله إلى أنه حول من الكتب حوالي خمسين حملا [٦] وكان ذلك في أحداث عام ٤٢٠ هـ [٧] ومن المتوقع أن تكون هذه الكتب قد استقرت في خزانة كتب غزنة ، ومن المحتمل أيضا أن تكون كتب غزنة ، قد حوت كتب ومؤلفات لأبي ريحان البيروني ، الذي كان أكثر العلماء ارتباطا بالبلاط الغزنوي ، كما لا يستبعد اشتمالها على كتب ومؤلفات تدعم المذهب السني الذي كان السلطان محمود يتعصب له تعصبا شديداً .

---

(١) زبدة التواريخ ،ط ٢ ،دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة ،بيروت ،١٩٨٦ ،صـ ٣٥ .
(٢) أشار كل من ابن أبي اصيبعة وخواندمير إلى هذه الحرب وإلى ضياع كتب ابن سينا فيها ،أنظر: ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ،صـ ٤٠٨ ،صـ ٤١٩ . وخواندمير : دستور الوزراء ،صـ ٢٣١ .
(٣) أنظر ابن أبي اصيبعة : المصدر السابق ،صـ ٤٠٨ .
(٤) المصدر نفسه : صـ ٤١٩ .
(٥) أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٦ ،صـ ٢٥٩ .
(٦) أنظر ابن الجوزي : المنتظم ،جـ ١٥ ،صـ ١٥٦ .
(٧) سنقوم بالعرض إلى دار كتب الري وما آلت إليه في الفصل لقادم بمشيئة الله .

رابعا : خزائن كتب الوزراء :

١ – خزانه كتب أبي الفضل بن العميد :

كان لأبي الفضل بن العميد الوزير البويهي خزانة كتب رائعة ، ورد ذكرها صراحة على لسان ابن مسكويه ، الذي عمل خازنا لهذه الخزانة [١]، وهذا الأمر أقره ابن مسكويه نفسه ، كما أقره الثعالبي [٢] ، فأشار إلى أن من لقب بمسكويه من الأدباء والنحويين ، مسكويه خازن ابن العميد .

وقد ذكر ابن مسكويه خزانة كتب أبي الفضل بن العميد في إطار ذكره لهجمات بعض القوات الواردة من خراسان على الري [٣] ، والتي قامت بمهاجمة دار ابن العميد وخزائنه [٤] ، وقد عاين ابن مسكوية الواقعة بنفسه ،فقال مشيرا إلى دار ابن العميد وخزائنه إلى عمل الخراسانية فيها " ... واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه ،وكانت موفورة جامة [٥] ،إلى أن أتى الليل وانصرفوا ،وكان إليَّ خزانة كتبه ،فسلمت من بين خزائنه،ولم يتعرض لها ،فلما انصرف إلى منزله ليلا لم يجد فيه ما يجلس عليه ،... واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة فيها كل علم ، وكل نوع من أنواع الحكم والآداب يحمل على مائة وقر[٦] وزيادة ،فلما رآني سألني عنها ،فقلت هي بحالها لم تمسها يد ،فسرى عنه ، وقال: أشهد أنك ميمون النقيبة [٧] ، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض ، وهذه الخزانة هي التي لا عوض عنها، ورأيته وقد أسفر وجهه وقال: باكر بها في غد إلى الموضع الفلاني . ففعلت وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله " [٨] .

أ – محتويات الخزانة :

ويبدو على هذا الأساس أن الخزانة كانت عامرة بألوان متعددة من العلوم والآداب ، حتى أنه قال : " إن فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب " ،وهذا بالتالي يعكس لنا طبيعة ما احتوت عليه الخزانة من كتب ،فلا شك أن أكثر ما حوته كان من كتب الآداب التي شغف

---

(١) انظر : ابن مسكويه : تجارب الأمم ،جـ ٢ ،صـ ٢٢٤ .
(٢) لطائف المعارف : صـ ٥١ .
(٣) انظر: ابن مسكويه : المصدر السابق ،جـ ٢ ،صـ ٢٢٢ .
(٤) المصدر نفسه : جـ ٢ ،صـ ٢٢٤ .
(٥) جامة : أي كثيرة ،فالشيء الجم هو الكثير من كل شيء ،أنظر: الزبيدي : تاج العروس ،جـ ٨ ،صـ ٢٣١ صـ ٢٣٤ .
(٦) الوقر : هو الحمل الثقيل ،وهو ما يحمل على الظهر أو على الرأس ،وأكثر ما استعمل في حمل الوقر البغل والحمار ،أنظر: ابن منظور : لسان العرب ،جـ ٧ ،صـ ١٥٢ ،والزبيدي : تاج العروس ،جـ ٣ ،صـ ٦٠٥ ، والمنجد : صـ ٩١٢ .
(٧) ميمون النقيبة ؛ والنقيبة هي السجية والطبيعة . انظر المعجم الوجيز ،صـ ٦٢٩ .
(٨) ابن مسكويه : تجارب الأمم ،جـ ٢ ،صـ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

بها أبي الفضل بن العميد ، ونستدل على ذلك بما ذكر عن شغفة بالجاحظ [١] ومؤلفاته ، فقد كان كثيرا ما يقول : " كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأداب ثانياً " ، وكان عادة ما يسأل القادمين عليه من الأدباء عن الجاحظ وكتبه [٢] .

كما يبدو أيضا أن الخزانة اشتملت على أعداد هائلة من كتب الحكمة وما إليها من كتب الفلسفة المنطق خاصة ، وما كان له من اهتمام بهذه النوعية من العلوم ، حتى أن المتنبي عندما ذكره ما دحا ، أشار إلى إلمامه بهذه العلوم ، فقال :

مَنْ مُبَلِّـغ الْأعْـرَابَ أنِّي بَعْـدَهَا ∴ شَاهَدْتُ رَسْطَالِيسَ وَالإسْكَنْدَرَا

وَسَمِعْـتُ بَطْلَيْمُوسَ دَارِسَ كُتُبِـهِ ∴ مُتَـمَلِّـكًا مُتَبَدِّيـاً مُتَحَضِّـرَا

وَلَقِـيتُ كُـلَّ الْفَاضِلِيـنَ كَأنَّـمَا ∴ رَدَ الإلَهُ نُفُوسَهُمْ وَالأعْـصُرَا [٣]

ومن غير المستبعد أن تكون هذه الخزائن قد حوت كتبا في شتى العلوم ،استنادا إلى ما ذكر من أنها " ... كانت كثيرة بها كل علم " [٤]، واستنادا إلى ما ذكر عن اهتمامه بشتى أنواع العلوم والمعارف والآداب ،إذ قال ابن مسكوية مشيرا إليه : " ... فأما تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهة والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة ،ثم إذا ترك هذه العلوم وأخذ في الهندسة والتعاليم و فلم يكن يداينه فيها أحد ، فأما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة ، فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيدا أو قاصدا التعلم" [٥]، فلا شك أن خزانته حوت طرفا من هذه العلوم المتعددة.

على أية حال ، فقد ذكر ابن العميد نفسه: "أن هذه الخزانة لا عوض عنها" [٦] مما يؤكد أنه جمع فيها كل ما هو نادر ونفيس من الكتب والمؤلفات ، وعليه فقد أعطى أوامره لابن مسكوية الخازن والمشرف عليها بنقلها إلى مكان آخر حتى تسلم من هجمات الغزاة ، ولا شك أنه كان مبالغا في الحفاظ على هذه الخزانة ،بدليل أنها الوحيدة التي سلمت من بين باقي خزائنه .

وفيما يتعلق بحجم هذه الخزانة وأعداد كتبها ، فقد أشير بالنص إلى أنها كانت كثيرة تقدر بما يحمل على مائة وقر أو يزيد ، والوقر وكما سبق وأشرنا هو الحمل الثقيل ، مما يؤكد أنها كانت هائلة الحجم .

---

[١] الجاحظ هو : عمرو بن عثمان ،ت ٢٥٥ هـ ،وهو أشهر أدباء القرن الثالث الهجري ،له مؤلفات كثيرة ،وكان يكتري دكاكين الوراقين ويطيل النظر فيها ،خاصة وعشقه للكتب ،أنظر ابن النديم : الفهرست ،صـ ١٦٩ ،وياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٦ و صـ ٧٥ .

[٢] ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٨ ،صـ ٥٤٧ .

[٣] أنظر: ديوان المتنبي ،صـ ٧٣٨ و ٧٣٩ ،ويشير المتنبي إلى انه شاهد من أبي الفضل بن العميد علما وحكمة كتلك التي عرف بها حكماء اليونان الذين أشار إليهم فأحس عند لقائه ،وكأن الله سبحانه وتعالى أحياهم في شخصه ،وأنظر أيضا : ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٥ ،صـ ١٠٥ .

[٤] أنظر: ابن مسكوية / تجارب الأمم ،جـ ٢ ،ص ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

[٥] المصدر نفسه : جـ ٢ ،صـ ٢٧٧ .

[٦] المصدر نفسه : جـ ٢ ،صـ ٢٢٤ و ٢٢٥ .

ب – كيفية جمع أبن العميد لمحتويات الخزانة :

أما عن كيفية جمع ابن العميد لمحتويات خزانته ، فقد لوحظ أنه كان حريصا على شراء كل ما هو جديد ونفيس لهذه الخزانة ،واضعا في الاعتبار أمورا منها اسم مؤلف الكتاب الذي سيقوم بشرائه ،وطبيعة الخط الذي كتب به الكتاب ، ومن ذلك ما ذكر بصدد نسخة من كتاب غريب الحديث بخط أبي بكر القاري الرازي[١] ، كانت ملكا لأبي على المعلم الأراطي ، اشتراها منه أبو محمد الشعراني لخزانة أبي الفضل بن العميد بستة عشر دينارا مصريا[٢]، وقد لوحظ على هذه النسخة من كتاب غريب الحديث ، أنها كانت بخط أبي بكر القاري الرازي الذي تنافس العلماء والعامة في تحصيله بأعلى الأثمان ، خاصة ما عرف عنه من حسن الخط وجودته وصحته ، كما لوحظ أيضا أن أبن العميد كان يكلف بعض العلماء أو الأدباء بتحصيل الكتب النادرة له ، وكان منهم أبو محمد الشعراني .

ولقد ساهم أبو الفضل بن العميد بتنقيبه وبحثه عن كل ما هو جديد ونادر في عالم الكتب والمؤلفات ، في إظهار كتاب أثرى الحياة العلمية والثقافية ألا وهو كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي[٣]، إذ علم أبو الفضل بطريق أو بآخر بوجود مسودات[٤] كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي ، عند أخت له بالري ،وذلك بعد ممات الرازي ، فما كان من أبي الفضل إلا أن بذل لها الأموال الكثيرة مرغبا إياها لتخرج له أصول الكتاب حتى أظهرت له مسودات الكتاب ، ولم يكن قد رُتب بعد ، فجمع أبو الفضل ابن العميد تلاميذ الرازي من الأطباء الذين كانوا بالري وأطلعهم على المسودات ليقوموا بترتيبها ، ولعل ذلك كان السبب في أن ظهر كتاب الحاوي على ما به من الاضطراب[٥] .

وقد أشار ابن النديم[٦] إلى ما يفيد مدى حرص أبي الفضل بن العميد على جمع الكتب وتتبعها ،فقال مشيرا إلى بعض الكتب القديمة : "... والذي رأيت أنا بالمشاهدة أن أبا الفضل ابن العميد أنفذ إلى هاهنا في سنة نيف وأربعين[٧] كتبا متقطعة أصيبت بأصبهان في سور المدينة في صناديق ،وكانت باليونانية ،فاستخرجها أهل هذا الشأن مثل يوحنا وغيره ،وكانت أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم و كانت الكتب في نهاية نتن الرائحة ، حتى كأن الدباغة فارقتها

---

(١) أبو بكر الرازي ،هو أحد النحويين واللغويين ،رحل كثيرا في طلب العلم والمعرفة ،عرف بحسن الخط ،ت بالري قبل سنة ٣٠٠ هـ ،انظر: ابن القفطي : أنباه الرواة .. ،جـ ٤ ،صـ ١٠٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) كتاب الحاوي هو أحد الكتب الطبية الخاصة بأبي بكر الرازي ،حوالي ٣ مجلدات ،انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٥ ،صـ ١٢٨ ويعتبر كتاب الحاوي من أكثر كتب الرازي أهمية ،وصف بأنه موسوعة عظيمة في الطب ،ولقد حرص علماء الغرب على الاستفادة منه ،فكان أضخم كتاب طبع بعد اختراع الطباعة مباشرة ،وأعيد طبعه عدة مرات بلغات مختلفة ،أنظر فاضل أحمد الطائي : أعلام العرب في الكيمياء ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،١٩٨٦ ،صـ ١٠٨ .

(٤) المسودات هي ،الصحائف التي تكتب أول كتابة ،أنظر : المعجم الوجيز ،صـ ٣٢٧ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأبناء ،صـ ٣٨٤ .

(٦) الفهرست : صـ ٣٣٦ .

(٧) يقصد نيف وأربعين وثلاثمائة .

عن قرب ، فلما بقيت ببغداد حولا جفت وتغيرت وزالت الرائحة عنها ومنها في هذا الوقت شيء عند شيخنا أبي سليمان ... " ٠

وعلى ما يبدو ، فإن أبا الفضل بن العميد حصل على هذه الكتب التي وجدت على أثر انهيار مبنى قديم بأصبهان ، ولما كانت هذه الكتب باللغة اليونانية ، فإننا لا نستبعد أنه بعث بها إلى بغداد ليقوم كل من يوحنا المذكور وأبي سليمان بترجمتها ٠

ج - العاملون بالخزانة :

وعن الشكل الإداري لخزانة كتب أبي الفضل ابن العميد ،فلم يرد فيما أطلعنا عليه من مصادر كثير من التفاصيل حول هذه الجزئية ،اللهم إلا ما ذكر أن ابن مسكويه عمل خازنا لخزانة كتبه [١] ، وابن مسكوية وكما سبق وأشرنا ، عالم وفيلسوف على درجة كبيرة من العلم والمعرفة مما يعكس لنا حرص أبي الفضل بن العميد على اختيار العاملين بخزائنه ٠

وقد ظل ابن مسكويه ، على ما يبدو ، خازنا لخزائنه قرابة السبع سنوات ، أو أقل قليلا ، لازمه طوالها ليلاً ونهاراً [٢] ، ويبدو أيضا أن أبا محمد الشعراني الذي قام بشراء نسخة كتاب غريب الحديث ، لأبي الفضل ، وكان من العاملين بالخزانة قبل أن يقوم ابن مسكويه بالإشراف عليها .

٢ - خزانة كتب الصاحب بن عباد :

ذكرت خزانة كتب الصاحب بن عباد في أكثر من موضع ، لأكثر من مصدر ، فقد أشار ياقوت الحموي إلى أن صاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني أرسل إلى الصاحب ابن عباد سرا يستدعيه إلى حضرته ويرغبه في خدمته ،فكان من جملة ما اعتذر به قائلا : " ... كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدري...ثم كيف لي بحمل أموالي مع كثرة أثقالي وعندي من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر"[٣] ، وأشار أيضا خواندمير[٤] إلى أنه اجتمع للصاحب بن عباد عدد هائل من الكتب النفيسة التي لم تجتمع لدى وزير قط ، ولم يتيسر جمعها لصاحب عرش أو سلطان ، كما أشار القوبائي الأصفهاني [٥] إلى أن فخر الدولة كان قد استدعاه للوزارة فاعتذر بأعذار منها قوله : " أنا رجل طويل الذيل وإن كتبي تحتاج إلى سبعمائة بعير ... ".

هكذا توضح لنا هذه الروايات ، أن الصاحب بن عباد امتلك خزانة كتب هائلة الحجم ، أشير مرة إلى أنها تقدر بما يحمل على أربعمائة جمل ، وأشير مرة أخرى إلى أنها تقدر بما يحمل على سبعمائة بعير، مما يعكس لنا وجود تضارب في الروايتين بصدد حجم الخزانة ، أو

---

(١) أنظر: ابن مسكويه : تجارب الأمم ،جـ ٢ ،صـ ٢٢٤ ،والثعالبي : لطائف المعارف ،صـ ٥١ ٠
(٢) ابن مسكويه : المصدر السابق ،جـ ٢ ،صـ ٢٧٦ ٠
(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٦ ،صـ ٢٥٩ ٠
(٤) دستور الوزراء : صـ ٢٢٢ ٠
(٥) القوبائي الأصفهاني : رسالة الإرشاد ، صـ ٣٠ ٠

مبالغة في حجمها ، ولكننا نتوقع أن التأريخ لحجم الخزانة تم على فترات متباعدة بما يضمن لها زيادة الحجم حتى وصلت إلى ما يحمل على سبعمائة بعير ٠

على أية حال ، فكلا الرقمين هائل ، يعكس مدى عظم حجم هذه الخزانة ٠

على أن المصادر لم تبخل علينا بمزيد من التفاصيل فيما يختص بعدد الكتب والمؤلفات التي حوتها خزانة ابن عباد ، فقد ذكر القوباني الأصفهاني في إحدى رواياته أنها كانت مائة ألف وأربعة عشر ألف كتابا [1] ، وورد في رواية أخرى أنها كانت مائة ألف وأربعين ألف مجلد [2]، وفي رواية ثالثة أن ابن عباد قال مشيرا إلى كتاب الأغاني : " لقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ، ما منها ما هو سميري غيره ولا راقني منها سواه " [3] ، وفي رواية رابعة أشير إلى أنه وجد ثمانين ألف مجلد من مصنفاته ومحفوظاته ومقروئاته قومت بثلاثين ألف دينار ، بعد أن أهدى الرؤساء والوزراء منها شطرا عظيما[4].

ويلاحظ على أعداد الكتب المذكورة ، التفاوت والاختلاف ، إذ لم تتفق أي من هذه الروايات مع غيرها حول عدد محتويات هذه الخزانة ، ومن المرجح أن هذه الروايات أرخت لأعداد كتب خزانة ابن عباد في أوقات مختلفة ومتفاوتة ، مما يكون سببا في هذا الاختلاف والتباين ٠

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن مكتبة ابن عباد حوت عدة خزائن للكتب ، وهذا أمر أقره ابن عباد ، إذ قال مشيرا إليها : " ... اشتملت خزائني على ... " [5] ، ولا شك أن كل خزانة حوت فرعا من فروع المعارف والعلوم والآداب ، نستدل على ذلك بما يذكر عن ابن عباد من أنه قال أنه يحتاج إلى ستين جملا لنقل كتب أهل اللغة التي عنده ، مما يعني أنها كانت مصنفة ، وبدليل تمييزه لكتب أهل اللغة عن غيرها من الكتب ٠

أ – طبيعة محتويات الخزانة :

حول نوعية الكتب التي حوتها خزائن كتب ابن عباد ، فإننا نتوقع أن كتب الآداب احتلت مساحة هائلة في خزائن كتبه ، خاصة وشغفه بها ، فقد كان في أسفاره ورحلاته دائما ما يصطحب معه حمل ثلاثين حملا من كتب الآداب[6] ليطالعها في رحلاته ، حتى حصل على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني فأكتفي به ، ولم يكن بعد ذلك يصطحب سواه[7] ، وقد

---

[1] القوباني الأصفهاني : رسالة الإرشاد : ص ٣٠ ٠

[2] المصدر نفسه ،صـ ٣١ ٠

[3] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٣ ،صـ ٩٧ ٠

[4] القوباني الأصفهاني : المصدر السابق ص ٣١ .

[5] ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٣ ،صـ ٩٧

[6] ابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٣ ،صـ ٣٠٧ ،علم الأدب المقصود به الإجادة في فن المنظوم والمنثور ،وهو حفظ أشعار العرب وأخبارهم،والأخذ من كل علم كعلوم اللسان والعلوم الشرعية وعلم التاريخ،وما إلى ذلك ،أنظر ابن خلدون المقدمة : ، ص ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

[7] انظر ابن خلكان : المصدر نفسه،ص ٣٠٧ ، أشاد بن خلدون بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، فقال : " ... ولعمري أنه لديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال،ولا يعدل به كتاب فيما نعلمه ،وهو الغاية التي يسمو بها الأديب ويقف عندها وإني له بها " ،أنظر : ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠٩ .

أقر القوبائي الأصفهاني أن الصاحب كان فصيحا بليغا عارفا بمعارف الأدب [١]،وندلل على هذا الأمر أيضا بما كان له من رسائل أدبية اشتملت عليها هذه الخزائن[٢]، كما اشتملت خزائنه على ستين حملا من كتب اللغة[٣] ، كما أشرنا[٤] ، وحوت خزائنه أيضا أعداداً لا بأس بها من المؤلفات الطبية استنادا إلى ما سبق وأشرنا إليه من كتب طبية ألفت خصيصا له[٥] .

وعلى ما يبدو ، فقد اشتملت خزائن كتب ابن عباد على كتب ومؤلفات حول مذهب المعتزلة [٦] خاصة وما تردد عن اعتناقه لمذهبهم ،فقد أشير إلى أن الغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ،وأن كتابته متأثرة بأسلوبهم [٧] ، كما ذكر على لسان فخر الدولة أنه قال لابن عباد : " أنك تقول أن المذهب مهذب الاعتزال" [٨] ، وكان لشدة تعلقه بهذا المذهب يجل معتنقيه ،ومن ذلك أنه قام محييا لشيخ من زهاد المعتزلة ، ولم يكن قد فعل ذلك من زمن بعيد لأحد من الناس ، حتى أنه قال : "... ما قمت لأحد مثل هذا القيام منذ عشرين سنة ..."،كما أشير إلى أن والده كان معتزليا وأنه صنف كتابا في أحكام القرآن الكريم نصر فيه مذهب الاعتزال وجود فيه[٩].

ويبدو أيضا أن خزائن كتب ابن عباد، اشتملت على كتب ومؤلفات لبعض الملحدين والروافض وبعض أهل البدع،هذا إلى جانب كتب الأوائل [١٠]، وكتب ومؤلفات في علم الكلام[١١] خاصة وما أشير إلى ماكان له من دور في الاهتمام بعلم الكلام [١٢]، وندلل على هذا بما ذكر على

---

(١) القوبائي الأصفهاني : رسالة الإرشاد ،صـ ١٠ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٦ ،صـ ١٧٧ .

(٣) المقصود بها الكتب التي تتناول علوم اللغة ،وعلم اللغة هو بيان الموضوعات اللغوية المتعلقة باللغة العربية والتي ظهرت للحفاظ على اللغة من التدهور ،وعلوم اللغة هذه من العلوم التي يحتاج إليها الأدباء خاصة في النظم والنثر لتصح بها لغتهم ,وأشهر ما ألف فيه كان كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي،وللمزيد أنظر : ابن خلدون : المقدمة ،صـ ٤٠٤ – ٤٠٦ .

(٤) أنظر: القوبائي الأصفهاني : المصدر السابق : صـ ٣١ .

(٥) انظر: ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ،ص ص ١٨٩ ،ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٦) المعتزلة ،هم جماعة يسمون بأصحاب العدل التوحيد ،ويلقبون بالقدرية ،قالوا بأن العبد قادر خالق لأفعاله ،خيرها وشرها ،... وللمزيد من التفاصيل ،أنظر الشهرستاني : الملل والنحل ،جـ ١ ،دار الكتب العلمية و بيروت ،د ت ،ص ص ٣٨ - ٣٩ ،وعن نشأة المعتزلة: أنظر محمد ضياء الدين الريس : أنظر النظريات السياسية ،ط ٧ ،دار التراث ،القاهرة ،١٩٧٦ ،ص ص ٧٥ – ٨٠ .

(٧) انظر: ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٦ ،صـ ١٧٤ .

(٨) المصدر نفسه ،جـ ٦ ،صـ ٢٨٤ .

(٩) المصدر نفسه ،جـ ٦ ،صـ ١٧٢ .

(١٠) كتب الأوائل : يبدو أن المقصود بها كتب الفلاسفة والعلماء اليونانيين القدامى ،كارسطاليس وأفلاطون وغيرهم وعنهم انظر ابن النديم : الفهرست ،صـ ٣٤٥ وما بعدها ،صـ ٣٥٣ وما بعدها ،صـ ٣٧١ وما بعدها وصفحات متفرقة .

(١١) علم الكلام ،هو علم نشأ نتيجة الاحتكاك بالثقافات الأخرى ،ذكر الشهرستاني أنه بدأ بالظهور مع الخلفاء العباسيين هارون والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل،وكان انتهاؤه من الصاحب بن عباد وجماعة من الديالمه انظر الشهرستاني : الملل والنحل ،جـ ١ ،صـ ٢٦ ،وانظر أيضا : ابن خلدون : المقدمة ، ص ص ٣٢١ – ٣٢٨ .

(١٢) أنظر الشهرستاني : المصدر نفسه .

لسان على بن الحسن الكاتب ، إذ قال مشيرا لابن عباد: "... فوضعني في الحبس سنة وجمع كتبي وأحرقها ، وفيها كتب الفراء والكسائي[١] ومصاحف القرآن وأصول كثيرة في الفقه ،فلم يميزها من كتب الأوائل وأمر بطرح النار فيها من غير تثبت ،بل لفرط جهله وشدة نزقه فهلا طرح النار في خزانته ، وفيها كتب ابن الراوندي [٢] وكلام ابن أبي العرجاء في معارضة القرآن بزعمه ، وصالح بن عبد القدوس ... وكتب أرسطاليس وغير ذلك" [٣].

ويوضح هذا النص جانبا من محتويات خزائن كتب ابن عباد مؤكدا على اشتمالها على كتب ومؤلفات بعض الملحدين كالراوندي وغيره ، هذا إلى جانب بعض كتب الأوائل والتي أشير إليها بكتب أسطاليس [٤] .

وفي إطار التدليل على أن خزائن كتب ابن عباد حوت كتب ومؤلفات في علوم الأوائل والروافض وعلم الكلام نورد ما سنذكر يصدد دار كتب الري والتي قيل أنها تنسب لابن عباد إذ ذكر أبو الحسن البيهقي في إطار إشارته إلى كثرة كتب الصاحب .

وأنا أقول : " ... بيت الكتب الذي بالري دليل على ذلك بعدما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين ، فإني طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشرة مجلدات ، فإن السلطان محمود لما ورد إلى الري قيل له أن هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع ، فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه " [٥] .

وهكذا ، ولما كانت دار كتب الري تنسب لابن عباد ، ولما كانت محتويات كتبها يغلب عليها كتب للروافض وأهل البدع وعلم الكلام ، فمن غير المستبعد أن تكون خزائن كتبه الخاصة قد حوت جانبا من هذه العلوم ، خاصة وإننا نضع احتمالية أن جزءا من خزائنه الخاصة آل بشكل أو بآخر بعد وفاته إلى بيت كتب الري المذكور .

على أننا لا يمكننا تعميم هذا الطابع على خزائن كتب ابن عباد ،فقد سبق وأشرنا أنها حوت كتبا في الآداب وعلوم اللغة وعلوم الطب ، وحوت أيضا عدد هائل من المصاحف ، وربما لم يتأتى لأحد من الملوك والحكام حيازته ، وهذا أمر أقره الثعالبي[٦]، كما أننا لا نستبعد اشتمال خزائنه على عدد من المؤلفات في الحديث الشريف وعلومه ،خاصة وما يشار إلى أن

---

(١) الكسائي هو أبو الحسن على بن حمزة ،كان عالما من علماء النحو واللغة ،كان يؤدب الأمين ،ت ١٨٩ هـ انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء،جـ ١٣ ،صـ ١٧٩ ،وابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ٣،صـ ٢٩٥ .

(٢) ابن الروندي هو أحد مشاهير الزنادقة ،عادي القرآن وألحد فيه ،وصنف كتابا في الاعتراض على الشريعة ت ٢٩٨ هـ ،أنظر ،ابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١١ ،صـ ١١٢ والنزق هو الخفة والطيش ، انظر: المعجم الوجيز ، ص ٦١١ .

(٣) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٦ ،صـ ٢١٦ .

(٤) أسطاليس هو أحد حكماء وفلاسفة اليونان ،وللمزيد أنظر : ابن النديم : الفهرست ،ص ص ٣٤٥ ــ ٣٥٢

(٥) ياقوت الحموي المصدر السابق ،جـ ٦ ،صـ ٢٥٩ .

(٦) يتيمة الدهر : جـ ٣ ،صـ ٢٩٤ .

ابن عباد سمع الحديث وأملى بعض المجالس فيه ، حتى انه اتخذ لنفسه بيتا سماه بيت التوبة وجلس فيه للإملاء[١].

حوت أيضا خزائنه جانبا من مؤلفاته والتي كان أبرزها كتابة الروزنامجه [٢] ورسائله الأدبية [٣]، هذا إلى جانب عدة مؤلفات أخرى أشار لها القوبائي الأصفهاني[٤]٠

ب – كيفية جمع الصاحب لمحتويات الخزانة :

على أننا نتسائل ،كيف تأتي للصاحب بن عباد جمع كتب ومؤلفات هذه الخزائن العامرة ؟

لا شك أن الصاحب بن عباد شأنه شأن الكثيرين ممن يحرصون على جمع الكتب والمؤلفات ، كان يعمد لشراء كل ما يروقه منها ،فكان الشراء أحد سبله لجمع محتويات خزائن كتبه ، إلا أن هناك عوامل أخرى يسرت له امتلاك خزانة كتب من أكبر خزائن بلدان الشرق الإسلامي ، ولعل أبرزها هي تلك الكتب التي ألفت له ، والتي سبق وأشرنا إليها في إطار التعرض لشغفه بالكتب والمؤلفات ، كذلك ساهمت الإهداءات مساهمة فعالة في إثراء هذه الخزانة ٠

فقد كان الصاحب بن عباد كثيراً ما يُهدي كتبا ومؤلفات ، وقد قصده الكثير من الشعراء بإهداء مؤلفاتهم ونتاجهم الأدبي خاصة وما كان يجزله لهم من عطاء وقد عبر ياقوت الحموي[٥] عن هذا فقال : " ... لما وجدت الشعراء لبضائعها عن ابن عباد نفاقا وسوقا ، أهدوا انتاج أفكارهم إلى حضرته وساقوها نحوه سوقا " ،وقد أهداه أبو الحسن أحمد بن فارس كتاب الصاحبي وأعرب عن هذا في مقدمة كتابه ،فقال :

"هذا كتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية ، وسنن العرب في الكلام ، وإنما عنونته بهذا الاسم ؛ لأني لما ألفته أودعته خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة" [٦]، وأهداه الثعالبي كتابه لطائف المعارف ،وقال في إهداءه إليه : " ... إن هذا كتاب لطائف المعارف وطرائفها ...

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء : جـ ٦ ،صـ ٢٥٢ ،وعن مجالس املاء ابن عباد ، انظر : عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني : التدوين في أخبار قزوين ،جـ ٢ ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،١٩٨٧م. ،صـ ٢٩٣ ،أنظر أيضا القوبائي الأصفهاني : رسالة الإرشاد ،صـ ١٣ ٠

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر : جـ ١ ،صـ ١٩٩ ،جـ ٣ ،صـ ١٣٤ ٠

(٣) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١٥ ،صـ ٣٤ ٠

(٤) رسالة الإرشاد : ص ص ٢٩ – ٣٠ ،ومن مؤلفاته كتاب الشواهد وكتاب التذكرة وكتاب التعليل . ديوان شعر ومنها الوقف والابتداء والعروض وجوهرة الجمهرة والكافي والأعياد وفضائل النيروز والأمام والوزراء والكشف عن مساوئ المتنبئ والمحيط في اللغة ،وأسماء الله وصفاته ،والأنوار ،وكتاب في علم الكلام ،أنظر المصدر نفسه ٠

(٥) ياقوت الحموي : المصدر السابق جـ ٦ ،صـ ٢٨٠ ٠

(٦) أبو الحسين أحمد بن فارس : الصاحبي ،صـ ٢ ،أقر ياقوت الحموي بإهداء أحمد بن فارس اللغوي كتابه " الصاحبي " لخزانة كتب الصاحب بن عباد ،أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٤ ،صـ ٨٤ ٠

وهو منتزع من كتب التاريخ والأخبار "... ومشرف الآن بعالي اسم الصاحب أبي القاسم ومخدوم بحضرته التي تجل عن أن يهدي إليها غير الكتب التي لا يترفع عنها الملوك ولا يتجاسر على إهدائها الحر والمملوك" [١] ، وأهداه على بن عبد العزيز الجرجاني ، قاضي الري ت ٣٩٢ ، كتاب الوساطة الذي كان من الكتب المتميزة ، وقد عبر الثعالبي عن أهمية هذا الكتاب وانتشاره تعبيرا رائعا ، فقال : " ... فسار الكتاب مسار الرياح وطار في البلاد بغير جناح " ، ومما قيل في أبي الحسن مُهدي الكتاب :

أَيَـــا قَاضِيـــًا دَنَتْ كُتُبُـــه ∴ وإِنْ أَصْبَحَتْ دَارُهُ شَاطِحَةْ
كِتَابُ الْوَسَاطَةِ فِي حُسْنِهِ ∴ لِعَقْـــدِ مَعَالِيكَ كَالْوَاسِطَـــةِ [٢]

وأهداه الشيخ الصدوق كتابا ألفه خصيصا لخزانته ،سماه " كتاب العيون " وقال في إهدائه إليه : " ... فصنفت هذا الكتاب لخزانته المعمورة ... متقربا إليه ... راجيا قبوله " [٣].

وكذلك أهداه القاضي العميري[٤] مجموعة من الكتب ،وكتب معها بعض الأبيات و منها :

الْعُمَيْرِي عَبْدُ كَافِي الْكُفَـــاةِ ∴ وإِنْ أَعْتَدَّ فِي وُجُوه الْقُضَـــاةِ
خَدَمَ الْمَجلِسَ الرَّفِيعَ بِكُتُبٍ ∴ مُفْعَمَاتٍ مِنْ حُسْنِهَا مُتْرَعَاتٍ [٥]

وكانت المصاحف أعظم ما أُهدي إلى بن عباد ،وقد ذكر لنا الثعالبي نص إهداء إحدى المصاحف التي أهديت لابن عباد ، وقد قال مهدي المصحف في ثنايا إهدائه : " ... وحقا أقول إني لا أحسب أحد مما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت وابتدع ما جمعت وابتدع ابتدعت ..."[٦] ،كما قال :

وَلَقَدْ أَهْدَيْتُهُ عِلْقـــًا نَفِيســـًا ∴ وَمَا يُهْدِي النَّفِيسُ سِوَى النَّفِيسِ [٧]

ولعل هذا الإهداء يعكس لنا حجم المصاحف التي أهديت لابن عباد ،والتي سعى في تحصيلها وبذل في سبيل كتابتها جهده ، فأبدع فيها ، ولا نستبعد أنه إنما كان يستعين ببعض الوراقين لنسخ هذه المصاحف وتجليدها وإظهارها في أبهى صورة ، استنادا لما قاله مهدي المصحف إذ قال : " ... ابتدع في استكتابها ما ابتدعت ".

---

(١) الثعالبي : لطائف المعارف ،صـ ١٧ .
(٢) أنظر : الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٢ ،صـ ٤ ـ ٥ .
(٣) القوباني الأصفهاني : رسالة الإرشاد ،صـ ٧ ، صـ ٣٣ .
(٤) من المحتمل أن يكون هو قاضي قزوين و أنظر ابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ١١ ،صـ ٣١٥ .
(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٦ ،صـ ٢٥٢ . والقاضي يصف الكتب ويشيد بحسنها وجمال محتواها
(٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ،جـ ٣ ،ص ص٢٩٤ ـ ٢٩٥ .
(٧) البيت يصف المصحف ويوضح نفاسته ،كما يصف ابن عباد ،والشيء النفيس هو الشيء العظيم القيمة المرغوب فيه ،أنظر المعجم الوجيز : صـ ٧٢٧ .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن الصاحب بن عباد لم يكن يقبل كل ما يهدي إليه من كتب ومؤلفات ، بل كان ينظر إلى كل ما يهدى إليه من الكتب بعين الناظر الفاحص المدقق ، فإن لمس فيها فائدة أو قبولا ، أو أحس بافتقاد خزائنه إليها قبلها ، ولو لم يلق الكتاب قبولا لديه ، رده مرة أخرى إلى مهديه ،ودليلنا على ذلك ،ما يذكر بصدد مجموعة الكتب التي أهداها إليه القاضي العميري ، إذ لم يقبل ابن عباد المجموعة كاملة ، فأخذ منها بعضها ورد الباقي[١] وقال في هذا :

قَدْ قَبِلْنَــا مِنْ الْجَمِيعُ كِتَابــاً ∴ وَرَدَدْنَــا لِوَقْــتِــهَــا الْبَاقِيــَاتِ
لَسْتُ أَسْتَغْنِمُ الْكَثِيرَ ، فَطَبْعِي ∴ قَوْلُ خُذْ وَلَيْسَ مَذْهَبِي قَوْلُ هَاتِ

كما ندلل على ذلك ،بما كان من موقفه من كتاب الحجر الذي أهداه إليه أبو الحسين أحمد ابن فارس اللغوي ، إذ هم الصاحب برد الكتاب ، وقال لحامله وكان قد أتى به من همدان : رد الحجر من حيث جاءك ، ثم لم تطلب نفسه بتركه ، فنظر فيه وأمر لصاحبه بصلة [٢] .

ولم يكتف الصاحب بما كان يهدى إليه ، بل عمد أيضا في سبيل جمع الكتب والمؤلفات إلى استملاء القادمين عليه من الأقطار الأخرى ، ومن ذلك ما ذكره الثعالبي[٣] بصدد شعراء الشام ، إذ قال مشيرا للصاحب بن عباد : " ... كان يعجب بطريقتهم المثلى ... ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، ويستملى الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع ... حتى كسر دفتراً ضخم الحجم عليها وكان لا يفارق مجلسه " .

كذلك حرص الصاحب بن عباد على تتبع أخبار كل ما هو جديد في عالم الكتب والمؤلفات من منطلق الحرص على تحصيلها لخزانته ،ليس في بلاده والبلاد القريبة منها كمصر والشام والعراق ، بل وفي بلاد الأندلس أيضا على الرغم من بعدها عن الري وأصفهان ، وذلك عن طريق علماء المغرب والأندلس ، مما كانوا يردون على بلدان المشرق ، وندلل على ذلك ، بموقفه من كتاب العقد في الأخبار لأحمد بن محمد بن عبد ربه[٤] ، إذ سمع الصاحب عن هذا الكتاب ، فحرص حتى حصل على الكتاب وتأمله ، وكان يظن انه يحوي أخبار عن بلاد الأندلس[٥] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٦ ،صـ ٢٥٣ .
(٢) المصدر نفسه : جـ ٤ ،صـ ٨٧ .
(٣) يتيمة الدهر : جـ ١ ،صـ ٣٤ .
(٤) كنيتة أبو عمر ،وهو من بلاد الأندلس ،ولد ٢٤٦ هـ ،ت ٣٢٨ هـ ،أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، جـ ٤ ص ص ٢١١ – ٢٢١ .
(٥) المصدر نفسه : جـ ٤ ،صـ ٢١٤ - ٢١٥ .

كما لجأ الصاحب بن عباد إلى النسخ كوسيلة لتحصيل ما يصعب الحصول عليه من الكتب بالطرق السابقة ، ومن ذلك أنه بعث بأبي العلاء الحسين بن محمد بن مهرويه إلى أبي على الحسن بن أحمد الفارسي ، يسأله أن يمكنه من أصل كتاب " التذكرة "[١] لينسخه ، لتحظى به خزانته ، وكان الصاحب في هذا حريصا على أن تكون كتابة النسخ من أصل الكتاب وليس من أية نسخة أخرى ،كما حرص أيضا على مراجعة ما ينسخ له من الكتب بالأصول ، بدليل ما طلبه من صاحب كتاب التذكرة ، إذ قال له في الرسالة التي بعث بها مع أبي العلاء الحسين "... قد اعتمدت على صاحبي أبي العلاء،أيده الله،لاستنساخ كتاب التذكرة وللشيخ أدام الله عزه ورأيه في التمكين من الأصل والإذن بعد النسخ في العرض"[٢] .

وخلاصة القول أن الصاحب بن عباد سلك سبلاً كثيرة لتحصيل الكتب والمؤلفات لخزانته كان منها الشراء والنسخ والاستملاء، هذا إلى جانب ما أهدى إليه من كتب ، وما ألف خصيصا لخزانته.

ج – إجراءات دخول الكتاب للخزانة :

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف كانت تلك الكتب والمؤلفات تجد طريقها للخزانة ؟ !!

يبدوا لنا أن عملية إضافة كتاب لخزانة الصاحب بن عباد لم تكن تسير بشكل عشوائي ، بل أنها كانت تخضع لعدة إجراءات و لعل أبرزها هو قراءة الصاحب بنفسه لهذا الكتاب ، أو إطلاعه عليه ، أو حتى تصفحه ، ودليلنا على ذلك ما ورد بصدد كتاب الحجر لأحمد بن فارس اللغوي ، إذ أشار ياقوت الحموي إلى أنه تصفح الكتاب ، وكان قد أعطى أوامره برده لصاحبه فقال : " ... ثم لم تطلب نفسه بتركه ، فنظر فيه ... "[٣].

كما ندلل على هذا الأمر بما ورد بصدد كتاب العقد ،فقد قال فقد قال ياقوت الحموي : " ... بلغني أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده ،فلما تأمله ، قال: هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا لا حاجة لنا فيه ، فرده" [٤] ، وهكذا ، قرأ ابن عباد الكتاب وتصفحه وعلم مضمونه قبل أن يعطي أوامره بأن يوضع في الخزانة ليحدد مدى أهمية الكتاب ، ومدى صلاحيته لدخول خزائن كتبه ، وهذا على ما يبدو لنا كان الإجراء الأول .

---

[١] كتاب " التذكرة " هو أحد مؤلفات أبي على الحسن بن أحمد الفارسي ،أنظر ابن الوردي : تتمة المختصر ، جـ١ صـ٣٧ .

[٢] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ٧ ،صـ ٢٥١ .

[٣] المصدر نفسه : جـ ٤ ،صـ ٨٧ .

[٤] المصدر نفسه : جـ ٣ ،ص ص ٢١٤ - ٢١٥ .

أما الإجراء الثاني: فكان على ما يبدو لنا ، تصحيح الكتاب ومراجعته ، هذا إذا كان الكتاب قد نسخ أو ألف خصيصا لخزائنه ، وندلل على هذا الأمر بما ذكر بصدد كتاب التذكرة إذ أشار أبو العلاء الحسين بن محمد بن مهرويه ، الذي كلفه الصاحب بنسخ كتاب التذكرة ، أنه عمد لتصحيح الكتاب ليؤهل لدخول خزائن كتب الصاحب ، فقال : " ... كنت بمدينة السلام أختلف إلى أبي على الفارسي النحوي ... وكان السلطان رسم له أن ينتصب لي كل أسبوع يومين لتصحيح كتاب التذكرة لخزانة كافي الكفاة " [١].

وخلاصة القول: أن الإجراءات التي كانت تتخذ لإدخال أي كتاب لخزائن كتب ابن عباد كانت تنحصر في اثنين ، أولهما قراءة الكتاب وتصفحه ، فإن لاقى القبول دخل الخزانة ، والإجراء الثاني هو مراجعة الكتاب وتصحيحه ، خاصة إن لم تكن نسخة الكتاب الموجودة عنده هي أصل الكتاب .

د – العاملون بالخزانة :

أما فيما يتعلق بالشكل الإداري لخزائن كتب ابن عباد فقد طالعتنا المصادر بأسماء اثنين ممن عملوا بخزائن كتب ابن عباد ، أولهما هو نجاح الخادم الذي ذكره ياقوت الحموي ضمنا في إطار الترجمة لأبي حيان التوحيدي[٢] الذي قصد حضرة الصاحب بن عباد كغيره من العلماء طلباً للصلات والعطايا ، فسأله ابن عباد أن ينسخ له عدة من رسائله ، أحضرها إليه نجاح الخادم هذا من خزائن الكتب الخاصة بابن عباد ، في هذا قال أبو حيان : " ... قدم إلى نجاح الخادم ، وكان ينظر في خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا أنسخ هذا ،فإنه قد طُلب بخراسان" [٣].

ولم نجد فيما أطلعنا عليه من مصادر أية تفاصيل عن شخص نجاح الخادم هذا ، إلا أنه وكما يبدو كان يعمل عمل المناول الذي كان يحمل كتب العلم الموجودة بالخزانة إلى راغبيها هذا إلى جانب الاهتمام بنظافة الكتب ورعايتها .

والشخص الثاني الذي عمل بالخزانة ، هو أبو محمد [٤] الخازن الذي كان وعلى ما يبدو أحد الأدباء الذين لازموا الصاحب بن عباد في مجالس علمه، وقد ذكره الثعالبي[٥]، وذكر طرفا

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٧ ،صـ ٢٤٢ .

(٢) أبو حيان التوحيدي ،هو أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدي ،شيرازي الأصل ،ولد فيما بين سنتي ٣١٠ و ٣٢٠ هـ و مارس الوراقة ،وقصد حضرة الصاحب بن عباد طمعا في أن يصله ببعض المال وعمل عند بالنسخ ، ولمزيد من التفاصيل أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١٥ ،ص ص ٥ – ٣٥ وأنظر ايضا د. / أيمن فؤاد سيد : أبو حيان التوحيدي ،مؤلفاته المخطوطة والمحفوظة والمطبوعة ،مجلة فصول ،المجلد الرابع عشر ،العدد الثالث ،١٩٩٥م. ،ص ص ٩ – ٢٩ .

(٣) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ١٥ ،صـ ٣٤ .

(٤) أبو محمد الخازن ،كان أحد الأدباء الملازمين لمجالس علم الصاحب بن عباد ،انظر الثعالبي : يتيمة الدهر،جـ ٣ ص ص ٣٧٩ – ٣٨٧ .

(٥) المصدر نفسه ،ص ٣٧٥ .

من أشعاره ، مما يدلل على أنه كان على درجة عالية من العلم والثقافة ،وهذا بالتالي يعكس لنا حرص الصاحب بن عباد على اختيار خازن كتبه ، وسنعرض له تفصيلا في إطار عرضنا لخازني الكتب .

كذلك لا يستبعد أن يكون قد عمل بخزائن كتب ابن عباد بعض الوراقين والنساخين لنسخ الكتب والمؤلفات للخزائن ، وكان منهم ، وعلى ما يبدو ولفترة من الوقت ، أبو حيان التوحيدي الذي أعطاه ابن عباد كتابا ، وقال له : " ألزم دارنا وأنسخ هذا الكتاب " (١) .

ومن المتوقع أن تكون خزائن كتب ابن عباد شأنها شأن باقي خزائنه المختلفة ،فلا يستبعد أنها اشتملت على سجلات خاصة يثبت فيها كل شيء خاص بالخزائن من حيث عدد الكتب وأنواعها والمصروفات والنفقات التي تبذل لخدمتها ، هذا استنادا إلى ما أشار إليه ياقوت الحموي من أن خزانة الخلع للصاحب حوت ثبتا بالحسبات لكاتبها (٢) .

٣ – خزانة كتب ابن سينا :

كان ابن سينا (٣) العالم الحكيم والطبيب المشهور شغوفا بالعلم ،فذكر في سيرته انه كان مكبا على قراءة الكتب (٤) مشتغلا بتحصيلها (٥) يقضي ليله ونهاره ما بين القراءة والكتابة (٦) وتصنيف الكتب .

وكانت دار ابن سينا مجمعا لأهل العلم والمعرفة ،فقد ذكر أبو عبيد الجوزجاني صاحب الشيخ الرئيس ابن سينا أنه كان يذهب إليه في داره يقرأ عليه كل يوم كتاب المجسطي ويستملي منه المنطق،ومن ذلك أن ابن سينا أملى عليه كتاب المختصر الأوسط في المنطق(٧) كما كان يجتمع في داره كل ليلة طلبة العلم ،ويذكر الجوزجاني أنه كان يقرأ عليهم من كتاب الشفاء ،وكان ابن سينا يقرأ غيره من القانون ،كما ذكر أن البحث والمدارسة كانت تتم في دار ابن سينا بالليل لعدم الفراغ بالنهار ،خاصة وتولى ابن سينا أعباء الوزارة (٨) .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ١٥ ،صـ ٢٨ .
(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق ،جـ ٦ ،صـ ٢٦٩ .
(٣) تولى ابن سينا منصب الوزارة أكثر من مرة ، فذكر خواندمير أنه تولى الوزارة لشمس الدولة ابن فخر الدولة حاكم همدان مرتين ،أنظر : خواندمير : دستور الوزراء ،صـ ٢٢٥ ،صـ ٢٢٩ ،كما ذكر الحسيني أنه تولى الوزارة لملك أصفهان علاء الدولة أنظر زبدة التواريخ : صـ ٣٥ .،
(٤) ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ،صـ ٤٠١ .
(٥) المصدر نفسه : صـ ٤٠٢
(٦) المصدر نفسه : وانظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٨٧ ، وخواندمير : دستور الوزراء ص ٢٢٦ .
(٧) ابن أبي اصيبعة : المصدر السابق ، صـ ٤٠٤ .
(٨) المصدر نفسه : صـ ٤٠٦ ،وأنظر ايضا : خواندمير ،صـ ٢٢٩ .

وعليه فلم يكن من العجب والحالة هذه أن نجد ابن سينا يمتلك خزانة كتب ، كانت ولا شك تتناسب وحجم علومه ومعارفه واطلاعاته ، وقد أشار الحسيني إلى خزانة كتب ابن سينا باسم " بيت كتب أبي علي"[١] .

وقد سبق وأشرنا إلى أن معظم كتب ومؤلفات هذه الخزانة قد نهبت ونقلت إلى خزانة كتب غزنة [٢] وهو أمر أقره أكثر من واحد من المؤرخين ، فأشار خواندمير[٣] إلى أن كتب الشيخ وأمتعته ضاعت في أثناء هذه الحرب ،كما أشار ابن أبي أصيبعة إلى ضياع كتاب الأنصاف في هذه الواقعة والتي أشار إليها باسم " نهب السلطان مسعود" [٤] .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن ابن سينا كان شديد الحرص على تتبع أخبار الكتب واقتناءها ، فقد كان كثير التردد على سوق الوراقين لشراء ما يعن له في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، الذي ساعده على فهم محتويات كتاب ما بعد الطبيعة ، وكان قد حاول فهمه واستنباط الغرض منه فصعب عليه على الرغم من قراءته أكثر من أربعين مرة ، وقد فرح ابن سينا بالكتاب وبما استفاده منه ، فتصدق في اليوم التالي بشيء كثير[٥] .

ومما يدل على مدى حرص ابن سينا على جمع الكتب في شتى فروع العلم والمعرفة ، أنه أنكب على دراسة كتب اللغة لمدة ثلاث سنوات ، واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان من تصنيف أبي منصور الأزهري ، حتى بلغ في علوم اللغة مبلغاً عظيماً ، وصف في اللغة ما لم يصفه أحد من قبله ومن ذلك كتاب اسماه "لسان العرب" ظل مسوداً ولم يُنقل إلى البياض[٦].

هذا إلى جانب الكثير من الكتب والمؤلفات التي صنفها ابن سينا ، ويفهم من كلام ابن أبي أصيبعة أنه كان كلما سُئل في إحدى الأمور المتعلقة بشتى أنواع العلوم والمعارف كان يقوم على الفور بالكتابة والتأليف فيها لتتضح لراغبي العلم والمعرفة [٧] .

وقد صنف ابن سينا قرابة المائة كتاب في شتى فروع العلم والمعرفة والتي كان منها في الطب والفلسفة والمنطق والكيمياء وعلوم اللغة وغيرها ، وقد نالت مؤلفاته شهرة عالمية ، فسعت علماء الغرب لتحصيلها وترجمتها للاستفادة منها ، ولعل أشهرها كتاب " القانون في

---

(١) الحسيني : زبدة التواريخ ،صـ ٣٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .
(٣) أنظر : دستور الوزراء ،صـ ٢٣١ .
(٤) ابن أبي اصيبعة : المصدر نفسه ،صـ ٤٠٨ ،٤١٩ .
(٥) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ،صـ ٤٠٢ ،صـ ٤٠٣ ،وابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، صـ ١٨٧ .
(٦) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٢٠
(٧) المصدر السابق : ص ص ٤١٩ ــ ٤٢١ .

الطب " الذي ترجم إلى عدة لغات [١] ، وكتاب " الشفاء " الذي يحتوى على رسائل مطولة في المنطق والطبيعة والرياضيات وما وراء الطبيعة ، وقد وصف هذا الكتاب بأنه أشبه ما يكون بدائرة معارف ، وقد ترجم هذا الكتاب أيضاً ورسائله إلى عدة لغات [٢] .

٤ – خزانة كتب نظام الملك :

كان نظام الملك [٣] الوزير السلجوقي شخصية هامة ، ليس فقط على المستوى السياسي ، بل وعلى المستوى الثقافي أيضا ، خاصة وما قام به من دور في الاهتمام بالعلم والعلماء ، ثم ما قام به من إنشاء مجموعة من المدارس ، والتي عرفت بالنظاميات [٤]، لعبت دورا هاما في إثراء الحياة العلمية والثقافية بالعالم الإسلامي ، وهو ما سنعرض له في حينه .

ولقد كان لنظام الملك خزانة كتب خاصة لا شك أنها كانت تتناسب وما كان له من اهتمام بالعلم وأهله ، والخبر الذي عثرنا عليه بصدد هذه الخزانة جاء عرضا في مخطوط كتاب العصا لأبي المظفر أسامة بن منقذ [٥] ، إذ ذكر عن والده أنه لما توجه إلى خدمة السلطان ملك شاه رحمة الله ،وهو إذ ذاك بأصفهان ،قصد القاضي الإمام الصدر أبو يوسف القزويني [٦] رحمة الله ، عائد ومسلما لمعرفة قديمه كانت بينهما ، وفي هذا يقول والد أسامة : " ... دخلت عليه فلما رآني عرفني بعد السؤال لأنه فارقني وأنا صبي ورآني وأنا رجل ، فاستخبرني عن طريقي فعرفته توجهي إلى دركاه السلطان ، فقال : تبلغ ،خواجا بزرك [٧] نظام الدين سلامي

---

[١] انظر: فاضل أحمد الطائي : أعلام العرب في الكيمياء ،صـ ١٩٧ ،أشاد كثير من العلماء والباحثين باهمية كتاب القانون ومساهمته في تقديم العلوم الطبية ،انظر أحمد محمد الشنواني : كتب غيرت الفكر الإنساني ،جـ ١ ، ط ٢ ،١٩٩٩م،صـ ١٠١ وما بعدها .

[٢] انظر: فاضل أحمد الطائي : المصدر السابق ،صـ ١٩٩ .

[٣] نظام الملك هو ،الحسن بن على الطوسي ،أعظم وزراء السلاجقة ،ولد ٤٠٨ هـ وقتل ٤٨٥ هـ ،وكان محبا للعلم وأهله ،وكان يجزل لهم العطاء ،وقد سعى إلى جعل المذهب السني مذهبا عاما للمسلمين ،كما سعى إلى إنشاء المدارس النظامية في شتى أنحاء العالم الإسلامي ،وللمزيد انظر المافروخي الأصفهاني : محاسن أصفهان ،مطبعة مجلس الملي ،طهران ،إيران ،د. ت ،صـ ١٠٣ و ١٠٤ ،وانظر ايضا عباس إقبال : الوزارة في عهد السلاجقة ،تهران ،١٣٣٨ هـ ،ص ص ٤٧ - ٦٢ .

[٤] ذكر ابو شامة ،أن مدارسة في العالم مشهورة ،لم تخل بلد من شيء منها ،حتى جزيرة ابن عمران و هي في زاوية من الأرض لا يؤتى لها فيها مدرسة ،وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين ،انظر ابو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين،جـ ١ دار الجيل ،د . ت ،صـ ٢٥ .

[٥] اسامة بن منقذ هو : أسامه بن مُرْشد بن مقلد ،يكني أبو اسامة ولد ٤٨٨ هـ ،ت ٥٨٤ ،وله مؤلفات كثيرة وهو من أحد البيوتات التي كان لها اهتمام بالكتب والمؤلفات ،انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ،جـ ٥ ، ص ص ١٨٨ - ٢٤٤ ،وابن خلكان : وفيات الأعيان ،جـ ١ ،ص ص ١٩٥ - ١٩٩ .

[٦] ابو يوسف القزويني هو : عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار ،شيخ المعتزلة ،ومن هواة جمع الكتب وتحصيلها ،ت ٤٨٨ هـ ،انظر الذهبي : العبر ،جـ ٢ ،صـ ٣٥٨ ،ابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ٢ ،ص ١٥٠ ،وابو شامة : الروضتين ،جـ ١ ،صـ ٢٨ .

[٧] ذكر ابن الجوزي : أن نظام الملك كان يذكر بخواجا بزرك ،انظر ابن الجوزي : المنتظم ،جـ ١٦ ،صـ ٨٨ ،وابن كثير : البداية والنهاية ،جـ ٢ و صـ ١١٥ .

وتعرفه أن الجزء الأول من التفسير الذي قد جمعته قد ضاع ، وهو تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ، واسأله أن يأمر باستنساخه من النسخة التي في خزائنه وينفذه لي ،وكان جمع تفسير القرآن في مائة مجلد [١].

كما ذكر صاحب دمية القصر ، أن نظام الملك بني لنفائس الكتب خزانة هائلة ،فقال مشيرا إليه : " ... وبنى لنفائس الكتب خزانة اختصر طريق المنبعثين إلى تحصيلها ، وكفاهم كلف الأسفار في طلب الأسفار [٢] بضم شتاتها وفذلكة تفصيلها ، وحبس عليها أوقافا داره تدور عليهم ألطافا باره ، فاصبح كل منهم ممتلئ الصرة على فراغ الجنان ، فهي في الرتبة العليا قريبت درجاتها للمرتقين" [٣]ويبدو من هاتين الروايتين أن نظام الملك كان لديه خزانة كتب خاصة أتيحت فرصة دخولها والاطلاع على ما فيها للراغبين من أهل العلم والمعرفة ،بدليل ما ذكره صاحب دمية القصر ، إذ قال : " ... وكفاهم كلف الأسفار في طلب الأسفار " ، وهو يشير إلى ما كان يتكلفه العلماء من مشاق معنوية ومادية في رحلاتهم العلمية بغية الحصول على الكتب ، وقد جنبهم نظام الملك هذه المشاق بتوفير الكتب والمؤلفات في هذه الخزانة التي وقف عليها الأوقاف للصرف عليها وعلى متطلباتها .

وعلى ما يبدو ، فقد اشتملت خزانته هذه على أكثر من خزانة كتب ، إذ أشار إليها أبو يوسف القزويني بقوله: " خزائنه "، ويبدو أيضا أنه عمل بها مجموعة من النساخ والوراقين ، بدليل ما طلبه أبو يوسف القزويني ، إذ طلب منه أن يستنسخ له نسخة من إحدى الكتب التي فقدها ، وإذا ما علمنا أن هذا الكتاب هو جزء من مائة جزء من أحد التفاسير لأبي يوسف القزويني لأمكننا إدراك حجم محتويات هذه الخزائن.

ومن الأمور الجديرة بالذكر ، أن أبا يوسف القزويني هذا كان قد أهدى نظام الملك أربعة مؤلفات لم يكن لأحد مثلها ،منها غريب الحديث لإبراهيم الحربي بخط أبي عمر بن حويه عشر مجلدات ، وقد وقفه نظام الملك بدار الكتب ببغداد ، ومنها أيضا شعر الكميت بن زيد بخط أبي منصور في ثلاثة عشر مجلدا ، ومنها عهد القاضي عبد الجبار بخط الصاحب بن عباد وإنشائه قيل : " كان سبعمائة سطر ، كل سطر في ورقة سمرقندي ، وله غلاف أبنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة" ، والرابع مصحف بخط بعض الكتاب المجودين بالخط الواضح ، وقد كتب كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالحمرة ، وتفسير غريبة بالخضرة ، وإعرابه

---

(١) أسامة بن منقذ : مخطوط كتاب العصا ،نسخة بدار الكتب رقم ١٩١١٣ ز،ميكرو فيلم ١٨٦٨١،الورقة الأولى .

(٢) قصد بالأسفار : الأولى الرحلات العلمية ،والثانية كتب العلم .

(٣) الباخرزي : دمية القصر ،ط ١ ،المطبعة العلمية ،حلب ،١٩٣٠م. ،ص ٧ .

بالزرقة ، وكتب بالذهب العلامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد ، وما يكتب في التعازي والتهاني[1] .

ولعل هذه الإهداءات تعكس لنا جانبا من السبل التي أثريت بها خزائن كتب نظام الملك الخاصة ،كما تعكس لنا اهتمامه بتحصيل كل ما هو جديد ونادر من الكتب والمؤلفات ،كما تعكس لنا تنوعا في المعارف والعلوم التي اشتملت عليها خزائن كتبه ، إذ كان منها ما هو في الشعر ، والثاني في غريب الحديث ، والثالث في الأدب ، والرابع مصحف بخط بعض الكتاب المجودين .

ونخلص مما سبق إلى أن بلدان المشرق الإسلامي (إيران ــ خراسان ــ وما وراء النهر) شهدت مجموعة رائعة من خزائن كتب الحكام والوزراء التي عكست لنا ثراءً علمياً وفكرياً وثقافياً هائلاً .

وقد لوحظ على خزائن الكتب هذه أمور منها :

١ - أن خزائن كتب الحكام والوزراء قامت في عواصم الدول المستقلة التي شهدتها بلدان المشرق ، أو في المدن الكبرى ،منها كنيسا بور ، وبخاري ، وشيراز ، والري وأصفهان وغزنة .

٢ - كانت هذه الخزائن مصنفة ،مما يؤكد على معرفة المسلمين المبكرة بعلم التصنيف ، خاصة في الناحية التطبيقية منه ،وقد دللنا على ذلك بما ذكر بصدد خزانتيّ آل سامان وعضد الدولة و فقد حوت كل منها بيوتا أختص كل بيت منها بعلم متفرد .

٣ - عرفت هذه الخزائن نظام الفهرسة ،فاشتملت على فهارس لمؤلفات كل علم ،أو فهارس لمؤلفات كل عالم ،مما يؤكد على ممارسة المسلمين للفهرسة ممارسة تطبيقية .

٤ - خضعت هذه الخزائن لإشراف وإدارة واعية ، وعلى درجة عالية من العلم والثقافة ، فكان يتم اختيار العاملين عليها من العلماء والأدباء ، فكان منهم ابن مسكويه العالم الفيلسوف وأبو محمد الخازن الأديب ، وأبو نصر منصور أحمد محمد الشيرازي قاضي فارس وأعمالها .

٥ - كانت هذه الخزائن خاصة بالحكام وأولي الأمر فقط ،فلم تفتح أبوابها للعامة من الناس ،وعلى الرغم من ذلك فقد فتحت أبوابها لبعض أهل العلم ممن كانوا على علاقة مباشرة بهؤلاء الحكام ،كما كان الحال مع ابن سينا والمقدسي الذين أقرا بارتيادهما مثل هذه الخزائن .

٦ - اتسمت محتويات هذه الخزائن بالكثرة والتعدد والتنوع ، حتى يمكننا القول بأنها كانت خزائن موسوعية اشتملت على شتى أنواع المعارف والعلوم والآداب .

---

[1] د. يحيى وهيب : الكتاب في الحضارة الإسلامية ،ط ١ ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ص ٢٢٧ .

٧ - لوحظ أيضا أن اهتمامات الحاكم أو الوزير صاحب الخزانة كانت تطغي على طبيعة الخزانة ، فمن اهتم بالأداب حازت خزانته أكثر قدر منها كما كان الحال مع عضد الدولة وابن عباد ٠

٨ - شهدت هذه الخزائن بعض الممارسات والأنشطة الثقافية ، والتي جاء نسخ الكتب في مقدمتها ، ومن هنا كانت العناية بالارتقاء بالورق وجلب أفضل أنواع الورق وأرقاها ، ثم الاستعانة بأفضل الوراقين ، كما كان في خزانتي عضد الدولة وابن عباد ٠

٩ - روعي التأنق في إعداد وتأسيس هذه الخزائن وتشييدها وإمدادها بالفرش والأدوات اللازمة للبحث والدراسة ٠

١٠ - لعبت هذه الخزائن دوراً هائلاً في إثراء الحياة العلمية والثقافية بما كانت تمنحه ، ممن يتاح لهم ارتيادها ، ثم بمحاولات العلماء بالتأليف والتصنيف لتحظى خزانة كل حاكم أو وزير بمؤلفاته ، مما يخلد ذكره وذكر مؤلفاته ٠

****

الفصل الثاني

(دور وخزائن الكتب العامة بالمشرق الإسلامي)

« الفصل الثاني »

(دُور وخزائن الكتب العامة بالمشرق الإسلامي)

(إيران - خراسان - ما وراء النهر)

أولا : دور الكتب العامة :

١ - دار كتب الري .
٢ - دار كتب رامهرمز.
٣ - دار كتب ساوه .
٤ - دار كتب جنزه .
٥ - دار كتب الخجندي .
٦ - دار كتب فيروزأباد .
٧ - دار كتب النطنزي .

ثانيا : خزائن الكتب الملحقة :

١ ـ خزائن الكتب الملحقة بالمساجد :

أ ـ خزائن كتب مساجد مرو .

ب ـ خزائن كتب المساجد في نيسابور :

_ خزانة كتب الجامع المنيعي .

- خزانة كتب مسجد عقيل .

ج ـ خزائن كتب المساجد في أصبهان :

- دار كتب تاج الملك بجامع أصبهان .

- دار كتب ابي العباس الضبي بجامع الخصيب بن مسلم .

د ـ خزائن كتب المساجد ببخارى وخوارزم وغيرهما :

٢ ـ خزائن الكتب الملحقة بالمدارس :

أ ـ خزانة كتب مدرسة ابن حبان البستي .

ب ـ خزائن كتب مدارس مرو .

ج ـ خزائن كتب المدارس النظامية .

٣ ـ نماذج أخرى لخزائن الكتب الملحقة :

أ ـ خزائن كتب الخانقاوات والرباطات .

ب ـ خزانة كتب مرصد مراغة .

ج ـ خزانة كتب محلة الربع الرشيدي .

ثالثاً : وقف الكتب والمكتبات :

١ ـ نشأة ظاهرة وقف الكتب .

٢ ـ وقف الكتب والمكتبات ببلدان المشرق الإسلامي .

كما شهدت بلدان المشرق الإسلامي (إيران ــ خراسان ــ ما وراء النهر) مجموعة من خزائن كتب الحكام والوزراء ، انتفع بها أهل الحكم والرياسة ، ومن قرب منهم من العلماء والأدباء، شهدت أيضاً نوعاً آخر من دور وخزائن الكتب ، ألا وهو دور وخزائن الكتب العامة ، التي فتحت أبوابها للعامة من الناس ، فقيرهم وغنيهم ، وعالمهم وجاهلهم ، كل على حد سواء ، ويمكننا تمييز نوعين من دور خزائن الكتب العامة : الأول وهو دور الكتب العامة ، والثاني وهو خزائن الكتب الملحقة ، وهي تلك التي ألحقت بالمساجد والمدارس وما إليها .

أولاً : دور الكتب العامة :

١ ــ دار كتب الري : [١]

ذكر هذه الدار أكثر من واحد من مؤرخينا القدامى ، فقد ذكرها المقدسي[٢] في إطار حديثه عن الري فقال مشيراً لتلك المدينة : " الري بلد جليل بهي ... به علماء سراة ... به مجالس ومدارس لا يخلو المذكر من فقه ، ولا الرئيس من علم ... ولا الخطيب من أدب هو أحد مفاخر الإسلام ... به مشايخ وأجله وقراء وأئمة ... به دار الكتب الأحدوثة " .

كما أشار إلى موضع هذه الدار ومؤسسها فقال : " ... ودار الكتب بأسفل الروذة في خان اتخذها الصاحب ليست بكثيرة الكتب " [٣].

وكما يبدو من رواية المقدسي فإن منشئ الدار هو الصاحب بن عباد ، وهذا أمر ليس بالعجيب أو المستبعد ، خاصة وما سبق وأشرنا إليه من اهتمام الصاحب بن عباد بالكتب والمؤلفات وأهل العلم ، وحيازته لخزانة كتب هائلة ، احتاجت لأربعمائة جمل أو أكثر لحملها.

ويعد المقدسي المؤرخ الوحيد فيما أطلعنا عليه من مصادر الذي قد دلنا على موضع هذه الداره فذكر أنها في خان أسفل الروذه . وقد أشار بأنها أحدوثة ، والأحدوثة هو ما يتحدث به ويكثر فيه الحديث [٤] ، إما لتميزه ، وإما لغرابته .

وقد أشار السمعاني [٥] إلى هذه الدار فقال في إطار حديثه عن أبي الحسن عباد بن العباس الطالقاني ، والد الصاحب بن عباد ما يفيد أن أحد أهل العلم ، وهو محمد بن طاهر المقدسي قد رأى كتاباً لوالد الصاحب بن عباد ينصر فيه مذهب الاعتزال في هذه الدار . قال : " رأيت لأبي

---

(١) الري : هي الآن مدينة في شمال إيران بضاحية طهران ، وهي الآن مزار ديني ، بها أطلال مدينة تاريخية قديمة ، ولد فيها هارون الرشيد ، وكانت من عواصم الإسلام التجارية والثقافية والفنية ، أنظر المنجد ، ط ١٦ ، ص ٢٧٢ .
(٢) أحسن التقاسيم : ص ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .
(٣) المصدر نفسه : ص ٣٩١ . والخان ؛ جمع خانات وهو الحانوت محل نزول المسافرين ويسمى الفندق (فارسيه) انظر المنجد في اللغة الأعلام ، ط ٣٠ ، ص ٢٠١ ، والروذة قرية من قرى الري أو محلة (موضع) بها ، انظر: الزبيدي : تاج العروس ، ج ٢ ، ص ٥٦٣
(٤) انظر المعجم الوجيز ص ١٣٨ .
(٥) الأنساب : ج ٤ ، ص ٣٠ .

الحسن عباد بن العباس الطالقاني والد الصاحب إسماعيل في دار كتب ابنه أبي القاسم اسماعيل ابن عباد بالري كتاباً في أحكام القرآن ينصر فيه مذهب الاعتزال استحسنه كل من رآه ...[١] والرواية ذاتها أشار إليها ياقوت الحموي [٢] إذ قال : " ... قال أبو الفضل : ورأيت له ـ يشير إلى والد الصاحب بن عباد ـ في دار كتب ابنه أبي القاسم بن عباد بالري كتاباً في أحكام القرآن ينصر فيه مذهب الاعتزال استحسنه كل من رآه " .

هذا وقد ذكر فيليب دي طرازي خزانة كتب الري تحت عنوان بيت الكتب في الري ، وقال "... في القرن السادس الهجري كان في الري مكتبة عامرة تسمى بيت الكتب لم نهتدي إلى اسم منشئها ، وهي التي أمر السلطان محمود الغزنوي سنة ٥٤٨ بإحراق كل ما كانت تحويه من كتب الروافض ، وأهل البدع في علم الكلام ، وقد ورد ذكرها في معجم الأدباء لياقوت الحموي ما نثبت نصه هاهنا " قال أبو الحسن البيهقي : وأنا أقول بيت الكتب الذي كان بالري ، دليل على ذلك ، بعدما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين فإني طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك الكتب عشرة مجلدات ، فإن السلطان محمود لما ورد إلى الري قيل له إن هذه الكتب كتب الروافض وأهل البدع ، فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه"[٣].

ولنا على ما ذكره فيليب دي طرازي بعض المآخذ :

أولها : هو قوله : " كانت في الري مكتبة عامرة تسمى بيت الكتب لم نهتد إلى اسم منشئها " إذ بالعودة للمصدر المذكور وجد أن الحديث عن هذه المكتبة العامة جاء في إطار الترجمة لابن عباد وفي سياق التدليل على كثرة كتبه [٤] ، وقد جاء ياقوت الحموي بما قاله أبو الحسن البيهقي بصدد بيت الكتب الذي بالري دليلاً على ذلك ، فقد ذكر أبو الحسن البيهقي أنه طالع هذا البيت فوجد فهرست كتبه عشر مجلدات ، هذا مما يؤكد أن بيت الكتب المقصود للصاحب بن عباد ، كما أننا لا نستبعد كونه الدار التي سبق وأشار إليها كل من المقدسي والسمعاني ، وياقوت.

ثانياً : من المآخذ التي تؤخذ على فيليب دي طرازي ما ذكر من أن السلطان محمود الغزنوي قد أمر بإحراق ما كانت تحويه دار الكتب هذه من كتب الروافض محدداً عام ٥٤٨ ، ومن المعلوم أن السلطان محمود الغزنوي قد توفي قبل ذلك بأكثر من قرن من الزمان [٥] ، والواقعة التي ذكرها فيليب دي طرازي يشير إليها ابن الجوزي في أحداث عام ٤٢٠هـ ، إذ قام السلطان

---

(١) السمعاني : الأنساب : ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٢) معجم البلدان : ج ٤ ، ص ٨ .

(٣) فيليب دي طرازي : خزائن الكتب العربية في الخافقين ، م١ ، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة ، دار الكتب ، لبنان ، ص ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٤) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٦ ، ص ٢٥٩ .

(٥) توفي السلطان محمود الغزنوي عام ٤٢١ هـ ، وذكر الحسيني أنه توفي عام ٤٢٢هـ . انظر الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢٨ .

محمود الغزنوي بمهاجمة مدينة الري لمحاربة الباطنية والروافض ، خاصة وأنهم اتخذوها ملجأ لهم ، فنال منهم ، وبعث برسالة إلى الخليفة القادر بالله [١] يصف له هذه الواقعة . مشيراً في ثناياها إلى أنه نقل في هذه الواقعة حوالي خمسين حملاً من الكتب ، في حين قام بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض معللاً ذلك بأن هذه الكتب كانت أصول البدع ، ومعقباً على ذلك بقوله ..."فخلت هذه البقعة من دعاة الباطنية وأعيان المعتزلة والروافض ، وانتصرت السنة "[٢].

على أية حال فإن ما يعنينا حقاً هو ما يعكسه النص المنقول عن ياقوت الحموي ، إذ يعكس لنا أموراً منها أن :

(١)محتويات دار الكتب هذه كانت هائلة ، خاصة إذا ما علمنا أن فهرست كتبها كان حوالي عشرة مجلدات ، ولعل هذا قد يتعارض مع ما سبق وأشار إليه المقدسي من أنها ليست بكثيرة الكتب ، وقد يكون ذلك حقيقياً . خاصة وأننا لا نستبعد أن المقدسي قد عاين هذه الدار بنفسه ، لكن ينبغي علينا أن نضع في الاعتبار أن المقدسي كان من أبناء القرن الرابع الهجري ، في حين كان أبو الحسن البيهقي من أبناء القرن السادس[٣] ، فلاشك أن تطورات طرأت عليها زادت من حجم كتبها ، كما إننا لا نستبعد أن خزانة الصاحب بن عباد قد آلت إلى هذه الدار بعد مماته .

(٢)كما تعكس لنا الروايات السابقة أن الدار تحوي كتباً للروافض وأهل البدع وأهل الكلام ، وهذا أمر ليس بالعجيب في إطار ما سبق وأشرنا إليه من اهتمام ابن عباد بهذه العلوم ، وما سبق وأشرنا إليه من كتاب والده الذي كان ينصر فيه مذهب الاعتزال .

(٣)كانت هذه الدار مفهرسة ، تسهيلاً للقارئ والمتردد على هذه الدار للحصول على ما يريد من كتب ومؤلفات ، وقد حصرت محتويات الدار في عشرة مجلدات مفهرسة .

وحول العاملين في هذه الدار ، فإننا لا نعلم على وجه الدقة أية تفاصيل حول عدد العاملين في هذه الدار ، وطبيعة العمل فيها خاصة وأن مصادرنا لم تشر إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد، اللهم إلا مصدر واحد ذكر تحت عنوان خازن كتب الصاحب المسند محمد ابن إبراهيم بن علي ، فقال الصفدي في الترجمة له :"ابن عاصم بن زادن أبو بكر المعزي

---

(١) القادر بالله : هو أبو العباس أحمد بن اسحاق بن المقتدر ، ولد ٣٣٦هـ ، تقلد الخلافة من ٣٩٣هـ إلى ٤٢٢هـ ، كانت مدة خلافته إحدى وأربعون سنة وثلاثة اشهر ، انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٢٣ .وللمزيد من المعلومات عن السلطان محمود الغزنوي انظر المتيني : شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي ، دار الكتب ، ١٩٢٤م ، ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٩٦ .

(٣) توفي أبو الحسن البيهقي عام ٥٦٥ هـ .

الحافظ مسند أصبهان ، طوف الشام ومصر والعراق ... وهو ثقة مأمون صاحب أصول ، وكان خازن كتب الصاحب بن عباد توفي سنة ٣٨١هـ " [١] .

وهكذا فإنه يشير إلى أنه خازن كتب ابن عباد ، ولم يذكر تحديداً خزانته الخاصة أم تلك العامة المشار إليها بالري ، وعليه فإنا نضع احتمالية أنه كان خازناً للصاحب على دار كتب الري ، خاصة وأن الثعالبي الذي عنى بذكر أخبار الصاحب بن عباد ، وأخبار خازن كتبه أبو محمد الخازن لم يشر إليه من قريب أو بعيد ، على أنه لا يمكننا الجزم بهذا الأمر، إذ أن هناك احتمالية أخرى ، مؤداها أنه عمل خازناً لخزانة كتب الصاحب الخاصة أثناء غياب أبي محمد الخازن ، وهو ما سنعرض له تفصيلاً في حينه بمشيئة الله ، ويبدو أن هذه الدار لم تحترق باحتراق كتبها ، إذ أشار أحد النحاة إلى أنه طالع بها كتاب الحجة لأبي على الفارس عام ٥٢٢هـ . [٢]

٢ ـ دار كتب رامهرمز :

ومن دور الكتب العامة التي شهدتها بلدان المشرق ، دار كتب رامهرمز [٣]، وهذه الدار أشار إليها المقدسي الذي كان ، كما لاحظنا معنياً بذكر أخبار خزائن الكتب التي عاينها وسمع عنها ، فقال مشيراً إلى مدينة رامهرمز :"قصبة كبيرة بها أسواق عامة ، وخيرات كثيرة ، وجامع بهيٍ عنده أسواق في غاية الحسن ، بناها عضد الدولة ما رأيت أعجب منها ، نظيفة طريفة قد بربقت وبلطت وظللت ... وبها دار كتب كالتي بالبصرة ، والداران جميعاً اتخذهما ابن سوار ، وفيهما إجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ ، إلا أن خزانة البصرة أكبر وأعمر وأكثر كتباً ، وفي هذه أبداً شيخ يدرس عليه الكلام على مذهب المعتزلة "[٤] .

وهكذا يشير المقدسي إلى أن برام هرمز داراً للكتب تشبه إلى حد كبير دار كتب ابن سوار بالبصرة ، لأن ابن سوار هذا هو منشئ الدارين ، وواقع الأمر أننا لم نجد لابن سوار هذا ترجمة مفصلة ، اللهم إلا ما ذكره ابن النديم بصدده، في إطار الحديث عن البستي ابن القاسم ، فقال مشيراً إلى ذلك الأخير :" لم أر من كتبه شيئاً ، بل أخبرني أبو على بن سوار الكاتب ،

---

(١) الصفدي الوافي بالوفيات : ج ١ ، مطبعة الدولة ، استانبول ، ١٩٣١م ، ص ٣٤٢ .
(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٧ ، ص ٢٣٩ .
(٣) رامهرمز : ذكرها المقدسي وأشار إلى أسواقها وخيراتها وجامعها ، وذكر أنها بنيت في عهد عضد الدولة. انظر المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤١٣ . وهي الآن مدينة قديمة في إيران بخوزستان جنوبي مسجد سليمان . انظر المنجد ، ط ١٦ ، ص ٢٦١ .
(٤) أنظر: المقدسي المصدر نفسه ، ص ٤١٣.

وهو الذي عمل خزانة الوقف بالبصرة ، وكان محباً للعلوم شديد الشغف بها ، قال في خزانتي بالبصرة من كتبه " (١) .

ويبدو من كلام ابن النديم أن ابن سوار هذا كان كاتباً ، وأنه كان شديد الشغف بالعلوم ، وعليه فلم يكن من العجيب أن يسعى لإنشاء خزائن للكتب واحدة بالبصرة والأخرى برام هرمز.
ومن الأمور الجديرة بالملاحظة ما ذكره المقدسي من أن " فيهما إجراء على من قصد هذه الدار ولزم القراءة والنسخ " (٢) والإجراء هو الراتب الذي يصرف بصفة منتظمة أحياناً لراغبي القراءة والنسخ .

ويعكس لنا هذا الأمر أن هذه الدار كانت مجهزة ومؤهلة بأدوات النسخ والكتابة ، كالورق والحبر وغيره لممارسة النسخ . وهذا كما يبدو مظهر حضاري حرى بالنظر والتدقيق . إذ هو يشجع أهل العلم على التردد على الدار وممارسة البحث والدراسة والنسخ.
لوحظ أيضاً وجود شيخ يدرس علم الكلام على مذهب المعتزلة ، مما يعكس لنا رغبة في الترويج لمثل هذه المذاهب . ولا يستبعد أن تكون دار الكتب هذه قد يسرت لذلك الأمر بما حوته من كتب ومؤلفات استفاد منها ذلك الشيخ ، والمترددين عليه ، مما يعكس لنا ذلك الدور الذي لعبته بعض دور خزائن الكتب في الترويج لمذهب أو فكر معين .

وقد لاحظ المقدسي أن دار كتب البصرة تفوقت على دار كتب رام هرمز من حيث سعة الدار ، وكثرة الكتب ، وعدد المترددين عليها ، وقد يكون ذلك طبيعياً ، فالبصرة إحدى مدن دار الخلافة التي يقصدها كل ذوي العلوم والمعارف والآداب .

كما لوحظ أن دار كتب البصرة كانت وقفاً ، فأشار ابن النديم إلى ابن سوار بأنه الذي عمل خزانة الوقف بالبصرة ، فلاشك أن دار كتب رام هرمز كانت هي الأخرى وقفاً بدليل الأموال التي خصصت للمترددين عليها من راغبي القراءة والنسخ ، ولا شك أن ابن سوار وقف عليهما أوقافاً للصرف عليهما. وسنقوم بالعرض لظاهرة وقف المكتبات تفصيلاً فيما بعد .
على أية حال فقد خضعت هذه الدار لإشراف أحد العلماء وهو أبي الحسن بن زكرياء الذي ذكر المقدسي أنه كان رئيساً لهذه الدار وكان قد سكن فلسطين فترة . (٣)

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ١٩٩ .
(٢) انظر المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٤١٣ . والإجراء من أجرى عليه الرزق أي أفاضه وعينه ، هو أيضاً الجراية وهي ما ينال كل يوم ، انظر المنجد ط ٣٠ ، ص ٨٩ .
(٣) انظر: أحسن التقاسيم ، ص ص ٤١٣ ، ٤١٤ .

٣ ـ دار كتب ساوه : [١]

شهدت مدينة ساوة داراً للكتب ذكرها ياقوت الحموي فقال مشيراً لساوة :" ... وبها دار لكتب لم يكن في الدنيا أعظم منها "[٢]، ولاشك أنه يعني ما يقول خاصة اهتمامه بذكر أخبار الكتب والمكتبات .

وقد كانت دار الكتب هذه في مدينة سنية على المذهب الشافعي ، إذ ذكر ياقوت الحموي أن ساوة كانت على خلاف دائم مع مدينة مقابلة لها تدعى أوة أهلها شيعة إمامية[٣] فلاشك أن هذا الأمر ينعكس على طبيعة محتويات هذه الدار ، خاصة وما يشير إليه ياقوت من أنه لا يزال يقع بينهما عصبية .[٤]

على أن هذه الدار لم يكتب لها البقاء إذ تنامت الأخبار إلى ياقوت الحموي بأنها أحرقت بدخول التتار إلى هذه البلاد [٥] .

٤ ـ دار كتب جنزة : [٦]

ذكر دار الكتب هذه ياقوت الحموى في إطار عرضه لمدينة تدعى نشوى ، فذكر أن من أبنائها حداد بن عاصم بن بكران أبو الفضل النشوي خازن دار الكتب بجنزه ، وليس لدينا أية تفاصيل بصدد هذه الدار ، اللهم إلا ما يتعلق بخازنها الذي أشار ياقوت إلى أنه كان راوية روى عن بعض أهل العلم[٧]. وقد أشار فيليب دي طرازي إلى جنزه هذه قال : هي مدينة كبيرة واقعة بين شروان وأذربيجان ، وقال مشيراً لدار الكتب هذه بعنوان: (خزانة كتب جنزه[٨])، ونحن لا نتفق معه فيما ذهب إليه ، إذ أنها لم تكن مجرد خزانة ، بل ذكرها ياقوت باسم دار الكتب ، مما يعني أنها كانت داراً قائمة بذاتها .

---

(١) ساوة مدينة حسنة بين الري وهمذان ، في وسط بينهما وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخاً ، وبقربهما مدينة يقال لها أوه ، فساوه سنيه شافعية ، وأوه أهلها شيعة إمامية وبينهما نحو فرسخين ، ولا يزال يقع بينهما عصبية وما زالتا معمرين إلى سنة ٦١٧هـ . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٢٠١ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠١.
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٠١.
(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ .
(٦) جنزة هي مدينة بأذربيجان وهي المعروفة بين العامة بحجوان ، فتحت في أيام عثمان بن عفان . انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٣١ .
(٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٣١.
(٨) فيليب دي طرازي : خزائن الكتب العربية في الخافقين ، م ١ ، ص ١٦١ .

٥ ـ دار كتب الخجندي :

أشار القزويني إلى هذه الدار من إطار ذكره للأديب الفاضل عبد العزيز الملقب بالرفيع الذي ينتمي إلى لنبان(١)، فأشار إلى أنه سمع أن جمال الدين الخجندي عزل خازن دار كتبه فسعى الرفيع اللنباني إلى أن يلي خزانة هذه الدار فكتب إلى صدر الدين الخجندي يقول : "سمع العبد أن خازن دار الكتب اختزل حتى اعتزل ، وخان حتى هان ، ولم يزالوا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، والعبد خير منه زكاة وأقرب رحماً ، وجاء أن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين "(٢).

وكما يبدو من هذه الرسالة التي بعث بها الرفيع اللنباني إلى صدر الدين الخجندي ، أنه رغب في العمل بهذه الدار ، وتولى خزانة كتبها بعدما عزل الخجندي خازنها الذي أشار الرفيع إلى أنه " خان حتى هان " فلاشك أنه قصر في الحفاظ على دار الكتب ، وقد عرض الرفيع اللنباني في الرسالة بعض المعطيات التي تؤهله لذلك المنصب ، منها صلة الرحم التي تربطه بصدر الدين الخجندي ، ثم والده الكبير في السن ، وتعكس الرسالة أنه كان حافظاً للقرآن فاستعان ببعض الآيات في الكتابة للتدليل على حاله ووصفها .

٦ ـ دار كتب فيروز آباد :(٣)

شهدت مدينة فيروز آباد دار للكتب قام بإنشائها العادل أبو منصور بهرام(٤) وزير الملك أبي كاليجار بن المرزبان(٥) ، وقد عرف ذلك الوزير بحسن السيرة ، وقد ذكرها ابن الوردي فقال مشيراً لذلك الوزير ... وبنى دار للكتب بفيروز آباد ، وجعل فيها سبعة آلاف مجلد ، والرواية ذاتها ذكرها ابن كثير(٦) ، إلا أنه لم يشر إلى هذه المكتبة باسم دار الكتب وذكرها بخزانة الكتب فقال مشيراً لذلك الوزير :" وقد وقف خزانة كتب في مدينة فيروز آباد تشتمل على سبعة آلاف مجلد ، من ذلك أربعة آلاف ورقة بخط أبي علي وأبي عبد الله ابن مقلة .

وكما يبدو فإن دار الكتب هذه أنشئت في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري ، خاصة وأن مولد ذلك الوزير كان ٣٦٦هـ ، كما أنها اشتملت على سبعة آلاف من الكتب المجلدة مما

---

(١) لنبان هي قرية كبيرة بأصبهان ينسب إليها بعض أهل العلم ، انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥ ص ٢٧ ، والقزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٤٤٩ وما بعدها .
(٢) القزويني : المصدر نفسه ، ص ٤٥٠ .
(٣) فيروز آباد : ذكر ابن الوردي أن فيروز آباد بلدة بفارس ، وقيل هي مدينة جور . انظر ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ، ص ٣٨١ .
(٤) ولد ذلك الوزير سنة ٣٦٦هـ ، ت ٤٣٣هـ ، عرف بحسن السيرة والعفاف والنزاهة ، انظر ابن الوردي تتمة المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٤٨ . وابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .
(٥) الملك أبو كاليجار ابن المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة ، ت ٤٤٠هـ . انظر ابن الوردي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .
(٦) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ص ٤٩ ـ ٥٠ .

يعكس لنا الحرص على تجليد كتب هذه الدار ، وحوت أيضاً أربعة آلاف ورقة بخط أبي عبد الله ، وأبي على ابني مقلة ، وهما من أشهر خطاطي العالم الإسلامي[١]، مما يعكس لنا حرصاً على اقتناء كتب مؤلفات بخط مشاهير الخطاطين .

٧ ــ دار كتب النطنزي[٢] بأصفهان :

دلنا على هذه الدار بيتان من الشعر ذكرها العماد الأصفهاني في إطار ترجمته للأمير مجد العرب مصطفى الدولة أبو فراس بن محمد بن غالب العامري ، وهو أحد الشعراء المعروفين ، أفاض في ذكره وفي وصف بلاغته ، وذكر أنه دخل أصفهان سنة ٥٣٧هـ وظل بها إلى عام ٥٤٨هـ ، وأملى ديواناً شعرياً ، أختار لنا منه بعض الأبيات ومنها ما قاله في دار الكتب التي بناها النطنزي ونقضها مراراً وأعادها :

دار كتب بغير كتب مـــال   من تراب أنفقتـــه في تراب
أنت في عامر بزعمك منها   واللها كل ساعة في خراب [٣]

على أية حال فلم تكن هذه هي فقط خزائن الكتب العامة التي شهدتها بلدان المشرق ، بل إننا لا نستبعد اشتمالها على الكثير والكثير من خزائن الكتب العامة ، ولكننا عرضنا فقط إلى ما جادت به مصادرنا علينا ، بدليل وجود خزانة كتب عامة بسرخس[٤] أشار إليها ابن فندق إشارة عابرة في مؤلفه تاريخ بيهق ، وقد حوت أجزاءا لبعض مؤلفاته ، خاصة ما قام بتأليفه في تاريخ السلطان محمود الغزنوي [٥] .

ثانياً : خزائن الكتب الملحقة :

١ ــ خزائن الكتب الملحقة بالمساجد :

نشأت المساجد كدور للعبادة والصلاة ، ولكنها منذ الوهلة الأولى اتخذت طابعاً تعليمياً تربويا ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتمع بالمسلمين في المسجد يلقنهم ويعلمهم أمور دينهم ودنياهم ، وظل المسجد هكذا ، وتطور به الحال فأصبح

---

(١) وحول ابني مقلة انظر خواندمير : دستور الوزراء ، ص ١٩١ وما بعدها وانظر أيضاً محمد عبد الجواد الأصمعي : تصوير وتجميل الكتب العربية في الإسلام ، دار المعارف ، مصر ، د.ت ، ص ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) النطنزي : نسبة إلى طنزة ، وهي بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٥٠ .

(٣) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ج ٢، ص ١٦٦ ، والسمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٧٦ .

(٤) سرخس : مدينة بين نيسابور ومرو ، انظر الأصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .

(٥) انظر: ابن فندق : تاريخ بيهق ، " در دو نسخة نشر مايه كتابفروشي فروغي در جانجانه إسلامية حساب شد ، د.ت, ص ٢٠ ، ص ١٧٥ .

المسجد من المؤسسات التعليمية الهامة في حياة المسلمين ، يجتمعون فيه بعد الصلوات وقبلها لسماع دروس العلم ، ودراسة كتب الحديث والفقه وعلوم القرآن ، وكافة العلوم الدينية ، وما يتعلق بها من علوم اللغة والآداب وغيرها .[١]

والجدير بالذكر أن مساجد بلدان المشرق الإسلامي شهدت الكثير والكثير من مجالس العلم ، وقد أشاد الإصطخري بمجالس العلم في مساجد هراه وبلخ وسجستان ، وأشار إلى تزاحم الناس عليها ، وأطلق عليها " حلق الفقهاء "[٢] . وكان لأبي المحامد محمد بن عبد الخالق الكندي (ت٥٥١هـ) حلقة علم في جامع كندي في يوم الجمعة ، حيث سمع عليه السمعاني بعض الأحاديث[٣] ، كما كان أبو الفضل أحمد بن على السليماني الحافظ البيكندي (ت ٤٠٤هـ) يصنف كل أسبوع شيئاً ويحمله إلى جامع بخارى من بيكند[٤] ، ليحدث به[٥] ، كما كان لأبي بكر محمد بن أحمد بن إسماعيل مجلس للإملاء بجرجان في جامعها سنة ٣٥٤هـ[٦] ، وكان لأبي نصر محمد بن أحمد ... بن العباس الإسماعيلي (ت٤٠٥هـ) مجالس للإملاء في مسجد الصفارين ، ثم انتقل إلى الإملاء في مسجد والده أبي بكر الإسماعيلي بعد وفاته[٧] ، وكان السمعاني يرتاد المساجد للنسخ والقراءة والإطلاع على ما فيها . فذكر أنه دخل مسجد بروجردة ونسخ فيه شيئاً من الحديث ، واستمع به إلى أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي حيث كتب عنه بعض الأجزاء[٨].

ولم تكن مجالس العلم بالمساجد قاصرة على الرجال ، بل كان هناك بعض أهل العلم من النساء جلسن لإلقاء العلم بالمساجد ، ومن هؤلاء أمة الله بنت محمد بن أحمد النباذاني ، التي كانت تقرأ في أحد مجالس العلم بمسجدها في نباذان[٩] في حضور السمعاني وبعض العلماء[١٠].

---

(١) عن أهمية المساجد ودورها في نشر العلم والثقافة . انظر أ.د/ سعيد عاشور ، بحث بعنوان العلم بين المسجد والمدرسة ضمن أبحاث كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ص ١٨ ، ١٩ .
(٢) انظر الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٥٠ .
(٣) السمعاني: الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٠٤ .
(٤) بيكند : إحدى مدن ماوراء النهر ، وبها مسجد جامع وتونق في بنائه ، وبها رباطات كثيرة ، انظر الاصطخري المسالك والممالك ، ص ١٧٥ .
(٥) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .
(٦) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ١١ ، ص ٣٩١ .
(٧) المصدر نفسه: ج ١١ ، ص ٤٠٩ .
(٨) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ص ٤٨٠ ، ٤٨١ . وانظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٠ ، ص ٣١٩ .
(٩) نباذان : قرية من قرى هراة . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٢٩٧ .
(١٠) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٤٣٣ .

وقد كانت هذه المجالس تضم أعداداً هائلة من طالبي العلم والمعرفة ، فكان مجلس أبي الطيب الصعلوكي[١] النيسابوري (ت ٤٠٢هـ) يشتمل على خمسمائة محبرة[٢] ، مما يعكس لنا عظم حجم الحاضرين، كما كان مجلس أبي سليمان داود بن خلف الأصبهاني (ت٢٠٢هـ) يضم أربعمائة من أهل العلم[٣]، وكان مجلس أبي حامد الاسفراييني[٤] المنسوب لاسفرايين يضم حوالي ثلاثمائة فقيه أو أكثر ، وقيل سبعمائة فقيه[٥] .

وهكذا لم تكن المساجد دوراً للعبادة فقط ، بل كانت أيضاً دوراً للعلم والدرس ، وقد استلزم ذلك اشتمالها على خزائن للكتب تخدم عملية الدرس والتعليم داخل المسجد ، والتي اتخذت أشكالاً متعددة ، منها مجالس للسماع ، ومجالس للتحديث ، ومجالس الأمالي ، والنسخ .

وقد ذكر ياقوت الحموي[٦] أنه ورد آمد[٧] في شهور سنة ٥٤٤هـ ، وسمع من أهلها عن أحد مشايخ العلماء فقصده للنهل من علومه ومعارفه ، ويقول في هذا :" ... فقصدت إلى مسجد الخضر ودخلت عليه ، وجدته شيخاً كبيراً ... في حجرة من المسجد بين يديه جامدان مملوء كتباً من تصانيفه فحسب ، فسلمت عليه ، وجلست بين يديه ، فأقبل علي ... ثم قلت له: إنما جئت لأقتبس من علوم المولى شيئاً ، فقال لي : وأي علم . قلت له : أحب علوم الأدب ".

ولعل هذه الرواية لياقوت الحموي تؤكد ما نشير إليه من أن المساجد لم تكن فقط أماكن للعبادة ، بل كانت أيضاً أماكن للمناقشة والتعليم والدرس والتحصيل ، ليس فقط العلوم الدينية ، بل وأيضاً العلوم الأدبية ، بدليل ما ذكره ياقوت ، كما أن رواية ياقوت تشير أيضاً إلى وجود ما عرف بمكتبات المساجد ، بدليل جامدان الكتب الذي كان بحوزة ذلك الشيخ ، والذي كان من تصانيفه ، والجامدان[٨] نسبة إلى الجامد وهو مالا ينمو ولا حياة له وقد يكون صندوقاً من الخشب أو غيره .

---

(١) هو أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي النيسابوري ، الفقيه الشافعي ، كان فقيهاً وأديباً ، ت ٣٨٧هـ ، وقيل ٤٠٢هـ ، انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ،.ج ٢ ص ٤٣٥ ، والقزويني : آثار البلاد ... ، ص ٤٧٥ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٤) اسفرايين : بلدة بنواحي نيسابور : انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ، ص ٢١١ ، والإسفراييني الفقيه الشافعي ، ولد ٣٤٤ ، وت ٤٠٦ هـ ، ينسب إلى إسفرايين ، انظر ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٥) ابن خلكان : المصدر نفسه.

(٦) معجم الأدباء ، ج ١٣ ، ص ٥١ .

(٧) آمد ، وحول وصف آمد انظر ناصر خسرو : سفر نامة ، مطبوعات البنك العربي الدولي للمعلومات ، د.ت ، ص ٤٢ : ٤٣ .

(٨) انظر المنجد : ص ١٠٠ .

على أية حال ، فقد سعى الجميع إلى بناء المساجد والإكثار منها ، حتى أن طغرلبك[١] كان يقول : استحي من الله أن أبني داراً ولا أبني بجنبها مسجداً "[٢] كذلك سعى الجميع إلى إلحاق خزائن الكتب بالمساجد لخدمة عملية الدرس والتحصيل بها . [٣]

أ ــ خزائن كتب مساجد مرو[٤] :

شهدت مدينة مرو العديد من المساجد التي اشتملت على خزائن كتب، شهد لها مؤرخنا ياقوت الحموي ، الذي كان له عناية خاصة وفائقة بجمع الكتب والبحث عنها[٥] ، خاصة وأنه أقام بمرو قرابة ثلاث سنوات ، وكان قد رحل عنها عام ٦١٦ هـ ، وهو ما أقره بنفسه[٦] ، وقد أتاحت له هذه السنوات الثلاث فرصة الإطلاع على كل ما فيها من خزائن للكتب ، وقد أحب ياقوت الحموي هذه البلاد ، وارتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، وكان من الأسباب الكامنة وراء ذلك ، كثرة ما فيها من كتب الأصول المتقنة ، والتي كانت تعج بها خزائن كتبها[٧] ، وقد أشار ياقوت إلى سعة الكتب التي كانت موجودة بمرو ، وإلى كثرة وجودها في الوقوف وسهولة تناولها[٨].

وكان ياقوت الحموي بعد ما ترك مرو هرباً من التتار ، قد بعث برسالة إلى القاضي ابن القفطي[٩] يصف له فيها كيف كان مقامه في مرو ، وكيف أفاد منها ، فقال :" ... وكان المقام بمرو الشاهجان المفسر عندهم بنفس السلطان ، فوجدت بها من كتب العلوم والآداب ، وصحائف أولي الأفهام والألباب ما تشغلني عن الأهل والوطن ، وأذهلني عن كل خل صفي وسكن وأشار إلى أنه ظفر منها " بضالته المنشودة ، وبغية نفسه المقصودة ، فأقبل عليها إقبال

---

(١) طغرلبك : يعتبر هو المؤسس الحقيقي لدولة الأتراك السلاجقة في إيران والعراق ، قامت على يديه دولة السلاجقة عام ٤٢٩ هـ، ت ٤٥٥ هـ، للمزيد من المعلومات انظر ابن الجوزي:المنتظم، ج ١٦، ص ص ٨٤، ٨٥. والبنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٢٦ . ، وانظر أيضا : الحسيني: زبدة التواريخ ص ٦٥ ، وانظر د/ محمد عبد العظيم ، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ، ط ١ ، عين للدراسات والبحوث ، ٢٠٠١م ،ص ٤٦ ، ص ٧٧

(٢) انظر البنداري : المصدر السابق ، ص ٢٦ ، والحسيني : المصدر السابق ، ص ٦٥ .

(٣) حول سعي الكثير من أهل العلم وغيرهم لبناء المساجد انظر على أصغر فقيهي : تاريخ جامع قم ، انتشارات إسماعيليان ، قم ، د .ت ، ص ١١٧ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ص ، ص١٢٤.

(٤) مرو : مدينة مرو من أشهر مدن خراسان ، وأقدمها ينسب إليها جماعة من العلماء ، انظر المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣١٠ ، والأصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٤٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٢٦ ، وانظر أيضا القزويني : آثار البلاد ، ص ص ٤٥١ ، ٤٥٦ . وأبو الفداء : تقويم البلدان ، ط باريس ، ١٨٦٠م ، ص ٤٤٦ .وتعرف الآن بماري وهي مدينة سوفيانية ، انظر المنجد : ط ١٦ ، ص ٥٢٨ .

(٥) حول عشق ياقوت للكتب وعمله في جمع الكتب وبيعها ، انظر ابن القفطي : أنباه الرواة ، ج ٤، ص ٨٠: ٨٥ ، وياقوت : معجم الأدباء ج ١٥ ص ١٨٨ ، وابن خلكان : المصدر السابق ج ٦ ص ١٢٧ : ١٣٩ .

(٦) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .

(٧) انظر المصدر نفسه ، ج ٥ ، ١٣٤ .

(٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥ .

(٩) هو جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف ابن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي ، وهو من بلدة قفط ، كان معاصراً لياقوت الحموي ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١٥ ، ص ١٨٨ ، وانظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٢٩ .

النهم الحريص ، وقابلها بمقام لا مزمع عنها ولا محيص ، فجعل يرتع في حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها ، ويتلذذ بمبسوطها ونتفها ، واعتقد المقام بذاك الجناب إلى أن يجاور التراب "[١] .

وقد أشاد ياقوت بعلومهم وعلمائهم فقال : "... قد اشتملت عليها المكارم ، وأرجحت في أرجائها الخيرات الفائضة للعالم ، فكم فيها من حبر راقت حبره ، ومن إمام توجت جباه الإسلام سيره ، آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبة ، فضائلهم في محاسن الدنيا والدين محسوبة ، وإلى كل قطر مجلوبة ، فما من متين علم وقويم رأي إلا ومن شرقهم مطلعه ، ولا من معربة فضل إلا وعندهم مغربة[٢].

وهكذا فقد لمس ياقوت الحموي بنفسه الثراء العلمي والثقافي بمور ، حتى أنه أضمر النية على البقاء بهذه البلاد ، لولا ما حدث من الهجوم التتاري عليها ، وفي هذا يقول : "... ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها ، لما فارقتها إلى الممات ، لما في أهلها من الرفد[٣] ولين الجانب ، وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف ، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان في الجامع أحداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني ، أو عتيق بن أبي بكر وكان فقاعياً[٤] للسلطان سنجر[٥] ، وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو ، ثم صار شرابياً له ، وكان ذا مكانة منه ، وكان فيها اثنا عشر مجلدا ، أو ما يقاربها والأخرى يقال لها الكمالية ، لا أدري إلى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته، ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤هـ وكان حنفي المذهب ، وخزانة نظام الملك الحسن بن إسحق في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة أخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين ، والخزائن الخاتونية في مدرستها ، والضميرية في خانكاه هناك ، وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد أو أكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار ، فكنت أرتع فيها ، وأقتبس من فوائدها مائتي دينار ،

---

(١) انظر: ابن القفطي : انباه الرواه ، ج ٤ ، ص ٩٣ وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٣٤ .
(٢) انظر: ابن القفطي المصدر نفسه ، وابن خلكان: المصدر نفسه ، ص ١٣٥ .
(٣) الرفد هو العطاء والصلة ، انظر المعجم الوجيز ص ٢٧٠ .
(٤) فقاعيا: هو المسئول عن شراب الملك ، والفقاع : هو الشراب يتخذ من الشعير أو من الأثمار ، سمي به لما يعلوه من الزبد / الفقاعي بائع الفقاع ، انظر المنجد : ص ٣٠ ص ٥٩٠ .
(٥) سنجر : هو أحد سلاطين السلاجقة ، وكان من أفضل آل سلجوق عقلا وعلما ، ومحبة لأهل العلم وإكراما لهم وكان من أعظم الملوك همة وعطاءا ، ولد ٤٧٩هـ ، ت ٥٥٢هـ . انظر: الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢٣٣ ، ٢٤٣ .

وأنساني حبها كل بلد ، وألهاني عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن" (١) .

وقد ذكر ياقوت أن بمرو جامعان للحنيفية والشافعية يجمعهما السور(٢) ، وذكر خزانتين في الجامع ، ولم يذكر في أي جامع ، هل هو جامع الحنفية ، أم الشافعية ، على أية حال فقد ذكر ياقوت إحدى الخزانتين وأشار إلى أنها تنسب إلى فقاعي السلطان سنجر، وهو عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني ، وأشار إلى أنه ذو مكانة عنده ، وإذا ما علمنا أن السلطان سنجر كان شافعي المذهب ، فإنا لا نستبعد أن تكون هذه الخزانة بجامع الشافعية ، وقد أشار ياقوت إلى محتويات هذه الخزانة ، فذكر أن بها أثنى عشر ألف مجلد ، وهو رقم هائل على خزانة ملحقة بأحد الجوامع ، وقد لوحظ على هذه الكتب أنها مجلدات مما يعكس لنا مدى العناية بالكتب وقد يكون من الطبيعي أن يوجد بمرو مثل هذه الخزانة ، خاصة وأن السلطان سنجر بن ملك شاه اختارها حاضرة لملكه ، وظل مقيماً بها إلى أن مات(٣) .

وخزانة الجامع الآخر التي أشار لها عرفت بالكمالية ، ولم يعلم ياقوت إلى من تنسب هذه الخزانة الكمالية ، ونحن نتوقع أنها تنسب إلى كمال الدولة أبو الرضي فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء ، خاصة وما ذكره صاحب دولة آل سلجوق من أنه كان من المؤيدين لنظام الملك(٤) .

ومما لاشك فيه أن ما عاينه ياقوت من كثرة كتب الأصول التي أوقفها أصحابها على الجوامع والمساجد في مرو ، كان له أثر إيجابي عليه ، إذ ظل يرتع في هذه العلوم والكتب ، ولم يكن يفارق منزله منها مائتا كتاب بدون رهن ، هذا مما يوحي بأن نظام إعارة الكتب برهن كان موجوداً ، إلا أنه لم يكن مطبقاً في مثل هذه الخزانة مراعاة لأهل العلم ، فأي تقدير للعلم وأهله أكثر من هذا ، ولعل هذا الأمر وهذا العدد الهائل يعكس لنا كثرة هائلة في الكتب وتعدد في نسخها ، كما يعكس لنا إلى أي مدى كان انتشار ظاهرة وقف الكتب .

ونحن لا نستبعد أن يكون ياقوت الحموي قد تأثر بذلك الأمر ، حتى أنه وقف كتبه على مسجد اليزيدي بدرب دينار ببغداد ، وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن بن الأثير صاحب التاريخ فحملها إلى هناك(٥) .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ١٣٤.
(٣) انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٤) انظر: البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٥٦ ، والطغراء علامة كانت ترسم على المناشير والمسكوكات السلطانية والعامة ، انظر المنجد : ط٣٠ ، ص ٤٦٦ ، وانظر د/ محمد عبد العظيم : السلاجقة ... ، ص ٣٧٣ .
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٣٧ ، ذكر ابن القفطي أنه وقفها على مشهد الزيدي ، انظر ابن القفطي : انباه الرواه ج ٤ ، ص ٨٤ .

على أية حال فقد شهدت مرو الكثير من المساجد منها جامع مرو الذي كان يعقد به مجالس الوعظ لعلي بن زيد البيهقي (١) ومسجد الكوسج(٢) الذي ذكر السمعاني(٣) أنه كان كثيراً ما يجلس فيه . وهو في طريقه لأحد العلماء ، ثم مسجد رأس سكنه بسكه أبي معاذ الذي كانت تعقد به مجالس الإملاء للفرغولي(٤) ، ومسجد الصاغة(٥) ومسجد أبي الحسن الطيسفوني(٦) وهو من رواة الحديث ، والمسجد العتيق الموجود على باب المدينة ، ومسجد بني ماهان وغيرها(٧) ، ونحن لا نستبعد أن بها الكثير من المساجد التي عجت بخزائن الكتب تمشياً مع روح العصر ، وطبيعة الحياة الثقافية والعلمية ، خاصة وما يتردد عن ثراء الحياة الثقافية وتنوع النشاط العلمي بمرو(٨) .

ب ــ خزائن كتب المساجد في نيسابور :

شهدت نيسابور أيضاً عدداً لا بأس به من المساجد التي كانت تمارس دورها كدور للعبادة والتعلم (٩)، فقد أشار السمعاني إلى أن أبا العباس محمد بن يعقوب (ت ٣٤٦ هــ) ، كان يملي بمسجده عشية كل يوم أثنين من أصوله ، وأشار إلى أن الطريق إلى المسجد كان يمتلئ من أوله إلى آخره حتى المسجد لسماع هذا الدرس(١٠) ، وكان ذلك في عام ٣٤٤هــ (١١) ، كما يذكر على بن زيد البيهقي أنه كان يعقد مجالس العلم في نيسابور يوم الجمعة بجامع نيسابور القديم

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١٣ ، ص ٢٢١ .
(٢) هو أبو يعقوب اسحاق بن منصور بن بهرام ، من أهل مرو توفى بنيسابور ٢٥١هـ ، انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ص ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ص١٠٧.
(٤) الفرغولي هو : أبو حفص عمر بن محمد الفرغولي ، نزيل مرو ، ولد بدهستان ونشأ بجرجان ، وتفقه بنيسابور وسكن مرو ، وكان أديباً فاضلاً متكلماً ، صحب الأئمة القشيرية ، وانتسب إليهم في التصوف ، وكان قد اشتغل بعلوم الأوائل ، ثم ترك ذلك ، ولد ٤٥٦هـ ، وت ٥٠٠ هـ . انظر السمعاني : الأنساب ج ٤ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .
(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣١ .
(٦) السمعاني :.المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٢ .
(٧) انظر الأصطخري : المسالك والممالك ، ص ١٤٧ .
(٨) شهدت مرو ثراء علمياً ثقافياً بدأ منذ دخول الخليفة المأمون مرو ، واصطحابه لمجموعة من العلماء والأدباء واللغويين ، وقد استمر هذا الثراء العلمي والثقافي حتى عصر ياقوت الحموي ، وللمزيد من التفاصيل حول الحياة الثقافية والنشاط العلمي بمرو ، أنظر مصطفي سيد سلطان : مدينة مرو ، تاريخها السياسي والحضاري منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر العباسي الأول ، ٣١ ـ ٢٣٢هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠٠م ، ص ٢٨٣ ، ص ٣٠٣ .
(٩) أشاد د.عبد الناصر إبراهيم بمساجد نيسابور وقال أنها كانت بمثابة الجامعات في العصر الحالي ، تؤدي عدة وظائف أخرى أهمها النشاط الثقافي ، ففي أروقتها حول أعمدتها تعقد حلقات الدرس والوعظ .. وللمزيد من المعلومات حول دور المساجد في إثراء الحياة العلمية والثقافية بنيسابور انظر عبد الناصر ابراهيم عبد الحكم : الحياة الثقافية والعلمية في نيسابور منذ بداية القرن الثالث حتى أوائل القرن الخامس الهجري ٢٠٥ : ٤٣٢هـ رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠م ص ص ٧٤ ـ ٧٩ ، وانظر المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٠٠ وما بعدها .
(١٠) السمعاني : الأنساب ، ج ١ ، ص ١٨٠ .
(١١) المصدر نفسه . ج١ ، ص ١٨٠ .

ويوم الأربعاء في مسجد المربعة بها ، ويوم الاثنين في مسجد الحاج ، وقد أشار إلى أنه كان يفد عليه أكابر الوزراء ورجال الدولة لحضور مجالس علمه هذه(١) ، كما كان أبو عثمان إسماعيل العصايدي (المولود ٤٦٥هـ) يحدث ويملي بجامع نيسابور(٢).

هكذا كانت مساجد نيسابور معقلاً للعلم والدرس ومنارة تشع علماً وفقهاً ، وقد وصف أبو بكر الخوارزمي مجالس العلم بنيسابور بأنها مجالس الأخيار ، والأمثلة على ذلك كثيرة مما لا يتسع المجال لذكره ، على أية حال فقد كان طبيعياً والحالة هذه أن نرى مساجد نيسابور وقد حوت خزائن كتب لخدمة العملية التعليمية التي تمارس بها ، وكان من أبرز وأهم هذه المساجد الجامع المنيعي ، ومسجد عقيل .

خزانة كتب الجامع المنيعي :

وينتسب جامع المنيعي إلى الرئيس الحاجي أبو على حسان بن سعيد بن حسان بن محمد ابن أحمد بن عبد الله بن محمد بن منيع بن خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي المنيعي ت ٤٦٣هـ(٣) ، وهو ينسب إلى جده الأعلى منيع من أهل مرو والروذ(٤) .

وقد كان أبو علي هذا حريصاً على رعاية العلماء وترتيب أمورهم(٥) ، كما كان حريصاً على بناء الجوامع والمساجد والرباطات والمدارس(٦) ، وكان من جملة هذه المساجد الجامع الكبير المليح بنيسابور(٧) وهو على ما يبدو الذي أشار إليه ياقوت الحموي بالجامع المنيعي(٨) .

وقد كان الجامع المنيعي شأنه شأن باقي جوامع ومساجد بلاد المشرق، منارة للعلم والتعليم ، فكانت تعقد به مجالس الإملاء والسماع والتحديث ، وقد ذكر بأنه عقد به مجلس الإملاء لأسعد ابن مسعود العتبي المولود ٤٠٤هـ ، حيث كان يحضر لسماعه المحدثون والأئمة(٩).

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن هذا الجامع كان معداً لإقامة العلماء إذا لزم الأمر ، فقد كان أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه يسكن الجامع المنيعي بنيسابور (١٠). وكما كان هذا الجامع معداً لسكنى العلماء ، فقد كان معداً أيضاً لتغذية عقولهم بأنواع العلوم والمعارف

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء : ج ١٣ ، ص ٢٢٤ .
(٢) السمعاني : الأنساب ج ٥ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٥١ ، وعن الجامع المنيعي انظر أيضا : أبو عبد الله الحاكم النيسابوري : تاريخ نيسابور ، إيران ، ١٣٧٥هـ ، ص ٢١٥ .
(٤) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .
(٥) المصدر نفسه، ج٥ ، ص٤٠٠ .
(٦) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٤٠٠ ، وياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٢٥١ .
(٧) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٠٠.
(٨) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٥١ .
(٩) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ص ٩٧ ، ٩٨ .
(١٠) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥ .

والآداب المختلفة ، حيث أشتمل ذلك الجامع على خزانة كتب بدليل ما ذكر من أن أبا المعالي محدود بن محمد بن محمود الرشيدي ، الذي عاش في أواخر القرن الخامس الهجري ، وبدايات القرن السادس الهجري وقف كتبه في الجامع المنيعي ، وقد احترقت جميعها في الخزانة التي بداخل الجامع أثناء فتنة الغز(1).

ولا ندري على وجه الدقة متى أنشئت خزانة الكتب هذه ، إلا إننا لا نستبعد أنها قامت مصاحبة لإنشاء وتعمير الجامع نفسه، وإذا ما علمنا أن منشئ الجامع توفي عام ٤٦٣هـ(2) ، فلاشك أنها أنشئت قبل هذا التاريخ ، وكانت على ما يبدو تحوي كتباً في علوم الفقه والحديث واللغة والآداب لخدمة مجالس العلم التي تعقد فيه . إلا أن من الأمور العجيبة ما يذكره السمعاني بصدد أبي المعالي محدود ، الذي وقف كتبه بخزانة الجامع ، ومن أنه كان قد نظر في كتب الأوائل ووقع في ضلالتهم ، فهل يعني ذلك بأن بعض كتبه التي تأثر فيها بكتب الأوائل وضعت في خزانة كتب الجامع ؟ !!

الواقع أن هذا الأمر لا يمكننا الجزم به خاصة وما وصفه به السمعاني من أنه كان شيخ فاضل عارفاً بالأدب واللغة .(3)

وإذا ما علمنا أن فتنة الغز التي احترقت فيها هذه الخزانة كانت عام ٥٤٩هـ (4) فإن هذا يعني أن هذه الخزانة ظلت قائمة تضطلع بدورها قرابة قرن من الزمان .

على أية حال فإنه ومن غير المستبعد أن خزانة كتب الجامع المنيعي كانت كبيرة وهائلة ، وقد دلنا على هذا الأمر أهمية ومكانة الجامع ذاته في نيسابور ، فقد كان يتولى الإمامة به في بعض الأوقات الإمام عبد الجبار مفتي نيسابور(5) .

خزانة كتب مسجد عقيل :

كان مسجد عقيل بنيسابور معقلاً للدرس والتعليم ، فقد كان الإمام أبو تراب عبد الباقي ابن يوسف التريزي (ت ٤٩١هـ) يتولى التدريس والإمامة بهذا المسجد(6)،كما كانت تعقد به مجالس الدرس والإملاء للحافظ عبد الغافر الفارسي (ت ٥٢٩هـ) يوم الأثنين من كل أسبوع(7) وكان أبو منصور عبد القاهر بن محمد البغدادي الفقيه الشافعي(ت ٤٢٩هـ) يجلس للإملاء في المسجد ذاته ، وظل يملي به سنين ، وكان قد صنف كتباً ومؤلفات في سبعة عشر فناً من

---

(1) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٦٩. وفيما يختص بفتنة الغز ، فسوف نعرض لها تفصيلاً في حينه .
(2) انظر: السمعاني المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ . وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٥١ .
(3) انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٦٩ .
(4) انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤ .
(5) انظر: ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٢١٦ .
(6) السمعاني: المصدر السابق، ج ٥ ، ص ٤٨٠. وياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .
(7) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

الفنون[١]، كما عقدت به أيضاً مجالس العلم والإملاء للعالم أبي إسحاق إبراهيم بن محمد ابن مهران الإسفراييني (ت ٤١٨هـ). وكان عالماً متبحراً في علوم العربية والفقه والكلام والأصول ، ومعرفة الكتاب والسنة[٢] ، كما كان أبو محمد الطوسي(ت ٥٤٩هـ) يجلس بمسجد عقيل للوعظ ، وقد فقد في وقعة الغز سنة ٥٤٩هـ[٣] .

وقد كان من الطبيعي ومجالس العلم هذه أن يشتمل مسجد عقيل على خزانة كتب تخدم عملية الدرس والتعليم داخل المسجد ، وقد ذكرها أبو الفدا[٤]في أحداث عام ٥٥٦هـ فقال :".. وفي هذه تقدم المؤيد آي آبه[٥] بإمساك أعيان نيسابور لأنهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين ، وكان من جملة ما خرب مسجد عقيل ، وكان مجمعاً لأهل العلم ، وكان فيه خزائن الكتب الموقوفة ، وخرب من مدارس الحنفية سبعة عشرة مدرسة ، وأحرق ونهب عدة من خزائن الكتب ... فلما كان الآن وخربت نيسابور، أمر المؤيد آي آبه إصلاح الشاذياخ،وسكنها هو والناس فخربت نيسابور كل الخراب ولم يبق بها أحد " .

وكما يبدو مما ذكر ، فقد كان بالمسجد أكثر من خزانة للكتب ، وكانت هذه الخزائن خزائن وقف ، وقفها ولاشك بعض أهل العلم من العلماء والأدباء والمحدثين والفقهاء ، كما أن هذه الخزائن تنوعت تبعاً لتنوع العلوم والآداب ومجالس العلم التي كانت تعقد بالمسجد ، ولا نعلم على وجه الدقة متى أنشئت هذه الخزائن ، وما هي الفترة التي ظلت تمارس فيها أنشطتها ، ولا نستبعد أن تكون هذه الخزائن قد أنشئت مصاحبة في ذلك نشأة المسجد ، ولكن إذا ما علمنا أن أبا الحسين المغازي المتوفي ٣٦٨هـ كان إماماً لمسجد عقيل ، وكذلك إذا علمنا أن المسجد وما به من خزائن قد خربت سنة ٥٥٦هـ ، فإن ذلك يعني أن المسجد وما به من خزائن كان قائماً لقرابة القرنين من الزمان ، وربما أكثر من ذلك بكثير ، لأن المسجد نسب إلى عقيل الخزاعي.

وقد أشار ابن فندق إلى خزانة كتب مسجد عقيل ، وإلي احتوائها على بعض المؤلفات والتي كان منها مؤلف للحاكم أبي عبد الله ، والذي سنعرض لشخصه تفصيلاً فيما بعد[٦] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .
(٢) انظر السمعاني : الأنساب ، ج ١ ، ص ١٤٤ .
(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤ .
(٤) المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٣٨ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
(٥) لمؤيد آي آبه هو : حاكم نيسابور ، ذكره ابن فندق وأشار إليه بلقب ملك المشرق ، ت ٥٦١هـ وقيل ٥٦٢هـ انظر ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٢٨٤ .
(٦) انظر ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٢١ .

على أية حال فقد شهدت نيسابور الكثير من المساجد التي لا نستبعد اشتمالها على خزائن للكتب تفاوتت من حيث الحجم والمحتوى ، وكان منها المسجد الجامع الذي كان به خزانة كتب احتوت على بعض صناديق الكتب والمصاحف[١] ، ومسجد يحيى بن صبيح المقري[٢] ومسجد نيسابور [٣] ومسجد الشوينزية[٤] ومسجد المربعة[٥] ، والمسجد الكبير المليح بنيسابور[٦] .

ج ـ خزائن كتب المساجد بأصبهان :

كانت جوامع ومساجد أصبهان شأنها شأن باقي مساجد بلدان المشرق الإسلامي ، منارة للعلم والدرس والتفقه،فقد أشار السمعاني إلى أنه قرأ بعض الفوائد في مجلس بجامع أصبهان[٧]، كما أشار إلى هذا الجامع في موضع آخر من مؤلفه الأنساب[٨]، وذكر ما يفيد أنه كان يعقد فيه مجالس للتحديث وتدارس بعض العلوم والمعارف ، ومجالس للأمالي[٩] كما أشار ياقوت إلى مجالس الأمالي بهذا الجامع .[١٠]

وقد كان طبيعي والحالة هذه أن تحوى جوامع ومساجد أصبهان خزائن للكتب منها : دار كتب تاج الملك بجامع أصبهان :

دار كتب تاج الملك بجامع أصفهان :

أشار إلى هذه الدار ياقوت الحموي في إطار ترجمته لعلي بن الحسن الباخرزي (ت ٤٦٧هـ) وفي هذا يقول : وباخرز من نواحي نيسابور ، ذكره العماد الكاتب في الخريدة فقال: وهو الذي صنف كتاب دمية القصر في شعراء العصر ، قال وطالعت هذا الكتاب بأصفهان في دار الكتب التي لتاج الملك بجامعها[١١] ، وبعثني ذلك على تأليف كتابي هذا (يعني كتابه الذي نقل هذا منه) سماه خريدة القصر في شعراء العصر[١٢] .

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٤٧٨ .و السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ١١٧، وحول خزانة الكتب انظر: أبو عبد الله حاكم نيشابوري : تاريخ نيشابور ، ص ٢١٨ .
(٢) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٥٨ .
(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٤٩ .
(٤) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .
(٥) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٩٤ .
(٦) هذا المسجد قد يظن البعض أنه هو نفسه الجامع الكبير المليح ، والذي سبق وأشرنا إليه ، إلا أنه غيره فقد أشار السمعاني للجامع المنيعي بقوله الجامع الكبير المليح ، أما هذا المسجد فينسب إلى أبي بكر محمد بن يحيى بن سهل النيسابوري المتوفي بعد سنة ٣٠٥هـ ، انظر السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٢١ .
(٧) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٤ .
(٨) انظر المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٢٦٦ ، ج ٤ ، ص ٨٦ .، ج ٥ ، ص ٦٥٣ .
(٩) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٦٢ .
(١٠) انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٣٣ .
(١١) ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٨ ، ص ٩ .
(١٢) المصدر نفسه : ج ١٣ ، ص ٣٤ .

ويتضح مما ذكره ياقوت أن العماد الأصبهاني قد طالع دار الكتب هذه ، وشاهدها بنفسه ، وشاهد فيها كتاب دمية القصر للباخرزي ، والذي كان سبباً في قيامه بتأليف كتابه خريدة القصر وعلى ما يبدو فإنها لم تكن مجرد خزانة كتب عادية ألحقت بالجامع ، بل كانت داراً للكتب ألحقت بالجامع ، مما يعكس لنا عظمها وكثرة محتوياتها .

وتاج الملك المشار إليه هو أبو الغنايم جمال الدين تاج الملك مرزبان بن خسرو فيروز الشيرازي(١) ، كان رجلاً فصيحاً ماهراً(٢) قصدته الشعراء بمرائحهم(٣) ، وكان له دوره في الحركة الثقافية والعلمية ، خاصة والمدرسة التي أنشأها اقتداءاً بنظام الملك(٤) .

دار كتب أبي العباس الضبي بجامع الخصيب بن مسلم :

وهذه الدار ذكرها المافروخي الأصبهاني، تحت عنوان وصف دار الكتب بجامع أصبهان(٥) والجامع المشار إليه قد يكون هو الجامع الكبير العتيق بخصيباباذ ــ الذي يشير المافروخي إلى أن الذي بنى أصله القديم بعض بطون العرب ، والتي يبدو لنا أنها استقرت بالمكان بعد الفتح الإسلامي للمنطقة ، وقد طرأت عليه عدة تطورات خاصة عندما أضيفت إلى البلدة عدة قرى ، وكان من تلك التطورات التي أشار إليها إضافة دار للجامع كانت ملكاً ليهودي اشتراها منه الخصيب بن مسلم(٦) ، وقد يكون الخصيب هذا هو الخصيب بن سلم الذي ذكره صاحب كتاب ذكر أصبهان ، وذكر أن اسمه الخصيب سلم ، وقد كان على خراج أصبهان عام ٢٢٥هـ (٧) .

وقيل أن الخصيب قد دفع لليهودي الكثير من الأموال ، رغم مغالاة اليهودي في ثمن هذه الدار ، وذلك من أجل التوسعة في حجم الجامع(٨)، كما قيل أن هذه الدار كانت بخصيباباذ فابتاعها على الوجه المذكور الخصيب(٩) .

---

(١) ولد تاج الملك في فارس عام ٤٣٨ من أب كان يشغل منصب الوزارة في عهود ملوك هذه الدولة ، ومن هذا الأب تعلم تاج الملك آداب الكتابة وصناعة الوزارة ، وكان تاج الملك قد التحق بخدمة السلطان ملكشاه ، ووكل إليه السلطان بعض اولاده ، وأودع بين يديه خزانته الخاصة وبيوته السلطانية ، فأصبح مشرفاً على شئون الملابس السلطانية ، كما كلفه بالاتصالات والمهام العسكرية ، وجعل له ديوان الإنشاء والطغراء وغيره من المهام ، ويقال أن تاج الملك تآمر على قتل الوزير نظام الملك ، وقد قتل تاج الملك وهو في السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد بنى مدرسة ورتب لها الشيوخ والعلماء أسوة بنظام الملك . للمزيد انظر : عباس اقبال : الوزارة في عهد السلاجقة ، تهران ، ١٣٣٨ ، ص ٧٨ ، ص ١١٥ ص ١١٦ . وخواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٥٧ ، ود.محمد عبد العظيم : السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري . ص ٢١١ : ٢١٥ .

(٢) عباس إقبال : المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٣) المرجع نفسه : ص ٧٨ .

(٤) انظر د . محمد عبد العظيم : المرجع السابق ، ص ٢١١ : ٢١٥ .

(٥) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨٤.

(٦) المصدر نفسه ص ٨٤.

(٧) أبو نعيم الأصبهاني : ذكر أخبار اصبهان ، ج ١ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، ببيروت ، لبنان ، ١٩٩٠م ص ٣٣٦ .

(٨) أشار أبو نعيم الأصبهاني ، صاحب كتاب ذكر أخبار اصبهان إلى عملية توسيع الجامع هذه وقال : فلما اتسعت اليهودية اجتمع الناس لتوسيع المسجد ، وزاد فيه واضاف إليه الخصيب بن مسلم الأرض المسماه بخصيباباذ . انظر ذكر أخبار أصبهان ج ١ ، ص ٣٧ .

(٩) المافروخي : محاسن أصبهان ص ٨٥ .

هذا وقد أسهب المافروخي في وصف هذا الجامع ، وفي وصف حلقات العلم التي كانت تعقد فيه ، فقال : " لا ينظم لإحدى الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل ، وتحت كل أسطوانة فيه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس أو رياضة نفس ، تزين بمناظرة الفقهاء ومطارحة العلماء ومجادلة المتكلمين ، ومناصحة الواعظين ، ومجاورة المتصوفين ، وإشارات العارفين ، وملازمة المعتكفين"[١].

وهكذا كان هذا الجامع مجتمعاً للفقهاء والعلماء والمتكلمين والوعاظ والمتصوفين والمعتكفين ، كما كان مجمعاً لحلقات الدرس ، والوعظ ، والمناظرة في فروع متعددة من فروع العلم ، ويعكس لنا كلام المافروخي عظم حجم الجامع خاصة وأنه ذكر أنه كان يجتمع به للصلاة ما لا يقل عن خمسة آلاف رجل .

وقد أشار المافروخي إلى أن هذا الجامع ألحقت به بعض الخانكات والخانات الواسعة العامرة التي وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء .[٢]

وقد كان طبيعياً والحالة هذه أن يلحق بالجامع دار للكتب لخدمة مجالس العلم وخدمة العلماء والفقهاء ، وذوي العلوم والآداب ممن يترددون على مجالس العلم المتعددة ، وكانت هذه هي دار الكتب التي أشار إليها المافروخي ، وأسهب في وصف محتوياتها ، فقال مشيراً للجامع :"... وبحذائه دار الكتب وحجـرها وخزائنها اللواتي قد بناهن الأستاذ الرئيس أبو العباس أحمد الضبي[٣] ، ونضد فيها من الكتب عيوناً ، وخلدها من العلوم فنوناً قد تخيرها على مر الأيام فضلاء سالف الأزمنة ، وأدباء غابر الآونة ، يشتمل فهرستها على ثلث[٤] مجلدات كبيرة من المصنفات في أسراء التفاسير وغرائب الأحاديث ومن المؤلفات في النحو واللغة والتصريف والأبنية ، ومن المدونات من غرر الأشعار ، وعيون الأخبار ، ومن الملتقطات من سنن الأنبياء والخلفاء وسير الملوك والأمراء والرياضيات والطبيعيات والآلهيات إلى غير ذلك مما يفتقر إليه طالب الفضل والمميز بين العلم والجهل" .[٥]

وكما يبدو فإن المافروخي يعطينا وصفاً جيداً لدار الكتب هذه ومحتوياتها نخرج منه بأمور منها:

---

(١) المافروخي : محاسن أصبهان، ص ٨٥ .
(٢) المصدر نفسه: ص ٨٥ ..
(٣) ابو العباس أحمد الضبي هو : أبو العباس الملقب بالكافي الأوحد الوزير بعد الصاحب بن عباد ، وزر لفخر الدولة أبي الحسن على بن ركن الدولة بن بويه ،(ت ٣٩٩)، وللمزيد انظر ابن الجوزي: المنتظم ج ١٥ ، ص ٦٢ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٢ ، ص ١٠٥ وما بعدها .
(٤) يقصد ثلاث .
(٥) المافروخي : المصدر السابق ص ٨٥ .

أولاً : أن الذي بنى هذه الدار الأستاذ أبو العباس أحمد الضبي الذي كان من أهل العلم أيضاً ، وقد كان وزيرا بعد ابن عباد ، ولاشك أنه انتهج منهج ابن عباد في إقامة خزائن ودور الكتب ، فكان متأثراً به في هذه الناحية .

ثانياً : لم تكن دار الكتب هذه مجرد خزانة كتب بالجامع ، بل كانت داراً قائمة بذاتها ألحقت بالجامع ، اشتملت على عدة حجرات وعدة خزائن مما يعكس لنا اتساعها ، ومن الأمور العجيبة في هذا أن أبا نعيم الأصبهاني لم يذكر هذه الدار على الرغم من اهتمامه بذكر أخبار مساجد أصبهان ووصف جوامعها ، هذا مما يرسخ لدينا الاعتقاد بأن هذه الدار كانت قائمة بذاتها ، هذا وإن كانت بحذاء الجامع لخدمته وخدمة حلقات الدرس به .

ثالثاً : كانت هذه الدار مفهرسة واشتملت فهرستها على ثلاثة مجلدات ، وهذا حجم مقبول من الفهارس .

رابعاً : اتسمت محتويات هذه الدار بالتنوع فاشتملت تقريباً على مصنفات في شتى فروع العلم والمعرفة ، سواء الدينية ، أو الدنيوية ، فكان بها مؤلفات في التفاسير والأحاديث والنحو واللغة والتصريف ، والتاريخ وسير الملوك وعلوم الأوائل كالمنطقيات والرياضيات والطبيعيات ، هذا مما يدحض الاعتقاد السائد لدى البعض بأن خزائن كتب المساجد إنما كانت لخدمة دروس العلم الديني فقط .

خامساً : يبدو لنا مما ذكره المافروخي أن هذه الدار لم تكن مخصصة لفئة معينة من أهل العلم والمعرفة ، بل كانت مفتوحة لكل طالب علم .

سادساً : يفهم أيضاً أن هذه الدار لم تكن مواكبة في إنشائها لبناء الجامع ، بل بناها أبو العباس الضبي ، بعد بناء الجامع بفترة ، إلا أن ذلك لا يعني افتقار الجامع قبل هذا التاريخ إلى خزانة كتب ، بل إننا نتوقع اشتمال الجامع على خزانة كتب ، إلا أنها كانت وفي غالب الأمر متواضعة مقارنة بالدار التي بناها أبو العباس الضبي .

الجدير بالذكر أن بعض المصادر أشارت إلى جامع أصبهان ، وإلى ما آل إليه هذا الجامع فقال ابن الجوزي[1] في أحداث عام ٥١٥هـ : "... ثم وصل الخبر من أصفهان ... بحريق جامع أصفهان ، وأن ذلك كان في الليلة السابعة والعشرين من ربيع الآخر ... وهذا جامع كبير أنفقت الأموال في العمارة له ، وكان فيه من المصاحف الثمينة نحو خمسمائة مصحف ، من جملتها مصحف ذكر أنه بخط أبي بن كعب "[2].

---

(١) المنتظم : ج ١٧ ، ص ١٩٤ .

(٢) انظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٧ ، ص ١٩٤ ، وأبي بن كعب هو : أبي بن قيس بن عبيد ، من الخزرج ، صحابي من الأنصار ، كان قبل الإسلام حبرا من أحبار اليهود ، مطلعا على الكتب القديمة ، يكتب ويقرأ ، ولما أسلم كان من كتاب الوحي، ت ٢١ هـ ، انظر الثعالبي: لطائف المعارف ص ٥٦، الزركلي: الأعلام ج ١، ص ٨٢

والخبر ذاته أشار إليه كل من ابن الأثير وابن كثير[1] ، ولم يذكر الأول شيئاً عن احتراق المصاحف ، ولا ندري على وجه الدقة ، هل هذا الجامع هو نفسه الجامع الذي أشتمل على دار كتب أبي العباس الضبي ، ودار كتب تاج الملك ، أم غيره ؟ .

على أية حال فإن ما يعنينا حقاً ، هو ما ذكر بصدد الخمسمائة نسخة من المصاحف ، فإذا كان هذا هو عدد ما احترق من المصاحف ، فما بالنا بباقي أنواع الكتب التي لم يرد ذكرها ، ثم إن وجود نسخة بخط أبي بن كعب يعكس لنا حرصاً على جمع كل ما هو نادر وفريد .

والجدير بالذكر أن أصبهان شهدت قيام الكثير من المساجد التي حوت ــ على ما يبدو لنا ــ خزائن كتب على غرار جامع أصبهان، ومن هذه المساجد مسجد خشينان الذي ذكر ابن رسته[2] أنه أول مسجد بني بأصبهان ، ومسجد محلة باذانه الموجود بقرب السوق ، ومسجد بفابزان[3] ومسجد أيوب بن زياد[4] ، ومسجد أبي بكر بن عبد الوهاب[5] ، ومسجد حفص بن معدان[6] ومسجد الفضل بن برغوث[7] ، وغير هذا الكثير[8] .

د ــ خزائن كتب المساجد ببخارى وخوارزم وغيرهما[9]:

شهدت مساجد بخارى أيضاً بعض خزائن الكتب الملحقة التي كان لها اعتبارها ، في خدمة عملية الدرس والتحصيل التي كانت تتم داخل هذه المساجد ، وندلل على هذا الأمر مما ذكره ابن العبرى[10] في إطار عرضه لدخول التتار بقيادة جنكيز خان إلى بخارى إذ يقول :"... وفي سنة سبع وعشرة وستمائة في أوائل المحرم نزل جنكيز خان في عساكره على مدينة بخارا وأحاط بها العساكر من جميع جوانبها ... ودخل هو وولده تولى إلى المدينة فوقف على باب المسجد

---

(١) انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٢١١ ، وابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ١٨٨ .
(٢) الأعلاق النفيسة ، ص ١٨٠ .
(٣) المصدر نفسه : ص ١٨٠.
(٤) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٥٦٤ .
(٥) أبو نعيم الأصبهاني : أخبار أصبهان ، ج ١ ، ص ١٩٠ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ٢٢٣ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٧١ .
(٨) انظر السمعاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ .
(٩) بخارى : هي إحدى كور إقليم ما وراء النهر ، وهي مدينة كثيرة العلماء ، كانت بها دار الإمارة لفترة من الزمن . انظر : الاصطخري : المسالك والممالك ص ١٧٠ ، والثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ١١٥ ، وهي الأن مدينة سوفياتية في أوزبكستان ، ومركز ثقافة إسلامي به مساجد وقصور من القرن الثالث الهجري ، انظر المنجد ، ص ١٦ ، ص ١١٥ ، وخوارزم اسم لإقليم ولمدينة داخل الإقليم ، والمدينة خصبة ، كثيرة الطعام والفواكه ، اهلها من أكثر الناس انتشاراً وسفراً ، وللمزيد انظر : الاصطخري : المصدر السابق ، ص ١٦٨ وما بعدها ، وهي اليوم جزء من جمهوريتي أوزبكستان وتركمانستان السوفياتيين ، انظر المنجد ، ص ١٦، ص ٢٣٤.
(١٠) تاريخ مختصر الدول : ص ٢٣٣ وما بعدها . والأنبار جمع أنابر وأنابير ، وهي بيت التاجر الذي تنضد فيه الغلال والمتاع ، وقيل أن الأنبار اسم مفرد معرب عن الفارسية ، انظر المنجد : ط ٣٠ ، ص ٧٨٥ .

الجامع ، وقال هذا دار السلطان فقالوا : لا بل خانه يزدان أي بيت الله ، فنزل ودخل الجامع وصعد إلى المنبر وقال لأكابر بخارا : " إن الصحراء خالية من العلف ، فأنتم اشبعوا الخيل مما عندكم في الأنبار ففتحوها وصاروا ينقلون ما فيها من الغلات ورموا ما في الصناديق من الكتب وجعلوها أوارى للخيل ".

ولعل هذه الإشارة إلى صناديق الكتب تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على احتواء المسجد الجامع في بخارى على خزانة للكتب . تقوم بخدمة مجالس العلم والدرس التي كانت تعقد بهذا الجامع .

وقد أشار السمعاني(١) إلى جامع بخارى ، وإلى مجالس العلم التي كانت تقام فيه ، وذلك في إطار الترجمة لإمام ذلك الجامع فأشار إلى أن أبا المحامد حماد بن إبراهيم إمام الجامع كانت تعقد له مجالس الإملاء في يوم الجمعة من كل أسبوع ، وقد عرف ذلك العالم بميله إلى الأدب والأصول ، وقد أطلع السمعاني على بعض مجالسه وأماليه .

أما فيما يتعلق بخوارزم ، فقد كانت خوارزم شأنها شأن باقي بلدان المشرق الإسلامي ، حيث كانت مساجدها وجوامعها تؤدي رسالة علمية سامية في نشر العلوم والمعارف والآداب ، من خلال مجالس العلم التي كانت تقوم بهذه المساجد والجوامع ، والتي كانت تقوم على خدمتها دور وخزائن الكتب الملحقة بهذه المساجد .

فقد ذكر كل من أبي الفداء وأبن الوردي(٢) ما يعكس لنا احتواء مساجد خوارزم على مصاحف كثيرة ، ولاشك أنها كانت تحوي إلى جانب المصاحف مؤلفات أخرى ، اختلفت حجماً ونوعاً من مسجد إلى آخر ، فقالا في إطار ذكر هجوم التتار على هذه النواحي :"... ونازلوا خوارزم وقاتلهم أهلها مدة أشد قتال وفتحوها .... " وكان لها سد في نهر جيحون ففتحوه وركب خوارزم الماء فغرقها وفعلوا في هذه البلاد جميعها من قتل أهلها وسبي ذراريهم، وقتل العلماء ، والصلحاء والزهاد وتخريب الجوامع ، وتحريق المصاحف ، ما لم يسمع بمثله في تاريخ قبل الإسلام ولا بعده "(٣) .

---

(١) الأنساب : ج ٣ ، ص ٥٤٨ .
(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر : ج ٣ ، ص ١٢٧ وما بعدها ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٤١ ، ص ١٤٦ ، أحداث عام ٦١٧ هـ.
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤١ ، ص ١٤٦ .

هذا وقد ذكر لنا النسوي خبراً عن إحدى خزائن كتب المساجد التي شهدتها خوارزم ، وذلك في إطار حديثه عن شهاب الدين الخيوقي[١] ذلك الفقيه المفتي العالم الذي كان أحد رجال السلطان جلال الدين منكبرتي[٢] والذي كان إليه التدريس في خمس مدارس من مدارس خوارزم[٣] فقال مشيراً إليه "... وقد بنى (شهاب الدين) بخوارزم في جامع الشافعية دار كتب لم ير قبلها ولا بعدها مثلها . فلما عزم على الخروج من خوارزم ، وقد أيس من العودة إليها ضن بتركها ، فاستصحب نفائسها ، ووقعت بعد مقتله بنسا في أيدي العوام والسوقة ، فكنت انتبعها واجمعها وظفرت بعدة نفائس منها إلى أن وقعت في تجاذب أيدي الغربة ، مشرق أرض مره مغرباً ، فخلفتها بما حويته من الموروث والمكتسب بالقلعة ولم أتحسر مما خلفت بها إلا على الكتب "[٤] .

ويبدو من النص أن دار الكتب التي بنيت في جامع الشافعية، كانت كبيرة هائلة خاصة وأنه قال لم ير قبلها ولا بعدها مثلها، ونحن لا نستبعد أنها حوت فنونا من العلوم والآداب والمعارف، ويبدو أيضاً أنها لم تكن مجرد خزانة كتب عادية، بل كانت دار عظيمة ألحقت بالمسجد .

ومن الأمور التي ينبغي ملاحظتها أن دار الكتب المذكورة كانت في جامع الشافعية ، مما لا يستبعد معه أن جل محتوياتها ، إنما كانت لخدمة الشافعية والمذهب الشافعي ، وقد يكون هذا الأمر معقولاً ومقبولاً خاصة إذا علمنا أن شهاب الدين الخيوقي مؤسس هذه الدار كان شافعي المذهب ، وكان متعصباً لأصحاب هذا المذهب "[٥] .

ويعكس لنا كلام النسوي أن هذه الدار حوت نفائس من الكتب والمؤلفات حتى أن الخيوقي ضن بتركها عندما فكر في مغادرة خوارزم ، فاستصحب نفائسها من الكتب إلا أنها وقعت على أثر إحدى المعارك التي شهدتها نسا[٦] في أيدي العوام فما كان من النسوي إلا أن تتبعها محاولاً جمع شتاتها للاستفادة منها .

---

(١) شهاب الدين الخيوقي : ولد في قرية خيوق وهي إحدى قرى خوارزم ، وكان نائب السلطان خوارزم شاه في جميع مملكته ، والقضاه والمدرسون والمفتون في جميع مملكة السلطان نوابه ، فإذا دخل مدينة كان المدرسون والقضاه والعلماء يحضرون درسه ، وكان شافعي المذهب ، متعصبا لأصحابه ، ومن عادته أنه إذا دخل مدينة ذهب إليه الفقهاء وقرأوا عليه محفوظهم وكان الشيخ يوليهم الأشغال من كان صالحا لها ، انظر : القزويني : آثار البلاد ، ص ٥٢٩ .

(٢) جلال الدين منكبرتي : هو سلطان خوارزم الذي شهد عصره هجمات التتار على بلدان المشرق ، وللمزيد انظر: النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٣ ، ص ١٢٠ ، وما بعدها .

(٣) النسوي : المصدر نفسه ص ١٠٩ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١١٠ وما بعدها .

(٥) انظر: القزويني : آثار البلاد ، وأخبار العباد ، ص ٥٢٩ .

(٦) نسا : هي مدينة بخراسان ، بينها وبين مرو خمسة أيام ، سميت بهذا الاسم لأن المسلمين عندما وردوا خراسان ودخلوا المدينة لم يجدوا بها سوى النساء ، وكان الرجال قد هربوا خارجها ، فقالوا : هؤلاء نساء النساء ، لا يقاتلن فنسي أمرها إلى أن يعود رجالها ، انظر: المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٢٠ . وانظر ياقوت الحموي معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٢٥ .

كذلك شهدت جوامع سمرقند [١]حلقات العلم والمناظرة التي دعمتها وعلى ما يبدو وجود خزائن ودور للكتب ألحقت بهذه المساجد ، ومن ذلك جامع سمرقند الذي شهد حلقات العلم والمناظرة[٢] ومسجد العطارين الذي درس به أبو محمد يوسف الأشروسني (ت ٥٢٧هـ)[٣].

ومن مساجد بلدان المشرق المعروفة المسجد الجامع العتيق بنسف ، والذي أنشأ عام ٢١٩ هـ[٤]، والمسجد العتيق برباط دهستان[٥] ، ومسجد أبي زرعة محمد بن عبد الوهاب الأنصاري الفقيه الحافظ بجرجان[٦] . ومسجد أبي عمران بن هانئ في محلة مسجد دينار[٧] ومسجد الأشعث بن هلال بجرجان ، والذي كان ملاصقاً لدرب رأس البال[٨]، ومسجد دينار[٩] ، وجامع استراباذ[١٠] .

ولم تكن مساجد الري بأقل من هذه المساجد خدمة للعملية التعليمية ، فقد كانت تعقد بجامع الري جلسات التحديث والأمالي ، ومن ذلك أن أبا الحسين محمد بن عبد الله القاسم النحوي كان يقعد في جامع الري ويحدث[١١] ، وكذلك كان المسجد الجامع في همذان بفطماباذ[١٢] .

كما كانت تعقد مجالس الأمالي بجامع بلخ[١٣] ، ومن المساجد المعروفة مسجد راعوم ببلخ[١٤] وعرف أيضاً عسقلان ببلخ وقد ذكر السمعاني أنه قرأ فيه الحديث على جماعة من أهل العلم[١٥] ومسجد الشوينزي[١٦] .

---

(١) سمرقند: هي من أشهر مدن ما وراء النهر، وهي من أزكى البلاد وأحسنها أشجارا وثمارا، أخرجت جماعة من أهل العلم وللمزيد انظر الأصطرخي : المسالك والممالك ، ص ١٦٥ - ١٨١ ، وهي الآن مدينة سوفياتية في أوزبكستان، بها آثار إسلامية وتعد مركزاً زراعياً، وتشتهر بالمصنوعات الحرفية.انظر: المنجد، ط ١٦ ص٣٠٨.
(٢) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٢٦٠ ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .
(٣) المصدر نفسه ج ٥ ، ص ٤٦١ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٦ .
(٥) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٦١ .
(٦) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ١٠ ، ص ٣٤٥ .
(٧) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٩١ .
(٨) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ١٢٥ .
(٩) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ١٧٨ .
(١٠) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٩٩ .
(١١) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٤٦٩
(١٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٦٣
(١٣) السمعاني : الأنساب : ج ٣ ، ص ١٣٣ .
(١٤) المصدر نفسه ج ١ ، ص ١٦٨ .
(١٥) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ١٩١ .
(١٦) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ١٦٠ .

ولم تكن قم وهي إحدى مدن بلدان المشرق بمعزل عن هذه الظاهرة ، فقد حوت العديد من المساجد والتي اشتملت على خزائن كتب اتسمت بالتنوع ، وكان منها مسجد أبي الفضل العراقي الذي أنشأ في عصر السلاجقة ، وقد حوى ذلك المسجد خزانة كتب كانت ممتلئة بالكتب[1].

هكذا لعبت المساجد دوراً هاماً في عالم الكتب والمكتبات ، خاصة والارتباط الوثيق بين المسجد وحلقات العلم التي كانت تعقد فيه ، ثم الارتباط الوثيق بين حلقات العلم هذه ، وخزائن الكتب التي ألحقت بالمساجد لخدمة هذه الحلقات وخدمة عملية الدرس والتحصيل داخل المسجد.

وقد لوحظ أن خزائن كتب المساجد لم تعن بفروع خاصة من العلم ، كالعلم الديني بحكم طبيعة المسجد ودواعي ظهوره ، بل اشتملت أيضاً على كتب في علوم اللغة وغيرها من العلوم الدنيوية ، كالطب والرياضيات والعلوم الحكمية كالمنطق والفلسفة وغيرها .

٢ ــ خزائن الكتب الملحقة بالمدارس في بلدان المشرق الإسلامي :

اشتملت مدارس بلدان المشرق الإسلامي (إيران ــ خراسان ــ وما وراء النهر) على مجموعة من خزائن الكتب خدمت العملية التعليمية والثقافية بهذه المدارس ، ودليلنا على ذلك ما ذكره ياقوت الحموي بصدد خزائن كتب الوقف التي عاينها بمرو ، والتي كانت سبباً في حبه وعشقه لتلك البلاد ، وكان منها خزائن كتب لبعض المدارس[2] .

ومن أبرز المدارس التي شهدتها بلدان المشرق الإسلامي كانت مجموعة المدارس النظامية التي تنسب إلى الوزير السلجوقي نظام الملك الحسن بن إسحاق .

وقد كان لابد لنا وقبل أن نعرض لخزائن كتب المدارس ببلدان المشرق الإسلامي ، أن نعرض ولو بشئ من الإيجاز إلى نشأة المدارس في بلدان المشرق الإسلامي ، خاصة إذا ما علمنا أن بلدان المشرق الإسلامي كانت من أولى مناطق العالم الإسلامي التي شهدت نشأة المدارس ، فقد ذكر المقريزي[3] أنها: " مما حدث في الإسلام ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية ، وبني أيضاً الأمير نصر ابن

---

(١) انظر: علي أصغر فقيهي : تاريخ جامع قم ، ص ١٢١ ، وما بعدها .
(٢) انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٣) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ، ٣١٢ .

سبكتكيس ـــ حاكم نيسابور ـــ في عام ٣٣٩هـــ /٩٩٩م(١) مدرسة ، وبني بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة ، وبني بها أيضا المدرسة السعدية ، وبنى بها مدرسة رابعة ، وأشهر ما بنى في القديم المدرسة النظامية ببغداد ، لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معالم ، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس الطوسي وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق في بغداد(٢) .

وهكذا فإن المقريزي يقر بأن نشأة المدارس إنما كانت بعد الأربعمائة من سنى الهجرة ، كما يقر بأن أهل نيسابور هم أول من بنوا مدرسة في الإسلام ، وذكر أنها المدرسة البيهقية ، كما ذكر عدة مدارس أخرى ، وقد يكون ذلك صحيحاً أن أهل نيسابور هم أول من بنى مدرسة في الإسلام .

إلا أن واقع الأمر يقر بأن بلاد المشرق الإسلامي شهدت قيام المدارس قبل الأربعمائة من الهجرة بعدة سنوات ، ومن ذلك مدرسة الأستاذ أبي الوليد (٣)بنيسابور ، والتي وردها ولازمها أبو على الحسن بن يحيى الواعظ الاسفنيقاني الشافعي عام ٣٤١هـــ (٤) ، هذا مما يعني أن المدرسة كانت قائمة قبل هذا التاريخ . كما شهدت نيسابور مدرسة تنسب إلى والد أبي عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي بكر بن أسحاق الصبغي الفقيه في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، إذ قال الحاكم أبو عبد الله الحافظ : كنا نجتمع عنده في مدرسة أبيه " ، وإذا ما علمنا أن الحاكم أبو عبد الله الحافظ ولد ٣٢١هـــ ، وأن الصبغي الفقيه المشار إليه توفي ٣٥٠هـــ أو ٣٥٥ هـــ فإن هذا يعني أن هذه المدرسة كانت قائمة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وقبل عام ٣٥٠هـــ(٥) كذلك شهدت بلدان المشرق قيام مدرسة أخرى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، ألا وهي مدرسة ابن حبان البستي(٦) فقد ذكر أبو عبد الله الحاكم أن داره أصبحت مدرسة لأصحابه .

هكذا شهدت بلدان المشرق الإسلامي قيام عدة مدارس في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، وقد لوحظ على مدرسة ابن حبان البستي وغيرها أنها كانت مشتملة على الأسس التي

---

(١) Gibb, Kramers: Shorter encyclopaedia of Islam, Leiden, london, 1953 – P 303

(٢) انظر المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

(٣) هو أبو الوليد القرشي الفقيه ، إمام أهل الحديث بخراسان في عصره ، كان من أزهد العلماء ، وأكثرهم تقشفا ولزوما لمدرسته وبيته ، ت ٣٤٩هـ . انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٤٧٠ .

(٤) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٤٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٢٢ .

(٦) أبو حاتم محمد بن حبان البستي : كان إماماً فاضلاً مكثراً من الحديث والرحلة الشيوخ ، عالماً بالمتون والأسانيد ، صنف الكثير من الكتب والمؤلفات ، حتى قيل أن من تأمل تصانيفه تأمل منصف عليم أن الرجل كان بحراً في العلوم ت ببست ٣٥٤ هـ ، للمزيد انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ص ٤٩٣ ، ٤٩٨ والذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٩٤ . وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

تقوم عليها أية مدرسة ، فقد كان فيها أماكن لإقامة الطلبة المتفقهين بما في الخزانة ، وكان بها خزانة كتب وكانت تمنح الطلبة والمتفقهين جرايات ، وقد ذكر د. أيمن فؤاد في إطار التعريف بالمدرسة بأنها " المكان الذي يتخذ لتلقي علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه ، وذلك لتمييزه عن حلقة المسجد ، وأن يكون ملحقاً به مكان لسكن المدرسين والطلاب ، مع وجود معاليم ، أي مرتبات وجرايات دارة عليهم ، لمن يقوم بالتدريس فيها ، وبذلك تكون وظيفتها الرئيسية مستمدة من كونها أعدت لسكنى الطلاب والشيوخ والفقهاء لا من قاعات التدريس والمدرسين ."[1]

هذا وقد لوحظ على مدرسة ابن حبان البستي هذه أمران أولهما : أنها كانت معدة لسكنى الطلبة والفقهاء ، وكذلك كانت مدرسة أبي الوليد التي أشرنا إليها ، وثانيهما : أنها حوت خزانة كتب لخدمة الطلبة والفقهاء المقيمين بالمدرسة والمترددين عليها[2] .

أ ـ خزانة كتب مدرسة ابن حبان البستي :

كانت مدرسة ابن حبان البستي من أولى المدارس التي شهدتها بلدان المشرق كما سبق وأشرنا ، وقد حوت هذه المدرسة خزانة كتب لخدمة عملية الدرس والتحصيل داخل المدرسة ، فقد نقل عن أبي عبد الله الحاكم أنه قال :" أبو حاتم بن حبان داره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة ، ولهم جرايات يستنفقونها داره ، وفيها خزانة كتبه في يدي وصي يسلمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شئ منها في الصفة من غير أن يخرجه منها ، شكر الله له عنايته في تصنيفها وأحسن مثوبته على جميل نيته في أمرها بفضله ورأفته "[3] .

وكما يبدو من النص فقد اشتملت مدرسة ابن حبان البستي على خزانة كتب لوحظ عليها عدة أمور :

أولاً : أن هذه الخزانة كان بها من يقوم على أمرها ، وهو من أشير إليه بالوصي ، ولا يستبعد أن يكون ذلك الوصي هو ما يعرف بخازن الكتب ، خاصة وأن بالنص إشارة إلى طبيعة المهام التي يقوم بها ، والتي منها بذل الكتب وإعطائها لمن يريد نسخها .

---

(١) د . أيمن فؤاد سيد / بحث بعنوان المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ، ضمن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ، ص ٩٩ .

(٢) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٩ .

(٣) ياقوت الحموي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٧٩ .

ثانياً : لوحظ على هذه الخزانة أنها لم تتح خدمة الاستعارة الخارجية للكتب ، بل إن مسألة الإطلاع على الكتب والمؤلفات لم تكن لتتم إلا داخل هذه الخزانة ، ولا ندري على وجه الدقة طبيعة الأسباب التي دفعت بهم لذلك ، اللهم إلا المبالغة في الحرص على الكتب والمؤلفات ، وضمان لأكبر قدر من الإفادة من هذه الكتب ، خاصة لهؤلاء الذين يقيمون بالمدرسة .

ثالثاً : أتيحت خدمة النسخ لراغبيه من المترددين على خزانة الكتب ، ولا يستبعد أن الوصي القائم على هذه الخزانة كان يقوم بتوفير الورق والأدوات اللازمة لذلك الأمر ، هذا في ضوء ما أشير إليه من وجود مرتبات وجرايات للقائمين في هذه المدرسة من أهل الحديث والفقهاء .

رابعاً : كان بالخزانة مكان محدد للمترددين وراغبي النسخ ، فكانوا يمارسون نسخ الكتب في الصفة ، وقد سبق وأشرنا إلى معنى الصفة من قبل ....

خامساً : لوحظ أيضاً أن مدرسة ابن حبان بصفة عامة ، وخزانة كتبه على وجه الخصوص ، كانت وقفاً ، فقد أشير إلى أن ابن حبان سبّل كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها[١]

سادسا: لوحظ أيضاً أن خزانة الكتب كانت مصنفة لتسهيل الحصول على الكتب والمؤلفات ، ويبدو أن المدرسة وبها خزانة الكتب ظلت قائمة لأكثر من قرن من الزمان ، فقد ذكر عن أبي بكر الخطيب[٢] ، ــ وكان قد حاول حصر كتب ومؤلفات بن حبان ــ أنه قال : سألت مسعود بن ناصر يعني السجزي[٣] : أكل هذه الكتب موجودة عندكم ومقدور عليها ببلادكم ؟ فقال : إنما يوجد منها الشئ اليسير والنزر الحقير قال : وقد كان أبو حاتم بن حبان سبل كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها .

ومن المعروف أن أبا بكر الخطيب توفي عام٤٦٣هــ هذا مما يعني أنها ظلت قائمة قرابة القرن من الزمان[٤] .

وعلى ما يبدو أيضاً أن المدرسة وبها الخزانة كانت قائمة في مدينة بست ، وذلك استناداً إلى ذكر من أن أبا حاتم ت في شوال ٣٥٤هــ ، وبأنه دفن في الصفة التي ابتناها بمدينة بست

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ؛ ج ١ ، ص ٤٩٦ .
(٢) أبو بكر الخطيب : المقصود هو أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادي ، صاحب تاريخ بغداد ت ٤٦٣هـ .
(٣) مسعود بن ناصر السجزي ؛ هو أحد العلماء المعاصرين للخطيب البغدادي ، وقد ترجم له ابن كثير وأشار على أنه كان أحد الحفاظ ، رحل في سبيل الحديث ، وجمع الكتب النفيسة ، وكان صحيح الخط . انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٢٧ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان , ج ١ , ص ٤٩٦ .

بقرب داره[١] ولا يستبعد أن تكون الصفة المشار إليها هي تلك الصفة التي أتيح للمترددين على خزانة الكتب الجلوس فيها لنسخ الكتب .

ومن الجدير بالذكر أن د/ عبد الناصر إبراهيم عبد الحكيم أشار إلى أن مدرسة ابن حبان البستي كانت في نيسابور ، وذكر أن المكتبة ألحقت بدار العلم ، وذلك استناداً إلى ما ذكره المستشرق آدم متز في مؤلفه . وهو ما لم نجد الدليل عليه في مصادرنا[٢] ، فالثابت لدينا أن مدرسة ابن حبان البستي كانت في مدينة بست .

وحول طبيعة خزانة الكتب هذه ، فإننا نتوقع اشتمالها على الكثير والكثير من كتب الفقه والحديث على وجه الخصوص استناداً إلى ما يقال عنه من أنه كان " مكثراً من الحديث والرحلة والشيوخ ، عالماً بالمتون والأسانيد ، أخرج من الحديث ما عجز عنه غيره[٣] ، ومن أنه خرج له من التصنيف في الحديث ما لم يسبق إليه[٤] .

ولا يستبعد أن خزانة كتب مدرسة ابن حبان حوت مؤلفات في فروع متعددة من العلم ، استناداً لما ذكره الذهبي من أن ابن حبان " كان من أوعية العلم في الحديث والفقه واللغة والوعظ وغير ذلك حتى الطب والنجوم والكلام "[٥] .

ب ــ خزائن كتب مدارس مرو :

شهدت مرو العديد من المدارس ، التي تعددت وتنوعت تبعاً لطبيعة الدراسة التي تمارس بداخلها ، وطبيعة الدارسين وقد أقر المقدسي[٦] أن بمرو " مدارس لكل دارس وطيفة ". وقد كانت خزائن كتب مدارس مرو من أبرز وأهم خزائن الكتب التي شهدتها بلدان المشرق الإسلامي ، فقد أشار ياقوت الحموي[٧] إلى أن خزائن كتب مرو كانت من دواعي حبه وعشقه لهذه البلاد ، خاصة وأن الكتب التي حوتها هذه الخزائن كانت من كتب الأصول التي حرص على اقتنائها كل ذي علم ، وقد أقر صراحة أنه فارق هذه البلاد ، وبها عشر خزائن للوقف ، لم ير في الدنيا مثلها كثرة وجودة[٨] .

---

(١) المصدر السابق : معجم البلدان ؛ ج ١ ، ص ٤٩٨ .
(٢) انظر عبد الناصر إبراهيم : الحياة الثقافية والعلمية في نيسابور ، ص ٨٨ .
(٣) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩٣ .
(٤) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٤٩٥ .
(٥) الذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٩٤ .
(٦) انظر المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣١٠
(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ . وقد أشار ياقوت لإثراء الحياة العلمية في مرو ، وللمزيد انظر ابن القفطي : أنباه الرواة ، ج ٤ ، ص ٩٣ ، وابن خلكان : الأعيان ج ٦ ، ص ١٣٤ .
(٨) ياقوت الحموي ، المصدر السابق : ج ٥ ، ص ١٣٤ .

ومن أبرز خزائن كتب المدارس التي شهدتها مرو ، خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته ، وخزانة نظام الملك الحسن بن إسحاق في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة أخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين ، والخزائن الخاتونية في مدرستها[١] .

وأول خزانة تطالعنا هي خزانة شرف الملك المستوفي في مدرسته ، وشرف الملك هذا هو محمد بن منصور أبو سعد المستوفي ، لقب بشرف الملك ، وكان جليل القدر كان مستوفياً[٢] في ديوان السلطان ملكشاه[٣] ، وتشير مصادرنا إلى أن شرف الملك هذا بنى مدرسة بمرو ووقف فيها كتباً اتسمت بالكثرة[٤] والنفاسة [٥].

كما تشير المصادر إلى أنه كان متعصباً لمذهب أبي حنيفة ولأصحابه[٦] حتى أنه بنى لهم مدرسة كبيرة بباب الطاق ببغداد ، وبني مشهداً وقبه على قبر أبي حنيفة[٧] ويشير ابن الأثير[٨] إلى أن مدرسته ببغداد والمشهد والمدرسة التي بنيت بمرو كانت جميعها للحنفيين ، ولا نعلم على وجه الدقة متى أنشأ شرف الملك المستوفي مدرسة مرو وخزانة كتبها ، لكن إذا ما علمنا أن المدرسة التي أنشأها في بغداد أنشئت عام ٤٥٩هـ[٩] ، فلاشك أن مدرسة مرو أيضاً أنشئت قريباً من هذا التاريخ ، وإذا ما علمنا أن ياقوت الحموي غادر مرو عام ٦١٦هـ فهذا يعني أن المدرسة وخزانة كتبها ظلت قائمة تضطلع بدورها لأكثر من قرن ونصف من الزمان .

ولما كانت المدرسة قد أنشئت لأصحاب أبي حنيفة ، ولدراسة المذهب الحنفي فلاشك أن خزانة كتبها كانت في أغلبها تخدم هذه الدراسة وتدعمها . وقد لوحظ على هذه الكتب أنها كانت وقفاً ، وهو ما سنعرض له في حينه .

---

(١) انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ؛ ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٢) انظر ابن الأثير : الكامل ... ، ج ٩ ، ص ٤٤ . والمستوفي : هو صاحب ديوان الاستيفاء ، وكان إليه النظر في الأمور المالية ، والإشراف على حسابات الدولة وتدقيقها ، وتلي منزلته منزلة الوزير السلجوقي ، وللمزيد من المعلومات حول هذا المنصب انظر د . محمد عبد العظيم : السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ، ص ٢٧٢ .
(٣) ملكشاه : هو جلال الدين والدولة أبو الفتح ملكشاه أحد سلاطين السلاجقة ، ت ٤٨٥ هـ ، امتدت سلطنته من أقصى بلاد الترك إلى أقصى بلاد اليمن ، وامتدت فترة ملكه تسع عشرة سنة وأشهر ، وللمزيد انظر البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٤٦ وما بعدها ، الحسيني : زبدة التواريخ : ص ، وابن الأثير : الكامل .. ، ج ١٢ ، ص ١٤٢ وما بعدها .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٦١ .
(٥) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٧ ، ص ٧٢ .
(٦) انظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٧ ، ص ٧٢ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٦١ .
(٧) ابن الجوزي : المصدر السابق : ج ١٦ ، ص ١٠٠ ، ج ١٧ ، ص ٧٢ . ابن الأثير: الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٤ ، وابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ١٦١ . البنداري : دولة آل سلجوق : ص ٣١ ، ص ٣٢ .
(٨) الكامل ... ، ج ٩ ، ص ٤٤ .
(٩) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١٦ ، ص ١٠٠ . ابن الكثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٩٥ .

والجدير بالملاحظة أن شرف الملك هذا كان معاصراً لنظام الملك الذي قام ببناء مجموعة من المدارس في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، عرفت بالنظاميات ولاشك أن شرف الملك كان مقتدياً به في بناء مدارسه هذه ، وإلحاق خزائن الكتب بها .

فقد ذكر البنداري[١] أن نظام الملك كان مؤيداً بقرينين مؤيدين لدولته أمينين هما كمال الدولة أبو الرضي فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء ، وكلاهما صاحب الرأي والتدبير والجاه والمال والدهاء ومعدن الفضل والعطاء .

شهدت مرو أيضاً خزانتي كتب للسمعانيين[٢] لاشك أنهما كانتا في مدرسة السمعانيين، والتي أشار إليها السمعاني في أكثر من موضع من مؤلفه الأنساب[٣] ، إذ يتضح من خلال مطالعتنا لكتاب الأنساب للسمعاني أن مدرسة السمعانيين هذه كانت معقلاً لحلقات الوعظ والمناظرة والأمالي، ولاشك أن خزانتي الكتب المشار إليهما كانتا تخدمان هذه الأنشطة العلمية ، والثقافية التي شهدتها هذه المدارس .

هذا وتشير المصادر إلى أن محمد بن منصور النسوي القسري (ت ٤٩٤هـ) المعروف بعميد خراسان بني مدرسة وقفها على أبي بكر بن أبي المظفر السمعاني وأولاده[٤] وقد أشار ابن الجوزي[٥] إلى أنهم يتولونها حتى عهده ولا يستبعد أن تكون هذه هي مدرسة السمعانيين المشار إليها ، أو أنها إحدي مدارسهم ، خاصة وأن السمعاني أشار إلى أحدى المدارس فقال : أن أبا السعادات الرسولي (ت ٥٤٤هـ) " .. كان يسكن مدرستنا المنسوبة إلى الأمير أبي نصر بن أبي الخير رحمه الله "[٦] مما يوحي بوجود أكثر من مدرسة للسمعانيين .

أشار ياقوت الحموي[٧] أيضاً إلى وجود خزانة كتب أفاد منها في المدرسة العميدية ، وقد ذكر هذه المدرسة السمعاني ، وذكر ما يفيد أنها كانت تشهد بعض الأنشطة الثقافية والتعليمية كالمناظرة[٨] ولاشك أن خزانة الكتب التي أشار إليها ياقوت والملحقة بالمدرسة كانت تخدم هذه الأنشطة . ولا نعلم على وجه الدقة إلى من تنسب المدرسة العميدية المذكورة ، إلا إننا نتوقع انتسابها إلى عميد الملك الكندري الوزير .

---

(١) دولة آل سلجوق ، ص ٥٦ .
(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان : ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٣) انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، وج ٣ ، ص ٢٨١ ، وج ٥ ، ص ٣٢٨ .
(٤) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٧ ، ص ٧٢ ، ص ٧٣ . وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٦١ وللمزيد من المعلومات عن محمد بن منصور النسوي انظر الحسيني : زبدة التواريخ ص ٨٣ وما بعدها .
(٥) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١٧ ، ص ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٦) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٦٥ .
(٧) معجم البلدان : ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٨) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٦٦٤ .

أو من المحتمل أنها تنسب إلى محمد بن منصور النسوي الذي سبق وأشرنا إلى أنه عرف بعميد خراسان ، خاصة وما ذكر عنه من أنه بنى مدرسة للسمعانيين .

شهدت مرو أيضاً خزانة كتب مجد الملك ، والذي ذكره ياقوت الحموي ، وأشار إلى أنه أحد الوزراء المتأخرين[١] . وشهدت أيضاً خزانة كتب المدرسة الخاتونية ، ومن المحتمل أنها إنما تنسب إلى تركات خاتون[٢] زوجة السلطان ملكشاه ، والتي تآمرت مع تاج الملك للتخلص من نظام الملك .

والجدير بالذكر أن مرو شهدت العديد من المدارس التي تباري أهل الحكم والعلماء في إنشائها ، فكان منها المدرسة الحورانية[٣] ومدرسة الكمال بمرو الروز[٤] .

شهدت مدارس مرو أيضاً خزانة من أهم خزائن الكتب ، ألا وهي خزانة كتب نظامية مرو والتي كانت تنسب إلى نظام الملك . ونظام الملك هذا ظاهرة تاريخية ثقافية جديرة بالتوقف أمامها خاصة وارتباط اسمه بمجموعة المدارس النظامية التي اشتملت على خزائن كتب كان لها اعتبارها .

ج ــ خزائن كتب المدارس النظامية :

شهد القرن الخامس الهجري بزوغ مجموعة من المدارس عرفت بالمدارس النظامية ، لعبت دوراً هاماً في إثراء الحياة العلمية والثقافية في بلدان المشرق الإسلامي ، ويرجع الفضل في إنشاء هذه المجموعة من المدارس إلى الوزير نظام الملك .

ونظام الملك هذا من أبرز وأهم وزراء[٥] الدولة السلجوقية[٦] ، كان له اهتمام خاص بالعلم وأهله ، وفي هذا يقول خواندمير[٧] : " ... كان يقضي وقته في ملازمة العلماء وأهل الدرس والفتوى ، وفي تحصيل العلوم وكسب الفضائل ، إلى أن أصبح بعد فترة قصيرة إماما لفضلاء عصره ، وأبدى مهارة فائقة في فقه الإمام الشافعي " .

---

(١) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ ، ومن الجدير بالذكر ان خواندمير اشار إلى مجد الملك المذكور وهو في الغالب أحد أبناء نظام الملك الوزير - بأنه كان يتولى ديوان الاستيفاء للسلطان بركيارق وكان يتحكم في جميع أمور الولايات ، حتى أغلق أبواب المنفعة أمام الأمراء وكبار رجال الدولة ، فسعوا إلى قتله انظر خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٦٨ وما بعدها .

(٢) عنها انظر :خواندمير : دستور الوزراء ، ص ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٣) انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٤) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٤٠١ .

(٥) احتل نظام الملك كوزير مكانة خاصة حتى عرف بسيد الوزراء ، انظر ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٧٣ وما بعدها .

(٦) الدولة السلجوقية : تنسب إلى سلجوق بن دقماق ، هم بطن من بطون قبائل الغز - التركمان ، هاجروا إلى العالم الإسلامي ، واعتنقوا الإسلام ، وقامت دولتهم بشكل رسمي منذ عام ٤٢٩ تحت زعامة طغرلبك على أثر انتصارهم على السلطان مسعود الغزنوي في معركة سرخس ٤٢٩ هـ ، وللمزيد من المعلومات انظر ابو الفضل البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٦٦٣ . وانظر ايضا البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٥ - ٨ . وانظر ايضا الحسيني : زبدة التواريخ ص ٢٤ .

(٧) دستور الوزراء ، ص ٢٤٥ .

هذا وقد أقر كثير من المؤرخين بشغف نظام الملك بالعلم وأهله ، فذكر البنداري[١] أن : " ... بابه كان مجمع الفضلاء وملجأ العلماء " وأشار إلى أنه " كان نافذاً بصيراً ، ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته ، وخبرته ومعرفته ، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه، " ومن رآه مستحقاً لرفع قدره ، رفعه وأعلاه ، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره ، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى عاطله ويحيى به حقه ، ويميت باطله"[٢] .

وقد كان لشدة إجلاله لأهل العلم ، يقف لاستقبالهم ، ويجلسهم في مجلسه[٣] ، كما كان كثير الإنفاق على أهل العلم ، فجعل لهم رواتباً ورسوماً دائمة متصلة ، وفي هذا يقول البنداري: " ... لما وفر الأموال على الخزانة والعسكر جعل فيها لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق ، حقوقاً لا تؤخر ورسوماً لا تغير وصير إحسان السلطان بين أهل العلم ميراثاً يأخذونه بقدر الفرائض"[٤]، ويذكر الحسيني[٥] أنه : كان ينفق على الفقهاء والصوفية والقراء ثلاثمائة ألف دينار في كل سنة " كما كان يقضي الساعات الطوال مستغرقاً بين رجال الصوفية " ، وهذا أمر أقره أكثر من واحد من مؤرخينا ، فقد ذكر خواندمير[٦] : "... أنه كان يقضي الساعات الطوال وأوقاته السعيدة مستغرقاً بين رجال الصوفية والعباد وأقام الكثير من مؤسسات البر والخير في بغداد وأصفهان وسائر أقطار أطراف البلاد ، وأوقف على هذه المؤسسات الخيرية مزارع وضياعاً عامرة وأسواقاً ومستلزمات نافعة".

ومن الجدير بالذكر أن مؤسسات الخير التي أقامها نظام الملك ، خاصة المدارس ـــ امتدت إلى كل من هراة وبغداد والبصرة وأصفهان وبلاد العرب ، وبلاد الروم[٧] ومرو[٨] . وقد قيل

---

(١) دولة آل سلجوق : ص ٥٤ وما بعدها .
(٢) البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٥٤ وما بعدها .
(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٣ .
(٤) البنداري : المصدر السابق ، ص ٥٦ .
(٥) زبدة التواريخ ، ص ١٤١ ، كان إنفاق نظام الملك على أهل العلم والعلماء من الأمور التي استغلها تاج الملك للوشاية به عند السلطان ، فقال له أنه ينفق في كل سنة على الفقهاء والصوفية والقراء ثلاثمائة ألف دينار ، ولو جيش بها جيش لطعن باب القسطنطينية ، وأحضر السلطان نظام الملك الوزير ، فقال له نظام الملك : ياسلطان العالم ، ... إني رجل شيخ لو نودي علي لما زادت قيمتي على ثلاثة دنانير ، وأنت حدث لو نودي عليك لما زادت قيمتك عن مائة دينار ، وقد اعطاك الله واعطاني بكم ما لم يعط أحد ، أفلا تعوضه من ذلك في حمله دينه وحفظه كتابه العزيز بثلثمائة ألف دينار ، إنك تنفق على الجيوش المحاربة في كل سنة أضعاف هذا المال ، مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً ، ولا يضرب سيفه إلا ما قرب منه ، وأنا أجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من دعائهم سهام إلى العرش لا يحجبها شئ عن الله ، فبكي السلطان وقال له : استكثر من هذا الجيش والأموال مبذولة لك : انظر الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ص ١٤١ ـ ١٤٢ .
(٦) دستور الوزراء ، ص ٢٤٨ .
(٧) المصدر نفسه : ص ٢٥٢ .
(٨) انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .

أنه لم تخل مدينة من مدن الإسلام إلا وزينت بآثار وأبنية نظام الملك(١)، وقد أشار أبو شامة(٢) إلى أن مدارسه في العالم مشهورة ، لم تخل بلد من شئ منها " .

على أية حال فإن أهم ما يعنينا هو ما قام به نظام الملك من بناء المدارس التي عرفت بالنظاميات، وإلحاق دور وخزائن الكتب بها، وهذا ما أقره البنداري إذ قال مشيراً إليه: ".. ومن وجد في بلده قد تميز وتبحر في العلم، بنى له مدرسة وقف عليها وقفاً وجعل فيها دار كتب "(٣).

ويشير د/ إبراهيم على البهي إلى أن نظام الملك " ضم مكتبات المساجد إلى المدارس وزودها بكافة أنواع الكتب "(٤) ، وهو ما لم نجد الدليل عليه ــ فيما أطلعنا عليه من مصادر ــ فقد ظلت مكتبات المساجد تعمل جنباً إلى جنب مع مكتبات المدارس ، ولعله يقصد أنه ألحق المكتبات بالمدارس إقتداء بمكتبات المساجد .

ولدينا نموذج لأحدى المدارس النظامية ، التي أفاض المؤرخون في دراستها ، ألا وهي نظامية بغداد ، والتي بدأ العمل في إنشائها منذ عام ٤٥٧هــ ، وظل العمل قائماً بها قرابة العامين(٥)وقد كانت نظامية بغداد هذه كما يبدو لنا نموذجاً احتذاه نظام الملك في سائر النظاميات ولوحظ على هذه المدرسة أموراً منها :

أولاً : أنها كانت معدة ومهيأة لسكنى الطلاب والعلماء الذين يعملون بها ، شأنها في ذلك شأن جل المدارس التي شدتها هذه الآونة ، فقال خواندمير مشيراً إليها: " ... وقد سكن تلك المدرسة الكثير من كبار العلماء ، وقاموا بالتدريس بها والتعليم ، أمثال حجة الإسلام الإمام الغزالي(٦) ، والإمام أبو إسحاق الشيرازي(٧) ، وقد كان ذلك شأن باقي النظاميات

---

(١) انظر عبد الحسين نوائي : فرمان تدريس نظامية نيسابور ، باسم محي الدين محمد بن يحيى النيسابوري ، مجلة يادكار ١٩٤٥ ، صفر ـ ربيع أول ، ١٣٦٤ هـ شمسي ، ص ٤١ .

(٢) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٢٥ .

(٣) انظر البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٥٤ . ومما يذكر في هذا أنه بنى مدرسة للإمام الشهير فخر الإسلام عبد الواحد بن إسماعيل في آمل . انظر ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان . المجلس الأعلى للثقافة ط ١ ، ٢٠٠٢م ص ١٣٣ .

(٤) انظر إبراهيم على البهي على : التطورات الحضارية في خراسان في العصر السلجوقي الثاني ٤٨٥ هـ : ٥٩٠ هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، بنها ، ١٩٩١م ، ص ٣٦٣ .

(٥) اختلف بعض المؤرخين حول تاريخ الانتهاء من بناء المدرسة وإعدادها للعمل ، فأشار البنداري إلى أنه تم بناء المدرسة النظامية ببغداد في رمضان عام ٤٥٨ هـ وانتظمت أحوالها وسكنها من حملة الشريعة ورجالها ، انظر : دولة آل سلجوق ، ص ٣٢ ، في حين ذكر آخرون أن العمل بها بدء منذ عام ٤٥٩هـ ، انظر ابن الجوزي : المنتظم ج ١٦، ص ١٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٨٠ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج ١ ، ص ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٦) الإمام الغزالي هو : محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي ، عرف بزين الدين حجة الإسلام ، ولد بطوس ٤٥٠هـ ، درس بنظامية بغداد ونظامية نيسابور ، وكان مقبلا على التصنيف ونشر العلم ، ت ٥٠٥ هـ ، وللمزيد من المعلومات انظر : الذهبي : العبر ...، ج ٢ ، ص ٣٨٧ ، وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٧٣ وابن قاضي شهبة : طبقات الفقهاء الشافعية ، ج ١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د . ت ص ٢٧٨ وما بعدها ، وانظر أيضاً فضل الله روزبهان : مهمان نامة ، بخارى ، تهران د . ت ، ص ٣٥٠ وما بعدها .

(٧) أبو إسحاق الشيرازي : ولد بفيروز آباد ٣٩٣ هـ ، ت ٤٧٦ هـ ، قيل أنه إمام أصحاب الشافعي ، فاق أهل زمانه بالعلم والزهد ، تلامذته من علماء الأمصار كثيرون ، لما بنى نظام الملك مدرسته ببغداد سأله أن يتولاها ، فلم يفعل ، فولاها لأبي نصر الصباغ ، ثم تولاها الشيرازي وظل بها إلى أن مات ، انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٩ ، وما بعدها

فقد أشار الباخرزي إلى ما يفيد إقامته بنظامية نيسابور فترة من الوقت ، وكان يجاوره في هذا أبو الفرج محمد بن حيل الهمزاني[١] . كما كان مقيما بها الأجل اللغوي[٢] والأديب الفاضل المرندي[٣] وغيرهم الكثير .

ثانياً : لوحظ أيضاً على هذه المدرسة اضطلاعها بإحياء الإسلام السني شأنها شأن الكثير من المدارس التي قامت في تلك الفترة لمقاومة المد الشيعي الذي ساد القرن الرابع الهجري[٤] ويعبر د / أيمن فؤاد عن هذا فيقول : " نستطيع أن نعد القرن الخامس ، عصر ازدهار المدارس ، فقد تولى السلاجقة ابتداء من وصول نظام الملك إلى الوزارة ، محاربة الفاطميين ، عن طريق إنشاء المدارس لتأييد المذاهب الفقهية السنية وخاصة المذهب الأشعري الشافعي "[٥].

وهذا أمر تنطق به مصادرنا التاريخية ، فقد كان كل الدارسين بالمدرسة والعاملين فيهاعلى المذهب الشافعي .

فقد كان كل من أبي إسحاق الشيرازي ، وأبي نصر ابن الصباغ[٦] ، وأبي سعد المتولي[٧] وأبي حامد الغزالي . على مذهب الإمام الشافعي ، كما كان المستظهري[٨]

---

(١) الباخرزي : دمية القصر ، ص ١٠٣ .

(٢) الأجل اللغوي : هو على بن منصور بن عبيد الله الخطيبي ، أصبهاني الأصل ، بغدادي المولد والمنشأ ، عالم فاضل ولغوي فقيه ، تفقه على مذهب الإمام الشافعي بالنظامية ، ولد ٥٤٧ هـ ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٨١ وما بعدها .

(٣) المرندي : هو أبو محمد عبد الله بن نصر بن عبد العزيز سويد المرندي ، الخطيب ، كان له يد باسطة في اللغة وسرعة النظم والنثر ، عرف بخطه الحسن ، ت ٥٤١هـ انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٢٦١ .

(٤) أطلق د. أيمن فؤاد سيد ، على القرن الرابع الهجري عصر انتشار الشيعة ، إذ فيه مد الفاطميون نفوذهم على مصر والشام وشمال أفريقيا وتحكم البويهيون الشيعة في إمبراطورية عريضة كان مركزها العراق ، وفرضوا سيطرتهم على خليفة بغداد ، وقام دعاة الفاطميين بدور نشط في طول الأراضي العباسية وعرضها . أنظر د . أيمن فؤاد : بحث بعنوان المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ضمن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ص ٩٣ وما بعدها . وانظر أيضاً : Stephan and Nandy Ronart : Concise Encyclopaedia of Arabic civilization, Dgambatan, Amsterdam, P.331 .
وحول موقف نظام الملك من الشيعة انظر على أصغر فقيهي : تاريخ جامع قم ، ص ٣٢١ .

(٥) انظر د. أيمن فؤاد : المرجع نفسه ص ٩٦ ، والمذهب الأشعري الشافعي ينسب إلى أبي الحسن الأشعري وللمزيد عنه انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ، ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٦) أبو نصر ابن الصباغ ، هو أبو نصر عبد السيد بن محمد ، الفقيه الشافعي ولي التدريس بالنظامية عشرين يوماً وعزل بالشيخ أبي إسحاق ، وهو صاحب كتاب الشامل ، ولد الصباغ سنة ٤٠٠هـ ، ت ٤٧٧ هـ . انظر ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ص ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

(٧) ولي النظامية بعد أبي إسحاق ، ثم صرف عنها إذ لم يرض نظام الملك سنة ٤٧٦ هـ ، وأعيد إليها مرة أخرى بعد أبي نصر بن الصباغ ، وظل بها إلى أن توفي ٤٧٨هـ . انظر المصدر نفسه ص ٢١٨ والبنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٦٩ .

(٨) المستظهري : هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي الأصل ، ولد ٤٢٩هـ ، ت ٥٠٧ هـ ببغداد ، انظر ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ـ ٢٢١ .

الفقيه الشافعي مدرساً بالنظامية سنة ٥٠٤هـ .[١]وكان ابن الدهان المعروف بالوجيه[٢] الذي اشتغل بتدريس النحو بالنظامية حنبلياً ثم صار حنفياً ، وعندما اضطلع بتدريس النحو بالنظامية صار شافعياً .[٣]

ولشدة الحرص على أن يكون العاملون بالمدرسة من أهل السنة ، وبخاصة من أصحاب المذهب الشافعي ، فقد عزل علي بن محمد بن علي الفصيحي[٤] من المدرسة النظامية، وكان يقوم بتدريس النحو بها ، وذلك بعد ما اتهم بالتشييع واعترافه بإنتمائه للشيعة ، وجعل مكانه الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن خضر الجواليقي[٥] .
على أية حال ، فقد عمل بالتدريس في النظامية عدد هائل من العلماء والفقهاء ، وبمطالعة تراجم أي منهم يلاحظ أنهم جميعاً على المذهب الشافعي[٦] .

ثالثاً : لوحظ على النظامية أنها لم تكن تعني بتدريس علم واحد، بل كانت تدرس علوم متعددة ، وهي بهذا تخالف ما سبق وأشير إليه في إطار التعريف بالمدرسة ، من أنها المكان الذي يتخذ لتلقى علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه[٧] ، إذ الثابت لدينا من خلال ما اطلعنا عليه من مصادر أن نظامية بغداد درست بها علوم متنوعة ، فكان الخطيب التبريزي[٨] متولياً تدريس الأدب بالنظامية[٩] ، كما تولى الجواليقي بعده تدريس الأدب بالنظامية[١٠] ، ودرس بها الثمانيني العلوم العربية والأدبية[١١] ، كما درس الفصحى (ت

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .
(٢) الوجيه ؛ هو المبارك بن المبارك بن سعيد، ولد ٥٠٢ هـ ، ت ٦١٢ هـ ، تولى تدريس النحو بالنظامية سنين ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ص ٥٨ ـ ٦٦ .
(٣) المصدر نفسه : ج ١٧ ، ص ٦٦ .
(٤) الفصيحي : هو أبو الحسن ، من أهل استراباذ وهي مدينة من طبرستان ، ت ٥١٦ هـ انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص ص ٦٦ ـ ٦٩ .
(٥) الجواليقي هو ؛ موهوب بن أحمد بن الحسن ، كان من كبار أهل اللغة والأدب ، عرف بحسن الخط ، حتى تنافس الناس في تحصيل خطه ، ولد ٤٦٦هـ ، ت ٥٣٩ هـ انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٢٠٥ ، والذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ .
(٦) وللمزيد من المعلومات حول العلماء الذين عملوا بالنظامية . أنظر البنداري : دول آل سلجوق ، ص ٥٠ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ . وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ، ج ٣ ، ص ٢٨٦ .
(٧) انظر د / أيمن فؤاد : بحث المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ضمن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ، ص ٩٩ .
(٨) الخطيب التبريزي هو : يحيى بن على الشيباني ، كان أيضاً متولياً لخزانة كتب النظامية ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٢٠ ، ص ٢٧ ، القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٤٠ .
(٩) ياقوت الحموي : المصدر السابق ج٢٠ ، ص ٢٧. القزويني : آثار البلاد : ص ٣٤ .
(١٠) انظر ياقوت الحموي : المصدر نفسه ج ١٩ ، ص ٢٠٥ .
(١١) المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٢٥١ .

٥١٦ هـ) النحو بالمدرسة النظامية[١]، كما درسه أيضاً ابن الدهان أبو بكر الضرير المعروف بالوجيه لسنين[٢]، ودرس بها أبو بكر الأرموي (ت ٥٣٦هـ) الفقه[٣].

رابعاً : لوحظ على النظامية اشتمالها على دار للكتب ، فقد كان نظام الملك حريصاً على أن تحوي كل مدرسة يقوم بإنشائها على دار للكتب تحوي عدة خزائن للكتب ، وهو ما أقره صاحب دولة آل سلجوق ، إذ قال مشيراً إليه : " ومن وجد في بلده قد تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ، وقف عليها وقفاً ، وجعل فيها دار كتب"[٤]. وكانت نظامية بغداد على ما يبدو لنا مثلاً وقدوة أحتذته سائر النظاميات في بلدان المشرق، ولاشك في أن هذه المكتبة كانت عظيمة وهائلة تتناسب والمدرسة التي أسسها نظام الملك ، ولشدة اهتمامه بأمر المكتبة ، فقد أوكل أمرها إلى أبي زكريا الخطيب التبريزي[٥] .

وقد كان نظام الملك شديد الحرص على متابعة خزائن كتب نظامياته ، وندلل على ذلك برواية وردت في بعض المصادر . فيذكر خواندمير : " أنه حينما فرغ نظام الملك من بناء المدرسة النظامية أسند وظيفة أمين المكتبة إلى الشيخ أبي زكريا الخطيب التبريزي ، فكان الشيخ يقوم كل ليلة بتناول الخمر ومجالسة الشباب الماجن ، وقد نقل بواب المدرسة ذات مرة بعضاً مما حدث إلى نظام الملك ، فرد عليه نظام الملك بقوله: إنني أثق ثقة كاملة في الشيخ أبي زكريا ولا أصدق هذا الكلام مطلقاً ، ولكن الوزير فكر بينه وبين نفسه ، وذهب وحده ذات ليلة وارتقى سقف المكتبة ، وأخذ يراقب الشيخ أبا زكريا من خلال فتحة احتياطية بالسقف فشاهد صدق ما كان قد سمعه ، ثم عاد إلي منزله العامر ، وفي اليوم التالي طلب إدارة الوقف وأمر بمضاعفة مرتب الشيخ أبي زكريا ، وتم صرفه ، ثم سلمه لأحد نوابه وقال له : سلم هذه الأموال للشيخ وأبلغه سلامي ، وقل له إن نظام الملك يقول :" إنني لم أكن أعرف والله أن الشيخ يتحمل كل هذه المصروفات الضرورية ، وإلا ما رضيت في الوقت الذي كنت أخصص فيه مصروفات الوظائف أن أخصص هذا الأجر الضئيل باسم الشيخ في إدارة الأوقاف ، وحينما التقى مبعوث نظام الملك بالشيخ زكريا سلمه الرسالة ، ففهم الشيخ أن نظام الملك قد وقف على ما خفي من أسراره " وكان هذا التصرف من جانب نظام الملك سبباً في خجل الشيخ وتأثره ، فرفع يديه بالتوبة والاستغفار ولم يجر وراء المعاصي والملهيات طوال حياته بعد ذلك "[٦] .

---

(١) انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣٣٧ .
(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء : ج ١٧ ، ص ٥٩ .
(٣) السمعاني : الأنساب ، ج ١ ، ص ١١٥ .
(٤) البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٥٤ .
(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء : ج ٢٠ ، ص ٢٧ . خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٥٣ .
(٦) خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٥٣ . وانظر أيضاً القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٤٠ .

ويتضح من النص السابق أموراً منها :

أولاً : حرص نظام الملك على متابعة المدرسة ودار الكتب على وجه الخصوص ، ولاشك أنه كان يسلك ذلك المسلك في سائر النظاميات حتى أن البنداري يذكر أنه في عام ٤٧٩هـ مضى نظام الملك إلى المدرسة ، وإلى دار الكتب بها وقلبها وتصفحها ورم أحوالها وأصلها وأصلحها[١] .

ثانياً : عكس لنا النص وجود هيئة عاملة بدار الكتب منها الخازن التبريزي والبواب والمرتب ، ولوحظ أن الخازن اختير من أهل العلم ، وعلى ما يبدو لنا فقد كانت إقامته بداخل المدرسة.

ثالثاً : أتضح من النص أنه كانت هناك إدارة للوقف تقوم بالإنفاق على المكتبة والمدرسة، وتمنح المرتبات للعاملين بهما .

رابعاً : أشار خواندمير إلى وجود فتحة احتياطية في سقف المكتبة ، لم يذكر الغرض منها ، استغلها نظام الملك في مراقبة ما يفعله خازن دار الكتب ، وقد تكون هذه الفتحة الاحتياطية إما للتهوية حرصاً على سلامة الكتب وصحتها ، وإما للمراقبة والمتابعة كما فعل نظام الملك . ويوحي ذلك أيضاً أن نظام الملك وهو الوزير كثير المشاغل والمهام ، كان على دراية كاملة بمداخل خزانة الكتب ومخارجها ، وتصميمها وبنايتها .

هذا وقد كان نظام الملك حريصاً على تعهد مكتبات مدارسه بالإصلاح والترميم بعد تقليب ما فيها من الكتب وتفقدها بدليل ما ذكره البنداري[٢] .

ولكن ترى ما طبيعة المحتويات التي حوتها هذه المكتبة ؟ واقع الأمر أن المصادر لم تمدنا بالمعلومات الكافية لوضع تصور لمحتويات هذه الدار ، ولكن بعد ما عرضنا لطبيعة المدرسة ، وطبيعة المذهب الذي تدعمه المدرسة، يمكننا القول أن محتويات خزانة الكتب هذه كانت ولاشك تخدم المذهب الشافعي ، كما أنها ولاشك حوت مؤلفات لكل من عمل بها بالتدريس .

كان هذا عرض لنظامية بغداد ، أثرنا فيه الإفاضة خاصة واهتمام المصادر القديمة ، والمراجع الحديثة[٣] بتناولها والبحث فيها ، ثم أنها وعلى ما يبدو لنا كانت نموذجاً احتذاه نظام الملك في شتى النظاميات التي أنشأها في شتى أنحاء بلاد المشرق الإسلامي ، وذلك استناداً إلى ما قاله البنداري[٤] .

---

(١) البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٧٤ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٧٤ .
(٣) تناول نظامية بغداد بالبحث والدراسة الكثير من المؤرخين ، وللمزيد من المعلومات انظر د.يحيى وهيب : الكتاب في الحضارة الإسلامية ، ص ١٨٩ ، ص ١٩٣ .
(٤) البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٥٤ .

ومن أبرز المدارس النظامية التي شهدتها بلدان المشرق نظامية أصفهان[١] ، ومن أبرز من عمل بها الحسن بن محمد بن الحسن الفقيه الشافعي ، وكان قد تولى التدريس بها نيابة عن أولاد الخجندي[٢] .

كذلك اشتهرت من المدارس النظامية نظامية نيسابور ، وممن عمل بها أبو القاسم الهزلي المغربي البسكري ، الذي أقره نظام الملك مقرئاً بالمدرسة في نيسابور عام ٤٥٨هـ وظل بها إلى أن توفي ٤٦٥هـ[٣] ، هذا مما يعني أن نظامية نيسابور وجدت قبل هذا التاريخ .

وممن عمل بها أيضاً إمام الحرمين أبو المعالي الجويني الفقيه الشافعي[٤]، ويذكر ابن خلكان[٥] أن نظامية نيسابور بنيت في الأساس لإمام الحرمين أبو المعالي الجويني ، وأوضح أنه "عاد إلى نيسابور في أوائل ولاية السلطان السلجوقي ألب أرسلان[٦]والوزير يومئذ نظام الملك ، فبنى له المدرسة النظامية بنيسابور، وتولى الخطابة بها ، وكان يجلس للوعظ والمناظرة وظهرت تصانيفه ، وحضر دروسه الأكابر من الأئمة ، وفوض إليه أمور الأوقاف ، وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع ، فسلم له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة "[٧] . ويعكس لنا كلام ابن خلكان طرفاً من الأنشطة الثقافية التي شهدتها المدرسة ، ومنها مجالس الوعظ وحلقات المناظرة والخطابة ومجالس الذكر .

وقد درس بنظامية نيسابور الفقيه الشافعي مسعود الطرثيثي[٨] نيابة عن الجويني ، كما درس بها الإمام أبي حامد الغزالي الملقب بحجة الإسلام[٩] وزين الدين الطوسي الفقيه الشافعي ،

---

(١) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٨ ، ص ٣٨ .

(٢) كان الحسن هذا إماماً فاضلاً عارفاً بالأدب . انظر: العماد الأصفهاني: خريدة القصر، القسم العراقي ج١، ص٢٧.

(٣) هو يوسف بن على بن حبارة بن محمد بن عقيل ، كان عالماً بالقراءات والعربية ، ولد ٤٠٣هـ ، ت : ٤٦٥هـ وللمزيد من المعلومات انظر : ياقوت الحموي : المصدر السابق ج ٢٠ ص ٦١ ، ٦٢ .

(٤) ولد إمام الحرمين ٤١٩هـ ، ت ٤٧٨ هـ ، أغلقت الأسواق يوم موته وكسر منبرة في الجامع ، وجلس الناس لعزائه ، وكان تلامذته يومئذ قريباً من أربعمائة طالب علم ، فكسروا محاربهم وأقلامهم ، وأقاموا على ذلك عاماً كاملاً . وللمزيد من المعلومات انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ، ص ١٦٧ : ١٧٠ ، وذكر القزويني أنه ت ٤٨٨ هـ انظر آثار البلاد ص ٣٥٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٨ ، والقزويني : آثار البلاد ، ص ٣٥٣ .

(٦) أبي أرسلان : أحد سلاطين السلاجقة العظام ، جلس على عرش السلطنة السلجوقية ٤٥٥هـ ، قتل ٤٦٥ هـ على يد أحد الثائرين ، شهد عهده الانتصار على الجيش البيزنطي في موقعة ملاذكرت انظر الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٠٣ وما بعدها ، وانظر أيضاً : د/ محمد عبد العظيم أبو النصر : السلاجقة ، ص ٧٩، ص ٨٥.

(٧) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٨ .

(٨) هو أبو المعالي مسعود بن محمد بن طاهر النيسابوري الطريثيثي الفقيه الشافعي ، ولد ٥٠٥هـ ، ت ٥٧٨ هـ ، ولقد ذكر ابن خلكان أنه ولد ٥٠٥ هـ ، ت ٥٧٨هـ ، وهذا التاريخ يتعارض وتاريخ حياة الجويني الذي ولد ٤١٩هـ وتوفي ٤٧٨هـ ، ومن المحتمل أنه إن صح تاريخ حياة أبي مسعود الطرثيثي ، أن يكون قد تولى التدريس في نظامية نيسابور بعد الجويني بفترة .

(٩) وللمزيد انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ، ص ص ٢١٦ ، ٢١٨ . وابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٢٧٨ . وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢١ .

وكان قد تولى التدريس بنظامية بغداد عام ٤٨٤هـ وظل بها إلى عام ٤٨٨هـ [١] ، وقد ألزم بالعودة إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية[٢] ، وممن عمل بها أيضاً أبو سعد محمد بن يحيى بن أبي منصور النيسابوري الملقب بمحيي الدين الفقيه الشافعي ، الذي تلقى الفقه على يد حجة الإسلام أبي حامد الغزالي ، وكان يدرس بنظامية نيسابور ونظامية هراة[٣] .على أية حال فقد حققت نظامية نيسابور سمعة علمية مضاهية في ذلك نظامية بغداد[٤] .

كذلك شهدت مدينة بلخ إحدى المدارس النظامية ذكرها ياقوت الحموي ضمناً في إطار ترجمته لآدم بن أحمد بن أسد الهروي ت ٥٣٦هـ[٥] ، كما أشار إلى مجالس العلم التي كانت تعقد بها[٦] .

هذا ولم تكن مدارس العلم قصراً على النظاميات ، بل شهدت بلدان الشرق مجموعة هائلة من المدارس أشير إليها ضمناً في المصادر ، ومن ذلك مدرسة فخر الملك بن نظام الملك بنيسابور[٧]، ومدرسة أبي إسحاق الاسفراييني بنيسابور[٨]، ومدرسة السلطان بنيسابور[٩] ، ومدرسة البيشكي بنيسابور[١٠] ، وهناك مدرسة خاتون مهدعراق بنيسابور ، وقد احتوت هذه المدرسة على داراً للكتب كان لها اعتبارها أشار إليها ابن فندق ضمناً في مؤلفه تاريخ بيهق[١١]، ومدرسة السمعانيين المنسوبة إلى الأمير أبي نصر بن أبي الخير[١٢] بمرو ، ومدرسة السرهمرد بسرخس[١٣] ، ومدرسة كش بما وراء النهر[١٤] ، ومدرسة الحاجبية بهمذان[١٥] ، ومدرسة رأس سكه حائط حيان بسمرقند[١٦] ، ومدرسة قنم[١٧] ، كما شهدت خوارزم الكثير من المدارس ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢١٧ .
(٢) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ٢١٨ .
(٣) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ٢٢٣، وانظر أيضا : عبد الحسين نوائي : فرمان تدريس نظامية نيسابور ص ٣٣
(4) Stephan and Nandy Ronart : Conncise Encyclopaedia of Arabic civilization , p. 418.
(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠١ .
(٦) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ١٠٤ .
(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٦ .
(٨) السمعاني : الأنساب ، ج ١ ، ص ١٨٢ .
(٩) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦١٣ .
(١٠) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ١٦٣ .
(١١) ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٢٠ ، ص ١٧٥ .
(١٢) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٥ .
(١٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٦ .
(١٤) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .
(١٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .
(١٦) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٨ .
(١٧) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٧٣ .

ومنها مدرسة فخر الدين الرازي بخوارزم[١] ، كما وجدت المدارس في الري[٢] ، وغير هذا الكثير من المدارس التي حوت ولاشك خزائن للكتب شأن مدارس العصر .

٣ ـ نماذج أخرى لخزائن الكتب الملحقة :

أ ـ خزائن كتب الخانقاوات والرباطات وغيرها :

لم تكن خزائن الكتب العامة الملحقة قصراً على المساجد والمدارس ، بل اشتملت بعض المؤسسات الأخرى على خزائن للكتب ، ومن هذه المؤسسات الخانقاوات والرابطات .

والخانقاه: كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك ، ويذكر المقريزي أنها حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى.[٣]وأما الرباط: فهي دار يسكنها أهل طريق الله.. وهي بيت الصوفية ومنزلهم[٤] .

وقد كانت الخانقاوات والرباطات في الكثير من الأحيان مراكز للعلم والتعلم ، إذ عقدت بها مجالس للسماع والأمالي ، فقد أشار السمعاني إلى أنه سمع بعض الأحاديث من الحسن القاسم بن محمد بن الليث (ت ٥٣١هـ) في رباطه بسمنك[٥] (في الطريق إلى أصبهان) كما أشار إلى أنه قرأ على أحد العلماء في خانقاه أبي بكر الواسطي ، بعض مجالس من الأمالي[٦] ، وأشار أيضاً إلى أنهم قرأوا كتاب الجامع الصحيح في خانقاه البرمويي بمرو[٧] ، كما كتب الحديث في خانقاه أبي العباس القصاب بطبرستان[٨] عن بعض أهل العلم ، واستمع إلى الحديث في خانقاه أبي الفتح محمد بن عبد الرحمن الخطيب[٩] .

كما أشار ياقوت الحموي إلى بعض مجالس الوعظ ، والتي كانت تقام في رباط عبد الصمد ابن الحسين الكلاميني الواعظ المعروف بالبيع (ت ٥٨١هـ)[١٠]، كما عقدت مجالس الإملاء لأبي القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي في رباط الجوبق في نسف[١١]، وقبل هذا

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٥١ .
(٢) انظر: المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٩٠ .
(٣) انظر: المقريزي : الخطط ج ٢ ، ص ٤١٤ .
(٤) للمزيد انظر المقريزي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .
(٥) انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ .
(٦) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٤٧٠ .
(٧) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٤٦٦ .
(٨) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ٤٧ .
(٩) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .
(١٠) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٣٩ .
(١١) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٨٠ .

بقرنين من الزمان يشير المقدسي[١] إلى أن أبا القاسم الميكالي بنى في نسا رباطات وجعل لها خزائن وأوقفها ، ومنها رباط شارستانه الذي أشار إلى أن به خزانة حسنة ، وهذا أمر ليس بمستبعد ، خاصة وما عرف عن آل ميكال من اهتمام بالعلوم والآداب وأهليهما .

وهكذا فقد شهدت الخانقاوات والرباطات بعض مجالس العلم ، وقد كان من الطبيعي والحالة هذه أن نرى بعض هذه الخانقاوات والرباطات، وقد اشتملت على خزائن للكتب لخدمة المتمردين عليها من أهل العلم ، ولخدمة مجالس العلم التي شهدتها هذه المؤسسات ، ويدعم هذا الأمر ما أشار إليه ياقوت الحموي ، من أنه أطلع على أحد خزائن الكتب التي كانت موجودة في خانقاه بمرو[٢] عرفت بالخزانة الضميرية ، مما يعني أن الخانقاوات كانت تحوي خزائن للكتب .

كذلك وقف محمد بن عبد الرحمن بن مسعود أبو سعيد البندهي كتباً نفيسة بخانقاه السميساطي[٣] ، مما يؤكد على اشتمال الخانقاه على خزانة للكتب . كذلك ألحقت خزائن الكتب ببعض الخانات ، والتي قامت مقام الفنادق في وقتنا هذا ، فقد سبق وأشار المقدسي[٤] إلى أن دار كتب الري كانت في خان ، وإذ كان السمعاني وياقوت الحموي ـــ عند ما ذكرا هذه الدار ـــ لم يثبتا هذا الأمر بصددها ، حتى إننا اعتبرناها دار كتب عامة منفصلة ، إلا أن ما أشار إليه المقدسي يعكس لنا أن هناك بعض الخانات ألحقت لها خزائن للكتب .

وهناك مراكز علمية أشير إليها في مصادرنا ضمناً ، نتوقع اشتمالها على خزائن للكتب لخدمة عملية الدرس بها ومنها دار السنة بنيسابور ، والتي كانت مجمعاً لأهل العلوم من رجال الدين والفقهاء . حيث كانت تعقد بها مجالس الإملاء والوعظ والدرس[٥] . ومنها أيضاً بيت العلم ببخارى[٦]، والذي ينسب إلى أبي نصر إسحاق بن أحمد .. الأديب الغار البخاري. وهو من أبناء القرن الرابع الهجري، وقد ذكر السمعاني أن بيت العلم المشار إليه كان قائماً حتى عصره.

ب ـــ خزانة كتب مرصد مراغة :[٧]

لم تقتصر خزائن الكتب الملحقة على المساجد والمدارس والخانقاوات والرباطات فحسب ، بل تعدت ذلك إلى المراصد[٨] ، والتي أنشئت خصيصاً لمواصلة عمليات الرصد .

---

(١) أحسن التقاسيم : ص ٣٢٠ .
(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٤) انظر المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٩١ .
(٥) انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٨١ ، ج ٥ ، ص ١٧٠ .
(٦) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٥٤٧ .
(٧) مراغة ؛ مدينة إيرانية شرقي بحيرة أرمنه ، عاصمة أذربيجان وقديما كانت عاصمة هولاكو ، أسس فيها نصير الدين الطوسي مرصداً ومكتبة عظيمة في القرن ١٣ ، وفيها نبغ ابن القبري . انظر المنجد ، ط ١٦ ، ص٥٢٨.
(٨) المراصد : أقيمت المراصد لرصد حركة الكواكب في أفلاكها ، بدأت المعرفة بالرصد ، منذ عهد المأمون ، حيث وضعت آلة الرصد المساه ذات الحلق ، وللمزيد انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤٢ .

ومن أشهر خزائن كتب المراصد ، خزانة الرصد بمراغة ، فقد ذكر أن نصير الدين الطوسي[١] ابتنى بمدينة مراغة قبة ورصداً عظيماً ، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء ، وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة[٢] ، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلد[٣] .

ومن الجدير بالذكر أن نصير الدين الطوسي عندما قام ببناء مرصد مراغة ، قرر له من العلماء والفلاسفة والمنجمين الكثير ، وجعل لهم رواتب تتناسب وأهمية ذلك المرصد ومكانته ، خاصة وأن نصير الدين كان ذا مكانة رفيعة عند هولاكو[٤]وكان هولاكو كثير البذل والعطاء له لبناء المرصد واستكماله ، وتشير المصادر إلى أن هولاكو ولاه جميع الأوقاف في سائر البلاد والمدن التي كانت تحت قبضة المغول، وكان له نائب يقوم بجمع هذه الأوقاف ، ويحملها إليه لينفق منها على العلماء والفلاسفة المقيمين بالمرصد[٥]،وكان منها بطبيعة الحال خزانة الكتب المشار إليها .

هذا وقد أشـــار بعض العلماء ممن قاموا بزيارة مرصد مراغة إلى كثرة كتب خزانة المرصد[٦] فقال أحدهم: سافرت إلى مراغة وتفرجت في هذا الرصد ومتوليه صدر الدين على ابن الخواجا نصير الدين الطوسي ... فرأيت فيه من آلات الرصد شيئاً كثيراً ... واصطرلابات كثيرة ، وكتباً كثيرة " .

ومن الجدير بالذكر أن خزانة كتب رصد مراغة عمل به صفوة من العلماء والفلاسفة ، فقد أشير إلى أن ابن الفوطي[٧] العالم والمؤرخ باشر خزانة الرصد بمراغة أكثر من عشرة أعوام ،

---

(١) نصير الدين الطوسي هو : محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي الفيلسوف ، كان عالماً بالرياضيات والأرصاد وعلوم الأوائل ، ولد بطوس سنة ٥٩٧هـ ،(ت ببغداد ٦٧٢هـ) ، كان معاصراً لهولاكو وبلغ عنده مكانة عالية . انظر ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ببيروت ، ٢٠٠٠م ، ص ص ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، والصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها ، وانظر أيضاً : خواندمير : رجال حبيب السير ، ترجمة هالة حسن محمد ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ٢٠٠١م ، ص ١٨٢ وما بعدها .

(٢) من المرجح أنه يشير إلى الكتب التي نهبت أثناء الغزو المغولي من هذه المناطق .

(٣) ابن شاكر الكتبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ . والصفدي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٩ ، وانظر: أيضاً ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٥ ، هذا ولم يحدد ابن كثير عدد هذه الكتب .

(٤) وحول مكانة نصير الدين الطوسي لدى هولاكو انظر ابن شاكر الكتبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ ، والصفدي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، وخواندمير : رجال حبيب السير ، ص ١٨٢ .

(٥) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٦ وابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ . والصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٨٢ .

(٦) ابن شاكر الكتبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ ، والصفدي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٢ .

(٧) ابن الفوطي : هو عبد الرازق بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الصابوني الشيخ الإمام المحدث ، المؤرخ الإخباري الفيلسوف ، صاحب التصانيف ، ولد ٦٤٢هـ ، ت ٧٢٣ هـ أسر أثناء هجمات المغول على بغداد ، وعمل بالرصد تحت إشراف نصير الدين الطوسي حيث اطلع على الكثير من فروع العلم والحكمة . انظر ابن شاكر الكتبي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٥٨ وما بعدها .

وقد أتاح له ذلك فرصة الإطلاع على مجموعات هائلة من الكتب النفيسة ، وقد كانت هذه الكتب في علوم الأوائل والآداب والتاريخ ، خاصة واهتمامه بهذه الفروع من العلم ، وقد أهله هذا الأمر إلى أن يتولى الإشراف على خزانة كتب المدرسة المستنصرية ببغداد[١] ، حيث أصبح خازناً لها ، ولم يكن ابن الفوطي وحده الذي عمل بخزانة كتب مرصد مراغة ، بل يبدو أن نصير الدين الطوسي نفسه وابنه من بعده توليا الإشراف المباشر على هذه الخزانة .

ج ـ خزانة كتب محلة الربع الرشيدي :

تنسب محلة الربع الرشيدي إلى رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة الهمذاني ، صاحب كتاب جامع التواريخ[٢] الذي قام بإنشاء ضاحية جديدة بالقرب من تبريز[٣] عرفت بالربع الرشيدي ، أقام بها المنازل والحوانيت ومصانع الورق والفنادق والمستشفيات ، وقد ضم هذا الربع مكتبة ضخمة ضمت حوالي ستين ألف مجلد من الكتب العلمية والفنية باللغات المختلفة[٤]. ومما يذكر أنه عهد إلى مهرة الخطاطين والمصورين بنسخ عدد من المؤلفات المختلفة وتصويرها ، وفي مقدمتها جميع مؤلفاته[٥] .

هذا ويذكر صاحب تاريخ الوصاف أن رشيد الدين أنفق أكثر من ستين ألف دينار في النسخ والتحرير والزخرفة والتصوير والتجليد . ولم تقف جهود رشيد الدين عند هذا الحد ، بل إنه راح يوقف على الربع الرشيدي الأوقاف الكثيرة من أملاكه وثرواته الطائلة ، للصرف على المؤسسات التي يضمها هذا الربع وعلى نزلائه من مختلف الطوائف والطبقات ، وسجل كل هذا بنفسه بغاية الدقة والتفصيل في سجل وقفيه الربع الرشيدي (وقفنامة ربع رشيدي)[٦].

---

(١) المدرسة المستنصرية تنسب إلى الخليفة المستنصر بالله ، الذي ولي الخلافة ٦٢٣ هـ ـ ٦٤٩ هـ ، وقد كان لذلك الخليفة اهتمام خاص بالعلم وأهله ، فكان يسعى لبناء المساجد والمدارس والربط وغيرها . وبني المدرسة المستنصرية على الجانب الشرقي من دجلة ، لتكون مدرسة للمذاهب الأربعة ، ورتب فيها مارستانا ومطبخاً ، وأمدها بالحصر والبسط والزيت والورق والحبر لخدمة الفقهاء ، وجعل بها خزانة للكتب ، نقل إليها حوالي مائة وستون حملاً من الكتب النفيسة ، ووقف عليها الأوقاف للصرف عليها . وللمزيد من المعلومات انظر ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٣ ، ص ٢٥٣ ، ص ٢٧٤ ، وانظر أيضاً السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ط ٢٠٠٤م ، ص ٣٦٠ وما بعدها .

(٢) ولد رشيد الدين الهمذاني في همذان سنة ٦٤٥هـ /١٢٤٧م ، وقتل ٧١٨هـ ، وأمضى فترة من شبابه في تحصيل العلوم المختلفة ، وخاصة الطب وعمل في البلاط المغولي ، ثم ترقي حتى عين وزيرا في عهد السلطان غازان خان ٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ / ١٢٩٤ ـ ١٣٠٣م) ، كان يهوديا ، ثم اسلم وحسن اسلامه ، وللمزيد انظر خواندمير : دستور الوزراء ، ص ٣٧٣ وما بعدها .

(٣) تبريز : من أبرز وأهم مدن أذربيجان ، وللمزيد انظر القزويني : آثار البلاد ص ٣٣٩ ، وتقع الآن شمال غربي إيران ، وهي قاعدة أذربيجان الشرقية ، وهي مركز تاريخي وثقافي مشهور ، به آثار إسلامية وتشتهر بالصناعات الحرفية كالسجاد والحرير والجلود ، انظر المنجد ، ط ١٦ ن ص ١٦٨ ن ١٦٩ .

(٤) انظر مقدمة جامع التواريخ : غازان ، ص ٩٠ ، نقلاً عن خواجه رشيد الدين فضل الله : مكاتبات رشيدي ، لاهور ، ١٩٤٥م ، ص ٢٣٥ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٠ ، ٣١٧ ـ ٣٢١ .

(٦) د .فؤاد عبد المعطي ؛ مقدمة جامع التواريخ ، ص ٣٠ ، ٣١

ثالثاً : وقف الكتب والمكتبات :

نشأة ظاهرة وقف الكتب :

شهدت الحياة الثقافية في بلاد العالم الإسلامي ظاهرة ثقافية ، استحقت من وجهة نظرنا الدراسة والبحث ، ألا وهي ظاهرة وقف الكتب بالمساجد والمدارس المختلفة ــ لإتاحة فرصة الإطلاع عليها لأكبر عدد ممكن من المترددين على خزائن كتب هذه المساجد والمدارس . وقد كان من الطبيعي وقبل أن نعرض لظاهرة وقف الكتب، أن نلقي نظرة عامة على نظام الوقف.

والوقف هو؛ "منع التصرف في رقبة العين التي يمكن الانتفاع بها مع بقاء عينها وجعل المنفعة لجهة من جهات الخير ابتداء وانتهاء "[(١)] ، فهو صدقة لا تباع ولا تشترى ، ولا توهب ولا تورث ويصرف ريعها إلى جهة من جهات البر حسب شروط الواقف[(٢)]، كما أن الوقف مال محبوس غير منقول[(٣)] فالأصل العام في الوقف هو أن يكون مؤبداً فلا يصح بذلك إلا في العقار.

وقد نفهم من ذلك أنه لا يجوز تطبيقه على الكتب المعرضة في طبيعتها إلى الضياع والتمزق والتلف[(٤)] ، إلا أنه وبرغم ذلك فقد أجاز البعض وقف المنقول ، وجعلوه من باب الاستحسان ، ومن هنا نشأ وقف الكتب ، وأخذ أهل الخير والإحسان يوقفون الكتب نفعاً للناس وحباً لعمل الخير .[(٥)]خاصة وأن الوقف في الفقه الإسلامي يقوم على أصول منها قول النبي صلوات الله وسلامه عليه: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له "[(٦)] ، ولعل وقف الكتب ينطوي على صدقة جارية ، وعلم ينتفع به .

هذا ويشير يوسف العش إلى أن ظاهرة وقف الكتب بدأت بوقف المصاحف ، فقال مشيراً للإمام أبي حنيفة[(٧)] : قال الإمام أبو حنيفة كما يروي أحد تلاميذه ، وهو الحسن بن زياد ، ت ٢٠٤هـ : "... يجوز وقف المصاحف وقفاً مؤبداً لأهل المسجد الحرام أو لغيره، وعباد الطريق

---

(١) الإمام محمد أبو زهر : محاضرات في الوقف ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٧ .
(٢) أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٢١ .
(٣) يوسف العش : دور الكتب العربية العامة وشبه العامة ، ص ٩٧ .
(٤) المرجع نفسه .
(٥) د . أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٢١ .
(٦) الإمام محمد أبو زهرة : محاضرات في الوقف ، ص ٩ .
(٧) الإمام أبي حنيفة هو : النعمان بن ثابت التيمي الكوفي ، فقيه العراق وأحد أئمة الإسلام الأعلام ، وأحد أركان العلماء أصحاب المذاهب المتنوعة ، وهو أقدمهم وفاة لأنه أدرك عصر الصحابة ورأى أنس بن مالك ، وذكر بعضهم أنه روى عن سبعة من الصحابة كما روى عن جماعة من التابعين ، وروى عنه جماعة ، وكانت وفاته في رجب سنة ١٥٠هـ وعن ابن معين سنة ١٥١هـ وقال غيره سنة ١٥٣هـ والصحيح هو الأول ، وكان مولده في سنة ٨٠هـ فتم له من العمر سبعون سنة ، وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام ، وقبره هناك رحمه الله انظر ابن كثير ؛ البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٥٩.

وأبناء السبيل ، يقرعون فيها ، ثم إن بدا للواقف أن يرجع فيها ، ولورثته من بعده أيضاً "[١] .
ويعلق يوسف العش عل هذا فيقول :"... وهكذا فوقف المصاحف ممكن ، ولكنه غير مؤبد ، إنه يتبع رغبة الواقف ورغبة وارثيه "[٢] .

وقد سعى البعض لوقف نسخ من القرآن الكريم في المساجد ، فكان أول من سعى لهذا العمل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، إذ وضع نسخاً من القرآن الكريم في مساجد مختلفة من الدول الإسلامية[٣] ، ثم توالى بعد ذلك وقف أعداد من المصاحف على المساجد وأماكن التعليم ومن ذلك أن إسحاق بن مراد أبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦هـ) كتب أكثر من ثمانين مصحفاً وجعلها في مسجد الكوفة[٤] .

على أية حال فإنه مع تطور حركة التأليف والنقل عن اللغات الأخرى في نهاية القرن الثاني الهجري ، لم تعد عملية الوقف قصراً على المصاحف ، بل تعدتها لتشمل كتب العلم الأخرى ، ومن ذلك أن يحيى بن عيسى بن جزله الطبيب (ت ٤٧٣هـ) وقف كتبه على مشهد الإمام أبي حنيفة [٥]، كما ذكر ياقوت الحموي[٦] أن على بن طاهر بن جعفر (ت ٥٠٠هـ) كانت له حلقة في الجامع وقف منها خزانة فيها كتبه ، كذلك قام الخطيب البغدادي[٧] بالتوصية إلى أبي الفضل بن خيرون بوقف كتبه بعد موته ، وتفرقة جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم والحديث[٨] .

كذلك رأى ياقوت الحموي كتاب العروض لعمر بن جعفر الزعفراني[٩] ، في خمس مجلدات ضخمة في وقف جامع حلب[١٠] ، كما حبس محمد بن عتيق بن فرج المغربي الطليطلي (ت ٤٨٥هـ) من أهل الأندلس كتبه على طلبة العلم[١١] وحصل محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن

---

(١) د . يوسف العش : دور الكتب العربية العامة وشبه العامة ، ص ٩٩ .
(٢) د . يوسف العش : المرجع نفسه ، ص ٩٩.
(٣) د . أيمن فؤاد : الكتاب العربي المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٢٢
(٤) انظر ابن النديم : الفهرست ، ص ١٠١ .
(٥) انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٥ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٥٩، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١١ ، وما بعدها .
(٦) معجم الأدباء : ج ١٣ ، ص ٢٥٧ وما بعدها .
(٧) الخطيب البغدادي : هو أحمد بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي ، صاحب كتاب تاريخ بغداد ، أحد الأئمة المشهورين والمصنفين المكثرين والحفاظ ، سافر ورحل إلى نيسابور طالبا للعم والحديث ، ت ٤٦٣هـ ، للمزيد انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ص ١٣ ـ ٤٥ .
(٨) ياقوت الحموي ؛ المصدر نفسه ص ٤٥ و انظر ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ، ص ٣٧٤ ، وما بعدها
(٩) عمر بن جعفر الزعفراني كان أحد أعيان أهل الأدب ، وكان في عصر ابن النديم ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ٥٩ ..
(١٠) المصدر نفسه ج ١٦ ، ص ٥٩.
(١١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٨٧ .

مسعود أبو سعيد البندهي (ت ٥٨٤هـ) كتباً لم تحصل لغيره ووقفها جميعها بخانقاه السميساطي[١] ، كما وقف ياقوت الحموي كتبه على مشهد الزيدي ببغداد[٢] ، وقد يكون الزيدي هذا هو ابن الحسن على بن أحمد العلوي الزيدي صاحب وقف الكتب بدرب دينار ببغداد[٣] .

كما خلف الحافظ عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن الرهاوي (ت ٦١٢هـ) كتباً وقفها بمسجد كان سكنه بحران[٤]، كذلك كان لعلي بن فضال بن على المجاشعي كتباً في الوقف السلجوقي ببغداد ، بلغ عدد نسخ كتاب واحد منها حوالي ثلاثين مجلداً[٥] ، وهكذا شهدت أرجاء العالم الإسلامي نماذجاً رائعة لوقف الكتب والمؤلفات في المساجد وغيرها من مراكز العلم والتعلم .

وقف الكتب والمكتبات ببلدان المشرق الإسلامي (إيران ـ خراسان ـ ما وراء النهي):

على أية حال ، فلم تكن بلدان المشرق الإسلامي بمعزل عن هذه الظاهرة الثقافية الاجتماعية التي لعبت ولاشك دوراً هائلاً في إثراء المكتبات الإسلامية . ونحن لا نستبعد أن ظاهرة وقف الكتب ببلدان المشرق الإسلامي بدأت أيضاً بوقف المصاحف ، ثم تطور الأمر إلى وقف شتى أنواع الكتب لشتى أنواع العلوم والمعارف ، فقد كان أبو حبيب محمد بن أحمد بن موسى الجامعي المصاحفي[٦] يكتب القرآن ويسبله[٧] ، وقد أشار إليه السمعاني في موضع آخر من مؤلفه ، وذكر أنه كان يكتب المصاحف حسنة ويوقفها[٨] ، كما قام عمرو بن عيينه الفارسي بشراء مصاحف بألف ألف درهم ووقفها في مدن الإسلام[٩] . كذلك وقف أبو نصر زفر بن حمزة بن على السرنجاني كتاب معالم السنن لأبي سليمان الخطابي في مجلدين بخط مليح على أصحاب الحديث ، ووضعهما في يد والد السمعاني لينتفع بهما الناس "[١٠]

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص.ص ٢١٥ ـ ٢١٦ ، وخانقاه السميساطي : قد تكون نسبة إلى سميساط وهي من بلاد الشام ، ويظن السمعاني أن الخانقاه التي في دهليز جامع دمشق والأوقاف التي بها لأبي القاسم على بن محمد بن يحيى السلمي ، وأنه وقفها على الصوفية والعميان من أهل القرآن ، وقد توفي السلمي هذا ٥٨٤هـ انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ ، وانظر أيضاً : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥٩١ ، وابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٣٥٢ وما بعدها .

(٢) انظر ابن القفطي ؛ انباه الرواه ، ج ٤ ، ص ٨٤ . .

(٣) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٣ .

(٤) ياقوت الحموي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢٠ .

(٥) المصدر نفسه ؛ ج ١٤ ، ص ٩٢ .

(٦) هو أبو حبيب محمد بن أحمد بن موسى الجامعي المصاحفي ، سمي بذلك لأنه كان يكتب كتاب الجامع ، كما كان يكتب المصاحف ، ظل مجاوراً للجامع قريباً من خمسين سنة ، (ت ٣٥١هـ)وهو ابن ٩٣سنة . انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ص ص ١٢ ـ ١٣ .

(٧) المصدر نفسه ص ١٣ .

(٨) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٣٠٨ .

(٩) انظر الاصطخري : المسالك والممالك ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(١٠) انظر السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥١ ، وينسب زفر بن حمزة هذا إلى قرية سرنجان وهي قرية من قرى أصبهان ، وكان من أهل العلم والخير . انظر المصدر السابق نفسه .

وسعى كل من أبي غانم الحسين ، وأبي الحسن على ابني عيسى بن الحسين الكندري إلى وقف مجموعة من الكتب في جامع بقزوين ، فذكر كل من السمعاني وياقوت الحموي أن لهما في جامع قزوين كتب موقوفة تنسب إليهما في الصندوق المعروف بالعثماني[١] .

كما وقف الشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري كتاب التقريب في ست مجلدات بخزانة الكتب التي بالمدرسة العادلية بدمشق ، وقد عاين ابن خلكان الكتاب بنفسه في الخزانة سنة ٦٦٥ هـ وذكر أنه كتب عليه ما يشير إلى أنه من تصنيف أبي الحسن القاسم ابن أبي بكر القفال الشاشي[٢] .

كذلك كان لمحمد بن إسحاق الزوزني المتوفي بغزنة ٤٦٣هـ ، نسخة من كتاب غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي موقوفة برسم خزانة الكتب الموضوعة في الجامع القديم ، موقوفة على المسلمين ، وصفت بأنه لم يبق من ذلك الكتاب نسخة أبين ولا أملح منها ، وذلك لأنها قرئت على الشيخ عبد الغافر ابن محمد الفارسي قراءة سماع وعلى الحاكم الإمام أبي سعد بن دوست قراءة تصحيح وإتقان .[٣]

كما جمع أبو نصر أحمد بن يوسف السليكي المنازي الكاتب كتباً كثيرة ، ثم وقفها على جامعي ميافارقين أمد ، وقد ظلت موجودة بخزائن الجامعين حتى عصر ابن خلكان الذي عاين هذه الكتب بنفسه ، وقد عرفت هذه المجموعة من الكتب بكتب المنازي[٤] .

وقف أبو المعالي محدود العارف الأديب اللغوي كتبه في الجامع المنيعي بنيسابور[٥] وكذلك قام رشيد الدين الوطواط بوقف ألف مجلد من الكتب على خزائن الكتب المبنية في بلاد الإسلام إذ قال في إحدى رسائله ... " وهاأنذا قد أتاني الله من الوجه الحلال قريباً من ألف مجلد من الكتب النفيسة ، والدفاتر الفائقة ، والنسخ الشريفة ، ووقفت كلها على خزائن الكتب المبنية في بلاد الإسلام ، عمرها الله لينتفع المسلون بها "[٦] .

---

(١) انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٠٢ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٤٨ ، وينسبا إلى كندر وهي موضعان أحدهما قرية من نواحي نيسابور ، والثانية قرية من قزوين ، وهما ينتسبان لكندر القريبة من قزوين . والأمر ذاته ذكره ابن الجوزي وإن لم يفض فيه . انظر: ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٦ ، ص ٩٢ ..
(٢) انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ وهو من علماء ما وراء النهر.
(٣) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ٢٠ .
(٤) انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ، ص ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، وانظر أيضا ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٥) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٦٩ .
(٦) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٩ ، ص ٩٨ وما بعدها .

وكان مسجد عقيل بنيسابور يحوي خزائن الكتب الموقوفة[١] ، وكذلك قام أبو حاتم بن حبان البستي بوقف كتبه في دار خصصها لذلك وكانت كثيرة[٢] .

هذا وقد شهدت بلدان المشرق الإسلامي الكثير من دور وخزائن الكتب الموقوفة ، فقد كانت دار كتب فيروز أباد وقفاً [٣] واشتملت على عدد هائل من الكتب ، كما كانت خزائن كتب مرو وقفاً ، فقد أقر ياقوت أنه عاين بها عشر خزائن للوقف[٤] . وكانت خزائن كتب مدارس مرو وقفاً ، وكانت خزائن كتب النظاميات وقفاً أيضاً[٥] .

وهكذا فقد سعت طائفة من أهل العلم ، وأهل الخير إلى وقف الكتب ، ويمكننا من خلال نماذج وقف الكتب التي عرضنا إليها تمييز ثلاثة أنواع (أشكال) لوقف الكتب .

الشكل الأول : هو سعي طائفة من أهل العلم إلى وقف أعمالهم ومؤلفاتهم أو بعض منها ، ليستفيد منها غيرهم من طلبة العلم ، كما فعل أبو المعالي محدود الأديب اللغوي الذي وقف كتبه في الجامع المنيعي بنيسابور[٦] ، وكما فعل جبرائيل بن عبيد الله ، الذي وقف نسخة من كتابه الطبي الكبير(الكافي) بالري ، ويبدو أنه جعلها وقفاً على بيمارستان الري ، إذ ذكر ابن أبي أصيبعة أنهم يعملون بها في البيمارستان[٧] .

الشكل الثاني : هو قيام بعض أهل العلم بوقف ما يمتلكون من الكتب والمؤلفات ، فقد كان أمراً شائعاً أن نرى أحد الدارسين يمنح كتبه لاستخدام المسلمين ، أو أهل العلم[٨] ، ولم يكن من الضروري في هذه الحالة أن تكون هذه الكتب والمؤلفات من تأليفهم ، بل قد تكون لغيرهم من المصنفين والمؤلفين ، كما فعل الشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري الذي وقف كتاب التقريب في ست مجلدات، وهو من تأليف أبي الحسن القاسم ابن أبي بكر القفال الشاشي[٩] وكما فعل

---

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٣٨ .
(٢) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .
(٣) انظر: ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ص ٤٩ ، ٥٠ ، وانظر أيضاً ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ، ص ٣٥٠ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٥) انظر: البنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٥٤ .
(٦) انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٦٩ .
(٧) سمي ذلك الكناش الكبير بالكافي نسبة إلى لقب الصاحب بن عباد لمحبته له ، وكان قد وقف نسخه منه على دار العلم ببغداد . انظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ص ١٨٩ ، ١٩٠ .
(٨) Gibb, Kramers : Shorter encyclopaedia of Islam , , P.301 .
(٩) انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

محمد بن إســحاق الزوزوني الذي وقف نسخة من كتاب غريب الحديث لأبي ســليمان الخطابي(١)، كذلك وقف أبو سعد المستوفي كتباً نفيسة في المدرسة التي بناها بمرو(٢).

الشكل الثالث : هو قيام بعض أهل العلم والخير بوقف مكتبات (دور كتب) هائلة على أهل العلم من العلماء والأدباء والدارسين ، اشتملت مثل هذه الدور على أعداد هائلة من الكتب ، اتسمت بالتنوع والتعدد ، لخدمة شتى مناحي العلم والمعرفة سواء الديني ، أو الدنيوي ، ومن أمثلة ذلك دار كتب فيروز أباد التي سبق وأشرنا إليها(٣) ، ودار كتب ابن حبان البستي(٤) ، ودار كتب رامرهرمز(٥) ، وخزائن الوقف بمرو(٦)، وخزائن كتب المدارس النظامية وغيرها. هذا وقد أشار البعض إلى أن الأثرياء من الأمراء عمدوا إلى جمع مجموعات من الكتب الدينية والعلمية والأدبية وجعلوها في متناول الدارسين من قبيل تحقيق واجهة اجتماعية(٧) وهو ما لا يمكن تعميمه .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن خزائن الكتب التي كانت توقف لأعمال البر والإحسان ، كان يتم الإنفاق عليها من خلال بعض الأوقاف(٨) التي كانت تعد لمثل هذا الأمر ، ونعرض فيما هو آت لنص وقفية تشتمل على بنود الصرف التي كانت تصرف على إحدى المؤسسات الخيرية والتي اشتملت على قبة ومسجد جامع ومدارس وخانقاه ودار للسيارة ، ومرصد ودار للشفاء ودار للقضاء ودار للكتب قام بتأسيسها غازان خان(٩) في تبريز(١٠) .

وكانت أوجه الصرف المتعلقة بدار الكتب تنقسم إلى: إضافات ومصالح ، أما الإضافات فكانت تشتمل الفرش ، والتخطيط ، وثمن الشمع المذاب ، الذي يستخدم في دار الكتب ، وأما المصالح فاشتملت تكاليف إصلاح الكتب وترميمها ، وسداد ثمن الكتب الضرورية ، التي يتم شرائها.(١١)

---

(١) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ٢٠ .
(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٧ ، ص ٧٢ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٩٥ .
(٣) انظر ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٣٨١ .
(٤) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٧٩ .
(٥ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤١٣.
(٦) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٣٤ . .
(٧) Stephan: Concise encyclopaedia of Arabic civilization P.325 .
(٨) كانت بعض الأوقاف تخصص ليصرف من دخلها على بعض المؤسسات الخيرية . وحول هذا الأمر انظر : على أصغر فقيهي : تاريخ جامع قم ، ص ١٢٥ وما بعدها .
(٩) غازان خان هو : الابن الأكبر لأرغون خان الذي تزوج وهو في الثانية عشرة من عمره ، ولد ٦٧٠هـ / ١٢٧١م ، وتوفي ٧٠٣هـ . انظر : رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ ، غازان ص ٧٨ ص ١٩٥ .
(١٠) انظر المصدر السابق ، ص ٢٩٩ ، وانظر أيضا :
Philip k . Hitti : The near east in history, a 5000 year story , D. V an nostrand company , london , England P.298.
(١١) انظر: رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ ، غازان ، ص ٢٤٦ .

وجاء في نص الوقفية :

(... نفقات عمارة أملاك الأوقاف ، والتي أسبل زرعها من الضياع والعقار والأراضي المستغلة المتعلقة بأبواب البر المذكورة ، في كل ولايات الممالك ، حيثما ووجد شئ منها بمقتضى شرط الواقف ، وحيث أن الهمة المباركة قد اقتضت أن يستفيد أكثر أصناف الخلق من هذه الخيرات ، ومن أبواب البر كذلك حسب الشروط المعينة ، أوقف غازان على هذا كله ما كان يمتلكه شرعاً فهو حقه المطلق ، وملكه المطلق بطريقة لا يمكن أن تتيح مجالاً لأي طاعن الاعتراض عليها ، وقد قطع بصحتها جميع المفتين العلماء الكبار ، وقضاة الإسلام)(١).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الوقفية كتب منها سبع نسخ وزعت على أكثر من مكان(٢)، وقد كان للمكتبة في عهد غازان شأن كبير ، إذ لم تكن فقط داراً للكتب ، بل كانت أيضاً أشبه ما يكون بدار الوثائق ، ففيها تحفظ السجلات الخاصة بالولايات والمدن والقرى . وهو ما قره غازان نفسه إذ قال : " ... ثم أمرنا بجمع كل السجلات الخاصة بالولايات وإيداعها المكتبة الملحقة بالقبة والخانقاه ، وأبواب البر التي أقمناها في تبريز ، وقد أودعت لدى المسئولين الثقات وصدر المرسوم بالمحافظة عليها وخصصنا للمكتبة وقفاً كما جاء في شروط الوقفية ... وإذا ما فقدت نسخة أو لائحة ، كانت قد أعطيت لأحد الأشخاص فإنه يزود بنسخة أخرى من المكتبة حتى يحصل بذلك الثواب "(٣) .

على أية حال ، فإن ما يعنينا حقاً هو ذلك الأثر الإيجابي لظاهرة الوقف التي ساعدت على إثراء عالم الكتب والمكتبات ، سواء بوقف الكتب ذاته ، أو وقف الأوقاف للصرف على دور وخزائن الكتب .

وخلاصة القول : أن بلدان المشرق الإسلامي شهدت نشأة الكثير من خزائن الكتب العامة والملحقة ، وقد لوحظ على هذه الخزائن أمور منها :

أولا : أن مسئولية إنشاء دور وخزائن الكتب العامة ، أو الملحقة لم تكن تقع على عاتق الدولة ، أو الحاكم فقط ، بل قد يتاح لأحد الناس من أهل العلم ، أو أهل الأدب ، أو أهل الحكم والرياسة أو حتى غيرهم أن ينشئ خزانة كتب ، أو داراً للكتب .

(١) رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ : غازان ، ص ٢٥١ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥١.
(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩٩ .

ثانياً : لوحظ أيضاً أن خزائن الكتب الملحقة بالمساجد كان لها السبق في الظهور في عالم الكتب والمكتبات على خزائن كتب المدارس ، وأنها ظلت تضطلع بدورها حتى بعد ظهور المدارس وإلحاق خزائن الكتب بها .

ثالثاً : لوحظ أيضاً أن خزائن الكتب الملحقة بالمساجد ، لم تكن تعني فقط بالعلوم الدينية ، أو ما يخدمها من علوم اللغة ، بل اتسعت حتى اشتملت على الكثير من المؤلفات في العلوم الدنيوية وغيرها من العلوم ، بدليل اشتمال خزانة كتب أبي العباس الضبي ، والتي ألحقت بجامع الخصيب ، على مؤلفات في علوم الطب والرياضيات والطبيعيات ، والسير والإلهيات وغيرها ، واحتوت بعض هذه الخزائن على بعض الأجهزة والآلات التي تعين على البحث ، كالاصطرلاب وغيرها ، كما كان في خزانة كتب جامع ساوة .

رابعاً : لوحظ أيضاً ارتباط نشأة المدارس وما بها من خزائن للكتب ، بالترويج والدعم إلى بعض المذاهب والاتجاهات ، فقد أنشأت المدارس النظامية لدراسة المذهب الشافعي ، وقد انعكس ذلك ولاشك على طبيعة خزائن كتب هذه المدارس .

خامساً : لعبت ظاهرة وقف الكتب دوراً هاماً في شيوع خزائن الكتب ، سواء العامة أو الملحقة فقد كانت معظم دور وخزائن الكتب العامة التي عرضنا لها وقفاً .

سادساً : لوحظ أيضاً أن إدارة الوقف كانت هي المسئولة عن الإنفاق على تجديد هذه الخزائن وترميم كتبها ، وإصلاح ما تلف منها ، وقد ساعد ذلك ولاشك على إثراء المكتبات واضطلاعها بدورها لأكبر وقت ممكن .

سابعاً : لوحظ أيضاً وجود إدارة مسئولة عن هذه الخزائن منوط بها تيسير عملية الإطلاع والنسخ ، فكان هناك الخازن والفراش وغيرهم ، وكانوا يمنحون الرواتب من خلال إدارة الوقف ، التي اضطلعت بعبء الإنفاق على هذه الخزائن .

ثامناً : اتضح لنا مما سبق وجود صلة وعلاقة وثيقة ما بين الخزائن العامة والملحقة ، وما بين الوقف ، فطالما ذكرت عبارة (خزانة وقف ، أو دار كتب وقف) تبادر إلى الذهن مباشرة أنها خزانة عامة ، ولكننا لاحظنا وجود خزائن كتب خاصة وقفها أصحابها

فأخذت بذلك صفة العموم وأصبحت خزانة كتب عامة ، كخزانة كتب مدرسة ابن حبان البستي .

تاسعاً : لوحظ أن هذه الخزائن كانت معدة إعداداً فنياً من حيث الفهرسة والتصنيف ، بدليل وجود بعض الفهارس لبعض هذه الخزائن ، كما في خزانة كتب أبي العباس الضبي ، ودار كتب الري وغيرها

عاشراً : لوحظ أن هذه الخزائن أتاحت بعض الخدمات كالاستعارة الخارجية ، والنسخ ، وهو ما شاهده ياقوت الحموي ، ومارسه في مرو ، هذا وإن وجدت بعض هذه الخزائن لا تتيح سوى الاستعارة الداخلية ، أو خدمة الإطلاع والنسخ كما كان في دار كتب ابن حبان البستي .

*****

الفصل الثالث

خزائن الكتب الخاصة في بلدان المشرق الإسلامي

(الفصل الثالث)

(خزائن الكتب الخاصة بالمشرق الإسلامي)

(إيران ــ خراسان ــ وما وراء النهر)

أولا : نماذج لخزائن كتب أبناء المشرق في شتى أنحاء العالم الإسلامي .

ثانياً : خزائن الكتب الخاصة بأبناء بلدان المشرق الإسلامي :

١ ــ خزانة كتب الأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي النيسابوري .

٢ ــ خزانة كتب أبي عبد الرحمن بن هانئ النيسابوري .

٣ ــ خزانة كتب أبي نصر سهل بن المرزبان .

٤ ــ خزانة كتب إبراهيم بن إسحاق الحربي .

٥ ــ خزانة كتب إسماعيل بن الحسين بن جعفر الصادق المروزي .

٦ ــ خزانة كتب أبي بكر القفال الشاشي .

٧ ــ خزانة كتب الطبري .

٨ ــ مكتبة أبي بكر محمد بن زكريا الرازي .

ثالثاً : نماذج متنوعة لخزائن الكتب الخاصة .

رابعاً : المكتبات المتنقلة .

خامساً : جماعي الكتب .

سادساً : العوامل والضوابط التي تحكم عملية جمع الكتب والمؤلفات .

سابعاً : كيفية جمع بعض مؤرخي المشرق للكتب والمؤلفات :

١ ــ كيفية جمع الحاكم أبو عبد الله بن البيع للكتب والمؤلفات .

٢ ــ كيفية جمع الثعالبي النيسابوري للكتب والمؤلفات .

(الفصل الثالث)

خزائن الكتب الخاصة

كما شهدت بلدان المشرق الإسلامي مجموعات من دور وخزائن الكتب العامة ، التي اتسمت بالتميز والتنوع ، شهدت أيضاً عدداً هائلاً من خزائن الكتب الخاصة ، شأنها في ذلك شأن باقي بلدان العالم الإسلامي ، فقد شهدت بلدان العالم الإسلامي ، سواء في مصر أو العراق أو الأندلس[1] عدداً هائلاً من خزائن الكتب الخاصة التي لعبت دوراً هائلاً ورائداً في إثراء الحياة الثقافية والعلمية في بلدان العالم الإسلامي .

الأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد كان للواقدي المؤرخ (ت ٢٠٧هـ) كاتب المغازي والسير والطبقات والأحداث حوالي ستمئة قمطر من الكتب ، وقيل أنه عندما انتقل في بغداد من الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي حمل كتبه على مئة وعشرين وقر[2] ، كما كان لابن حاجب النعمان خزانة كتب تحوي كل فريد ونفيس من الكتب والمؤلفات ، ذكرها ابن النديم فقال ".. لم يشاهد خزانة للكتب أحسن من خزانته لأنها كانت تحتوي على كل كتاب عين وديوان فرد بخطوط العلماء المنسوبة "[3] ، وامتلك أبو العباس الكوفي المعروف بابن عقده (ت ٣٣٢هـ) حوالي ستمائة حمل من الكتب[4].

وكان لأبي حسان الزيادي القاضي البغدادي (ت ٢٤٣هـ) خزانة كتب حسنة ، وصفها ياقوت الحموي بقوله :"...وكانت له خزانة كتب حسنة كبيرة[5] " ، كما كان لابن الكوفي خزانة كتب هائلة ، إذ كان جماعة للكتب توفي والده وترك له أكثر من خمسين ألف دينار صرفها جميعها في طلب العلم وتحصيل الكتب شراءاً أو استنساخاً وكتابة ، وكان لكثرة ما عنده من الكتب يعين لكل نوع منها موضعاً مخصوصاً في خزانته ويكتب على أول الكتاب ليجده إذا طلبه ويعيده إلى موضعه إذا فرغ منه[6] . وكان لابي خليفة الفضل بن الحباب الجميحي ت ٣٠٥هـ قمطران من الكتب قمطر فيه أحاديث وقمطر فيه أخبار , وكان على ما يبدو يفتح داره لأصحابه

---

١) حول خزائن الكتب في العراق : انظر كوركيس عواد ، خزائن الكتب في العراق ، صفحات متعددة . وحول خزائن كتب بلاد الأندلس ، انظر د/ حامد الشافعي دياب : الكتب والمكتبات في الأندلس ، ط ١ ، دار قباء للطباعة والنشر ١٩٩٨م ، ص ص ٩٣ - ١٤٣ .

(٢) انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ، ج ٣ ، ص ٦ . والسمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٥٦٧ .

(٣) انظر: ابن النديم : الفهرست ، ص ١٩٣ ، وابن حاجب النعمان من أبناء القرن الرابع الهجري . المقصود بكتاب عين وديوان فرد ، أي الكتاب النفيس ، ودواوين الشعر المتفردة والمتميزة .

(٤) انظر: ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٤ ، ص ٣٧ .والذهبي : العبر ... ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٠٩ .

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٩ ، ص ١٨ ، وأبو حسان الزيادي كان قاضياً من أعيان أصحاب الواقدي المؤرخ ، وكان أديبا فاضلا ، أخباريا جوادا ت ٢٤٣هـ ، أنظر المصدر نفسه .

(٦) انظر: ابن القفطي : انباه الرواه ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ .

ويتيح لهم فرصة الإطلاع والنسخ والكتابة من خزانته الخاصة [١]، وكان الحسن بن حمدون الكاتب (ت ٦٠٨ هـ) من المحبين للكتب المبالغين في اقتنائها وتحصيلها وشرائها خاصة كتب الأصول منها ، وقد جمع منها ما لم يتاح لأحد جمعه وتحصيله ، وكان مع ذلك يبيح إعارتها والإطلاع عليها لراغبيها ، وقد أشار إلى أنه برغم ذلك لم يفقد كتاباً قط [٢]. ، وهذا يعني أن الناس كانت تلتزم بالأمانة العلمية التامة .

على أية حال فقد كان امتلاك خزانة كتب خاصة ظاهرة واضحة المعالم في المجتمع الإسلامي. على أن أهم ما يعنينا هنا هو التعرض لخزائن الكتب الخاصة بأبناء المشرق الإسلامي ، فقد لوحظ على أبناء بلدان المشرق الإسلامي إيران ، خراسان ، وما وراء النهر اهتماماً واضحاً وزائداً بالكتب والمؤلفات ، كتابتها ونسخها وتحصيلها .

أولاً : نماذج لخزائن أبناء المشرق في شتى أنحاء العالم الإسلامي :

نذكر في البداية جملة من أبناء بلدان المشرق ممن رحلوا عن بلدان المشرق واستقروا في مناطق أخرى ، ولعل أبرز هؤلاء الفتح بن خاقان [٣] ، والذي كان من أولاد الملوك ، وكانت له خزانة كتب جمعها له على بن يحيى المنجم[٤] لم تر أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب ، وعلماء الكوفيين والبصريين[٥] ، وقد قال أبو هفان: " ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب إليهم من الكتب والعلوم ، الجاحظ والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي ، فأما الجاحظ فإنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويثبت فيها للنظر ، والفتح بن خاقان فإنه كان يحضر لمجالسه المتوكل[٦] فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل إلى عوده إليه ، حتى في الخلاء ، وأما إسماعيل بن إسحاق فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتباً ". [٧]

---

(١) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٦، ص ٢١١ ، وقد كان أبو خليفة الفضل بن الحباب أديبا إخباريا شاعراً نسابة ، ت ٣٠٥هـ ، انظر المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٢) المصدر السابق : ج ٩ ، ص ١٨٥ وما بعدها .

(٣) الفتح بن خاقان : كان في نهاية الذكاء والفطنة ، حسن الأدب ، اتخذه المتوكل أخا ، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله . انظر: ابن النديم : الفهرست ، ص ١٦٩ ، قتل مع المتوكل ليلة قتله سنة ٢٤٧ هـ ، انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٦ ، ص ١٧٤.

(٤) هو أبو الحسن على بن يحيى بن أبي منصور المنجم ، خدم أبوه يحيى المأمون ونادم المتوكل فكان من ندمائه وخواصه ونادم الخلفاء حتى أيام المعتمد على الله ت ٢٧٥هـ . انظر ابن النديم : المصدر السابق ص ٢٠٥ وياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص ١٤٤ ، وانظر أيضا ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص٣٧٣

(٥) ياقوت الحموي : المصدر نفسه ، ج ١٦ ، ص ١٧٤ .

(٦) المتوكل : هو جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد ، ولد ٢٠٥هـ ، وقيل ٢٠٧هـ ، ولي الخلافة الخلافة ٢٣٢هـ، وقتل ٢٤٧هـ ، وللمزيد من المعلومات انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٤ وما بعدها من صفحات

(٧) ابن النديم : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

ويلاحظ أن هذه الخزانة حوت الكثير من العلوم والمعارف والآداب ، وأنه روعي فيها التأنق ، خاصة وأن دار الفتح بن خاقان كانت مجمعاً للفصحاء من الأعراب والعلماء ، ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن هذه الخزانة لم يجمعها الفتح بنفسه ، بل اضطلع بجمع مؤلفاتها وإعدادها على بن يحيى المنجم ، الذي أشار إليه ابن النديم وياقوت الحموي إذ قال " ... ثم اتصل بالفتح بن خاقان وعمل له خزانة نقل إليها من كتبه ومما استكتبه للفتح بن خاقان أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط[1].

ويبدو مما ذكر أن على بن يحيى المذكور نقل إلى الخزانة التي جمعها للفتح كتبه ، كما كلف بعض الوراقين والنساخ بكتابة بعض الكتب ، ونقلها للخزانة ، وهو ما يعكسه لنا قوله :".. ومما استكتبه للفتح " ، ويبدو أيضاً أن هذه الخزانة شملت أكثر ما شملت كتباً في الحكمة[2] وعلم النجوم ، ودليلنا على ذلك ما ذكر بصدد خزانة كتب علي بن يحيى نفسه ، إذ كان لعلي هذا ضيعة وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة عرفت بخزانة الحكمة ، قصدها الناس من كل بلد ، فكانوا يقيمون فيها ويتعلمون منها صنوفاً من العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال على بن يحيى ، وقد أشار ياقوت الحموي إلى أن أبا معشر المنجم زار هذه الخزانة وهو في طريقه من خراسان إلى الحج ، فقال : " ... فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شئ من النجوم ، فوصفت له الخزانة ؛ ومضى ورآها ، فها له أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم منها علم النجوم وأعرق فيها حتى ألحد ، وكان ذلك آخر عهده بالحج وبالدين والإسلام أيضاً "[3]بكل أسف .

فإذا كان هذا هو حال خزانة على بن يحيى المنجم ، فلا شك أن ذلك انعكس على خزانة الفتح بن خاقان ، خاصة وأنه المضطلع بأمر إعدادها .

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن هذه الخزانة كانت مفتوحة لكل من يقصدها ، حتى من البلدان الأخرى ، وكانت على ما يبدو معدة للإقامة والمبيت فيها ، حتى يتاح لهم فرصة المزيد من الإطلاع ، وكانت كافة نفقات هذه الخزانة من مال على بن يحي ، ويبدو أيضاً أن ما كانت تحويه هذه الخزانة أكبر من كل وصف ، وإلا فما معنى قوله " فها له أمرها " .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٥ . وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ١٤٤ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

(٢) وكانت الحكمة وعلى ما يبدو تشمل علوم النجوم والكهانة وأنواع علوم الفلسفة ، وقد مزجها بعضهم بعلم الكلام ، انظر : نجم الدين الرازي : مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد ، ترجمة وتعليق أحمد إسماعيل على ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٧م ، ص ٣٦٠ . وقد أشار ابن خلكان أن جل محتوياتها كانت في الحكمة . انظر ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

(٣) انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص ٥٧ . ويعكس لنا ذلك النص أمر غاية في الأهمية ، ألا وهو تأثير طبيعة محتويات خزائن الكتب على الميول والاتجاهات وهو ما سنعرض له في حينه .

ومن خزائن كتب أبناء المشرق التي كان لها ثقلها في عالم الكتب والمكتبات ، خزانة كتب أبي بكر الصولي[١] الذي وصفه ابن النديم[٢] بأنه من الأدباء الظرفاء الجماعين للكتب ، وقد قال أحد العلماء ... رأيت للصولي بيتاً عظيماً مملوء بالكتب ، وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان ، كل صنف من الكتب لون ، فصف أحمر ، وآخر أخضر ، وآخر أصفر ، وغير ذلك : قال وكان الصولي يقول هذه الكتب كلها سماعي[٣] المعنى .

ويلاحظ على كتب هذه الخزانة أنها كانت مرتبة ومجلدة ، جلودها مختلفة الألوان ، فهذا أحمر ، وهذا أخضر وذاك أصفر ، وقد كان كل لون من هذه الألوان يشير إلى فرع من فروع المعرفة ، تسهيلاً للحصول على الكتب المطلوبة ، مما يعني أنها كانت مصنفة تبعاً للألوان ، وهذا النوع من التصنيف يعرف حالياً بالتصنيف بالألوان ، ويتبع هذا النمط من التصنيف في بعض المدارس الابتدائية في وقتنا الحالي[٤]. بل ويعمد بعض العلماء إلى التصنيف بالألوان ، ولعل هذا يؤكد لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن عملية التصنيف بالألوان ليست بالحديثة ، بل هي قديمة ، وقد يكون أبو بكر الصولي هو أول من اتبع هذا النمط في التصنيف ، هذا في ضوء ما أطلعنا عليه من مصادر .

وقد كان لهذه الخزانة من يقوم بالإشراف عليها ، ودليلنا على ذلك ما ذكر في هذا ، إذ ذكر أن أبا بكر الصولي كان له خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة ورتبها فيها أجمل ترتيب ... وإذا اراد مراجعة كتاب منها قال : ياغلام هات الكتاب الفلاني ، فسمعه يوماً أحد الحاضرين فأنشد :

إنما الصولي شيخٌ ∴ أعلم الناس خزانة
إن سألناه بعلـــم ∴ نبتغي عنه الإبانة
قال ياغلمان هاتوا ∴ رزمة العلم فلانة [٥]

ويعكس لنا ذلك أن هناك من عمل بهذه الخزانة ، كما تعكس الأبيات الشعرية السابقة أن من عمل بها أكثر من واحد .

---

(١) أبو بكر الصولي : هو محمد بن يحيى بن عبد الرحمن العباس بن محمد بن صول المعروف بأبي بكر الصولي ، جده صول وأهله كانوا ملوك جرجان ، كان أحد العلماء بفنون الآداب ، حسن المعرفة بأخبار الملوك ، وأيام الخلفاء ، وكان حاذقاً بتصنيف الكتب : ت ٣٣٥ . انظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٢١٥ ، والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٣ ، ص ٤٢٧ وما بعدها ، وابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٤ ، ص ٦٨ ، الذهبي : العبر ج ٢ ، ص ٥٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ، ص ٣١٩ .

(٢) الفهرست ، ص ٢١٥ .

(٣) انظر: الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٣ ، ص ٤٢٧ ، والمقصود بقوله سماعي ، أنها مسموعة عن بعض أهل العلم ، والسماع إحدى طرق تلقي العلم ، وسنعرض له فيما بعد .

(٤) حول التصنيف بالألوان ، انظر د / حسن محمد عبد الشافي : مكتبة الطفل ، ط ١ ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني - بيروت ، ١٩٩٣م ، ص ١٥٧ .

(٥) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ١١١. وانظر أيضا ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٣٦٠

على أية حال فإن ذوي الخزائن الخاصة من أبناء المشرق الإسلامي كثيرون ، فقد كان لأبي عبيده معمر بن المثنى ت (٢١٠هـ) الكثير من الكتب والمؤلفات حتى أحصى له ابن النديم قرابة المائة مؤلف(١) ، كما كان الجرادي ت ٣٨٣هـ صاحب كتب كثيرة(٢) ، وكان لأبي الحسن على بن أحمد الدرديري(٣) اهتمام بالكتب حتى أن ابن دريد(٤) أوصى له بكتبه ، فصارت إليه كتب ابن دريد بعد موته ، وكان وراقاً له . (٥)

كانت هذه نماذج لذوي الخزائن الخاصة من أبناء المشرق الذين أقاموا خارج بلدان المشرق (إيران وخراسان وما وراء النهر) ونعرض الآن لنماذج أخرى من أبناء المشرق الذين عاشوا وأقاموا ببلدان المشرق .

ثانياً : خزائن الكتب الخاصة بأبناء بلدان المشرق الإسلامي :

(١) خزانة كتب الأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي النيسابوري :(٦)

وهو كما يقول الثعالبي ينتمي على آل ميكال(٧) ، وهم بيت من البيوتات المشهود لها في نيسابور بالعلم والأدب ، ورعاية العلماء والأدباء ، ويشير الثعالبي إلى أن الحديث عن فضائلهم يستغرق الكتب ، وقد اختص أبا الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي بمزيد من المدح والإطراء ، فذكر أنه (يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة الشمس على البدر ، ومكانه منهم كالواسطة من العقد ، لأنه يشاركهم في جميع محاسنهم وفضائلهم ... ويتفرد عنهم بمزية الأدب وما على ظهرها اليوم (يقصد نيسابور) أحسن منه كتابة وأتم بلاغة فهو من ابن العميد عوض ، ومن الصاحب خلف ، ثم إذا تعاطي النظم فكأن عبد الله بن المعتز ، وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وابا فراس الحمداني قد نشروا بعدما قبروا وهؤلاء أمراء الأدباء وملوك الشعراء)(٨) .
وقد كانت داره مجمعاً لأهل العلم والأدب حتى قال فيه أحدهم :

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٧٩ .
(٢) السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ، ص ٣٧ .
(٣) الدريدري : أصله من فارس وهو صاحب أبي بكر بن دريد العالم ، وقد أكثر من صحبته حتى عرف به ، وكان وراقاً لابن دريد، انظر ابن القفطي ، انباه الرواه ،ج ٤، ص ٤٦٥ ، والسيوطي : بغية الوعاه ، ص ٣٢٨ .
(٤) ابن دريد : هو أحد العلماء اللغويين المشهود لهم كان من العلماء الشعراء . انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ١٢٧ ، ١٣٧ .
(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٢ ، ص ٢٢٣ .
(٦) أبو الفضل عبيد الله بن أحمد المكيالي : هو أحد رعاة الأدب والأدباء في نيسابور ، وكان من المعاصرين للثعالبي النيسابوري .
(٧) أشاد الثعالبي بآل ميكال ومكانتهم الأدبية ، وللمزيد من التفاصيل ، انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٤٠٧ وما بعدها .
(٨) المصدر نفسه ، ص ٤٠٨ .

في دار مولانا الأمير ∴ محل أهل العلم عالي
لا سوق أنفق فيه من ∴ سوق المكارم والمعالي [(١)]

وقد كان لأبي الفضل المذكور خزانة أشار إليها الثعالبي في أكثر من موضع من مؤلفاته ، وأوضح لنا كيف استفاد منها استفادة مباشرة ، فذكر في مقدمة كتابه " فقه اللغة وسر العربية " ، أنه استعان في تأليفه لذلك الكتاب بمقتنيات مكتبة أبي الفضل عبيد الله إذ قال " ... وأمر أعلى الله أمره بتزويدي من ثمار خزائن كتبه عمرها الله بطول عمره، ما استظهر به على ما أنا بصدده ، فكان كالدليل يعين السفر بالزاد والطبيب يتحف المريض بالدواء والغذاء " [(٢)] .

كما ذكرها في إطار حديثه عن أبي الحسين الغويري الشاعر الذي كان مختصاً بالصاحب ابن عباد ، فقال: " ... وكانت في خزانة الأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد مجلدة ضخمة من شعر الغويري بخطه فاستعرتها واجتمعت أنا وأبو نصر سهل بن المرزبان على إخراج ما هو شرط كتابي هذا منها " [(٣)] .

وذكرها في موضع آخر، فقال مشيراً إلى كتاب "غريب المصنف":(... ولم أر نسخه أصلح منها ولا أصح وهي الآن في خزانة كتب الأمير السيد الأوحد عمرها الله بطول بقائه).[(٤)]

وهكذا يشير الثعالبي إلى خزائن كتب الأمير أبي الفضل عبيد الله بن ميكال ، ومن المحتمل أن يكون لذلك الأمير أكثر من خزانة كتب ، استناداً إلى ما قاله الثعالبي ، إذ قال : " ... وأمر أعلى الله أمره بتزويدي من ثمار خزائن كتبه "[(٥)] . كما أشار الثعالبي إلى إقامته عند ذلك الأمير في إحدى ضياعه في فيروز أباد، حيث كان يشهد مجالس الأدب، ولا يستبعد وذلك الأمر أن يكون لديه خزانة كتب في نيسابور ، وأخرى في فيروز أباد .[(٦)]

أما فيما يتعلق بالخدمات داخل هذه الخزانة ، فيبدو لنا أنها كانت متاحة ليس فقط للإطلاع الداخلي ، بل والاستعارة الخارجية أيضاً ، بدليل استعارة الثعالبي لبعض الكتب ، والتي كانت عوناً له في تأليف مؤلفاته [(٧)] "كفقه اللغة" ، "وسر العربية" و "يتيمة الدهر" وغيرها .

وبرغم ذلك فإنه لا يمكننا تعميم ذلك الأمر على عامة الناس ، فقد كان الثعالبي أحد المقربين ، لذلك الأمير ، والغالب لدينا أنه إنما أتاح فرصة الإطلاع والاستعارة من هذه الخزائن للمقربين من أهل العلم والدراية .

---

(١) انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٤٩٧ .
(٢) الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية ص ١٦ .
(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ ، والمقصود أنه استعان بهذه المجلدة في كتابة كتابه " يتيمة الدهر"
(٤) الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية ، ص ٤٣٤ .
(٥) المصدر نفسه : ص ١٦ ، وانظر أيضا ص ١٧ ، ص ٢٢ .
(٦) المصدر نفسه : ص ٨ .
(٧) انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ .

أما فيما يتعلق بطبيعة محتويات هذه الخزائن ، فقد عرض الثعالبي جانباً من محتويات خزانة كتب أبي الفضل عبيد الله بن ميكال ، وذلك من خلال عرضه لأسماء بعض العلماء والأدباء ممن وجد مؤلفاتهم في هذه الخزانة ، فقال :" ... وتركت والأدب والكتب انتقي منها وأنتخب ، وأفضل وأبوب وانتجع من الأئمة مثل الخليل والأصمعي وأبي عمرو الشيباني والكسائي والفراء وأبي زيد وأبي عبيدة وابن الأعرابي والنضر بن شميل ... وابن دريد ونفطويه وابن خالويه والخارزنجي والأزهري ، ومن سواهم من ظرفاء الأدباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء ، إلى إتقان العلماء ، ووعورة اللغة إلى سهولة البلاغة ، كالصاحب ابن القاسم ، وحمزة بن الحسن الأصبهاني ، وأبي الفتى المراغي ، وأبي بكر الخوارزمي والقاضي أبي الحسن على ابن عبد العزيز الجرجاني ، وأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني ، اجتلى من أنوارهم وأجتبى من ثمارهم واقتفى آثار قوم قد اقفرت منهم البقاع وأجمع في التأليف بين أبكار الأبواب والأوضاع وعون اللغات والألفاظ "(١) .

ويلاحظ على كل هؤلاء الذين ذكرهم الثعالبي أنهم من الأدباء واللغويين النحويين ، هذا مما يعني أن جل كتب خزانة أبي الفضل عبيد الله بن ميكال كانت في الآداب ، ولعل هذا الأمر يتفق وماله من عشق للآداب وهو ما أشار إليه الثعالبي . إذ قال ... وأما فنون الآداب فهو ابن بجدتها وأخو حملتها ومالك أزمتها وكأنما يوحي إليه في الاستئثار بمحاسنها والتفرد ببدائعها ... إذ قد انتهت إليه بلاغة البلغاء مما تظل الخضراء "(٢) .

(٢) خزانة كتب أبي عبد الرحمن بن هاني النيسابوري (٣) :

ومن خزائن الكتب الخاصة التي شهدتها نيسابور خزانة كتب أبي عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن هاني النيسابوري ، فقد ذكر أنه بيعت له كتب بأربعمائة ألف درهم . كما أشير إلى أنه كان قد أعد داراً لكل من يقدم عليه من المستفيدين فيأمر بإنزاله فيها ويزيح علته في النفقة والورق ، ويوسع النسخ عليه (٤) .

وقد كان لأبن هاني النيسابوري مؤلفاته الخاصة ، وقد كان أحدها في نوادر العرب وغرائب ألفاظها ، وفي المعاني والأمثال ، وكان يزيد على ألفي ورقة . أشار أبو منصور الأزهري إلى أجزاء منه مجلدة بسواد بخط متقن مضبوط (٥) .

---

(١) انظر الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية ، ص ٤٣٤ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٦ .
(٣) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن محمد بن هانئ النيسابوري ، وللمزيد من المعلومات انظر : أبا منصور الأزهري تهذيب اللغة ، ج ١ ، ص ٢٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤ .

ويعكس لنا ما ذكر بصدد خزانة كتب ابن هانئ النيسابوري أموراً منها أنه أتاح للعامة من الناس فرصة الاطلاع على خزانة كتبه ، بل والأكثر من ذلك إذ كان يوفر لهم الورق والنفقة وييسر لهم عملية النسخ والكتابة من محتويات خزانته ، ولعل ما قيل بصدد الأجزاء المجلدة من كتاب ابن هانئ النيسابوري يعكس لنا الحرص على تجليد الكتب لحفظها وصيانتها ، كما يعكس لنا الحرص على اقتناء كتب ومؤلفات كتبت بخط متقن مضبوط .

(٣) خزانة كتب أبي نصر سهل بن المرزبان : [1]

كان أبو نصر سهل بن المرزبان من هواة جمع الكتب ، وقد ترجم له الثعالبي النيسابوري فقال : هو غرة في جبهة عصره وتاج على أهل مصره ، وخارج بمحاسنه وفضائله عن المعتاد إلا ما لا يدرك بالاجتهاد ، واقف من الآداب على أسرارها ، قاطف من العلوم أحلى ثمارها ، وبلغ من علوه في محبتها، وشدة حرصه على اقتناء كتبها أن ركب إلى قراراتها بغداد الشقة ، وتحمل فيها المشقة، ولم يرض بذلك مرة، حتى كر إليها كرة، ليس له بها غير الأدب أرب، ولا سوى الكتب طلب، أنفق على تلك الفوائد من الطارق والتالد ما عوضه صنوف المحامد ، وقديماً قيل: " إنفاق الفضة على كتب الأداب يخلفك عليها ذهب الألباب" ، وليس اليوم بنيسابور ديوان شعر غريب يجري مجرى التحف ولا كتاب جديد يشتمل على بدائع الطرف إلا ومن عقده انتثر ومن يده انتشر ، ولا بها سواه من تسمو همته على يساره لارتباط الوراقين في داره" [2]

ويبدو مما ذكر الثعالبي مدى شغف أبي نصر سهل بن المرزبان ، بالكتب والمؤلفات ، ومدى حرصه على اقتنائها ، حتى أنه كان كثير الرحلات بحثاً عن الكتب والمؤلفات ، ومن ذلك أنه ذهب إلى بغداد أكثر من مرة لتحصيل هذه الكتب .

ويشير الثعالبي في مواضع شتى من مؤلفه يتيمة الدهر إلى ذلك الدور الذي لعبه أبو نصر سهل بن المرزبان في إدخال الكثير من الكتب والمؤلفات إلى نيسابور ، ومن ذلك أنه حمل ديوان الوأواء إلى نيسابور ، وكان قد استصحبه معه من بغداد في جملة ما حصله من اللطائف والبدائع التي عنى بها وانفق عليها الرغائب [3] ، كما يرجع إليه الفضل في إدخال مجلدة لأحد الخالدين[4] ، كان قد أعطاه إياها الوراق المعروف الطرسوسي في بغداد وقد حمله معه إلى

---

(١) أبو سهل بن المرزبان : أحد المهتمين بالعلوم والآداب ، وللمزيد انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٤٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ٤٥٢.

(٣) الثعالبي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٤) هما : أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم ، من قرية من قرى الموصل تعرف بالخالدية ، وكانا شاعرين وأديبين متميزين . انظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٠ ، والثعالبي : المصدر السابق ج٢ ، ص٢١٤

نيسابور في جملة ما حصل عليه من طرائف الكتب[١] كما يرجع إليه الفضل أيضاً في إدخال ديوان شعر ابن نباته السعدي[٢] ، ويعبر الثعالبي عن هذا الأمر فيقول : " ... وأول ما وقع من شعره إلى خراسان إنما وقع على يد أبي نصر سهل بن المرزبان فإنه استصحبه من بغداد في جملة ما حصله من طرائف الدفاتر ولطائفها وذخائرها وأخايرها،وأتحفني به وهو بغبار السفر[٣] ويرجع إليه الفضل أيضاً في إدخال شعر أبي القاسم عبد الصمد بن بابك إلى نيسابور[٤] .

على أية حال فقد كان أبو نصر سهل بن المرزبان عاشقاً للكتب كلفاً بجمعها خاصة النادر منها ، وكان من فرط عشقه للكتب كثير الارتباط ببعضها ، ومن هذه الكتب كتاب الذخيرة إذ قال فيه :

إذ أنت عالجت ذا علة ∴ فخذ للعلاج كتاب الذخيرة

فنعم الذخيرة للمقتنـــي ∴ ونعم الغياث لنفس خطيرة [٥]

وحول طبيعة خزانة كتب أبي نصر سهل بن المرزبان ، فقد كان جل ما حوته ــ وكما يبدو لنا في الآداب ، خاصة وعشقه للآداب واهتمامه بجمع دواوين الشعر الغريبة منها والتي لم يسبق دخولها إلى نيسابور ، وهو ما يعكسه لنا كل ما ذكر بصدده . فقد أشار الثعالبي إلى أنه رحل إلى بغداد .. " ليس له بها غير الأدب أرب " [٦] .

أما عن الأنشطة والممارسات داخل خزانة كتبه ، فقد كانت أبرز هذه الأنشطة هي النسخ والكتابة وهو ما يعكسه لنا قوله " ... لارتباط الوراقين في داره " [٧] ، ويبدو أيضاً أنه أتاح خدمة الاطلاع والاستعارة لراغبيها خاصة المقربين إليه كالثعالبي النيسابوري الذي أشار في أكثر من موضع إلى ما حصله منه من نوادر الكتب والمؤلفات ، ودواوين الشعر ، فقد أشار الثعالبي إلى أنه أعطاه دفتراً صغير الحجم ، من ديوان الوأواء[٨] ، كما اتحفه بديوان شعر ابن نباته السعدي حال وصوله من بغداد ، وكان لا يزال بغبار السفر على حد تعبير الثعالبي[٩] .

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ج٢ ، ص ١٣٨ .
(٢) ابن نباته هو : أبو نصر عبد العزيز ابن محمد بن نباته ، من فحول الشعراء . انظر الثعالبي : المصدر السابق ج٢ ص ٤٤٧ .
(٣) المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ٤٤٧ .
(٤) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ . وابن بابك أحد الشعراء المجيدين ، له ديوان شعر في ثلاث مجلدات ، ت ٤١٠ هـ ، وللمزيد انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ـ ١٩٨ .
(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٤٥٤ . وفي الأبيات يشيد أبو نصر بكتاب الذخيرة وينصح باقتنائه ويرى أنه علاج لكل علة .
(٦) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ٤٥٢ .
(٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٥٢.
(٨) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .
(٩) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٤) خزانة كتب إبراهيم بن إسحاق الحربي : [1]

ذكره ياقوت الحموي وابن القفطي فأشارا إلى أن أصله من مرو ، وإلى أنه عالم فاضل لغوي محدث ، كان إماماً في العلم ، قيماً بالأدب ، جماعاً للغة ، صنف كتباً كثيرة ، وقد أشير إلى أنه ورث أموالاً كثيرة فأنفقها في طلب الحديث.

كانت ثروته ورأس ماله مجموعة من الكتب، أفنى العمر في جمعها وتصنيفها، كان حريصاً عليها أشد الحرص حتى أنه مر بضائقة مالية فسألته زوجته بيع جزء من كتبه لسد حاجتهم ، فأبت نفسه ، وفي هذا قال إبراهيم بن إسحاق نفسه : " ... أضقت مره حتى انتهى أمري في الإضاقة إلى أن عدم عيالي القوت ، فقالت لي الزوجة هب أني وإياك نصبر ، فكيف نصنع بهاتين الصبيتين ؟ فهات شيئاً من كتبك نبيعه أو نرهنه ، فضننت بذلك وقلت اقترضي لهما شيئاً وانظريني بقية اليوم والليلة ، وكان لي بيت في دهليز داري فيه كتبي ، فكنت أجلس فيه للنسخ والنظر ، فلما كان في تلك الليلة إذا داق يدق الباب ، فقلت من هذا ، فقال رجل من الجيران ، فقلت أدخل ، فقال أطف السراج حتى أدخل ، فكببت على السراج شيئاً وقلت أدخل فدخل وترك إلى جانبي شيئاً وانصرف ، فكشفت عن السراج ، فنظرت فإذا منديل له قيمة وفيه أنواع من الطعام ، وكيساً فيه خمسمائة درهم ، فدعوت الزوجة وقلت نبهي الصبيان حتى يأكلوا ، ولما كان من الغد قضينا ديناً كان علينا من تلك الدراهم ، وكان مجئ الحج من خراسان ، فجلست على بابي من غد تلك الليلة ، وإذا حمال يقود جملين. عليهما حملان ورقاً وهو يسأل عن منزل إبراهيم الحربي ، فانتهى إلى فقلت أنا إبراهيم الحربي ، فحط الحملين وقال : هذان الحملان انفذهما لك رجل من أهل خراسان ، فقلت من هو فقال قد استحلفني ألا أقول لك من هو "[2].

ويتضح لنا من النص السابق أن خزانة كتبه كانت في دهليز داره ، حيث كان يجلس للنسخ والكتابة ، وبرغم ضائقته وحاجته إلا أنه كان هناك من يدرك مكانته العلمية والأدبية ، حتى بعث إليه بعض ذويه من خراسان بالورق الخراساني [3] ليواصل النسخ كما يبدو أيضاً أنه كان يواصل النسخ والإطلاع ليلاً على ضوء سراج أعد لذلك .

---

(١) إبراهيم بن إسحاق الحربي : كان إماماً في العلم ، عارفاً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، حافظاً للحديث ، قيماً بالأدب ، جماعاً للغة ، صنف كتباً كثيرة ، وأصله من مرو ، ولد عام ١٩٨هـ ، وتوفي ٢٨٥هـ . وانظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ص ٢٧ - ٣٣ ، ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ص ١١٥ - ١٢٨ ، وابن القفطي : انباه الرواه ، ج ١ ، ص ص ١٩٠ - ١٩٣ .

(٢) انظر الخطيب البغدادي : المصدر السابق ج ٦ ، ص ٣٢ . وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ص ١١٥ وما بعدها وابن القفطي : أنباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٩١٩ وما بعدها .

(٣) الورق الخراساني : كان من أفضل أنواع الورق وأرقاها، وحول أنواع الورق انظر هالة شاكر عبد الرحمن : الورق والوراقون في العصر العباسي ، ص ص ١٢٠ - ١٢٥ .

ولكن ترى ما هو حجم هذه الخزانة وطبيعتها ؟! الواقع أن ياقوت الحموي أشار إلى أن إبراهيم الحربي مرض حتى أشرف على الموت ، وخرجت ابنته تشكو حالهم ... فتبسم وقال : يا بنية أخفت الفقر ؟ فقالت: نعم، فقال لها هناك أثنى عشر ألف جزء لغة وغريب كتبته بخطي ، وإذا مت فوجهي كل يوم بجزء فبيعيه بدرهم ، فمن كان عنده إثنى عشر ألف درهم فليس هو بفقير" [١] .

ويتضح من رواية ياقوت أن خزانة كتب إبراهيم بن إسحاق الحربي حوت اثنى عشر ألف جزء من مؤلفاته في علوم اللغة والغريب ، وهذا عدد هائل ، فإذا كان هذا حجم مؤلفاته فما بالنا بما حوته هذه المكتبة من كتب أخرى ، كما يتضح لنا أيضاً أن نوعية الكتب التي حوتها خزانته كانت في معظمها من علوم اللغة والغريب، وهذا ليس بالعجيب، فقد كان إماماً جماعاً للغة ، كما إننا لا نستبعد أن خزانته حوت مجموعات من الكتب في فروع أخرى من العلم خاصة وما ذكر بصدده إذ ذكر أنه كان إماماً مصنف عالم بكل شئ بارع في كل علم . [٢]

(٥) خزانة كتب إسماعيل بن الحسين بن جعفر الصادق المروزي[٣] :

عرف إسماعيل بن الحسين بن جعفر الصادق بقاض مرو ، وكان له دار يرتادها كل ذوي العلوم ، وذكر ياقوت الحموي فقال : هو أعلم الناس يقيناً بالأنساب والنحو واللغة والشعر والأصول والنجوم ، ... وقد تفرد بهذا البلد ، بالتصدر لإقراء العلوم على اختلافها ، في منزل ينتابه الناس على حساب أغراضهم ، فمن قاري للفقه ، ومتعلم في النحو ، ومصحح للغة ، وناظر في النجوم ، وهو مع سعة علمه متواضع حسن الأخلاق ، لا يَرِد غريب إلا عليه ، ولا يستفيد مستفيد إلا منه"[٤] ، وكان له بعض المؤلفات الخاصة به ، ومن ذلك أنه ألف كتاب الفخري لفخر الدين الرازي بناءاً على طلبه وجعله منثوراً ليسهل عليه حفظه [٥] .

ويبدو مما سبق أن دار إسماعيل بن الحسين كانت بمثابة المنتدى الثقافي الذي يرتاده كل ذوي الاحتياجات الثقافية والعلمية ، برغم أن النص السابق لم يوضح لنا صراحة حجم كتبه وطبيعتها إلا أنه يمكننا استنتاج أنها كانت في فروع شتى من العلم ، خاصة والتنوع في طبيعة المترددين على هذه الدار .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ١١٨ .
(٢) المصدر نفسه : ص ١٢٢ .
(٣) كان معاصرا لياقوت الحموي ، التقى به ياقوت الحموي عام ٦١٤هـ انظر معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ١٤٨ .
(٤) المصدر نفسه : ص ١٤٦ وما بعدها .
(٥) المصدر نفسه : ص ١٤٨ .

(٦) خزانة كتب أبي بكر القفال الشاشي :[١]

كان أبو بكر القفال الشاشي عاشقاً للكتب ، امتلك خزانة كتب ، لم تفض المصادر ـــ التي اطلعنا عليها ـــ في وصفها ، وقد ذكر البعض أنه كتب على باب خزانة كتبه بعض الأبيات منها:

خليلي كتابي لا يعــاب وصـــاليا ∴ وإن قل لي مال وولي جماليا
وفي لي على حالي شـــباب وكبرة ∴ ولم يتجهمني لشـــيب قذاليـــا
على حين خانتني الحسان عهودها ∴ وقطعن من بعد اتصال حباليا
وتجافين عني إذ تجـــافت شـــيبتي ∴ وأنكرنني لما تنكـــرت حـــاليا
كتابي عشيقي حين لم يبق معشـــق ∴ أغازله لو كان يدري غزاليـــا
كتابـــي أبٌ برٌ وأمٌ شـــــفيقةٌ ∴ هما هو ، إذ لا أم و لا أباليـــا
كتابي جليســـي لا أخـــاف مـــلاله ∴ محدث صـــدق لا يخاف ملاليا
محدث أخـــبار القرون التي مضت ∴ كأني أرى تلك القرون الخواليا
فهم جلســـــاني لا بهـــــائم رتع ∴ حمير سدى ما يخطرون بباليا
كتابي بحـــــر لا يغيـــض عطاؤه ∴ يفيض على المال إن فاض ماليا
وتلفظ لي أفـــلاذ أكبـــاد كنـــــزه ∴ لجيـــناً وعقـــياناً ودراً لآلـــــيا
أدل بعلمــــــي أن أذل لجاهـــــل ∴ ويعقل عقلي أن يخـــل عقاليـــا
كتابي دليل لي على خـــير غايـــــة ∴ فمن ثم ادلالـــي ومنـــه دلاليـــا
إن أزغت عن قصـــد السبيل أقامنى ∴ وإن ضل ذهني ردني عن ضلاليا
فهـــذا خـــليلـــي لا أزال خـــليله ∴ وخـــير خـــلالي أن أديـــم خلاليا [٢]

والأبيات ـــ كما يبدو ـــ تعكس لنا مدى عشق أبي بكر القفال لكتبه ، فالكتاب كما يشير صديق وفي له ، في حال فقره وغناه ، وفي حال شبابه وكهولته ، حتى أنه جعله بمكانة الأب والأم ، ولقد أوضح أبو بكر من خلال هذه الأبيات فائدة الكتب بالنسبة له ، إذ هي تفتح له أبواب معرفة تواريخ القرون السابقة ، كما أنها تقطع عليه أسباب الملل الذي قد يتسرب إلى النفس .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن إسماعيل القفال الشاشي ، من أهل الشاش كان إمام عصره ، وكان فقيها ومحدثا ولغويا وشاعراً ، كان على المذهب الشافعي ، ولم يكن بما وراء النهر شافعي مثله ، رحل كثيراً طلبا للعلم والمعرفة إلى خراسان والعراق والحجاز والشام وغيرها . وصنف التصانيف المتميزة ، ولد ٢٩١هـ ، وت بالشاش ٣٦٥هـ ، وللمزيد انظر السمعاني الأنساب ج ٤ ، ص ٥٣٣ وابن خلكان وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٠٠ ، وابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٥ .
(٢) انظر الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٢٧ .

(٧) خزانة كتب الطبري : [١]

كان للطبري على ما يبدو لنا خزانة كتب هائلة ، هذا وإن لم تشر المصادر إليها صراحة ، إذا اكتفت مصادرنا بالإشارة إلى مكانته العلمية وحرصه على التأليف والتصنيف ، فذكر ياقوت أنه كان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره [٢] .

كما أشار إلى أنه كان جماعة للكتب ، فقد نقل على لسان أحد العلماء أنه قال : " ... لم أر بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء ومعرفة اختلاف الفقهاء وتمكنه من العلوم منه[٣] .

ومن ذلك أنه لازم داود بن على الأصبهاني [٤] مدة وكتب من كتبه ومؤلفاته شيئاً كثيراً وقد وجد في ميراثه من كتب داود بن على الأصبهاني نحو ثمانين جزءاً بخطه الدقيق [٥] .

ولم يكن الطبري يكتف بذلك ، بل كان يكلف بعض الوراقين بجمع ما يحتاج إليه من الكتب وفي هذا قال أبو القاسم الحسين بن حبيش الوراق ، كان قد التمس منى أبو جعفر أن أجمع له كتب الناس في القياس ، فجمعت له نيفاً وثلاثين كتاباً فأقامت عنده مديده [٦] كما كان يعمد إلى نسخ ما يتأتي له من الكتب . ومن هذا أنه كتب كتاب فردوس الحكمة لعلي بن زين الطبري ، وقد شوهد هذا الكتاب لدى الطبري في ستة أجزاء. فقد كان الطبري ذا همة في الكتابة والنسخ ، وقد جمع عدد ما كتب من أوراق وقسمت على سنوات عمره البالغة ست وثمانين عاماً ، فلوحظ أنه كان يكتب كل يوم أربعة عشرة ورقه وقيل أربعين[٧] وهو ما لم يستطعه أحد في وقته .

وقد اتسمت مؤلفات الطبري بكبر الحجم والتنوع ، فكان منها ما هو أربعمائة ورقة ، وكان منها ما هو خمسمائة ورقة ، ومنها ما هو ألفين وخمسمائة وهكذا .[٨] وليس أدل على كبر حجم مؤلفاته مما ذكر عنه من أنه أملى التفسير على الناس من سنة ٢٨٣هـ إلى سنة ٢٩٠هـ [٩]وقد

---

(١) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب محمد بن جرير الطبري المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ ولد ٢٢٤ وقيل ٢٢٥ وت ٣١٠ هـ من طبرستان . انظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٢٦ وما بعدها ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١٨ ، ص ٤٠ ، وما بعدها في صفحات ، وانظر ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان : ص ١٣٣ .

(٢) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٨ ، ص ٤١ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٧٥ .

(٤) دواود على الأصبهاني : أحد العلماء المشهود لهم ، ت ٢٧٠ هـ انظر ابن النديم : المصدر السابق ، ص ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .

(٥) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٨ ، ص ٧٨ .

(٦) المصدر نفسه : ج ١٨ ، ص ٧٨..

(٧) المصدر نفسه : ج ١٨ ، ص ٤٢ ، ص ٤٤ .

(٨) المصدر نفسه : ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ .

(٩) المصدر نفسه : ج ١٨ ، ص ٤٢ .

تنوعت كتبه ما بين فقهيه ولغويه وتاريخية ، فقد كان عالماً بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض ، وكان له في جميع ذلك تصانيف[١] .

وحول خدمة الاستعارة من كتبه ومؤلفاته فإننا لا يمكننا الجزم بأنه أباح الاستعارة والإطلاع على مؤلفاته ، خاصة وما أشار إليه أبو بكر بن كامل ... إذ قال: " جئت إلى ابي جعفر قبل المغرب مع أبني أبي رفاعة .. فوجدت تحت مصلاه كتاب فردوس الحكمة لعلي بن زين الطبري سماعاً له ، فمددت يدي لأنظر ، فأخذه ودفعه إلى الجارية " [٢] .

(٨) مكتبة أبي بكر محمد بن زكريا الرازي [٣] :

كان لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي كتباً لا شك أنها كانت كثيرة العدد ، ونستدل على ذلك من خلال فهرست كتبه ومؤلفاته الذي ذكره ابن النديم[٤] ، والذي حوى أكثر من مائة كتاب وقرابة الثلاثين رسالة ، هذا غير مجموعة أخرى في الصنعة والكيمياء [٥] .

وقد ذكره أحد رجال الري فقال : ... لم يكن يفارق المدارج والنسخ ، ما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسخ إما بسود أو يبيض[٦] .

وعلى ما يبدو فقد كان الرازي حريصاً على جمع الكتب وتحصيلها ، فقد أشار ابن أبي أصيبعة إلى أن الرازي كان مواظباً للنظر في غوامض صناعة الطب ، والكشف عن حقائقها وأسرارها ، وكذلك غيرها من العلوم ، بحيث لم يكن له دأب ولا عناية في جل أوقاته إلا في الاجتهاد والتطلع فيما قد دونه الأفاضل من العلماء في كتبهم حتى ذكر في بعض كتبه أنه كان له صديق يسامره على قراءة كتب بقراط وجالينوس .[٧]

كما أنه القائل : الاستكثار من قراءة كتب الحكماء والإشراف على أسرارهم ، نافع لكل حكيم عظيم ، وهو القائل أيضاً : (متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل) .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ٤٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٨ .(والصحيح مع ابني أبي رفاعة) .
(٣) حول الرازي أنظر : ابن النديم : الفهرست ، ص ٤١٥ وما بعدها ، وابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٥٨ وما بعدها ، وابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء .. ، ص ٣٨١ وما بعدها من صفحات .
(٤) الفهرست : ص ٤١٦ ـ ٤٢٠ .
(٥) ابن العبري : المصدر السابق ص ١٥٨ .
(٦) ابن النديم : المصدر السابق ص ٤١٥ ، وابن العبري: المصدر السابق ص ١٥٨ ، وابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٣٨١ .
(٧) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق : ص ٣٨١ .

وهكذا كان الرازي حريصاً على الكتب وقراءتها وتحصيلها ، ولكن ترى ما نوعية الكتب التي حوتها مكتبته الخاصة . الواقع أنه لم تشر أي من المصادر التي أطلعنا عليها ما يفيد في هذا الأمر بشكل مباشر، إلا إننا ومن خلال الإطلاع على فهرست كتبه ومؤلفاته التي ذكرها ابن النديم [١] لاحظنا أن معظمها كتب طبية ، وهو أمر يمكن الاستدلال عليه مما ذكره ابن أبي اصيبعة[٢] من أنه صنف كتب كثيرة في الطب وغيره ، كما قال ابن العبري[٣] مشيراً إليه بأنه : أوحد دهره وفريد عصره ، جمع المعرفة بعلوم القدماء لاسيما الطب " ، هذا إلى جانب لا بأس به في علوم الحكمة والفلسفة والفلك والكيمياء .

لوحظ أيضاً على فهرست كتبه أن علوم الأدب لم تنل من اهتمامه قدراً وافراً ، وعلى الرغم من ذلك فقد أشار ابن أبي أصيبعة[٤] إلى أنه : كان من صغره مشتهياً للعلوم العقلية مشتغلاً بها وبعلم الأدب ، ويقول الشعر ... .

ثالثاً : نماذج متنوعة لخزائن الكتب الخاصة :

شهدت بلدان المشرق الإسلامي نماذجاً متنوعة من خزائن الكتب ، فقد ترك يحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) ــ والذي كان والده على خراج الري ــ مائة قمطر[٥] من الكتب وأربعة عشر قمطراً مملوءة كتباً ، وقيل أنه لما مات ترك حوالي ثلاثين قمطراً وعشرين[٦] ، وكان والده قد ترك له بعد مماته حوالي ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فأنفق كل هذه الأموال على العلم والحديث حتى ليقال أنه لم يبق لديه نعل يلبسه[٧] .

ونذكر أيضاً أبا على الفارسي[٨] ، ذلك العالم الذي صنف كتباً متميزة ، حتى أشتهر عند الملوك والأمراء ، وكان ذا مكانة عند عضد الدولة ، حتى أنه كان يقول : ".. أنا غلام أبي على النحوي في النحو "[٩] ، وكان قد أملى الكثير من العلم في فارس ، إلا أن هذه الكتب فقدت في جملة ما فقد وأصيب به من كتبه[١٠]، وقد ذكر ياقوت الحموي طرفاً من مؤلفاته غلب عليها كتب

---

(١) الفهرست : ص ٤١٦ ـ ٤٢٠ .
(٢) عيون الأنباء : ص ٣٨٣ .
(٣) تاريخ مختصر الدول : ص ١٥٨ .
(٤) عيون الأنباء : ص ٣٧٩ .
(٥) القمطر هو : ما تصان فيه الكتب ، انظر المنجد : ص ٦٥٤ .
(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١٤ ، ص ١٨٣ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٣٩ وما بعدها .
(٧) انظر الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ١٧٨ ، وابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٣٩ .
(٨) سبقت الترجمة له ، وللمزيد أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٧ ، ص ٢٣٢ وما بعدها من صفحات .
(٩) المصدر نفسه : ج ٧ ، ص ٢٣٤ .
(١٠) المصدر نفسه : ج٧ ، ص ٢٥٥ .

الأدب والنحو ، وقد أشار أبو علي الفارسي نفسه إلى حريق وقع بمدينة السلام ، فقد في أثنائه جل كتبه ، خاصة ما جمعه من علم البصريين فقال: "..وكنت قد كتبت ذلك كله بخطي وقرأته على أصحابنا، فلم أجد من الصندوق الذي احترق شيئاً ألبته، إلا نصف كتاب الطلاق "[١]،وقد حزن أبو على الفارس حزناً شديداً استمر قرابة الشهرين ، على ما فقده من الكتب .

كذلك كان للعياش السمرقندي[٢] كتب أشار إليها حيدر الكتبي ، وذكر أن كتبه مائتان وثمانية كتاب ، وأنه ضل عنه من جميعها سبعة وعشرون كتاباً[٣] ، وقد لوحظ على كتبه التي ذكرها ابن النديم أنها في معظمها كتب فقه ، وقليل منها في سير الخلفاء المسلمين ، وقد خلت من كتب الطب أو الأدب أو الفلسفة ، وقد يكون ذلك أمر طبيعي ، خاصة وأنه كان من الفقهاء.

وأمتلك أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي البرقاني[٤] (ت ٤٢٥هـ) كتباً كثيرة ومصنفات عديدة ، وقد ذكر أنه عندما نقل كتبه من مكان لآخر ، كان عدد أسفاط[٥] كتبه ثلاثة وستين سفطا وصندوقين[٦] .

كما كان لأبي زكريا عبد الرحيم بن أحمد ... البخاري الحافظ[٧] قرابة الأربعة عشر ألف جزء ، وقد حكى أنه قال : " لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء أريد أن أمضي وأجئ بها"[٨].

هذا في حين كان لعلي بن عبد الله النيسابوري[٩] عدة تصانيف في تفسير القرآن الكريم ، منها كتاب التفسير الكبير في ثلاثين مجلد وكتاب التفسير الأوسط في أحد عشر مجلداً ، وكتاب التفسير الصغير في ثلاث مجلدات ، وكان له ديوان شعر ، ولما مات رحمه الله لم يوجد في خزانة كتبه إلا أربع مجلدات إحداها فقهي ، وآخر أدبي ، ومجلدان في التاريخ[١٠] ، ويلاحظ أن عدد ما وجد بخزانته قليل جداً ، إلا أن الجدير بالملاحظة أنها تنوعت ما بين فقهي وأدبي وتاريخي .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٧ ، ص ٢٥٦ وما بعدها .

(٢) هو أبو النصر محمد بن مسعود العياشي من أهل سمرقند ، من فقهاء الشيعة ، عرف بغزارة العلم ، ولكتبه بنواحي خراسان شأن كبير ، انظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٧٥ وما بعدها .

(٣) المصدر نفسه : ص ٢٧١ .

(٤) هو من أبناء برقان ، وهي من قرى شرقي جيحون ، سمع العلم ببلده ، ورحل طلبا للعلم إلى بلدان كثيرة مثل جرجان وخراسان وغيرها ، استوطن بغداد (ت ٤٢٥هـ) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١ ، ص ٤٦٠.

(٥) السفط وعاء كالقفة والجوالق . انظر المنجد ، ص ٣٣٧ .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٤ ، ص ٣٧٥ ، وابن الجوزي : المنتظم ج ١٥ ، ص ٢٤٢ ، وما بعدها وياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٦٠ ويلاحظ أنه أقام ببغداد .

(٧) ولد ٣٨٢هـ ، ت ٤١٦هـ ، انظر المصدر نفسه ج ١ ، ص ٤٢٣ .

(٨) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٤٢٢ .

(٩) هو عالم معروف ، حمل إلى السلطان محمود الغزنوي عام ٤١٤هـ ليسمع منه السلطان الوعظ وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجلس وتحدث بغير إذن ، فأمر السلطان بضربه على رأسه ، مما كان سببا في قلة سمعه وعندما أدرك السلطان مكانته العلمية ، اعتذر له وأمر له ببعض المال فرفض (ت ٤٥٨هـ) ، انظر ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ١٨٥ وياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٢٧٤.

(١٠) ابن فندق : المصدر نفسه ، وياقوت الحموي ، المصدر نفسه ، ج ١٣ ص ٢٧٤ .

كما كان للرشيد الوطواط (رشيد الدين سعد الملك محمد بن عبد الجليل العمري) قريباً من ألف مجلد من الكتب النفيسة ، والدفاتر الفائقة ، والنسخ الشريفة، وقد قام بوقفها جميعها على خزائن الكتب العامة المنتشرة في العالم الإسلامي[١]، وكان لأبي القاسم القشيري[٢] بيتاً للكتب ، ذكر ابن كثير أنه لم يدخله أحد من أهل بيته إلا بعد سنين وذلك احتراماً له [٣] .

وهكذا حرص أبناء بلدان المشرق على امتلاك الكتب وحفظها فيما عرف بخزائن الكتب ، وقد لوحظ على خزائن الكتب الخاصة التي عرضنا لها أموراً سنعرض لها تفصيلاً فيما بعد .

والجدير بالذكر أن بعض أبناء بلدان المشرق تعلق بكتبه فآثر حملها معه أينما ذهب ، ومن هنا ظهر ما يمكن أن نطلق عليه المكتبات المتنقلة .

رابعاً : المكتبات المتنقلة :

تبين لنا من خلال مطالعتنا لبعض مصادر الدراسة وجود أنماط خاصة من أصحاب خزائن الكتب ، وهم أولئك الذين يؤثرون حمل كتبهم معهم أينما ذهبوا ، إما حرصاً عليها ، وإما مبالغة في عشقهم لها ، ومن هؤلاء أبي العلاء العطار الذي سافر ماشياً يحمل كتبه على ظهره ويبيت في المساجد [٤] .

ومنهم أيضاً الظهير الفارسي ، ذلك الفقيه ، والفيلسوف الحكيم ، فقد كان من عادته أن يستصحب معه جميع أمواله وكتبه على جمال له أينما توجه [٥] .

كما كان ناصر خسرو يتنقل بين بلدان العالم الإسلامي حاملاً معه سلتين مملوءتين كتباً وهو أمر أقره بنفسه [٦] .

كذلك كان أبو العباس الدغولي[٧] حريصاً على حمل الكتب أثناء السفر ، وقد خص منهم أربع كتب بالذكر فقال : " ... أربع مجلدات لا تفارقني في السفر والحضر : كتاب المزني وكتاب العين ، والتاريخ للبخاري وكليلة ودمنة "[٨] ويلاحظ على هذه الكتب الأربع التنوع ،

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٩ ، ص ٩٩ ، وهو من أبناء القرن السادس الهجري .
(٢) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد المطلب بن طلحة أبو القاسم القشيري ، أحد فقهاء الشافعية ، كان عالماً بالفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف ، ولد ٣٧٠هـ ، وت ٤٦٥هـ . انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ وما بعدها ، والذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ، وابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ١٠٧ ، وابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج ١ ، ص ٢٧١ .
(٣) انظر ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٠٧ .
(٤) الذهبي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧ .
(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٧ .
(٦) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ١٤٠ .
(٧) هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد أبو العباس الدغولي السرخسي ، الفقيه الإمام الحافظ ، شيخ أهل خراسان في زمانه ، ت ٣٢٥ هـ انظر ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٨٨ .
(٨) المصدر نفسه: ج ١ ، ص ٨٨ .

فكتاب العين هو أحد كتب اللغة ، وكتاب التاريخ للبخاري أحد كتب التاريخ وينتمي كليلة ودمنة لكتب الآداب .

وكان محمد بن المسيب الأرغياني[١] يمشي وفي كمه مائة ألف حديث ، وقد سئل أحد الحفاظ عن ذلك وكيف تأتى له ، فقال : كانت أجزاؤه صغاراً بخط دقيق في كل جزء ألف حديث معدودة ، وكان يحمل معه مائة جزء وكان مشهوراً بهذا الأمر [٢] .

كما كان لأبي منصور أحمد بن محمد البغوي[٣] كتاب جمع فيه محاسن الأخبار والأشعار ولطائف الآداب حتى اشتملت على حد تعبيره على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وكان الكتاب يقع في ثلاثين مجلده بخطه ، وقسمها على أيام شهره فكان لا يخلو من أحدى مجلداته مجلسه ، وكان لا يفارقه في سفره وحضره [٤] .

وكان الصاحب بن عباد يصحب معه في رحلاته ثلاثين حملاً من كتب الآداب ليطالعها في رحلاته ، حتى حصل على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، فكان يكتفي به ولا يصطحب سواه[٥] وكان عضد الدولة لا يفارق كتاب الأغاني في رحلاته أيضاً .[٦]

هذا وقد لوحظ على هؤلاء الذين يحملون كتبهم معهم أثناء رحلاتهم أمران ، أولهما وجد بعض منهم كان يحمل جل كتبه أو معظمها ، وثانيهما أن البعض الآخر كان يحمل ما يروقه من هذه الكتب ليطالعها أثناء سفره وترحاله ، وكلاهما مظهر ثقافي حضاري حرى بالتدقيق والنظر.

خامساً : جماعو الكتب :

شغف علماء المسلمين وأدباؤهم بالكتب والمؤلفات فحرصوا على جمع الكثير منها ، ومن هنا ظهر ما عرف في المصادر التاريخية بجماعي الكتب ، وهم المبالغون في جمع الكتب ، وقد عرض لهم أبو حيان التوحيدي من خلال إحدى رسائله التي تحدث فيها عن دواعي حرقه لكتبه ومؤلفاته ، فوصف جامع الكتب ــ بجامع الذهب والفضة ــ خاصة وحالة النهم الشديد التي استشعرها في جماعي الكتب ، فقال : " ... وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب ؟ ، وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرها "[٧] .

---

(١) هو عبد الله محمد بن المسيب بن اسحاق بن عبد الله الأرغياني النيسابوري ، كان من الجوالين في طلب الحديث أنظر السمعاني : الأنساب ج ١ ص ١١٣ ، ١١٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ١١٤ .
(٣) هو أحد الصدور والأفراد الأمجاد بخراسان ، بلغ من الأدب والكتابه والمروءة أعلى مكان ، وولى أعمالا جليلة ، ثم ولى ديوان الرسائل . انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ١٦٢ وما بعدها .
(٤) المصدر نفسه ص ١٦٣ .
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٧ .
(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٣ ، ص ٩٧ .
(٧) المصدر نفسه : ، ج ١٥ ، ص ٢٣ . وانظر ملاحق الرسالة .

كذلك اهتم ابن النديم بذكر الكثير من جماعي الكتب الشغوفين بها ، حتى أنه كان يوجه حديثه لهم ، مبصراً إياهم بحجم ورق الكتابة ، ومقدار سطوره [١] ليكونوا على علم بهذا الأمر أثناء جمعهم الكتب .

ومن عرف بجمع الكتب والسعي إلى تحصيلها ابن الكوفي (ت ٣٤٨ الذي ذكره ابن النديم[٢] فقال أنه : جماعة للكتب ... منقر بحاث "ـ أي كثير البحث والتنقيب على الكتب ، وقد أشار إليه ياقوت الحموي[٣] فقال : كان من جماعي الكتب وأرباب الهوى فيها "، وكان ابن الفرات (ت ٣٨٤) أيضاً جماعاً للكتب ، كتب الكثير وجمع ما لم يجمعه أحد في وقته ، فكان عنده عن على بن محمد المصري وحده ألف جزء وكتب مائة تفسير ومائة تاريخ، وعندما مات خلف ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً، هذا غير ما سرق من كتبه [٤] ، كما كان كل من إبراهيم ابن محمد بن سعدان بن المبارك، وأبو سهل النوبختي وأبو سعيد وهب بن إبراهيم ، من جماعي الكتب ، وكان ذلك الأخير حريصاً على جمع النفيس منها[٥] .

كذلك كان الكثير من أبناء المشرق شديدي الشغف بالكتب والمؤلفات ، شديدي الحرص على جمعها ، وقد عرضنا لنماذج من أهل الحكم والرياسة وأولي الأمر ممن شغفوا بجمع الكتب ونعرض الآن لنماذج من عامة أهل العلوم والمعارف والآداب ممن شغفوا بجمع الكتب ، حتى استحقوا بجدارة لقب (جماعي الكتب) . ومن هؤلاء نذكر الفلكي أبا بكر الحاسب الهمذاني (ت ٣٨٤هـ)، الذي كان جماعاً للكتب في فروع العلم والمعرفة كالأدب والنحو والعروض وعلم الحساب والفلك وسائر العلوم ، وكان حفيده أبو الفضل على بن الحسين جماعاً رحل وجمع وصنف [٦] ، كما كان محمد بن أحمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بمسارفه (ت ٤٨٠ هـ) جماعاً للكتب[٧] وكان القاضي أبو بكر الفضل بن محمد الجرجاني حريصاً على اقتناء الكتب[٨] وفاق أبو العباس جعفر بن محمد ... النسفي المستغفري (ت٤٣٢هـ) أهل زمانه فيما وراء النهر في جمع الكتب ، ذكره السمعاني[٩] فقال : " ... لم يكن بما وراء النهر في عصره من يجري مجراه في الجمع والتصنيف " وكذلك كان أبو الليث نصر بن سيار بن الفتح السمرقندي

---

(١) انظر : ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٢٧ .
(٢) المصدر نفسه : ص ١١٧ .
(٣) معجم الأدباء : ج ١٤ ، ص ١٥٤ .
(٤) السمعاني: الأنساب ، ج ٤ ، ص ٣٥٤ .
(٥) انظر ابن النديم : المصدر السابق ، ص ١١٨ ، ص ٢٥١ ، ص ١٨٩ .
(٦) انظر السمعاني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ .
(٧) ذكر ابن كثير أنه كان أحد الحفاظ الجوالين الرحالين ، سمع الكثير وجمع الكتب وأقام بهراة و توفي بنيسابور ٤٨٢ هـ ، انظر البداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ١٣٦ .
(٨) انظر الثعالبي : يتيمة الدهر : ج ٤ ، ص ٥٢ .
(٩) الأنساب : ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

(ت ٢٩٤هـ) معنياً بطلب العلم مكثراً منه حتى حصل وجمع الجموع [١] ، وكان على بن يعلي المعروف بأبي القاسم العلوي الهروي ، ممن رحل في سبيل جمع الكتب[٢] فاستحق أيضاً أن يكون أحد جماعي الكتب ، وكذلك كان عبد الرحمن بن منده (ت ٤٧٠هـ).[٣]

على أية حال فقد شهدت بلدان المشرق أعداداً هائلة ممن شغفوا بجمع الكتب ، ويمكننا تصنيف جماعي الكتب ــ على ما يبدو لنا ــ إلى فئات ثلاث ، أو إلى أنواع ثلاث :

النوع الأول : من جماعي الكتب وهو الذي حرص على جمع كتب في شتى العلوم والمعارف والآداب دون التقيد بنوع معين من ألوان العلم والمعرفة ، ويبدو لنا أن أبا عصمة المروزي كان أحد هؤلاء إذ ذكره السمعاني[٤] وأشار إلى أنه لقب بالجامع ، وقد علل السمعاني ذلك بأنه كان جامعاً بين العلوم ، كذلك قام أبو عبد الله محمد بن الحسين الأزدي الزاغولي (ت ٤٨٠هـ) بجمع مجموعات من الكتب بلغت أربعمائة مجلدة في الحديث والأدب وغيرهما من العلوم ، وقد كان حريصاً على العلم والنسخ مع كبر السن [٥] ، وينتمي إلى هذا النوع أيضاً أبو الحسن الروياني (ت ٥٠٢هـ) الذي سافر ورحل إلى الآفاق حتى بلغ ماوراء النهر، وقد ذكر ابن كثير أنه حصل علوماً جمه، هذا إلى جانب ما جمعه في الحديث وعلومه[٦] وكذلك كان أبو الفضل الشعبي الملقب بالشاه ت ٣٨٣هـ ، جماعاً للعلم[٧]، وكان أبو بكر الاسماعيلي (ت٣٧١) شغوفاً بشتى أنواع العلوم والمعارف ، وقد قال في هذا :

كلفت بأصناف العلوم وجمعها .·. وليداً وغيداقاً وكهلاً وشيبا[٨]

النوع الثاني : من جماعي الكتب هم أولئك الذين حرصوا على جمع نوع معين من العلوم والمعارف كجمع كتب الأدب ، أو جمع كتب الفقه ، أو غير ذلك من فروع العلم والمعرفة . ومن هؤلاء إبراهيم بن معقل ... النسفي (ت ٢٩٤هـ) الذي كان حريصاً على جمع السنة والتفسير[٩] والمختار بن عبد الحميد ... أبو الفتح الأديب البوشنجي (ت ٥٣٦هـ) الذي كان حريصا على جمع تواريخ وفيات الشيوخ ، وكان وكما ذكر ياقوت الحموي[١٠]كثير الجمع

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ١٢٣ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٠٥ .
(٣) توفي بأصبهان عام ٤٧٠ هـ انظر المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ١١٨ .
(٤) الأنساب : ج ٢ ، ص ١٢٨ .
(٥) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ١٢٢ ، عرف بالمروزي الزاغولي ، وزاغول قرية من قرى خراسان ، ذكره السبكي وأشار إلى أنه ولد ٤٨٠هـ وتوفى ٥٥٩هـ ، انظر السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٦ ، ط ١ ، مطبعة عيسى البابي ، ١٩٦٨ ، ص ٩٩ .
(٦) انظر ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٧٠ .
(٧) السمعاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٥ .
(٨) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٢ ، ص ٧٣ .
(٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .
(١٠) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٦٠٣ .

والكتابة والتحصيل ، في حين أن كان أبو عوانه يعقوب بن إسحاق ... الإسفراييني جماعاً للحديث ، وفي هذا يقول السمعاني(١) عنه : " ... رحل في طلب الحديث وعنى بجمعه وتعب في كتابته ، وكذلك كان أبو محمد جعفر بن محمد بن الحارث المراغي نزيل نيسابور (ت ٣٥٦هـ) من أكثر الشيوخ جمعاً للحديث(٢) ، وكان أبو عمر عبد الواحد بن محمد معنياً بجمع الحديث فجمع مائة جزء كتابة عن بعض ممن كتب في الحديث(٣) ، وعنى أبو حامد المقري الأديب نزيل نيسابور بجمع الكتب والمصنفات في القراءات(٤) .

النوع الثالث : من جماعي الكتب ، هم أولئك الذين سعوا إلى جمع مؤلفات شخص بعينه ، وينتمي إلى هذا النوع الغنجار أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ... بن كامل البخاري الوراق المعروف بغنجار ، الذي اختص بتتبع أحاديث عيسى بن موسى التميمي غنجار وكتابتها ولذلك قيل له غنجار(٥) .

ومنهم أيضاً أبو سفيان محمد بن حميد اليشكري المعمري الذي عنى بكتب معمر بن راشد حتى أنه سمي بالمعمري ، بسبب رحلته إلى معمر بن راشد وتحصيله كتبه(٦) كما رحل أبو محمد سليمان ابن عبد الله الزغنداني الفقيه إلى محمد بن أدريس الشافعي ، وحصل كتبه ، ومن طريف ما يحكى أنه لما مات هذا الفقيه تزوج اسحاق بن راهويه بابنته بسبب كتب الشافعي حتى حصلت عنده ، وقد مات سليمان هذا ٢٢١هـ)(٧) .

كما عني أبو بكر أحمد أحمد بن الحسين بن على البيهقي الخسروجردي الشافعي الذي عرف بزاهد نيسابور (ت ٤٥٨هـ) بجمع كتابات الشافعي فذكر أنه جمع نصوص الشافعي في عشر مجلدات(٨) .

كما كان أبو طاهر السلفي شغوفاً بكتب ومؤلفات أحمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨هـ) وكان حريصاً على جمعها وتحصيلها ، وقد ذكره ياقوت الحموي فقال : ... قال أبو طاهر السلفي ، وقلت أنا فيه سنة خمسين وخمسمائة ، لشغفي بتأليفه ورغبتي في تحصيل تصانيفه:

---

(١) الأنساب : ج ١ ، ص ١٤٣ .
(٢) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٢٤٦ .
(٣) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٤٠ .
(٤) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، ولقد ذكر ياقوت أنه توفي بنيسابور ٣٤٦ هـ .
(٥) انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٣١١ .
(٦) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٣٤٥ .
(٧) انظر المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ص ١٥٧ - ١٥٨ .
(٨) ذكر أن ذلك الإمام كان أكثر الأئمة تأييدا لمذهب الشافعي ، وقيل بصدده : ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منه إلا أحمد البيهقي ، فإن له على الشافعي منه لأنه كان أكثر الناس نصراً للمذهب الشافعي ، انظر : ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٦ ، ص ٥٧ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ، ص ٣٧١ .

ظن هذا الخطـــاء في الخطابي ∴ شـــيخ أهـــل العـــلوم والآداب
من على كتبه اعتماد ذوي الفضل ∴ ومـــن قوله كفصـــل الخطاب
أن يحـــوز الفردوس إذ اتعـــب ∴ النفوس لذي العرش غاية الاتعاب
وتغنـــى في الأخـــذ حبـــاً أو في ∴ التصنيف من بعد رغبة في الثواب
نضـــر الله وجهــــه من إمـــام ∴ ألمعـــي أتـــى بكـــل صـــــواب[1].

سادساً : العوامل والضوابط التي تحكم عملية جمع الكتب والمؤلفات :

كان جماعوا الكتب من أكثر الناس حرصاً على جمع الكتب ، وقد وضعوا ــ على ما يبدو ــ لأنفسهم عدة ضوابط تحكم عملية جمعهم للكتب والمؤلفات ، ومن هذه الضوابط : الميل إلى فرع من فروع العلم والمعرفة ، كأن يميل أحدهم إلى كتب الأدب مثلاً ، فيحرص على جمع كل ما هو جديد منها ، ومن ذلك أن الصاحب بن عباد كان يميل إلى الأدب ، فكانت جل خزائنه كتب ومؤلفات في الأداب ، وهو ما سبق وأثبتناه .[2]

كانت شهرة الكتاب ومكانته وشهرة مؤلفه من العوامل التي تحفز ذوي المكتبات والخزائن الخاصة على امتلاكه ، وقد عرضنا لنماذج من جماعي الكتب الذين سعوا لامتلاك مؤلفات بعينها لشخص بعينه ، فقد أشار ابن القفطي إلى كتاب التهذيب لأبي منصور الأزهري ، وإلى مكانته ، وكيف لاقى ذلك الكتاب قبولاً لدى نفوس العلماء . فقال : " ... وقد رزق التصنيف سعادة وسار في الآفاق واشتهر ذكره اشتهار الشمس ، وقبلته نفوس العلماء ، وصادف طالع سعيد عند تأليفه [3] .

ويبدو لنا أيضاً أن صحة الكتاب من حيث الضبط والشكل كانت من العوامل والضوابط التي تحكم عملية جمع الكتب ، حيث حرص هواة جمع الكتب على هذا الأمر ، ومن ذلك ما يذكر بصدد كتاب المعتضد لعبد القاهر الجرجاني ، إذ ذكر أحد النحويين أنه وجد على الكتاب ما يفيد صحة ضبط الكتاب فقال : (.. وجدت في آخر نسخة المعتضد لعبد القاهر الجرجاني بالري مكتوباً ما حكايته : .... قرأ عليّ الأخ الفقيه أبو نصر أحمد بن إبراهيم بن محمد السجزي أيده الله هذا الكتاب من أوله إلى آخره ، قراءة ضبط وتحصيل ، وكتبه عبد القاهر بن عبد الرحمن بخطه في شهر الله المبارك من شهور سنة ٤٥٤هـ)[4] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .
(٢) انظر : الفصل الأول ، ص ٩٨ .
(٣) انظر ابن القفطي : انباه الرواه ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
(٤) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

كذلك كان حسن الخط ، وأصل الكتاب ــ على ما يبدو لنا ــ من العوامل والضوابط التي كانت تحكم عملية جمع وتحصيل الكتب ، فطالما كان الخط جيداً وطالما كانت نسخ الكتاب أصلية ، تحقق بذلك للكتاب الذيوع والانتشار ، وأمكن تقييمه تقييماً جاداً ، وسعى الجميع لامتلاكه وتحصيله خاصة إذا كانت نسخة الكتاب أصلية وبخط المؤلف ذاته .

فقد قيم السمعاني كتب أبي إسحاق بن معقل المحفوظي (ت٣٨٧هـ من خلال الخط وأصول الكتب ، فأشار على أن أبا إسحاق إبراهيم بن معقل عرض أصول كتبه على الحاكم أبي عبد الله الحافظ وكان أكثرها بخطه وكلها صحاح(١) ، كما أشار الحاكم أبو عبد الله الكتبي الهروي إلى أنه امتلك أصل كتاب السنين لأبي يعقوب إبراهيم بن الفرات في عشرة أجزاء بخط مؤلفه (٢) .

كما امتلك آل سمعان نسخة من كتاب التهذيب لأبي منصور الأزهري ، كانت بخط المصنف نفسه ، وقد فقدت هذه النسخة عام ٦١٧هـ ، ويبدو أنها كانت قبل هذا التاريخ ملكاً للزمخشري(٣) ، فقد وجد على المجلد العشرين من هذا الكتاب خط الإمام فخر خوارزم أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ما نصه : " ... ظفرت من هذه النسخة التي هي نسيج وحدها ، لكونها بخط المصنف وسلامة لفظها من التحريف والزلل ن الذي لا تكاد تبرأ منه يد كاتب في كتاب خفيف الحجم ، وإن أحضر ذهنه ، وأمده اتقان وساعده في حفظ ودراية ، فضلاً عن عشرين مجلدة بضالتي المنشودة فأكببت عليها إكباب الحريص ، وقلبتها بالمطالعة ، وعلقت عندي ما فيها من الأحاديث التي خلت عنها مصنفات عبيد القتيبي والخطابي ، والأمثال التي لم تكن في كتابي .... وسألت الله تنوير حضرة المصنف وإنزاله في ظلال الفردوس ، وكتب محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي بمدينة مرو بخط يده ... وكان عليه بخط المؤلف ما مثاله : " ... وكتب محمد بن أحمد بن الأزهر : قرأ على سيدي أبو يعلي أدام الله له العز والتأييد هذا الكتاب من أوله إلى آخره وصححه فأتقنه، وأسأل الله المن والطول أن يبارك له فيه وأن يقيه محذور بمنه ورأفته وكتبه بيده " ... وكان سيدي أبو القاسم النحوي أدام الله سعادته حاضراً في جميع ما قرئ على أو قرأه هو ، وكذلك أبو يزيد القرشي ، وكتبه الأزهري بيده " ... وكان عليه بخط المطرزي عبيد الله الفقير إلى الله ناصر ابن المطرزي : ... قام بمطالعة

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٢١٤ .

(٢) انظر: ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٧ ، ص ١٦٤.

(٣) الزمخشري : هو محمود ابن عمر بن محمد ب ن عمخر ، أبو القاسم الزمخشري ، عالم من علماء خوارزم ، وصاحب الكشاف في التفسير ، والمفصل في اللغة ، ت ٥٣٨ هـ ، انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢١٩ .

هذه النسخة بخوارزم وعارض بها نسخته عرض تصحيح وتنقيح وذلك في شهور سنة خمس وستمائة[١] .

وهكذا امتلك الزمخشري نسخة أصلية من كتاب التهذيب كانت بخط المؤلف نفسه ، وقد علق الزمخشري على هذا الكتاب بخط يده ما يثبت امتلاكه لهذه النسخة وما يثبت تميزها لكونها بخط المؤلف وبسلامتها من التصحيف ، وأشار إلى أن الأزهري نفسه كتب على هذه النسخة من الكتاب ما يثبت أنه قد تم مراجعة هذه النسخة ، إذ قرأها عليه أبو يعلي ، وقد أمتلك المطرزي عبيد الله نسخة من ذلك الكتاب عارضها بالنسخة المذكورة لتصحيحها وتنقيحها . وذلك عام ٦٠٥هـ ، ويبدو أن الكتاب المشار إليه آل في نهاية الأمر إلى إحدى خزائن كتب آل سمعان[٢].

ومما يؤكد على أهمية الخط ودوره في جمع الكتب وتحصيلها ما ذكره ابن القفطي بصدد كتاب بخط أبي الفتح بن الأشرس النحوي النيسابوري إذ قال : (... رأيت له خطاً قريباً من الجودة ، غاية في الصحة واسمه بين العلماء إلى زماننا رفيع ، وصنعه في الضبط والإتقان صنيع ، ولقد رأيت بخطه نسخة من كتاب سيبويه من ملكها من العلماء ضاهي بملكها ملك آل بويه، وخطه مما تقع المنافسة فيه، ومتى فات عالماً بحصيلة لم يقم عنده شئ مقامه في تلافيه) .

وهكذا يشيد ابن القفطي بخط أبي الفتح بن الأشرس ، وبما يتسم به من الصحة والجودة والحرص على الضبط والإتقان حتى أنه ليقارن إحدى الكتب التي كتبت بخطه بملك آل بويه ، ويرى أن عدم امتلاك العلماء لمثل هذه النسخة القيمة هو خسارة ما بعدها خسارة .

وندلل على ما للخط من أهمية وقيمة في تحصيل الكتب وجمعها بما ذكر عن نسخة من كتاب غريب المصنف كانت بخط أبي بكر القارئ الرازي ، وتم شراؤها لحساب خزانة أبي الفضل بن العميد ، وكان قد كتب عليها : " ... أما النسخة أطال الله بقاء الشيخ الجليل وأدام علوه فحجه يرجع إليها ويعتمد في التصحيح عليها فإنه بخط أبو بكر ألقاري رحمه الله وكانت لأبي على المعلم الأراطي اشتراها منه أبو محمد الشعراني رحمه الله ، لخزانة أبي الفضل بن العميد رحمه الله بستة عشر ديناراً مصرية " [٣] .

وهكذا كان خط أبي بكر القاري من العوامل التي شجعت على شراء هذه النسخة من الكتاب ، والتي كان يمتلكها أبو على المعلم الأراطي ، وقد قام بشرائها أبو محمد الشعراني الخزانة أبي الفضل بن العميد .

---

(١) ابن القفطي : انباه الرواه ... ، ج ٤ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
(٣) المصدر نفسه : ج٤ ، ص ١٠٠ .

ويشير ابن خلكان إلى أن فخر الكتاب الجويني[1] " كتب كثيراً ونسخ كتباً توجد في أيدي الناس بأوفر الأثمان بجودة خطها ورغبتهم فيه "[2] ، هذا وقد أدرك بعض العلماء ما للخط من أهمية فتناوله بعضهم بالدراسة والحديث[3] .

وهناك وعلى ما يبدو لنا ــ عوامل أخرى تحكم عملية جمع الكتب وتحصيلها ، هذه العوامل تختلف من شخص لآخر ، فقد أشار أبو النصر الهزيمي المعافي بن هزيم[4] إلى أنه كان يهوى الإطلاع في كتب الحكايات والأشعار والخطب ، ولم يكن له عهد بكتب الطب ، حتى بلغ التسع والخمسين من العمر ، فأحوجته شيخوخته إلى الإطلاع على هذه النوعية من الكتب ، وأنشد في ذلك :

قد كنت أنظر قبل اليوم في كتب ∴ فيها الحكايات والأشعار والخطب .

ودفتــر الطــب مما لم ألــم به ∴ إذ لم يكن فيه لي من صحتي أرب

فجاءت التسع والخمسون تحوجني ∴ إلى العلاج فما لي غيــره كتــب . [5]

سابعاً : كيفية جمع بعض مؤرخي المشرق للكتب والمؤلفات :

كان لابد لنا أن نعرض لبعض نماذج من مؤرخي المشرق الإسلامي ، وكيفية جمعهم لما لديهم من كتب ومؤلفات ، لندرك مدى أهمية الكتاب في حياتهم ، ونقدر حجم المشاق التي بذلت في سبيل تكوين المكتبات الخاصة بهم ، ومن هؤلاء نذكر الحاكم أبا عبد الله بن البيع :

(١) كيفية جمع الحاكم أبي عبد الله بن البيع[6] للكتب والمؤلفات :

امتلك ابن البيع وعلى ما يبدو لنا خزانة كتب هائلة ، هذا وإن لم تشر مصادرنا إلى هذا الأمر صراحة إلا أنه يكفينا أن تشير المصادر إلى حجم مؤلفاته ، فقد أشار ابن خلكان " أنه

---

(١) الجويني : نسبة إلى جوين وهي ناحية كبيرة من نواحي نيسابور ينسب إليها جماعة كبيرة من العلماء وقد توفي فخر الكتاب الجويني عام ٥٨٤هـ انظر ابن خلكان :وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٣) للمزيد انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٤ ، ومحمد مرتضي الحسيني : مخطوط حكمة الإشراق على كتاب الآفاق ، دار الكتب المصرية ، رقم ٧٩٩ ، تاريخ ، ميكروفيلم ١٩٢٧/٧٠٠ ، الورقة الأولي .

(٤) هو أحد الأدباء الشعراء ، كان يكثر من المقام في بخارى ويخدم فضلائها ، وقال شعراً في وفاة الأمير الرشيد أبو الفوارس عبد الملك بن نوح ، وقيام الأمير السديد أبو صالح منصور بن نوح ، وهما من أمراء الدولة السامانية انظر الثعالبي: يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ١٤٧ ، وما بعدها .

(٥) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٦) الحاكم بن البيع النيسابوري هو : أبو عبد الله محمد بن عبد الله ... المعروف بالحاكم النيسابوري أو ابن البيع إمام أهل الحديث في عصره ، والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبق إلى مثلها ، تقلد القضاء بنيسابور عام ٣٥٩ ، ولد ٣٢١هـ وتوفي ٤٠٥هـ وقيل ٤٠٣هـ ، عرف بالحاكم لتقلده القضاء ، وللمزيد من المعلومات انظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٥ ، ص ١٠٩، وما بعدها ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٢٨٠ ، وما بعدها ، والذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٣٥٥ ، وابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية : ج ١١ ، ص ١٦٩ ، والخوانساري : روضات الجنات ، مخطوط ، ص ٦١٧ .

صنف في علوم الحديث ما يبلغ ألفا وخمسمائة جزء[١] في حين أشار ابن قاضي شهبة في طبقاته إلى أن تصانيفه بلغت قريباً من خمسمائة جزء ، وقيل ألف جزء وقيل : ألف وخمسائة جزء[٢] ، ولاشك أنه استعان في تصنيفه لهذه المؤلفات ببعض الكتب والمؤلفات .

فقد كان الحاكم أبو عبد الله بن البيع حريصاً كل الحرص على ملاقاة كل أهل العلم والمعرفة ممن يردون على نيسابور ، نذكر من هؤلاء العصمي (ت ٣٧٨هـ) وفي هذا يقول الحاكم أبو عبد الله : " ... كان العصمي يقيم بنيسابور السنة والسنتين وأكثر وكنت أنتقي عنه في مجالسه " ، كما كان يصحبه في السفر والحضر .[٣]

كما أشار الحاكم إلى أنه كان يكتب عن الحسن عيسى بن زيد الطالبي العقيلي الأديب الشافعي (ت ٣٣٧هـ) وانتقى بعض الفوائد للجوزقي العالم ت ٣٨٨هـ كانت حوالي نيف وعشرين جزءاً [٤] كما أشار إلى قدوم أبي جعفر محمد بن حاكم ... الكسّي عام ٣٣٩هـ وتمكنه من كتبه وإطلاعه عليها ثم عرضها على أحد الأئمة الذي أمره بالسماع منه ، وكان ذلك عام ٣٣٩هـ [٥].

ولم يكن الحاكم أبو عبد الله يكتب كل شئ ، بل كان ينتقي ما يكتب ، ولذلك فإننا نجده كثيراً ما يقول انتقيت ، أو انتخبت ، فقال مشيراً إلى ابن أبي الهيثم (ت٣٦٢هـ) ـ وهو أحد مشايخ بخارى: ... قدم علينا نيسابور... ٣٤٩ هـ وكتبنا عنه ثم انتقيت عليه ببخارى سنين[٦] وأشار إلى أبي عمر عبد الواحد بن أبي بكر التميمي ، المنكدري ت ٣٥٩هـ) الذي اقام بنيسابور فترة فقال : "... كتبنا عنه وانتخبت عليه[٧] " ، وكثيراً ما كانت تحمل إليه كتب بعض معارفه من أهل العلم للإطلاع عليها ، فقد أشار إلى أبي الفضل أحمد بن محمد بن حمدون الفقيه الشرمقاني ت ٣٦٦هـ فقال : كان مكثر المقام بنيسابور ، فلما قلدت المظالم بنسا جمع إلى جملة من كتبه وانتقيت عليه [٨] . كما حمل إليه أبو جعفر المعيد بنيسابور أصول كتب أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران الزاهد المقري (ت ٣٨١هـ) فانتقى منها أجزاء[٩] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ ، وانظر أيضاً : الخوانساري : روضات الجنات ، ص ٦١٧
(٢) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٦٩ ، أيضاً د/ محمد عبد العظيم : دراسة نقدية لمصادر أقاليم مدن المشرق الإسلامي ، آداب الزقازيق ٢٠٠٣م ، ص ٣٦ - ٤٠ .
(٣) السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .
(٤) المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ١١٩ .
(٥) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٦٩ .
(٦) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٣٢٧ .
(٧) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٣٩٩ .
(٨) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٤٢٣ .
(٩) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٤١٣ .

وقد لوحظ على الحاكم أبي عبد الله اهتمامه بالحصول على أصول الكتب ، التي كتبت ونسخت بأيدي أصحابها، ومما يذكر في ذلك أنه نظر في جملة من أصول أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسين النيسابوري الميشخناني (ت ٣٠٩هـ) فوجدها أصول ضابط متقن محصل[١] ، وكان أبو محمد الإسفراييني ت ٣٤٩هـ كلما قدم بنيسابور — وكان معتاداً زيارتها كل عام — يحمل إليه من أصوله ما يستفيد به[٢] ، كما أخرج إليه أبو العباس الصندوقي ت ٣٨٠هـ أصولاً نظر فيها عندما عقد له مجلس الدرس في دار السنة[٣] ولشدة حرصه على اقتناء أصول الكتب ، أو الإطلاع عليها ، فقد سأل أبا بكر الأديب الكسائي ت ٣٨٥هـ أن يخرج له الأصل العتيق لإحدى كتبه[٤] .

(٣) كيفية جمع الثعالبي النيسابوري[٥] للكتب والمؤلفات :

لم تشر المصادر إلى خزانة كتب الثعالبي النيسابوري صراحة ، ولكننا من خلال مطالعتنا لبعض مؤلفاته والتي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة ، لاحظنا شغفا بالكتب والمؤلفات ما بعده شغف، ولاحظنا حرصاً شديداً على اقتناء كل ما هو جديد ونادر منها ، خاصة في مجال الأدب.

ومن ذلك أنه كان حريصاً على الاطلاع على خزائن كتب ذوي الأمر ، ومن لهم اهتمام بالكتب والمؤلفات ، وقد سبق وأشرنا إلى إطلاعه على خزانة كتب أبي الفضل بن عبيد الله الميكالي[٦]حيث أفاد منها في تأليفه لبعض مؤلفاته " كفقه اللغة وسر العربية " و " يتيمة الدهر" وغيرها.

كذلك أفاد الثعالبي كثيراً مما كان يمده به أبو سهل بن المرزبان — الذي عرضنا له من قليل ، والذي سافر عدة رحلات إلى بغداد لتحصيل الكتب والمؤلفات ، وسبق ,اشرنا إلى أنه أدخل ديوان الوأواء لأول مرة إلى نيسابور ، وقد منحه للثعالبي النيسابوري ، فأفاد منه فيما كتبه في كتابه يتيمة الدهر ، كما أنه منحه ما استملاه أيضاً من الأقوال المعروف بعين الزمان[٧] ،

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٤٣٢ .
(٢) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ١٢٥ .
(٣) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٥٥٥ .
(٤) المصدر نفسه : ج ٥، ص ٦٧ .
(٥) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري ولد ٣٥٠ هـ ، ت ٤٢٩ هـ ، والثعالبي .. هذه النسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها ، وقيل له ذلك لأنه كان فراءا ن كان في وقته ، راعي تلعات العلم وجامع أشتات النثر والنظم ، رأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين ، وكان إماماً في اللغة والأدب والأخبار. انظر : ابن خلكان وفيات الأعيان ، ج ٣ + ص ١٧٨ - ١٨٠. والذهبي : العبر ... ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٤٣ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ١ ، ص ٣٤٥ . وانظر ايضا الباخرزي : دمية القصر ، ص ١٨٣ .
(٦) انظر: الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية ، ص ٤٣٤ ، ويتيمة الدهر : ج ٤ ، ص ٣٦٥ .
(٧) الثعالبي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

كذلك منحه مجلدة بخط السري الرفاء الشاعر ، كان أبو نصر بن المرزبان قد أحضرها معه من بغداد ، كما أعطاه مجلدة أخرى بخط أبي عثمان سعيد بن هاشم ، كان قد اتحفه بها الوراق المعروف بالطرسوسي فأنفذها إلى نيسابور في جملة ما حصل عليه من طرائف الكتب ومنحها للثعالبي للإطلاع عليها[١] .

ومن المؤلفات التي جلبها أبو نصر سهل بن المرزبان واطلع عليها الثعالبي ، ديوان شعر ابن نباته الذي منحه أيضاً للثعالبي [٢] ، وقد كان ابن بابك الشاعر البغدادي قد أهدى أبا نصر سهل بن المرزبان مجلدة من شعره عندما كان ببغداد،منحها بدوره للثعالبي ليطلع عليها فوصفها قائلاً: " لم أدر الدفتر أملح أم الخط أحسن أم الشكل أصبح أم اللفظ أبرع أم المعنى أبدع ".

هذا وقد كان أبو بكر الخوارزمي[٣] أيضاً معيناً للثعالبي في كتابة وتحصيل بعض الكتب ، فقد أشير إلى أن أبا عبد الله محمد بن حامد الخوارزمي أرسل إلى أبي بكر الخوارزمي لمع من شعر السرى الرفاء ، أطلع الثعالبي عليها وأنسخه أياها ، وقد كان أبو بكر الخوارزمي كثيراً ما يضن بما لديه من الكتب والمؤلفات على غيره ، ولكنه لم يكن ليضن بها على الثعالبي عندما كان في بلاد الشام فقال : " ... وما أكثر ما كان ينشدني ويكتبني مما يضن به على غيري من تلك الغرر التي تجري مجرى السحر والملح التي يقطر منها ماء الظرف ، وأنا أكتبها " [٤] كما كان يحصل على الكتب والمجلدات المتميزة من غيره من أهل العلم والأدب .

كان هذا عرض لبعض خزائن الكتب الخاصة ، التي شهدتها بلدان المشرق الإسلامي ، ولن نجافي الحقيقة إذا ما قلنا أن خزائن الكتب الخاصة كانت وعلى ما يبدو أكثر من هذا بكثير ، فلا شك أن كل عالم وأديب وفقيه ومحدث امتلك خزانة كتب ، وسيتضح لنا أثناء العرض لعوامل إثراء المكتبات حجم الكتب والمؤلفات التي زخرت بها بلدان المشرق .

على أية حال فإننا نخلص مما سبق إلى عدة أمور :

أولاً : أن خزائن الكتب الخاصة لعبت دوراً هاماً في إثراء الحياة الثقافية والعلمية ببلدان المشرق الإسلامي ، فقد لوحظ أن جل مالكيها من أهل العلم والمعرفة :

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ١٣٨ . والسرى الرفاء شاعر مشهور ، وعنه انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٦٠ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ٤٤٧ .

(٣) أبو بكر الخوارزمي : أحد الأدباء المتميزين ، سافر ورحل كثيرا ، ت ٣٨٣ هـ ، وانظر ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ١٠٨ ، والثعالبي : المصدر نفسه ج ٤ ، ص ٢٢٣ وما بعدها ، وانظر السيوطي بغية الوعاة ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٤) الثعالبي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٣.

ثانياً : لوحظ أن خزائن الكتب الخاصة كانت تأخذ في بعض الأحيان صفة العموم ، خاصة وقيام أصحابها بفتح أبوابها لراغبيها من أهل العلم المقربين ، كما كان في خزانة كتب على بن يحيى ، وأبي عبد الرحمن بن هانئ النيسابوري .

ثالثا : لوحظ أيضاً أن بعض هذه الخزائن أتاحت خدمة الاستعارة الخارجية للمقربين من أهل العلم والمعرفة بدليل استعارة الثعالبي النيسابوري لبعض الكتب من أبي الفضل عبيد الله الميكالي وأبي نصر سهل بن المرزبان .

رابعاً : شهدت هذه الخزائن ــ على ما يبدو ــ بعض الأنشطة ، ولعل من أبرزها كان النسخ ، بدليل استعانة أبي نصر سهل بن المرزبان بالوراقين ، كما شهدت بعض مجالس العلم ، كما كان في خزانة أبي بكر الصولي .

خامساً : روعي في هذه الخزائن بعض الأمور الفنية ، كالتصنيف لتسهيل الحصول على الكتب المطلوبة ، كما كان في خزانة كتب أبي بكر الصولي ، والمجلدات التي جمعها الزاغولي ، والتي عرفت " بقيد الأوابد " إذ قام الزاغولي بترتيبها .

سادساً : لوحظ أيضاً الحرص على جمع الكتب الأصيلة والتي كتبت بخطوط أصحابها ، كما كان في نسخة كتاب الأزهري ، التي امتلكها الزمخشري ، هذا إلى جانب الحرص على امتلاك كتباً اتسمت بالصحة من حيث الضبط والشكل وحسن الخط .

سابعاً : كانت بعض هذه الخزائن معدة إعداداً جيداً للقراءة والإطلاع ، كما كان في خزانة أبي عبد الرحمن بن هانئ النيسابوري .

ثامناً : كانت بعض هذه الخزائن كبيرة الحجم ن كثيرة الكتب ، كما كان في خزانة إبراهيم بن إسحاق الحربي ، وفي خزانة أبي الفضل الميكالي .

*****

الفصل الرابع

عرض لبعض مظاهر التنظيم الفني لخزائن الكتب وحوادث الكتب والمكتبات

(الفصل الرابع)

عرض لبعض مظاهر التنظيم الفني لخزائن الكتب
وحوادث الكتب والمكتبات

أولاً : التنظيم الفني :

١ ــ آداب الكتب وخزائن الكتب .

٢ ــ آداب إعارة الكتب .

٣ ــ العاملون بخزائن كتب بلدان المشرق :

أ ــ أبو على مسكويه الخازن .

ب ــ أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن .

ج ــ على بن هلال المعروف بابن البواب .

د ــ الحكيم يحيى بن محمد الغزنوي المذهب

هـ ــ أبو صالح النيسابوري المؤذن .

و ــ نصير الدين الطوسي وابن الفوطي .

ز ــ نماذج أخرى .

٤ ــ نظم الفهرسة والتصنيف .

٥ ــ ابرز الأنشطة والممارسات بخزائن كتب بلدان المشرق .

ثانياً : حوادث الكتب والمكتبات :

١ ــ الحوادث الناجمة عن الصراعات السياسية والمذهبية والطائفية .

٢ ــ حوادث سرقة الكتب والمكتبات .

٣ ــ الحوادث الناجمة عن تدهور الأحوال الاقتصادية .

٤ ــ الحوادث الناجمة عن تدهور الأوضاع الثقافية .

٥ ــ حوادث حرق وغرق الكتب .

(الفصل الرابع)

عرض لبعض مظاهر التنظيم الفني لخزائن الكتب وحوادث الكتب والمكتبات

أولا : التنظيم الفني :

(١) آداب الكتب وخزائن الكتب :

أدرك المؤرخون من أبناء العالم الإسلامي قيمة وأهمية الكتب وما لها من أثر على الأفراد والمجتمعات ، فتحدثوا في مؤلفاتهم عن قيمة وأهمية الكتاب ، فقال الجاحظ : " الكتاب هو الذي يؤدي إلى الناس كتب الدين وحساب الدواوين مع خفة نقله وصغر حجمه، صامت ما أسكته بليغ ما استنطقه ... وهو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يغريك ... والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ... ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك ، وعرفت به في شهر ما لم تعرفه في دهر ..."[١] . وكتب غيره في ذكر فضائل الكتب والحث على ملازمتها[٢]. ومن هنا ظهرت بعض الآداب والضوابط التي وضعت لتحكم عمليات الإطلاع على الكتب والمؤلفات من كيفية الإمساك بالكتاب، وكيفية وضعه وما إلى ذلك.وقد اتبعت هذه الآداب في دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي .

كانت دور وخزائن الكتب ببلدان المشرق الإسلامي شأنها شأن باقي دور وخزائن الكتب في بلدان العالم الإسلامي ، تعمل وفقاً لمجموعة من الضوابط والآداب التي تحكم عملية الإطلاع وطريقة وضع الكتب وكيفية التعامل معها .

فقد كانت الكتب وكما سبق وأشرنا توضع مُنضدة بعضها فوق بعض[٣] ، وكان يراعى أن تكون الكتب مصنفة ، فهذه كتب في الآداب ، وهذه في التاريخ ، وتلك في الأنساب ، وهذه كتب فقه ، وهذه تفاسير ... وهكذا ، ونستدل على ذلك بما سبق وأشرنا إليه في مكتبة السامانيين ، ومكتبة أبي بكر الصولي . وقد أوضح لنا ابن جماعة الكناني طريقة وضع الكتب في خزانة علمية وأشار إلى أنها توضع (بورقة مترجمة ملصقة على باب كل خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة)[٤] ، ولاشك أن هذه الورقة كانت تحوي محتويات كل خزانة ، وما بها من الكتب والمؤلفات .

---

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ص ٥٠ ـ ٥١ ، وانظر الثعالبي : الأعجاز والإيجاز ، ص ١١٦ .
(٢) حول قيمة وأهمية الكتب والحث على اقتنائها : انظر أيضاً ابن النديم : الفهرست ، ص ١٧ ، والخطيب البغدادي: تقييد العلم ، ص ٣ ، والراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ، ج ١ ، ص ١١٧ ، والنويري : نهاية الأرب : ج٧ ،ص١٧ .
(٣) تدلل على هذا بما كان في مكتبة عضد الدولة ، ومكتبة آل سامان .
(٤) ابن جماعة الكناني : تذكرة السامع ، ص ١٧١. والمقصود بقوله " مترجمة " أي عليها بيانات بمحتويات كل خزانة ، وهي المكتبات بقوائم الرف .

وقد أشار ابن جماعة الكناني إلى أنه لا ينبغي إساءة الأدب مع الكتب ، وقال في هذا ، ولا يجعل الكتاب خزانة للكراريس أو غيرها ، ولا مخدة ولا مروحة ولا مكسباً ولا مستنداً ولا متكئاً ولا مقتلة للبق وغيره ، ولا سيما في الورق فهو على الورق أشد ، ولا يطوى حاشية الورقة أو زاويتها ، ولا يعلم بعود أو شئ جاف ، بل بورقة أو نحوها ، وإذا ظفر فلا يكبس ظفره قوياً[١] .

وقال في موضع آخر ، فإن كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به غير معين فلا بأس بالنسخ منه مع الاحتياط ، ولا بإصلاحه ممن هو أهل لذلك ، وحسن أن يستأذن الناظر فيه ، وإذا نسخ فلا ينسخ منه إلا بإذن صاحبه أو ناظره ، ويكتب منه والقرطاس في بطنه ، أو على حاشيته ، ولا يضع المحبرة عليه ، ولا يمر بالقلم الممدود فوق كتابته[٢] .

وتناول ابن جماعة كيفية وضع الكتاب عند المطالعة فقال : " ... صفة وضع الكتب عند المطالعة : إذا نسخ من الكتاب أو طالعه ، فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً ، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسي الكتب المعروف كي لا يسرع تقطيع حبله[٣] .

كما تناول كيفية العناية بالجلود ، والتي كانت تستخدم على ما يبدو في تجليد بعض الكتب فقال تحت عنوان صفة حفظ الجلود : " ... وإذا وضعها على خشب ونحوه جعل فوقها أو تحتها ما يمنع تآكل جلودها به ، وكذلك يجعل بينها وبين ما يصادفها أو يسندها من حائط أو غيره ، ويراعي الأدب في وضع الكتب باعتبار علوها وشرفها ومصنفها [٤] .

وقد أهتم بعض المؤرخين بعملية تجليد الكتب ، فأفردوا لها المؤلفات فخصص ابن الحاج فصلاً في الصانع الذي يجلد المصاحف والكتب وغيرها[٥]

(٢) آداب إعارة الكتب في بلدان المشرق الإسلامي :

كانت إعارة الكتب من أجل الخدمات التي قدمتها خزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي لراغبيها من أهل العلوم والمعارف والآداب ، وقد لوحظ أن عملية إعارة الكتب لم تكن قصراً على نوع من أنواع دور وخزائن الكتب سواء العامة أو الخاصة أو حتى خزائن أهل الحكم والرياسة ، بل كان لكل دوره في هذا المضمار .

---

(١) ابن جماعة الكناني : تذكرة السامع ... ، ص ١٧١ .
(٢) المصدر نفسه : ص ١٦٩ .
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .
(٥) انظر: ابن الحاج : المدخل ، ج ٤ ، دار الحديث ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، ص ٨٧ .

فقد سبق وأشرنا إلى تمكين بعض أهل الحكم والرياسة ، بعض العلماء من الإطلاع على خزائن كتبهم والاستفادة منها ، فأتاحوا لهم الاستعارة الداخلية أو الاطلاع الداخلي ، ولنا فيما أشار إليه المقدسي[١] من الإطلاع على خزائن بعض الملوك والأمراء دليل على ذلك ، كما سبق وأشرنا على إطلاع ابن سينا[٢] على دار كتب آل سامان[٣] ، وإلى إطلاع الثعالبي النيسابوري على خزائن أبي الفضل الميكالي[٤] وإفادته منها .

ولم تكن دور الكتب العامة بمنأى عن هذه الظاهرة ، ولن نجافي الحقيقة إذا ما قلنا أن هذه النوعية من خزائن الكتب أنشئت في المقام الأول لتتيح فرصة الإطلاع والاستعارة لراغبيها من أهل العلم. وقد سبق وأقر ياقوت الحموي[٥] بأنه استفاد أكثر إفادة من خزائن كتب مدينة مرو ، وبأنه كان دائم الاستعارة من هذه الخزائن ، حتى كان في حوزته من هذه الاستعارات قرابة المئتي كتاب بدون رهن ، كما استعار السمعاني وهو في سمرقند عام ٥٤٨هـ كتاب القند في معرفة علماء سمرقند ، واستفاد منه كثيراً[٦] .

ولقد ساهمت خزائن الكتب الخاصة بدور ملموس في هذا المضمار . فقد أعار أبو عبيد محمد بن على بن محمد الهرمرفرهي المروزي (ت٣٠٦هـ) الأمير خالد بن أحمد الذهلي كتبه حيث اطلع عليها [٧] ، كما سأل الحاكم أبو عبد الله الحافظ أبا الحسن أحمد بن محمد بن سهل الفقيه (ت ٣٥٨هـ) أن يخرج إليه إحدى شروحه لمذهب الشافعي ، والتي كانت تقع في ألف جزء ، فأخرجها إليه[٨]، واستعار أبو ملحم الشيباني الفارسي الأصل والمولد (ت ٢٤٨هـ) جزءاً من كتاب ورده في اليوم التالي[٩] ، واستعار أبو حفص عمر بن الحسن عدة رسائل من أحمد بن على الصفار الخوارزمي ، حيث دون منها بعض الفوائد [١٠] .

هذا وقد أدرك مؤرخونا القدامي ما لإعارة الكتب من أهمية في نشر العلم والثقافة ، فجاءت كتبهم ومؤلفاتهم تحث على إعارة الكتب وترغب فيها ، وقد كتب في هذا الموضوع أكثر من

---

(١) انظر المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤ ، ص ١٠ ، ص ١٥٩ ، ص ٢٨٥ .
(٢) انظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٠٣
(٣) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، والقزويني : آثار البلاد ، ص ٣١١ .
(٤) انظر الثعالبي : فقه اللغة ، ص ١٦
(٥) معجم البلدان : ج ٥ ، ص ١٣٤ .
(٦) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٥٠٥ .
(٧) السمعاني : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٦٣٦ .
(٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ص ٤٩ ـ ٥٠ .
(٩) ابن النديم : الفهرست ، ص ٦٩ .
(١٠) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

واحد فتحدث ابن حبان[١] تحت عنوان " ذكر الحث على لزوم العلم والمداومة على طلبه "عن قيمة العلم وأهميته ، فيشير ضمناً إلى أن من رزق علماً ينبغي عليه ألا يبخل بإفادة الناس منه ، ويدخل في هذا الإطار إعارة الكتب ، كما قال : " أنشدني الكريزي فقال :

أفد العـــلم ولا تبخـــل به ∴ وإلى عملك علماً فاستفد

استفد ماستطعت من علم وكن ∴ عاملاً بالعلم والناس أفد[٢]

كما تناول هذا الموضوع ابن جماعة الكناني [٣] وأفاض فيه وهو ما سنعرض له في حينه.

وقد جمع الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن جعفر مهريار اليزدي[٤] بعض ما قيل في الحث على إعارة الكتب ، وبعض ما قيل في منعها ، فأشار إلى أن الزهري قال : " إياك وغلول الكتب ، قيل : ما غلول الكتب . قال : حبسها[٥] .

أشار ابن جماعه الكناني إلى أنه يستحب إعارة الكتب لما في ذلك من الإعانة على العلم[٦]. إلا أن الأمر لم يكن هكذا دائماً ، إذ ظهر من يؤثر عدم إعارة الكتب والبخل بها ، فكان مسافر ابن الحسن ـــ أحد أدباء خراسان ـــ ينشد قائلاً :

أجود بجل مالي لا أبالي ∴ وأبخل عند مســألة الكتاب

وذاك لأنني أنفقت حرصاً ∴ على تحصيله شرخ الشباب[٧]

كما يذكر أن شمر بن حمدويه[٨] المعروف بأبي عمرو الهروي كان قد صنف كتاباً كبيراً ، وكان ضنيناً به ، فلم ينسخه أحد ، وخزنه أقاربه بعد وفاته فلم يستفد منه أحد ، وقد علق الأزهري على مافعله أبو عمرو الهروي فقال ... ولما أكمل الكتاب ضن به في حياته ولم ينسخه أحد من طلابه ، فلم يبارك له فيما فعله حتى مضى لسبيله ... والله يغفر لأبي عمرو ويتغمد ذلته والضن بالعلم غير محمود ولا مبارك فيه [٩].

---

(١) انظر: ابن حبان البستي : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء : مطبعة السنة المحمدية ، د.ت ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
(٣) انظر: ابن جماعه الكناني : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٦٣ ـ ١٩٣ .
(٤) هو من علماء القرن الرابع ، ومن تلاميذ ابن أبي الشيخ الأصبهاني المتوفي ٣٦٩هـ ، انظر السمعاني : الأنساب.
(٥) انظر: أ / فؤاد سيد : نصان قديمان في إعارة الكتب ، مقال مجلة معهد المخطوطات العربية (جامعة الدول العربية) ج ١ مجلد ٤ ، مطبعة مصر مايو ١٩٥٨م ، ص ١٣٠ ، ١٣٢ .
(٦) انظر: ابن جماعة الكناني : تذكرة السامع ... ص ١٦٧ .
(٧) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٤٩ .
(٨) شمر بن حمدويه ، عالم نحوي ولغوي من أهل خراسان ت ٢٥٥هـ ، انظر الأزهري : المصدر السابق نفسه وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .
(٩) انظر: الأزهري : تهذيب اللغة ، ج ١ ، ص ٢٥ . وابن القفطي : إنباه الرواه ، ج ٤ ، ص١٧٨ ـ ١٧٩ .

ومما يذكر في الضن بالاستعارة أن أبا الحسن محمد بن أحمد [١] كان يتمنى لقاء أحد شعراء بغداد ، ولم يتأت له ذلك ، لأنه لم يغادر أصبهان طوال حياته ، وعلم أن لدى أحد أصدقاءه نسخة من شعر ذلك الشاعر ، فسأله استعارتها ، فسَوف ولم يمكنه من استعارتها ، إلا أن أبا الحسن تمكن من النظر فيها وخرج من عندهم متعباً كأنه ناهض بحمل ثقيل ، وطلب محبرة وكاغداً ، وأخذ يكتب عن ظهر قلب ما اطلع عليه ، دونما التفات لمن حوله خشية نسيان ما حفظ حتى كان عدد ما كتب من الأبيات مائة وسبع وثمانين بيتا[٢] .

وقد نقل ياقوت الحموي عن السمعاني بعض أبيات لأحد الشعراء في بخله بكتبه فقال :

وإني لما أنا فيه من منافســتي ∴ فيما شــغفت به من هذه الكتــب

لقد علمت بأن الموت يدركني ∴ من قبل أن ينقضي من حــبها أربي

أطالعها في كل وقت فاجــتلي ∴ عقــائل يغلي مهـــرها كل عــاقل

وأمنعها الجــهال فهي حــبيبة ∴ جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي [٣]

وكذلك منع أحمد بن سيار عبدان العالم (ت ٢٩٣هـ) من الإطلاع على كتب الشافعي ، فما كان من عبدان إلا أن رحل لمصر ، حيث حصل كتباً لم يحصلها أحد ، وكان له الفضل في دخول بعض الكتب لمرو ، لم تكن قد دخلتها من قبل[٤] .

وقد أقر ياقوت الحموي نفسه بأنه بخل بأحد مؤلفاته ــ وهو كتاب أرشاد الأديب ــ الذي كتبه بعد اطلاعه على خزائن مرو فقال : فقد رآني جماعة من أهل العصر ، وقد نظمت لآلئ هذا الكتاب ... فاستحسنوه والتمسوه لينسخوه ، فوجدت في نفسي شحاً عليهم وبخلاً بعطف حيدة إليهم ، لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان ، والسوداويين من العين والجنان ، مع كوني غير راض لنفسي بذلك المنع ولا حامد لها على ذلك الصنيع ، ولكنها طبيعة عليها جبلت ".

وقد كتب أبياتا يعبر فيها عن مدى عشقه لهذا الكتاب ــ إرشاد الأديب ــ وبخله بإعارته لطالبيه ، فقال :

ولو أنني أنصفته في محــبتي ∴ لجــلدته جــلدي وصندقته عظــمي

عزيز على فضلي بألا أطيعه ∴ علــى بذله للطــائفين علــى العــلم

ولو أنني استطيع من فرط حبه ∴ لما زال من كفي ولا غاب عن كمي

---

(١) هو شاعر وعالم معروف ، ولد بأصبهان ، وبها مات سنة ٣٢٢هـ ، ظل بأصبهان ولم يغادرها ، وله الكثير من المؤلفات ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ١٤٣ ، وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه : ج ١٧ ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٣) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ٥٩ ، واجتلي الشئ : نظر إليه ، العقائل : جمع عقيلة وهي من النساء الكريمة المخدرة ، وهي الزوجة الكريمة ، انظر : المعجم الوجيز ، ص ٤١٩ .

(٤) انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

كما قال:"... وقد أقسمت ألا أسمح بإعارته ، مادام في مسودته ، لئلا يلح طالب بالتماسه[١]

كما أقسم أحد الشعراء بألا يعير كتبه، وقد عبر عن هذا قائلاً :

إني حلفت برب البيت والحرم ∴ هل فوقها حلفة ترجى لذي قسم

أن لا أعير كتاباً فيه لي أرب ∴ إلا أخـاً ثقـة عندي وذا كـرم

وقال آخر معتذراً عن إعارة كتبه :

لصيق فؤادي منذ عشرين حجة ∴ وصقيل ذهني والمفرج من همي

يعـز على مثلي إعـارة مثـله ∴ وآليه ألا يفـارق كمـــي [٢]

وقال أبو الحسن عمر بن أبي عمر السجزي النوقاني (وكان معاصراً للصاحب بن عباد) :

أصون كتابي عن يد لا تصـــونه ∴ صيانة نفسي عن أخ لا يصونها[٣]

ولكن ترى ما الذي يدفع بهؤلاء للضن بإعارة كتبهم في عصر ازدهرت فيه العلوم والمعارف والآداب أيما ازدهار .

الواقع أن الضن والبخل بإعارة الكتب لم يكن لينبع من فراغ ، بل كانت هناك أسباب ودواعي دفعت بأصحاب هذه الكتب إلى منع إعارتها لراغبيها ، ولعل ابرز هذه الأسباب هو تأخير رد الكتاب في وقت مناسب .

وقد أنشد أحد أدباء المشرق معبراً عن هذا :

أيها المســتعير منى كتابا ∴ إن رددت الكتاب كان صواباً

أنت والله إن رددت كتاباً ∴ كنت أعطيتـه أخـذت كتاباً[٤]

وأنشد آخر معاتباً على تأخير رد الكتب فقال :

ما بال كتبي في يديك رهينـة ∴ حبست على مر الزمان الأطول

ائذن لها في الانصـراف فإنها ∴ كنـز عليه افتقـرت معـــولي

---

(١) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ٥٨ ،٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ويبالغ يقوت الحموي في عشقه لهذا الكتاب ، ويشير إلى أنه لو استطاع تجليده بجلده وجعل من عظامه صندوقا يحفظ فيه الكتاب . كما يشير إلى أنه لو استطاع لما فارق هذا الكتاب يديه وكمه وذلك لأن بعضهم استخدم أكمام الملابس لحمل الكتب فيها .

(٢) الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ج ١ ، ص ١١٨ . كان البعض يحمل الكتب في كم ملابسه ، ومن هؤلاء أبي داود السجستاني الحافظ ، ت ٢٧٥هـ ، إذ كان له كم واسع وآخر ضيق ، وعندما سئل عن ذلك قال : الواسع للكتب والضيق لا أحتاج إليه ، انظر الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٢ ، ط ١٣٧٤هـ ، ص ٥٩١ وكذلك كان الفتح بن خاقان .

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٣٩٢ .

(٤) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٤٨ .

ولقد تغنت حين طال ثواؤهــا ∴ طال الوقوف على رسوم المنزل(١)

وأنشد العالم والأديب والنحوي أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت ٣٩٥هـ) معبراً عن هذا قائلاً :

تعجيل رد الكتب مما به ∴ يستكثر العلم أخو العلم

وحبسها بمنع من بذلهــا ∴ مع الذي فيه من الظلم (٢)

كذلك يبدو لنا أن ضياع الكتب والإهمال في المحافظة عليها من الدواعي والأسباب التي دعت أصحابها لمنع إعارتها ، وقد كتب بعض العلماء تعليقاً على هذه المسألة فكتب أحدهم على ظهر كتابه : " يارب من حفظ كتابي فاحفظه ، ومن أضاعه فلا تحفظه " ، وكتب آخر : ليس من أهل العلم من أضاع كتاب علم ، وكتب غيره: " الكتاب أمانة وهو حقيق بالصيانة " ، وكتب آخر: " أكرم الله من أكرمك وردك كما تسلمك " ، وكتب آخر : كتابي أعز شئ عليّ ، وإحسانك إليه هو إحسانك إليّ " (٣) .

ومما يذكر فيما تلقاه الكتب المستعارة من الإهمال ، أن أبا حامد أحمد بن طاهر الإسفراييني الفقيه أعار رجلاً كتاباً ، فرآه أبو حامد يوماً وقد أخذ عليه عنباً ، ثم أن الرجل سأله بعد ذلك أن يعيره كتاباً ، فقال تأتيني إلى المنزل ، فأتاه فأخرج الكتاب إليه في طبق وناوله إياه ، فاستنكر الرجل ذلك وقال : ما هذا يا أبا حامد ، فقال له أبو حامد : هذا الكتاب الذي طلبته ، وهذا طبق تضع عليه ما تأكله ، فعلم بذلك ما كان من ذنبه(٤) .

وهكذا كان ضياع الكتب والإهمال فيها من دواعي البخل والامتناع عن إعارتها لراغبيها ، وقد كان من نتاج ذلك أيضاً ظهور بعض الضوابط والآداب التي تحكم عملية الاستعارة ، ومنها فحص الكتاب وتفقده عن الاستعارة وعند الرد(٥) ، وقد أجمل ابن جماعه الكناني بعض هذه الآداب فقال : وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ، ويجزيه خيراً ولا يطيل مقامه عنده من غير حاجة ، بل يرده إذا قضى حاجته ، ولا يحبسه إذا طلبه المالك أو استغنى عنه ، ولا يجوز

(١) انظر: الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ، ج ١ ، ص ١٢٠ ، والأديب في هذه الأبيات يعاتب صديقه على تأخير بعض الكتب التي استعارها منه ، ويطالبه بردها ، ويصور الكتب وكأنها تئن لغيابها عن صاحبها وتطالب بالعودة إليه .
(٢) عن عبد السلام هارون : نوادر المخطوطات ج ١ ، ص ١٥٩ .
(٣) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٤٨ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .
(٥) ابن جماعة الكناني : تذكرة السامع ...، ص ١٧٢ .

أن يصلحه بغير إذن صاحبه ، ولا يحشيه – أي لا يكتب على حاشيته – ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه، أو حواشيه، ولا يسوده ولا يعيره غيره ... ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه"(١) .

وقد أنشد بعضهم قائلاً :

أيها المستعير مني كتابا ∴ أرض لي فيه ما لنفسك ترضى(٢)

وكان بعض أهل العلم لا يعير كتبه أحداً من الناس إلا بعد أن يختبر علمه وثقافته ، فإن وجده ذا علم أعاره الكتاب ، وكان بعضهم يقرأ المستعير الكتاب الراغب في استعارته ، فإذا أحسن قراءته قراءة صحيحة ، أعاره الكتاب ، وكان بعضهم إذا سأله إنسان استعارة كتاب طلب الإطلاع على كتب المستعير ، فإن رآها بحالة جيدة اطمأن على كتابه وأعاره إياه .(٣)

وفي إطار المبالغة في الحرص على الكتب المستعارة ووضع الضوابط لإعارتها ظهرت الإعارة برهن ، وقد أشار ياقوت الحموي ما يفيد معرفة أبناء بلدان المشرق بهذا الأمر ، وإن كان أشار أيضاً إلى أنه استعار من خزائن الوقف بمرو أكثر من مئتي كتاب بدون رهن(٤) ، وقد أنشد محمد بن حلف بن المرزبان مشجعاً على إعارة الكتب مقابل الرهن قائلاً :

أعر الدفتر للصاحب ∴ بالرهـــن الوثيق

إنه ليس قبيحـــــا ∴ أخذ رهن من صديق (٥)

وقد عرف الرهن في بعض الأوقات باسم التذكرة ، وهو ما يؤخذ مقابل إتاحة الاستعارة ، فقال أحد أهل العلم :

هذا كتاب حسن ∴ قدمت فيه المعذرة

حلفت بالله الذي ∴ أطلب منه المغفرة

أن لا أعير أحداً ∴ إلا بأخــذ التذكــرة (٦)

وفي التعريف بالتذكرة قيل أنها أي " شئ مودع يتذكر بشئ آخر "(٧) .

وهناك نماذج من العلماء رفضوا إعارة ما لديهم من كتب ، مبالغة في الحرص عليها ، والخوف من ضياعها ، خاصة وما لاقوه في تأليفها وكتابتها من مشاق ، ومن هؤلاء كان مسافر بن الحسن الخراساني ، وياقوت الحموي الذي ضن بإعارة كتابه إرشاد الأريب ، وقد سلك ابن

---

(١) ابن جماعه الكناني : تذكرة السامع والمتكلم ... ، ص ١٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٦٩ .
(٣) انظر الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٤) انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص .
(٥) انظر: الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٤٩ .
(٦) الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ، ج ١ ص ١١٩ .
(٧) يوسف العش : دور الكتب العربية ... ، ص ٤٠٣ .

حبان البستي نفس مسلكهم في الضن بإعارة الكتب ، وسلك مسلكاً آخر ، فوقف كتبه في دار خصصها لذلك وأتاح للراغبين الإطلاع عليها بدون خروج أي من هذه الكتب خارج هذه الدار[١]

وقد قال أحد أهل العلم منشداً ومعبراً عن رفضه لإعارة كتبه رافضاً الرهن أو التذكرة فقال:

لا أقبل الرهن ولا ∴ تذكر عندي تذكــرة

ولو حوت كفي بها ∴ فضل الرضا والمغفرة

(٣) العاملون بخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي :

خازن الكتب :

كانت شخصية خازن الكتب من أبرز الشخصيات التي عملت داخل دور خزائن الكتب ببلدان المشرق الإسلامي ، وقد بدا لنا من خلال البحث والمطالعة أن خازن الكتب ، هو العضو الأساسي والركيزة الأساسية لأية خزانة ، إذ يعهد إليه بحفظ الكتب وترتيبها وتصنيفها وفهرستها وتحصيلها أيضاً . ثم اتاحتها لراغبيها[٢] ، ونعرض الآن لطائفة من أبناء بلدان المشرق الذين عملوا كخازني كتب .

أ ـ أبو علي مسكويه الخازن :

هو أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب بأبي علي مسكويه الخازن[٣] ، مؤلف كتاب تجارب الأمم وغيره من الكتب[٤] ، توفي عام ٤٢١هـ ،[٥] وعمل خازناً لخزانة كتب أبي الفضل بن العميد[٦] ، حيث ظل ملازماً له قرابة السبع سنوات[٧]، كما عمل خازنا لخزانة كتب عضد الدولة البويهي[٨] ، وكان على ما يبدو نديماً [٩] لهما مقرباً منهما .

وكلاهما من خاصة الناس في العصر البويهي ، فالأول أحد الوزراء المشهود لهم ، والثاني أحد الحكام البارزين ، وكان لهما اهتمام خاص بأهل العلم ، وحاز كل منهما خزانة كتب شهدت لها المصادر التاريخية بالتميز .

---

(١) انظر الفصل الثاني ، ص ١٤١.

(٢) تبين لنا من خلال البحث والمطالعة أن هذه الأمور هي من مهام خازن الكتب .

(٣) الثعالبي : الإعجاز والإيجاز ، ص ٢٤٢ .

(٤) حول مؤلفات ابن مسكويه انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٥ ، ص ص ١٠ ـ ١١ وابن القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٦هـ ، ص ٢١٧ .

(٥) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥ .

(٦) ابن مسكويه : تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، والثعالبي : لطائف المعارف ص ٥١ ، وياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٧

(٧) ابن مسكويه : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٧٦ .

(٨) ابن القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢١٧ ، وابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٧٥ .

(٩) النديم : قال نظام الملك في الفصل الذي عقده للحديث عن صفات الندامي والمقربين من أهل السلطان : " وفي النديم عدة فوائد منها أنه يكون للسلطان مؤنساً ، منها أنه لما كان يصحبه ليل نهار كان له بمثابة الحافظ الواقي " . وللمزيد من التفاصيل حول الصفات الواجب توافرها في النديم انظر : الجاحظ : التاج في الأخلاق ،ص ٢١ ، وانظر: نظام الملك : سياسة نامة ص ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

وقد تمتع مسكويه بمؤهلات أهلته لتولي منصب خازن الكتب ، فقد كان ملماً بعلوم الأدب والشعر والبلاغة[١] ، وكان له اهتمام خاص بالكيمياء[٢] ، وكان بارعاً في علوم الفلسفة ، وهذا ما دعى د/ عبد العزيز عزت [٣] إلى دراسة شخصية مسكويه ، وقد عبر عن مكانة مسكويه قائلاً : مسكويه شخصية فذة في تاريخ التفكير الفلسفي الإسلامي ، ... فمسكويه في نظري هو المفكر الإسلامي الأول في ميدان الأخلاق .

ب ـ أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن :

ترجم له الثعالبي[٤] فقال: (أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن من حسنات أصبهان وأعيان أهلها ، من الفضل ونجوم أرضها وأفرادها في الشعر، من خواص الصاحب ومشاهير صنائعه ، ... وكان في اقتبال شبابه وريعان عمره ، يتولي خزانة كتبه وينخرط في سلك ندمائه) .

عمل أبو محمد خازناً لخزانة كتب الصاحب بن عباد التي سبق وأشرنا إليها , وكان ملازماً لدار ابن عباد ، حتى وفاته على سبيل الخدمة له[٥] .

ويبدو أنه حدث ما يعكر صفو العلاقة بين كل من أبن عباد وأبي محمد عبد الله الخازن ، وكان من أثر ذلك أن رحل أبو محمد عن أصبهان قاصداً العراق والشام والحجاز ، لبضع سنين حتى عاود حضرة الصاحب بن عباد مرة أخرى بعدما لاقى في رحلته من الصعاب والمشاق ، وقد عبر عن هذا في أحدى رسائله إلى أبي بكر الخوارزمي[٦] ، ولم يذكر لنا الثعالبي الذي تفرد بذكر هذه القصة ، دواعي وأسباب غضب أبا محمد من الصاحب بن عباد ، وأرجع ذلك إلى حداثة السن ، فيبدو أنه كان على أعتاب مرحلة الشباب ، وقد أورد الثعالبي نص ذلك الخطاب ، للتدليل على بلاغة أبي محمد وبراعته الأدبية[٧] ، ويبدو من نص الخطاب أن أبا محمد يندم على تركه حضرة الصاحب ، وضياع عشر سنوات من عمره ، إذ لم يجن خلال هذه السنوات العشر إلا الخسران ، فلا علم ولا مال ، بل الأكثر من ذلك ، فقد فجع في كتبه إذ سرقت منه أثناء ترحاله[٨] ، وذكر أنه يرجو العودة إلى رحاب الصاحب بن عباد مرة أخرى، ويبدو أن أبا

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٦ .
(٣) انظر : د/ عبد العزيز عزت : ابن مسكويه ، مطبعة مصطفي البابي الحلبي ، ط ١ ، ١٩٤٦م ص ص ٧ ، ٨ ، وقد ناقش د/عبد العزيز عزت الاختلاف في لقب أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ، إذ لقبه البعض بابن مسكويه ولقبه البعض الآخر بمسكويه ، واهتدى على أن لقبه الصحيح مسكويه مستنداً في ذلك إلى تسمية بعض المعاصرين له بهذا الاسم ، ولمزيد من التفاصيل ، انظر المرجع نفسه ، ص ٨١ .
(٤) يتيمة الدهر : ج ٣ ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٧ .
(٥) انظر أبا شجاع: ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ١١٥
(٦) وعن أبي بكر الخوارزمي : انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٨ .
(٧) انظر: الثعالبي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ . وانظر نص الخطاب في ملاحق البحث .
(٨) المصدر نفسه ج ٣ ، ص ٣٨١

العباس الضبي ، أعلم الصاحب بن عباد بأمره ، وبرغبته في العودة إلى رحابه ، فأجابه إلى ذلك الأمر ، وكتب له توقيعاً بذلك . فعاد أبو محمد عبد الله إلى رحاب الصاحب بن عباد ، وقد عبر أبو محمد عبد الله عن هذا بقوله: " ... وعدنا للقرب في المجلس، وكرم اللقاء في المشهد ، واقبلنا على العلم ، وصافحنا يد النثر والنظم ، وراجع الطبع شيئاً كان يدعى الشعر ... "[١] .

ويبدو لنا أنه وطوال هذه السنوات العشر ، لم تكن خزانة كتب الصاحب خالية من خازن كتب ثقة ذي علم يتولى أمرها ، إذ أشار الصفدي [٢] في تراجمه إلى شخص يدعى محمد بن إبراهيم بن على بن عاصم بن زادان أبي بكر المقري الحافظ مسند أصبهان ، وذكر أنه خازن كتب الصاحب ، وأشار إلى أنه ثقة مأمون ، صاحب أصول ، (ت ٣٨١هـ) .

وإذا كانت المصادر[٣] تشير إلى أن الصاحب بن عباد توفي عام ٣٨٥هـ ، وأن أبا محمد عبد الله خازن الكتب كان ملازماً له ولداره على سبيل الخدمة فإن ذلك يجعلنا نرجح أن الصاحب بن عباد اتخذ من أبي بكر المقري الحافظ خازناً له طوال سنوات غياب أبي محمد عبد الله ، وبعد وفاته تولى أبو محمد عبد الله خزانة كتب الصاحب مرة أخرى ، ولا يستبعد أيضاً أن يكون أبو بكر المقري الحافظ قد تولى خزانة دار كتب الري ، على أن أهم ما يعنينا ، هو المكانة العلمية والأدبية التي تمتع بها كلاهما ، فقد كان أبو محمد عبد الله أديباً وشاعراً لامعاً أشاد به الثعالبي ، وكان أبو بكر المقري عالماً حافظاً صاحب أصول .

ج ــ على بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب :[٤]

ذكره ياقوت الحموي[٥] فقال : " ... على بن هلال الكاتب أبو الحسن صاحب الخط المليح والإذهاب ــ يعني التذهيب ــ الفائق، بلغني أنه كان في أول أمره مزوقاً بصور الدور،ثم صور الكتب، ثم تعالى الكتابة ففاق فيها المتقدمين، وأعجز المستأخرين، وكان يعظ بجامع المنصور" .

ويبدو أن ما تمتع به من خط حسن ومهارة في التصوير والتذهيب ، أهلته لأنه يكون خازناً لخزانة كتب أبي نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي بشيراز ، إذ قال ابن البواب : " كنت اتصرف في خزانة الكتب لبهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز على اختياري ، وأراعيها له وأمرها مردود إلي "[٦]، ويبدو أن دوره بالخزانة قد تعدى كونه خازن كتب بدليل قوله وأمرها "مردود إلي " .

---

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ .
(٢) الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .
(٣) انظر: أبا شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ١١٥ .
(٤) توفي ابن البواب عام ٤١٣هـ . وللمزيد من المعلومات انظر ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٥ ، ص ١٥٥ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٤٢ والذهبي: العبر، ج ٢، ص ٢٢٤ وما بعدها، وابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٤.
(٥) معجم الأدباء : ج ١٥ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
(٦) المصدر نفسه : ص ١٢٢ .

وقد أشار ابن البواب إلى أنه عثر بالخزانة على جزء من مصحف بخط أبي على بن مقله ، وأنه ظل يبحث بالخزانة حتى عثر على تسع وعشرين جزءاً من المصحف ، وفشل في العثور على الجزء الثلاثين من ذلك المصحف ، فعرضه على بهاء الدولة الذي سأله إتمامه ثلاثين جزءاً فقبل ابن البواب مقابل خلعة ومائة دينار ، وظل ابن البواب يبحث عن الورق الكاغد الذي يشبه كاغد المصحف ، وجمع منه عدة أوراق وكتبه بخط يشبه إلى حد كبير خط أبي على بن مقله ، حتى أن بهاء الدولة نفسه عجز عن تمييز الجزء الذي بخط ابن البواب ، وكان قد أعطى ابن البواب مقابل ذلك مجموعة من الورق الصيني العتيق الذي امتلأت به الخزانة ، وكانت وعلى ما يبدو كمية هائلة ، حتى أنه قال " ... فكتبت فيه سنين "[1] .

والجدير بالملاحظة ما ذكره ابن البواب من أنه قام بكتابة الجزء الناقص وذهبه وعتقه ، ثم قام بتجليده بجلد من أحد الأجزاء الأخرى ، وجلد الذي أخذ جلده وعتقه حتى يبدو كباقي أجزاء المصحف[2] .

وهذه ولا شك مهارات فائقة تؤكد أنه عمل في الخزانة كخازن ومشرف على الخزانة ، وناسخ ومذهب ومجلد ، وهي مؤهلات لا تتوفر لكثير من أهل العلم ، مما يؤكد ما نرنو إليه من أن خازن الكتب إنما كان يتم اختياره من بين صفوة أهل العلم ، وأهل الفن أيضاً .

د ـــ الحكيم يحيى بن محمد الغزنوي المنجم المذهب :

كان يحيى بن محمد الغزنوي ممن عمل كخازن للكتب في دار الكتب الخاصة بالسلطان الكريم إبراهيم بن مسعود بن محمود الغزنوي ، وقد ترجم له ابن فندق وأشار إلى أنه خدم بدار كتب السلطان خازن للكتب إذ كان له من المؤهلات ما يؤهله لأن يكون أكثر من ذلك ، فقد كان خطاطاً ماهراً ، وكان ماهراً في فن التذهيب ، فلم يكن يضاهيه أحد في هذا الفن في ذلك الوقت ويبدو بأنه عمل في هذه الخزانة كخازن وناسخ وخطاط ومذهب .[3]

هـــ ـــ أبو صالح النيسابوري المؤذن :[4]

ترجم له ياقوت الحموي نقلاً عن السمعاني وأشار إلى أن اسمه أحمد بن عبد الملك بن على ابن أحمد ابن عبد الصمد بن بكر المؤذن ، المعروف بأبي صالح النيسابوري ، كان حافظاً أميناً

---

(١) انظر الملحق رقم : (٢) .
(٢) انظر الملحق نفسه . والتعتيق هو إحدى العمليات الفنية التي تستخدم في صناعة الورق ، ولمزيد من التفاصيل ، انظر مخطوط عمدة الكتاب في الأحبار ، دار الكتب المصرية ، رقم ٣٨ ، صناعة تيمور ، ميكروفيلم ٢١١٣٩ ، ورقة ٣١،٣٠
(٣) ولد يحيى بن محمد الغزنوي ٤٩٥هـ ، ت ٥٢١هـ ، وكان له خط في التنجيم ، انظر ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٢٤٢
(٤) ولد أبو صالح النيسابوري ٣٨٣هـ ، وتوفي ٤٧٠هـ ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ وانظر أيضاً الذهبي : العبر ، ج٢ ، ص ٣٢٧ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١١٨ .

وفقيهاً مفسراً ومحدثاً وقال : كان عليه الاعتماد في الودائع من كتب الحديث ، المجموعة في الخزائن الموروثة عن المشايخ الموقوفة على أصحاب الحديث ، وكان يصونها ويتعهد حفظها ويتولى أوقاف المحدثين من الحبر والكاغد وغير ذلك ويقوم بتفريقها عليهم ، و إيصالها إليهم وكان يؤذن على منارة المدرسة البيهقة سنين احتساباً ، ووعظ المسلمين وذكرهم وكان يأخذ صدقات الرؤساء والتجار ويوصلها إلى ذوي الحاجات ويقيم مجالس الحديث ، وكان إذا فرغ جمع وصنف وأفاد وكان حافظاً ثقة ديناً خيراً كثير السماع والرحلة،وكتب الكثير بخطه"[١].

ويبدو من النص أنه عمل كخازن لكتب الحديث الموقوفة ، حيث كان يقوم بصيانتها وحفظها وإتاحتها لراغبيها موفراً لهم الحبر والكاغد من خلال الوقف، ولا يستبعد أن يكون الوقف المشار إليه بالنص إنما يخص المدرسة البيهقية التي ظل يؤذن على منارتها لسنين .

والجدير بالملاحظة أن أبا صالح النيسابوري كان وعلى ما يبدو يعمل خازناً لخزانة كتب وقف عامة ، هذا على خلاف من سبقت الإشارة إليهم ، إذ عمل السابقون في خزائن بعض أولي الأمر والرياسة .

ويلاحظ أيضاً أن أبا صالح النيسابوري كان من أهل العلم ، إذ كان حافظاً وفقيهاً ومحدثاً ، وكان كثير السماع ، واسع الرواية . سمع منه الكثير من أهل العلم في جرجان والري والعراق والحجاز والشام ، وكانت له مصنفات منها كتاب التاريخ لمرو ، وقد امتلك السمعاني هذا الكتاب في مسودته[٢] .

و ــ نصير الدين الطوسي[٣] وابن الفوطي :[٤]

سبق وأشرنا إلى أن نصير الدين الطوسي ــ الذي تولى بناء مرصد مراغة والإشراف عليه ــ عمل كخازن كتب ، حيث تولى الإشراف على خزانة كتب المرصد ، والتي أشير إلى أنها حوت كتباً كثيرة ، وبعض الأدوات والآلات ، كذلك عمل ابن الفوطي كخازن لهذه الخزانة أكثر من عشر سنوات ، طالع فيها الكتب والمؤلفات النفيسة مما أهله لتولي خزانة كتب المدرسة المستنصرية ببغداد .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٣ ، ص ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ، وانظر أيضا ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٣ ، ص ٣٣٥ .

(٢) انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٣) انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٦ ، وابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦ والصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٧٩ وما بعدها ، وخواندمير : رجال حبيب السير ، ترجمة هالة حسن محمد ، ص ١٨٢ .

(٤) انظر ابن شاكر الكتبي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٥٨ .

وما نود الإشارة إليه الآن هو المكانة العلمية والأدبية لكليهما :

فنصير الدين الطوسي كان فيلسوفاً وعالماً بالرياضيات ، ملماً بعلوم الأوائل ، وكان ذا مكانة عالية عند هولاكو ، أما ابن الفوطي ، فكان إماماً محدثاً مؤرخاً وفيلسوفاً ، ذكره ابن شاكر الكتبي[١] فقال أنه : " ... اشتغل بعلوم الأوائل وبالآداب والنظم والنثر ومهر في التاريخ ، وله يد بيضاء في ترصيع التراجم وذهن سيال ، وقلم سريع ، وخط بديع إلى الغاية ، قيل أنه يكتب من ذلك الخط الفائق الرائق أربع كراريس ، ويكتب وهو نائم على ظهره ، وله بصر بالمنطق وفنون الحكمة " . وقد لوحظ أن لكليهما كتب ومؤلفات .

ز ـ نماذج أخرى لخازني الكتب من أبناء بلدان المشرق الإسلامي :

ونعرض الآن لنماذج أخرى من أبناء بلدان المشرق الذين عملوا في شتى أنحاء العالم الإسلامي كخازني كتب في دور وخزائن كتب في أنحاء شتى من العالم الإسلامي ، ويأتي في مقدمة هؤلاء :

الشابستي الكاتب[٢]: الذي ينتمي إلى إحدى قرى مرو ، والذي عمل خازناً لخزانة كتب العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر[٣] ، وقد ذكره ابن خلكان[٤] وأشار إليه بكل تقدير قائلاً " ... كان أديباً فاضلاً بخدمة العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر ، فولاه أمر خزانة كتبه ، وجعله دفتر خوان يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه ، وكان حلو المجاورة ، لطيف المعاشرة ، وله مصنفات حسنة منها كتاب الديارات ... " . وهكذا يشير ابن خلكان إلى المكانة العلمية والأدبية التي تمتع بها الشابستي ، وهو ما أكده ياقوت الحموي .

ومن أبناء المشرق الذين قاموا بالإشراف على خزائن الكتب ، كان **يعقوب بن سليمان بن داود والمعروف بأبي يوسف الخازن الإسفراييني**[٥] : الذي غادر بلدان المشرق متجهاً إلى العراق والشام حيث سكن بغداد ، وعمل كخازن كتب للمدرسة النظامية ، وكان كما يشير ابن شاكر الكتبي ، فقيهاً حسن المعرفة بالأصول ، وله معرفة بالأدب ، وكان يكتب خطاً جيداً وله تصنيف[٦] وكان شاعراً كما عرف أيضاً بالقاضي[٧] .

---

(١) ابن شاكر الكتبي : المصدر السابق نفسه : ص ٦٥٩ .

(٢) اختلف المؤرخون في اسمه وتاريخ وفاته ، واتفقا على أنه صاحب كتاب الديارات ، فذكر ابن خلكان أن اسمه أبا الحسين على بن محمد الشابستي الكاتب ، وأنه تولي خزانة كتب العزيز بن المعز ، وإنه توفي عام ٣٨٨هـ وقيل ٣٩٠هـ ، في حين ترجم له ياقوت الحموي تحت اسم محمد بن إسحاق أبو عبد الله الشابستي ، وأشار إلى أن البعض يقول أبو الحسن على بن أحمد ، وأشار إلى أنه توفي ٣٩٩هـ انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ١٦ .

(٣) ابن خلكان : المصدر نفسه وياقوت الحموي : المصدر نفسه ، ج١٨ ، ص ١٦

(٤) المصدر نفسه ، ج ١٨ ، ص ١٦ .

(٥) توفى أبو يوسف الخازن الإسفراييني عام ٤٨٨هـ انظر ابن شاكر الكتبي فوات الوفيات ج ٢ ، ص ٦٤٧ ، وأشار ياقوت الحموي أنه توفي عام ٤٩٨هـ ، انظر معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ١٣٧ .

(٦) ابن شاكر الكتبي : المصدر السابق نفسه .

(٧) ياقوت الحموي : المصدر السابق نفسه .

ومنهم أيضاً : **محمد بن أحمد الأبيوردي**[١] : الذي تولى خزن خزانة دار الكتب بالنظامية بعد أبي يوسف الخازن ، وكان الأبيوردي شاعراً وأديباً ، عالماً بالعربية ، ونسابة ليس كمثله أحد، وله الكثير من المصنفات والمؤلفات التي تنوعت بين تاريخية وأدبية، وكتب في الأنساب[٢]

وقد سبق وأشرنا إلى أن : **الخطيب التبريزي** : تولى أيضاً خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد ، عهد نظام الملك الوزير ، وهو وكما أشرنا من أبناء بلدان المشرق ، وكان أيضاً من أهل العلم وممن لهم عناية خاصة بالكتب .

وهكذا وبعد ذلك العرض لهذه النماذج من خازني الكتب ، يمكننا القول أن خازن الكتب كان أبرز ، وأهم القائمين على أمر خزائن الكتب ، إذ كان يعهد إليه حفظ الكتب وترتيبها وصيانتها وإتاحتها لراغبيها، وتحصيلها للخزانة ــ كما فعل ابن مسكويه لخزانة عضد الدولة ــ[٣] وكان في بعض الأحيان يمارس أعمال النسخ والكتابة والتجليد والتذهيب ، وهذه جميعها أمور تتطلب مهارات خاصة ، كالتي تمتع بها أبن البواب .

وقد لوحظ على كافة النماذج التي أشرنا إليها أنهم جميعهم من أهل العلم المتميزين ، وقد تساوى في ذلك خازنو خزائن أهل الحكم والرياسة ، وخازنو دور وخزائن الكتب العامة والخاصة ، وهذا يعكس لنا إدراكاً لخطورة عمل الخازن ، ومتطلباته ، كما يعكس لنا وعياً ثقافياً فائقاً.

ويمكننا من خلال ذلك العرض السابق ، استخلاص بعض السمات الواجب توافرها في خازني الكتب ، ولعل أبرزها هو العلم والثقافة والمعرفة ، والتحلي ببعض المهارات الأخرى ، كحسن الخط ، والقدرة على ممارسة التجليد والتذهيب ، والإلمام بأصول العمل من تصنيف وفهرسة ، بل والقدرة على تجديد ما يتلف من الكتب ، وتفهم أنواع الورق وكيفية توفيرها ، هذا إلى جانب التحلي بالصدق والأمانة .

هذا ولم تكن الهيئة العاملة بدور خزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي قاصرة على الخازن فقط ، بل كان هناك الناسخ أيضاً أو الوراق والخادم ، فقد عمل بالنسخ لدور وخزائن الكتب فئة ليست بالقليلة ، إذ كان النسخ والكتابة من أبرز وأهم الأنشطة التي تتم ممارستها بدور خزائن الكتب ، بدليل قيام بعض هذه الخزائن بتوفير الورق والكاغد والحبر للمترددين عليها ، كما كان في بيت كتب ابن حبان [٤] وغيره .

---

(١) توفي الأبيوردي سنة ٥٠٧ هـ انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٧ ، ص ٢٣٥ .
(٢) المصدر نفسه : ج ١٧ ، ص ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .
(٣) انظر: الفصل الأول ، ص٩١ .
(٤) انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ٤٧٩ .

وكانت عملية النسخ تتم ، وعلى ما يبدو داخل هذه الخزائن ، إلا أن هذا لم يكن شرطاً يشترط في ممارسة النسخ بدليل ما سبق وأشرنا إليه من أن أبا حبان التوحيدي كان يمارس النسخ والكتابة لصالح خزانة كتب ابن عباد[١]، ومن أبرز من عمل بالنسخ أيضاً ابن البواب[٢] ، ولن نجافي الحقيقة إذا ما قلنا أنه ما من خازن كتب إلا وكانت لديه المؤهلات التي تؤهله لممارسة النسخ ، بدليل تميز بعضهم بحسن الخط ، وكذلك عمل بهذه الخزائن بعض الوراقين ممن اضطلعوا بأمر توفير بعض الكتب والمؤلفات للخزانة ، كما سبق وأشرنا في خزانة كتب الطبري وأبي نصر سهل بن المرزبان .

وعمل أيضاً داخل هذه الخزائن بعض الخدم ممن كانوا يقومون بتوصيل الكتب لراغبيها ، كما فعل نجاح الخادم[٣] الذي سبق وأشرنا إليه ، وقد أشارت بعض المصادر إلى مثل هؤلاء باسم (المناول)[٤] .

وعمل أيضاً داخل هذه الخزائن بعض المجلدين أو بعض من كانت لهم مهارات عالية في التجليد والتذهيب ، ونستدل على ذلك بما قام به ابن البواب من تجليد المصحف ، وبما ذكر عن يحيى بن محمد الغزنوي الخطاط المذهب السابق الإشارة إليه .

وهذه الهيئة العاملة من خازن وناسخ ووراق ومجلد ومذهب ، كانوا ــ وعلى ما يبدو لنا ــ يتقاضون أجورهم من أصحاب هذه الخزائن ، إذا كانت خاصة ، وإن كانت تخص بعض أهل الحكم والرياسة ، أما إن كانت الخزائن عامة ، فقد كانوا يعطون أجورهم من خلال إدارة الوقف المكلفة بالصرف والإنفاق على هذه الخزائن .

(٤) نظم الفهرسة والتصنيف بدور وخزائن كتب بلدان المشرق :

الفهرسة[٥]؛ هي علم يوضح محتويات ومشتملات أية مكتبة ، والفهرس هو الكتاب الذي تجمع فيه أسماء الكتب[٦] ، وهو لفظ معرب من الكلمة الفارسية (فهرست)[٧] ، ويبدو من خلال العرض السابق لدور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي بكافة أنواعها "خزائن الحكام والوزراء ، وخزائن العامة ، والخزائن الخاصة " أن الفهرسة عرفت طريقها إلى هذه الخزائن .

---

(١) انظر: ياقوت الحموي: معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ٢٨ .
(٢) انظر: المصدر نفسه : ج ١٥ ، ص١٢٠ .
(٣) انظر: المصدر نفسه ، ج ١٥ ، ص ٣٤ .
(٤) انظر: المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص .
(٥) نشير بكلمة الفهرسة إلى فهارس المكتبات ، بعيدا عن المعنى المرتبط بالفهرس الملحق بآخر الكتاب .
(٦) د/ أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط ، ج ٢ ، ص ٥٢١ والمعجم الوجيز ، ص ٤٨٣ .
(٧) انظر الفيروز ابادي : القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٧٢٧ .

كما يبدو لنا أيضاً أن خزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي عرفت أنواعاً متعددة من الفهارس ، منها **فهارس المكتبات** ، وهي تلك الفهارس التي توضح محتويات أية خزانة كتب . فقد كان بمكتبة السامانيين ، وكما أثبتنا فهرس لكتب الأوائل(١) ، ولاشك أنها حوت فهارس أخرى لكافة أنواع الكتب الموجودة بها ، قياساً على فهرست كتب الأوائل الذي طالعه ابن سينا بنفسه .

كذلك اشتملت خزانة كتب عضد الدولة البويهي على مجموعة من الفهارس ، التي حوت أسماء الكتب والمؤلفات الخاصة بكل فرع من فروع المعرفة ، ونستدل على ذلك بما ذكره المقدسي(٢) إذ قال : " ... والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهارس ، فيها أسامي الكتب " .

وكان لدار كتب الري فهرس بمحتوياتها من الكتب والمؤلفات شوهد في عشرة مجلدات(٣) واشتملت دار كتب أبي العباس الضبي بجامع الخصيب بن مسلم بأصبهان على فهرساً ، خصر في ثلاثة مجلدات كبيرة(٤) حوى كافة الكتب والمؤلفات التي اشتملت عليها هذه الدار .

وقد لوحظ على هذه الفهارس إنها أخذت شكل المجلدات (الكتاب المجلد) وهو شكل من أشكال الفهارس أثنى عليه بعض المؤرخين ، فقال د.عبد الستار الحلوجي : لقد كانت الفهارس المعدة في شكل كتاب أنسب الأشكال لفهرسة المخطوطات(٥) ، ونحن نؤيده فيما يرنو إليه ، خاصة وأن كافة الكتب في تلك الآونة كانت كتباً ومؤلفات مخطوطة .

ويبدو مما كتب عن هذه الفهارس ، أنه كانت هناك فهارس لكل نوع من أنواع الكتب ، قائمة بذاتها ، تسهيلاً على القارئ والمتردد في الحصول على ما يبغاه من العلوم والمعارف ، فمن كان يبحث عن كتاب في علوم الأوائل ، فعليه مطالعة فهرست كتب الأوائل ، ومن كان يبحث عن كتاب في علوم الطب ، فعليه مطالعة فهرست كتب الطب وهكذا . وندلل على هذا بما ذكر بصدد خزانة كتب عضد الدولة إذ ذكر أن لكل نوع من الكتب بيوت وفهارس فيها أسامي الكتب(٦) .

وإضافة إلى فهارس المكتبات ، فقد شهدت خزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي أنواعاً أخرى من الفهارس ، وهي الفهارس التي تترجم لكتب ومؤلفات عالم أو أديب بعينه ، فقد أقر

---

(١) انظر: ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٠٣ .
(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤٤٩ .
(٣) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٢٥٩ .
(٤) المافروخي : محاسن أصبهان ، ص ٨٥ .
(٥) د . عبد الستار الحلوجي : المخطوط العربي ، ص ٢٩٦ .
(٦) انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤٤٩ .

ياقوت الحموي بأنه شاهد فهرس كتب أبي الريحان البيروني في وقف الجامع في مرو[١] ، وفي هذا يقول: " ... وأما سائر كتبه في علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة ، فإنها تفوق الحصر رأيت فهرستها في وقف الجامع بمرو في نحو الستين ورقة بخط مكتنز "، أي دقيق .

وأشار ابن النديم إلى أن لجابر بن حيان ومؤلفاته فهرستين : فله " فهرست كبير يحتوي على جميع ما ألف في الصنعة وغيرها ، وله فهرست صغير يحتوي على ما ألف في الصنعة فقط"[٢] ويبدو أن الذي أعد هذه الفهارس هو جابر بن حيان نفسه ، وذلك استناداً لما يقوله ابن النديم : " ... (وقال جابر في كتاب فهرسته) ، وكانت على ما يبدو معدة على هيئة كتاب ، ويتميز فهرست كتب جابر بن حيان بأنه ذكر أسماء الكتب والرسائل التي ألفها ، وأسماء من ألفت لهم في بعض الأحيان ، وذكر عدد ما ألف وصنف في كل مجال فأشار إلى أنه ألف ثلثمائة كتاب في الفلسفة ، وألف ثلثمائة كتاب في الخيل ، وألف ثلثمائة رسالة في صنائع مجموعة ... وألف في الطب نحو خمسمائة كتاب، وألف خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة ، وذكر أيضاً أعداد صفحات بعض الكتب والمؤلفات[٣] .

وكان للقاضي ابن حبان البستي فهرساً لمؤلفاته أشار إليه ياقوت الحموي باسم (التذكرة) ورد بها أسماء المؤلفات وأعداد أجزائها[٤] .

كذلك كان لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي[٥] فهرساً حوى كل ما صنف من الكتب والرسائل ، اتسم أيضاً بشئ من التفصيل ، خاصة وأنه ذكر أسماء بعض الكتب وأسماء من ألفت لهم ، كما أشار إلى محتويات وأقسام بعض الكتب ككتاب الحاوي والمنصوري[٦] وكان فهرست كتب أبي العباس البغدادي قاضي شيراز يشتمل على أربعمائة مصنف .[٧]

ويبدو أن هذه النوعية من الفهارس كانت سائدة في أنحاء العالم الإسلامي ، إذ طالعتنا المصادر بعدد من الفهارس لمؤلفات بعض العلماء[٨] ، وكانت مثل هذه الفهارس تسهل عملية

---

(١) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ١٨٥ .

(٢) انظر: ابن النديم : الفهرست ص ٥٠٠ ، وقد أشار ابن النديم في إطار الترجمة لجابر بن حيان أن البعض أشار إلى أصله من خراسان حتى أن الرازي كان يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة : قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان : انظر المصدر نفسه ، ص ٤٩٩ ، والصنعة يقصد بها علم الكيمياء .

(٣) ابن النديم : الفهرست ، ص ٥٠٢ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

(٥) عن أبي بكر محمد بن زكريا الرازي : انظر ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء ، ص ٣٧٩ ، وما بعدها من صفحات .

(٦) انظر: ابن النديم : الفهرست ، ص ص ٤١٥ ـ ٤٢٠ ، ص ٥٠٤ ، وابن القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ١٧٩ .

(٧) وهو من أبناء المائة الرابعة ، كان شافعيا ، قام ينصره مذهب الشافعي ، انظر ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج ١ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٨) من أمثلة هذه الفهارس المشار إليها فهرس كتب ابن جني أبو الفتح النحوي توفى ٣٩٢هـ ، انظر ابن النديم الفهرست ، ص ١٠٨ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١٢ ، ص ١٠٣ ، وفهرس كتب الحسن ابن الهيثم عالم الرياضيات والبصريات ت ٤٢٠هـ ، انظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤١٤ ـ ٤١٥ ، وفهرس كتب على بن الحسين بن موسى الملقب بالمرتضى ت ٤٣٦هـ وانظر ياقوت الحموي: المصدر السابق ، ج ١٣،ص ١٤٧.

الحصول على مؤلفات عالم أو أديب بعينه ، دون الحاجة إلى النظر في الفهارس العامة لأية دار كتب أو خزانة كتب .

وهناك نوع ثالث من الفهارس ، توضح نوعية ما كتب وألف في فترة معينة ويمثل هذا النوع كتاب الفهرست لابن النديم[١] .

أما فيما يتعلق بالتصنيف ، فقد اتضح لنا من خلال الفصول السابقة ، أن دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي ، عرفت فن تصنيف الكتب ، فقد كانت خزانة كتب السامانيين مصنفة ، بدليل ما ذكر من أنه كان فيها بيوت كثيرة " ... في بيت فيها كتب العربية والشعر وآخر الفقة ، وكذلك في كل بيت كتبت علم مفرد " [٢].

وكانت خزانة كتب عضد الدولة أيضاً مصنفة ، فقد ذكر في وصفها أن (.. لكل نوع بيوت) [٣] ، وكانت خزانة كتب الصاحب بن عباد أيضاً مصنفة بدليل ما ذكر عن حمله لكتب الأدب[٤] .

(٥) أبرز الأنشطة والممارسات بخزائن كتب بلدان المشرق :

يمكننا من خلال العرض السابق لدور وخزائن الكتب بكافة أنواعها ، استنباط أبرز وأهم الأنشطة التي كان يتم ممارستها بهذه الدور والخزائن ، ولعل أبرز وأهم هذه الأنشطة هو ممارسة النسخ والكتابة خاصة وما سبق وأشرنا إليه من قيام بعض هذه الخزائن بتوفير الورق للمترددين عليها ، ثم ما سبق وأشرنا إليه من عمل بعض الوراقين بهذه الخزائن .

وكان تذهيب الكتب وتزيينها من أبرز وأهم الأنشطة لهذه المكتبات ، بدليل ما سبق وأشرنا إليه من عمل كل من ابن البواب ، ويحيى بن محمد الغزنوي بالتذهيب ، والتذهيب فن من فنون الكتاب التي ازدهرت في ديار الإسلام[٥]،والتي عكست لنا حرص المسلمين على التأنق والتجويد فيما يقتنون من كتب ومؤلفات ، وقد استخدم التذهيب بداية في المصاحف[٦] ، ثم اتسعت الدائرة ليستخدم بعد ذلك في تزيين الكتب والمخطوطات الأخرى ، وقد اهتمت كثير من المصادر

---

(١) ابن النديم : ترجم له ياقوت الحموي ووصفه بالوراق ، وكانت له معارف واسعة ، توفى ٣٧٧هـ انظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ١٧ ، وقد تحدثت المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه عن ابن النديم وثقافته الواسعة ، ويعكس ما كتبته عنه إعجابا بثقافتة الموسوعية . انظر زيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٦١ .
(٢) انظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٠٣ .
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤٤٩ .
(٤) انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٧ .
(٥) د . زكي حسن : فنون الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، ١٩٣٨م ، ص ١٥٧ .
(٦) انظر : عبد الجواد الأصمعي : تصوير وتجميل الكتب العربي في الإسلام ، دار المعارف ، مصر ، د . ت ، ص ٧٨ ، وانظر أيضا د . عبد الستار الحلوجي : المخطوط العربي ، ص ٢٢٧ .

بدراسة عملية التذهيب، وكيف كان يتم ممارستها. والأدوات والآليات التي كانت تستخدم فيها[١] والجدير بالذكر أن عملية التذهيب لم تكن قصراً على الذهب ، كمادة للتذهيب ، بل استخدمت مواد أخرى كاللازورد والزنجفر وغيرها ، كما استخدمت بعض الألوان والأصباغ [٢] .

وقد مارس عملية التذهيب هذه ، المذهب أو الوراق ، وعادة ما كان يوجد الوراق المذهب ، الذي يجمع بين الفنيين في عمل واحد .

وقد كان للمذهب مكانة اجتماعية راقية ، خاصة وارتباط التذهيب في بادئ أمره بالمصاحف وشيوع تذهيب المصاحف الكريمة ونقشها وزخرفتها[٣] .

كذلك كان تجليد الكتب من أبرز وأهم أنشطة خزائن كتب بلدان المشرق ، وندلل على هذا بما ذكر عن كل من ابن البواب ، ويحيى بن محمد الغزنوي ، إذ عمل كل منهما كخازن وناسخ ووراق ومذهب ومجلد داخل خزائن الكتب .

وتنبع أهمية التجليد (التسفير) من أنه كان يحقق للكتاب أكثر من هدف ، فهو بداية يحافظ على الكتاب ويحميه مما قد يعرضه للتلف ، ثم هو ثانياً يظهر الكتاب في صورة حسنة تحقق له الجانب الجمالي[٤] ، ولولا التجليد لما حفظت لنا كتب التراث التي عاشت لننهل من علومها وفنونها وآدابها .

وقد أدرك أبناء بلدان المشرق الإسلامي ما للتجليد من أهمية فسارعوا إلى تجليد ما بحوزتهم من كتب ومؤلفات ، فكانت خزانة أبو بكر الصولي تحوي كتباً مجلدة ملونة بألوان مختلفة تصنيفاً لها ، وكانت خزائن عضد الدولة تحوي كتباً مجلدة كما سبق وأشار المقدسي .

ولدينا رسالة لابن الزيات كان قد بعث بها للجاحظ ، يعيب عليه فيها عدم تجليده لكتبه ، ويوضح له ما للتجليد من أهمية[٥].

---

(١) قمنا بدراسة عملية التذهيب بشكل تفصيلي في الرسالة التي تقدمنا بها للحصول على درجة الماجستير ولمزيد من المعلومات انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ... ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ ، وانظر أيضاً : حجاجي إبراهيم محمد : صناعة الأصباغ والألوان ... رسالة دكتوراه غير منشورة / آداب سوهاج ١٩٨٢م ، ص ٣١٤ وما بعدها ، وانظر أيضاً : هالة شاكر : الورق والوراقون في العصر العباسي ، ص ١٤٥ ، ص ٢٥٦ وما بعدها .

(٢) انظر: القلقشندي : المصدر السابق نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٠٧.

(٣) حول هذه الجزئية انظر عبد الجواد الأصمعي ، تصوير وتجميل الكتب ، ص ١٧٧ .

(٤) حول أهمية التجليد وما يحققه من قيمة عملية مظهر جمالي انظر كوركيس عواد : خزائن الكتب في العراق ، ص ٢٠ ، وانظر أيضاً د . أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط ص ٣٦ ومابعدها.

(٥) انظر: د . على أبو ملحم : رسائل الجاحظ الأدبية ، ط١ دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٨ . وانظر: أيضاً عبد السلام هارون : رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٩١م ، ص ٢٤٦ - ٢٤٩ ، وقد أوردنا نص الرسالة كاملاً في رسالة الماجستير التي أعددناها.

وقد برع المجلدون من المسلمين في ممارسة التجليد وأدخلو عليه بعض التطورات فاستخدمت الجلود بأنواعها بعد ما كان الخشب وصفائح البردي هي معولهم في التجليد ، وبرعوا أيضاً في طرق معالجة الجلد وتهيئته لعملية التجليد وفي صبغه بألوان متعددة ومتنوعة(١) .

ثانياً : حوادث الكتب والمكتبات :

لاحظنا بعد العرض السابق إلى أي مدى شكلت دور وخزائن الكتب ـ في بلدان المشرق الإسلامي ـ صرحاً ثقافياً شامخاً أضطلع ولقرون بأمر إثراء الحياة العلمية الثقافية ببلدان المشرق الإسلامي ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد تعرض ذلك الصرح إلى الكثير من الابتلاءات والكوارث التي تعددت وتنوعت ما بين حرق وغرق وسرقة ونهب وغيرها ، وقد أجمل أبو سعد عبد الرحمن بن محمد بن دوست النيسابوري بعض المصائب التي قد تتعرض لها الكتب في بيت شعر فقال :

عليك بالحفظ دون الجمع في الكتب ∴ فإن للكـــتب آفات تفرقــها

المـــاء يغرقهـــا والنار تحــــرقها ∴ والفأر يخرقها واللص يسرقها(٢)

وواقع الأمر أن المصائب والكوارث التي تلحق بالكتب والمكتبات تعد من أصعب وأفجع المصائب ، وقد عبر أحد العلماء عن هذا بقوله :

إذا فجع الدهر أمرأ بخليله ∴ تسلى ولا يسلى لفجع الدفاتر (٣)

وقد لاحظنا من خلال المصادر التي اطلعنا عليها ، أن الكوارث والمصائب التي ألمت بالكتب وخزائن الكتب والتي تعددت وتنوعت ، إنما كانت في أغلبها نتاج لبعض الصراعات السياسية والمذهبية والطائفية ، هذا إلى جانب الحاجة الاقتصادية ، وبعض العوامل الأخرى التي سنعرض لها .

(١) الحوادث الناتجة عن الصراعات السياسية والطائفية :

ساهمت الصراعات السياسية والمذهبية بشكل كبير في فقدان الكثير من الكتب والمكتبات ، فكاد أبو الفضل بن العميد يفقد خزانة كتبه بسبب هجوم بعض القوات الواردة من خراسان على

---

(١) قمنا بدراسة عملية تجليد الكتب بشئ من التفصيل في الدراسة التي أعددناها للحصول على درجة الماجستير ، وللمزيد من المعلومات انظر مؤلف مجهول : مخطوط عمدة الكتاب في الأحبار ، وانظر مخطوط نظم تدبير السفير في صناعة التسفير ، دار الكتب ، ٣١٩ مجاميع ، ميكروفيلم ١٧٤٩٠ ، ص ١٠٥ ، وانظر سعاد محمد المهدي : تجليد الكتب في مصر في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة . آداب القاهرة ، ١٩٧٤م ، ص ١ ، وابن الحاج : المدخل ، ص ٨٧ .

(٢) انظر: الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٤٩١ ، وأبو سعد عبد الرحمن المذكور بأحد أدباء نيسابور ، وكان ذا معرفة جيدة بالفقه وله الكثير من الأشعار .

(٣) انظر: الراغب الأصبهاني : محاضرات الأدباء ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

الري ، حيث قامت هذه القوات بمهاجمة دار أبي الفضل بن العميد الوزير ، إلا أن خزانة الكتب سلمت من هذه الهجمات [١] .

احترقت الكتب المثبت عليها سماع هارون الاستراباذي ت ٣٦٤هـ في خان البزازين أثناء الفتنة التي قامت بنسف عام ٣٧٤هـ[٢] .

وفقد ابن سينا بعض كتبه وأمتعته أثناء الصراع الذي دار بين قوات السلطان مسعود بن محمود الغنزوي ، وبين قوات الملك علاء الدولة أبو جعفر محمد كاكويه ، حاكم أصفهان في ٤٢٧هـ ، وكان ذلك الأخير قد ثار ضد الغزنويين وأعلن استقلاله عنهم ، وكان ابن سينا في تلك الآونة وزيراً لعلاء الدولة . فأغار الجنود الغزنويون على بيت كتب أبي على ونقلوا أكثر تصانيفه وكتبه إلى خزانة كتب غزنة [٣] .

واحترقت خزانة كتب غزنة وكانت تحوى كتب ومؤلفات لابن سينا والبيروني وغيرهما ـ على ما يبدو ـ أثناء صراع الغزنويين مع أحد حكام دولة الغور الحسين بن الحسن المعروف بملك الجبال ، عندما هم ذلك الأخير بإحراق غزنة في منتصف القرن السادس تقريباً .[٤]

وتسببت بعض الغارات التي قام بها بعض الأتباع المناوئين للسلطان أبي طالب طغرل[٥] والأتابك محمد بن آيلدكز[٦] ـ على فارس في ضياع تراث هائل من الكتب والمؤلفات ، حيث قاموا بنهب المدارس ودور الكتب وأخذوا ما بها من مصاحف وكتب موقوفة ، وأرسلوا بها إلى بعض الخطاطين في همذان ، كي يمحوا الوقف المثبت على هذه الكتب والمؤلفات ويسجلوا أسماءهم عليها ، وقد عاصر الراوندي هذه الواقعة وشاهدها بنفسه[٧] .

وفي إطار التدليل على ما كان للصراعات السياسية والفتن الطائفية من أثر في فقدان الكثير من الكتب وخزائن الكتب ، نذكر ما منيت به دار كتب الري ، إذ قام السلطان محمود الغزنوي بمهاجمة مدينة الري بمحاربة الباطنية والروافض باعتبارها أصول البدع ، ونقل في هذه الواقعة حوالي خمسين حملاً من الكتب[٨] .

---

(١) انظر: ابن مسكويه : تجارت الأمم ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .
(٢) المسعاني : الأنساب ، ج ٨ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .
(٣) انظر: الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٣٥ ، وابن ابي أصيبعة عيون الأنباء ، ص ٤٠٨ ، ص ٤١٩ ، وخواندمير : دستور الوزراء ، ص ٢٣١ ، وانظر ايضاً القزويني : آثار البلاد ... ، ص ٣٠٠ ، وقد ذكر أبو الفضل البيهقي أن هذه الواقعة حدثت في ثامن ذي العقدة عام ٤٢٧هـ ، ولم يذكر شيئاً بصدد ابن سينا ودار كتبه ، انظر البيهقي ، تاريخ البيهقي ، ص ٥٤٠.
(٤) انظر الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٦٦ .
(٥) السلطان أبو طالب طغرل : أحد سلاطين السلاجقة ، تولى السلطنة عام ٥٢٦هـ ، وتوفي ٥٢٩هـ انظر الراوندي : راحة الصدور ، ص ٤٦٢ وما بعدها .
(٦) الأتابك محمد بمن أيلدكز : هو أتابك السلطان أبو طالب طغرل الذي اضطلع بأمور دولته لمدة عشر سنوات .
(٧) انظر: الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٦٨ .
(٨) انظر: ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٥ ، ص ١٩٦ .

كما تسببت الفتن الطائفية في حرق جامع أصبهان في السابع والعشرين من ربيع الآخر عام ٥١٥هـ ، فقد أشار ابن الأثير[١] إلى أن قوماً من الباطنية قاموا بحرق الجامع ليلاً ، وتشير مصادر أخرى[٢]، إلى أن ذلك الجامع كان من أعظم الجوامع وأحسنها ، وأن كثير من الأموال أنفقت في إقامة ذلك الجامع وعمارته ، واحترق فيه حوالي خمسمائة مصحف ، كان من بينها مصحف نادر الخط ، كتب بخط أبي بن كعب .

وتسببت فتنة الغز (٥٤٨هـ) [٣] في هدم الكثير من الجوامع والمساجد والمدارس ، ومعاهد العلم ، حيث أغاروا على المسجد الجامع وقتلوا من اعتصموا به من العامة ، واشعلوا النيران في مسجد المطرز ، وارتفعت ألسنة النار حتى أضاءت أرجاء مدينة نيسابور ، فظلوا يخربون على هدى هذه النيران حتى الصباح[٤] وقتلوا الكثير من العلماء والفقهاء ، منهم الشيخ محمد الأكاف إمام مشايخ العالم ، وإمام العلماء محمد بن يحيى، وخلفوا وراءهم خراباً ودماراً[٥] وقد عبر الراوندي عن هذا فقال وانقلبت الأماكن التي كانت مجامع الأنس ومدارس العلم ومحافل الصدور في نيسابور ، فأصبحت مراعي للأغنام ، ومكامن للوحوش "[٦] ولا شك في أن ما حوته خزائن كتب هذه المساجد والمدارس ، لاقى نفس المصير ، إذ أصبح الخراب والدمار هو السمة التي تركتها هذه الفتنة ، وندلل على هذا الأمر بما قيل بصدد خزانة كتب الجامع المنيعي ، إذ احترقت خزانة كتب الجامع المنيعي في هذه الفتنة وكانت تحوي كتب الوقف التي وقفها أبو المعالي محدود بن محمد بن محمود الرشيدي على هذا الجامع[٧] .

ولعل هذه الفتنة قد تركت آثارها على نيسابور إذ لم يهدأ الحال برحيل الغز ، بل تجددت بين أهل المدينة عداءات وخلافات أرجعها الراوندي إلى الخلافات المذهبية ، وقال في هذا : (... ولم يقف الأمر عند هذا الحد عندما رحل الغز ، فقد وجدت بين أهل المدينة إحن قديمة

---

(١) الكامل في التاريخ : ج ٩ ، ص ٢١١ .
(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٧ ، ص ١٩٤ ، ابن الأثير : المصدر السابق نفسه ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٨٨ .
(٣) الغز هم طائفة من الترك (التركمان) كانوا يقيمون قريباً من بلخ ، هاجموا مرو ونيسابور ، وأسروا سلطان السلاجقة سنجر وأشعلوا الحرق والخراب في كل مكان ، انظر الراوندي : راحة الصدور ص ص ٢٦٨ ـ ٢٧٦ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ ، وابن الثير : الكامل ... ، ج ٩ ، ص ٤٢١ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ، ص ٤٢٧ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٥٣ ، ويلاحظ أن فتنة الغز استمرت لسنوات ، فقد ذكرها ياقوت الحموي عام ٥٤٩هـ ، وذكرها عام ٥٤٨هـ ، أنظر معجم الأنباء ن ج ٤ ، ص ٤ ، وج ٥ ، ص ٣٨٢ ، وأشار إليها ابن الوردي عام ٥٥٠هـ ، انظر تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٥٦ ، كما قال الراوندي في إطار حديثه عنها : " ... وتغيرت نيسابور في سنتين أو ثلاث تغيرا كبيرا بعد عظمتها وزينتها بحيث لم يعد أحد يعرف محلته التي كان يقيم فيها " مما يعنى أنها استمرت لأكثر من عام ، أنظر راحة الصدور ، ص ٢٧٦ .
(٤) انظر الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٧٣ .
(٥) المصدر نفسة : ص ٢٧٤ .
(٦) المصدر نفسه : ص ٢٧٦ .
(٧) انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

بسبب الخلافات المذهبية ، فكانت كل فرقة تجتمع في كل ليلة في محلة من المحلات ، ثم يشعل أفرادها النار في محلة المخالفين ، حتى استحالت الخرابات التي خلفها الغز أطلالاً ، وحل بالناس القحط والوباء ، فمات جوعاً واحتياجاً كل من هرب من السيف والتعذيب .[١]

وقد تركت هذه الأوضاع السيئة آثارها على دور وخزائن الكتب ، إذ احترقت بعض المساجد وحوالي سبع عشرة مدرسة من مدارس الحنفية ، وأحرقت ونهبت عدة خزائن من خزائن كتب الوقف بالمساجد والمدارس ، وكان من بين هذه المساجد مسجد عقيل ، الذي كان مجمعاً لأهل العلم ، والذي حوى خزائن كتب الوقف[٢] وقد أرخ لهذه الواقعة أبو الفدا في أحداث عام ٥٥٦هـ [٣] .

وتسببت الفتن والاضطرابات في فقدان نفائس الكتب التي حوتها دار كتب جامع الشافعية لخوارزم ، حيث أصطحبها معه شهاب الدين الخيوقي عندما عزم على الخروج من خوارزم ، إلا أنها وعلى أثر إحدى المعارك وقعت في أيدي الغامة السوقة في نسا فتتبعها النسوي وظفر بعده نفائس منها ، وقد اضطرته ظروف الهجمات التتارية إلى تركها في قلعته بنسا ، وكان متحسراً عليها [٤] .

وكان الغزو التتاري كارثة حلت بدور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي ، إذ لم تفرق هجمات التتار بين أطفال وشيوخ ونساء ، وبين مدارس ومساجد وخانات ورباطات ، بل التهمت كل شئ على وجه بلدان المشرق الإسلامي ، فهاجموا مرو عام ٦١٧هـ ونالوا من دور وخزائن كتبها[٥] وكان أن فقد في هذه الهجمات مئات وآلاف الكتب ، وكان منها نسخة كتاب التهذيب التي كانت بخط المؤلف ، وقد أشار ابن القفطي إلى هذه الواقعة عام ٦١٧هـ[٦] ، وأطلق عليها وقعة الترك ، وذكر أن هذه النسخة من الكتاب كانت بمرو عند آل السمعاني رحمهم الله .

وتسببت هجمات التتار في حرق دار كتب ساوة التي أرخ لها ياقوت الحموي وأشار إلى أنه لم يكن في الدنيا أعظم منها[٧] ، كما قاموا بتخريب وحرق جوامع ومساجد خوارزم ، حيث قتلوا العلماء وحرقوا المصاحف ، وكان ذلك في أحداث عام ٦١٨هـ[٨] .

---

(١) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٧٥ .
(٢) انظر: ابا الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٣٨ .
(٣) انظر: أبا الفدا : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٨ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٦٣ والفصل الثاني ، ص ١٣٠ .
(٤) انظر: النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ١١٠ .
(٥) لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٤٤ .
(٦) ابن القفطي : إنباه الرواه ، ج ٤ ، ص ١٨٠ .
(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٠١ .
(٨) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

وقد مارس التتار كل أشكال الهدم من حرق وتخريب وتدمير لشتى معاقل العلم والثقافة من مدارس وجوامع وغيرها في شتى أنحاء بلدان المشرق[١] .

(٢) حوادث سرقة الكتب والمكتبات :

كذلك ساهمت حوادث السرقة في ضياع وفقدان الكثير من الكتب والمؤلفات للأسف ، ففقد أبو محمد عبد الله خازن كتب ابن عباد ــ كتبه إثر إغارة بعض قطاع الطرق عليه أثناء سفره وترحاله[٢] .

كما فقد الحسن القطان ت ٥٩٦هـ كتبه ومؤلفاته التي أنفق العمر في تحصيلها ، واتهم الرشيد الوطواط[٣] بسرقتها وبعث إليه برسائل مصرحاً فيها بهذا الاتهام ، وقد رد عليها الرشيد الوطواط نافياً عن نفسه هذه التهمة .

وكان الحسن القطان ، أثناء الوقعة الخوارزمية ، قد سأل الرشيد الوطواط أن يحمل إليه كتبه التي تركها في داره ، على المعسكر الذي يقيم فيه ، وعندما ذهب الرشيد الوطواط لحملها وجدها كثيرة جداً مما يصعب معه حملها ونقلها ، فتركها في موضعها ، ويشير الرشيد الوطواط إلى أنه ليس من المستبعد أن يكون بعض اللصوص قد أغاروا على الدار ونقلوا ما بها ومنها الكتب.[٤]

وقال في رسالته : " ... قرع سمعي من أفواه الواردين ... على خوارزم أن سيدنا أدام الله فضله كلما تفرغ من مهمات نفسه ووظائف درسه أقبل بمجامعه على أكل لحمي ... وشتمي وينسبني إلى الإغارة على كتبه ...

وقال الرشيد الوطواط مبرئاً نفسه " ... ولقد علم سيدنا ... أن وقعة مرو عمرها الله كانت وقعة عامة شملت كل جبهة وحافر ... وكان قد لحقت في ذلك الوقت بعسكر خوارزمشاه من طبقات الناس أوزاع وأخياف ، ومن حشرات الأرض أنواع وأصناف قصارى همهم القتل والإغارة ومنتهى أربهم الإحراق والإبادة ، وأوباش مرو أيضاً كانوا يخرجون من مكامنهم في الليالي ويتعرضون لبيوت السادات والموالي ، فليس بمستبعد أن يكون قد ظفر بكتبه من أولئك الأقوام أحد ، أما أنا فالله تعالى يعلم ... أني ما فتحت للإغارة بابه ، ولا نهبت كتابه ، بل ذهبت يوماً على مقتضى إشارته الكريمة لأحمل كتبه إلى المعسكر ، فلما دخلت داره الرفيعة رأيت

---

(١) حول الغزو المغولي والأثر السلبي لهجمات التتار ، أنظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٦ ، وما بعدها والنسوي : سيرة جلال الدين ، ص ١١٦ ، وما بعدها .
(٢) انظر : الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ٣٨١ .
(٣) الرشيد الوطواط : هو أحد الأدباء والكتاب المعروفين ، ت ٥٧٣هـ ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٤) انظر: ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

كتباً كثيرة فوق ما يحيط به عد ... فقلت نقل هذه أمر مشكل ، وحمل هذه خطب معضل متركتها بحالتها في أماكنها ... وخرجت كما دخلت خالي الحقائب "[١] .

ويدعم الرشيد الوطواط دفاعه عن نفسه بأن الله سبحانه وتعالى قد أتاه " من الوجه الحلال قريباً من ألف مجلد من الكتب النفيسة والدفاتر الفائقة والنسخ الشريفة " وقد وقفها جميعها على خزائن الكتب المبنية في بلاد الإسلام لينتفع بها المسلمون [٢] .

ويشير السمعاني إلى أن أبا تراب إسماعيل الجويقي النسفي ت ٤٤٨هـ ، كان يسرق كتب الناس ويقطع ظهور الأجزاء المثبت عليها السماع . [٣]

وممن عرف بقطع الطرق وسرقة المارة جماعة يقال لهم القفص ، يشير ياقوت الحموي إلى أنهم أخذوا من المسلمين بعض الكتب أثناء إحدى الإغارات[٤] .

(٣) الحوادث الناجمة عن تدهور الأحوال الاقتصادية :

لعبت الظروف والأحوال الاقتصادية المتدهورة لبعض أهل العلم دوراً في فقد بعض الكتب والمؤلفات إذ لجأ بعضهم إلى بيع ما يمتلكون من كتب ومؤلفات لسد بعض أحتياجاتهم ، ومن هؤلاء أبو الحسن المؤدب ، المعروف بالفالي ت ٤٤٨هـ[٥] ، الذي امتلك نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد لأكثر من عشرين عاماً ، إلا أن ظروفه الاقتصادية المتدهورة اضطرته لبيعها فكتب عليها :

أنست بها عشرين حولاً وبعتها ∴ لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ∴ ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية ∴ صغار عليهم تستهل شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرتي ∴ مقالة مكوى الفؤاد حزين
لقد تخرج الحاجات يا أم مالك ∴ ذخائر من رب بهن ضنين [٦]

كما هم عماد الدين أبو نصر ... الأصبهاني ، ثم البغدادي برهن مجموعة من كتبه ، وكان محتاجاً إلى بعض المال ليبعث به لأبنائه في مراغة ، وكان ذلك مقابل عشرين ديناراً ، إلا أن أحد أصدقاءه بعث إليه بالمال [٧] .

---

(١) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٩ ، ص ١٠١ ـ ١٠٣ .
(٢) المصدر نفسه : ص ٩٩ .
(٣) السمعاني : الأنساب ، ح ٢ ، ص ١١٠ ، وانظر أيضا ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ ، ص ٢٠٧ .
(٤) انظر: المصدر السابق : ج ٤ ، ص ٤٣٣ .
(٥) وهو منسوب إلى فاله ، وهي بلدة بخوزستان ، وقد أقام بالبصرة مدة طويلة ، انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ، ص ٣١٦ .
(٦) انظر: ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٦ ، ص ٩ ـ ١٠ . وابن خلكان : المصدر السابق نفسه .
(٧) ابن الفوطي : تلخيص مجمع الآداب ، دار الكتب ، دمشق ، د.ت ، ص ٦٧٥ .

وطلبت زوجة إبراهيم بن إسحاق الحربي منه بيع بعض كتبه أو رهنها لسد بعض احتياجاتهم ، فأبت نفسه ذلك[١] .

وواقع الأمر أن بيع الكتب ، وإن كان يكفل للمشتري ثراء خزانة كتبه ، إلا أنه يحرم البائع من ثروة أنفق العمر والمال في تحصيلها ، وقد حث الخطيب البغدادي على عدم بيع الكتب فقال باع رجل كتاباً ، ظن أنه لا يحتاج إليه ، ثم إنه احتاج إليه فالتمس نسخة به ، فلم يجدها بعاريه ولا بثمن ، وكان الذي ابتاعه قد خرج به إلى بلده ، فشخص إليه وسأله إقفاله وارتجاع الثمن منه ، فأبي عليه ، فسأله إعارته لنسخ الكلمة منه ، فلم يجبه ، فانكفأ قافلاً وآلى على نفسه ألا يبيع كتاباً أبداً . وباع آخر كتاباً ظن أنه لا يحتاج إليه ، ثم إنه احتاج إلى كلمة منه ، فقصد صاحبه وسأله أن يكتبه الكلمة ، فقال : " والله ما تكتبها إلا بثمن [٢] واشار الراوندي إلى ما كان من بيع الكتب العلمية ، وكتب الأخبار وصحف الرقاع في العراق عام ٥٩٨هـ[٣] .

(٤) الحوادث الناجمة عن تدهور الأوضاع الثقافية :

لعب جهل بعض الناس وتدهور أوضاعهم الثقافية دوراً في فقد بعض الكتب والمؤلفات ، فيشير الزمخشري إلى ضياع بعض أبيات شعرية لأبي محمد بن أرسلان ، ويرجع ضياعها إلى تدهور الأحوال الثقافية فيقول ... وكم من أخوات له ضاعت بضياع الأدب وقله النقلة ، واتضاع الهمم ، وتراجع الأمور على أعقابها "[٤] .

كما فقد أحد أصدقاء أبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي بعض كتبه ، وكان قد قامر بها فخسرها في هذه المقامرة ، وبعث إليه أبو النصر العتبي يعاتبه على ما كان منه قائلاً له :" ... وبلغني ما كان من خطارك بما اعتددته غرة الغرر ، ودرة الدرر ، ونهبة الأدب وزبدة الحقب ، حتى قمرته الأيدي الخاطفة واختطفته الأطماع الجارفة ، فأعدمت من عير لص قاطع وأصيبت بغير موت فاجع "[٥] ، ولا شك أن مقامرته بكتبه إنما هو من جراء الجهل بقيمة وأهمية هذه الكتب ، ويشير السهمي إلى ضياع كتب بعض أهل العلم ، ويرجع السبب في ذلك إلى قلة رغباتهم فيها وفتور نياتهم .

وتطالعنا المصادر بأخبار عن ضياع أعداد هائلة من الكتب والمؤلفات دون توضيح للأسباب الكامنة وراء ذلك . فقد ضيع أبو بكر محمد بن المؤمل ... بن ماسرجس ت ٣٥٠هـ

---

(١) انظر: الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٦ ، ص ٣٢ ، وابن القفطي : غنباه الرواه ، ج ١ ، ص ١٩١
(٢) انظر: الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٣) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٧٧ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ٦٠ .
(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٤٦٣ .

جملة من سماعاته[١] كما ضاعت أصول كتب أبي عبد الله محمد بن أبي نصر المالبني (ت بعد ٥٤٠هـ) في إحدى رحلاته[٢] وضاعت بعض الأجزاء من عم السمعاني وضاعت الكتب المثبت عليها سماعات أبي الحسن اليزدي[٣] ، كما ضاعب بعض الكتب والأوراق لأبي الفضل البيهقي[٤] .

(٥) حوادث حرق وغرق الكتب :

ساهمت بعض حوادث الحرق والغرق في ضياع وفقدان جزء كبير من محتويات بعض دور وخزائن الكتب ، ويقال أن : " ... ومن الكتب التي فقدت بسبب عمليات الحرق كتاب العين للخليل ، إذ تشير المصادر أن الخليل كتب ذلك الكتاب إلى الليث بن رافع ابن نصر ابن يسار ، حيث أقبل الليث على قراءة الكتاب حتى حفظ نصفه ، وكانت له ابنة عمة علمت أن الليث اشترى جارية نفيسة بمال جليل ، فغارت غيرة شديدة ، وقالت والله : (لأغيظنه ، وقالت : إن غظته في المال فذاك ما لا يبالي به ، ولكني أراه مكباً ليله ونهاره على هذا الدفتر ، والله لأفجعنه به) وأخذت الكتاب وأشعلت النار وألقت الكتاب فيها .[٥]

وأحترقت بعض كتب الحسن بن أحمد الفارسي وكان قد كتبها بخطه ، وذلك على إثر حريق حدث بمدينة السلام ، وقد ظل الحسن حزيناً لمدة شهرين لا يكلم أحداً[٦] . كما احترقت خزانة كتب آل سامان ، واتهم البعض ابن سينا بذلك الأمر ، بدعوى رغبته في الاستئثار بما فيها من علوم ، وهو ما نستبعده[٧] لما سبق وأشرنا إليه بصدد شخص ابن سينا واحترقت كتب أبي حيان التوحيدي وأغرقت وقام هو بحرقها وتغريقها بدعوى قلة جدواها وضناً بها على من لا يعرف قيمتها ، وقد كتب إليه أحد أصدقائه رسالة يعاتبه فيها على ما فعله[٨] .

وفقدت بالغرق بعض الكتب منها إحدى مؤلفات أبي عمرو الهروي [٩] كما غرق لمحمد بن نصر أبي عبد الله المروزي (ت ٢٩٤هـ) حوالي ألف جزء[١٠] وهلكت كتب أبي العباس أحمد بن عبد الله الكازيوني (ت ٣٩٦هـ)[١١].

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٧١ .
(٢) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ١٨٥ .
(٣) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٦٩٠ .
(٤) انظر: البيهقي : تاريخ البيهقي ، ص ٣٨٧ ، ص ٤٨٨ .
(٥) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ٤٦ .
(٦) انظر: المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .
(٧) انظر: المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ١٥٨ .
(٨) انظر: ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص ١٦ ، وما بعدها ، وانظر نص الرسالة في ملاحق البحث .
(٩) انظر: ابن القفطي : إنباه الرواه ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .
(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٠٢ .
(١١) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٤ .

وكانت الطامة الكبرى بتغريق كتب وذخائر المشرق في نهر دجلة على يد التتار ، حتى كانت لكثرتها جسراً يمرون عليه ، وتغير لون الماء بلون المداد إلى السواد ، وكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الإسلام (١).

وهكذا فقد ساهمت بعض الاضطرابات السياسية والطائفية وبعض حالات التدهور الاقتصادي والثقافي ، وبعض حوادث الحرق والغرق في فقدان الكثير من الكتب والمؤلفات ، وقد أقر أبو الفضل بن العميد بذلك الدور الذي لعبته هذه الظروف في فقدان العلم وتدهوره إلا أنه يرى أن تسلط حاكم جاهل كفيل بأن يحدث مثل هذا الأثر الذي أحدثته هذه العوامل وأكثر ، وقد عبر عن هذا الأمر بقوله " ... قد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاص مرددها ، والأحوال الداعية إلى جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها : الطوفان بالنار والماء والموت العارض من عموم الأدباء ، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يحترم العلوم احتراماً وينتهكها انتهاكاً ، ويجتث أصولها اجتثاثاً ، وليس عندي الخطب في جميع ذلك ، يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل بطول مدته وتتسع قدرته ، فإن البلاء لا يعدله بلاء ، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل ... " (٢) .

والواقع أننا نميل إلى ما ذهب إليه أبو الفضل بن العميد ، فإن كانت حوادث الحرق ، أو الغرق ، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء من عوامل ضياع الكتب والمؤلفات ، فإن الوقوع تحت حكم وسيطرة حاكم جاهل ، قد يكون أقوى تأثيراً في النيل من التراث الثقافي والحضاري لأي أمة ، وندلل على هذا بما سبق وأشرنا إليه من اهتمام أولي الحكم والرياسة بالعلماء ، وما نجم عن هذا الاهتمام والتقدير من ثراء للحياة العلمية والأدبية .

وخلاصة القول أن دور وخزائن الكتب ببلدان المشرق الإسلامي ، كانت تخضع لتنظيماً فني محكم ، روعي فيه تحقيق أعلى مستوى من الخدمات المكتبية ، التي كانت تعين القارئ والمتردد في الحصول على ما يريده من الكتب والمؤلفات ، بدليل نظم التصنيف والفهرسة ، التي اتبعت بداخل هذه الخزائن .

---

(١) محمود مقديشو : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، طبعة طار الغرب الإسلامي ، لبنان ، ١٩٨٨ م ، ص ٢٨٣ .
(٢) انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

كما عكست لنا آداب التعامل مع الكتب والمكتبات ، وآداب الإعارة تقديراً للكتب والمؤلفات ما بعده تقدير .

وخلصنا أيضاً إلى أن خازني الكتب ، كان يتم اختيارهم من بين ذوي العلوم والمعارف والآداب ، فقد أدرك أبناء بلدان المشرق ، أن هؤلاء هم أكثر الفئات تقديراً للكتب وأهميتها .

وأخيراً خلصنا إلى أن الحوادث التي تعرضت لها بعض المكتبات في بلدان المشرق الإسلامي ، لم تكن في أغلب الأحيان لبعض الصراعات السياسية والمذهبية ، أو نتاجاً لتدهور الحياة الاقتصادية والثقافية .

*****

الفصل الخامس

السمات العامة لخزائن الكتب وعوامل إثراء المكتبات
في بلدان المشرق الإسلامي

(الفصل الخامس)

السمات العامة لخزائن الكتب وعوامل إثراء المكتبات في بلدان المشرق الإسلامي

(إيران ــ خراسان ، وما وراء النهر)

أولا : السمات العامة لدور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي :

(١) اقتناء أصول الكتب .

(٢) الحرص على اقتناء كتب تتسم بالصحة والضبط .

(٣) اقتناء كتب ومؤلفات حسنة الخط ، جيدة التجليد والتذهيب .

(٤) غلبة المذاهب والميول والاتجاهات على طبيعة خزائن الكتب .

(٥) التنوع والكثرة .

(٦) بعض السمات الأخرى .

ثانياً : عوامل إثراء دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي :

(١) الرحلة في طلب العلم ودورها في إثراء المكتبات .

(٢) نقل الكتب وحملها من مكان إلى آخر .

(٣) انتشار النسخ والكتابة ودورهما في إثراء المكتبات .

(٤) الورق والوراقون ودورهما في إثراء المكتبات .

(٥) كثرة التأليف والتصنيف .

(٦) عملية البيع والشراء ودورها في إثراء المكتبات .

(٧) مجالس الأمالي ودورها في إثراء المكتبات .

(٨) السماع ودوره في إثراء المكتبات .

(٩) إهداء الكتب والتأليف للغير .

(١٠) بعض العوامل الأخرى .

(الفصل الخامس)

السمات العامة لخزائن الكتب وعوامل إثراء المكتبات في بلدان المشرق الإسلامي

أولا : السمات العامة لدور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي :

يمكننا بعد العرض السابق لدور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي أن نميز عدداً من السمات التي اتسمت بها هذه الخزائن :

(١) اقتناء أصول الكتب :

من أبرز السمات التي لاحظناها على دور وخزائن كتب بلدان المشرق الحرص الشديد على اقتناء النادر من الكتب ، وأصول الكتب التي كتبت بأيدي مؤلفيها ، فقد حوت مكتبة السامانيين كتباً لم توجد في سواها من المكتبات(١). كما حوت خزائن كتب ابن عباد أصولاً كتبت بأيدي أصحابها ، منها كتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية لأبي الحسن أحمد بن فارس(٢) ، ومنها كتاب لطائف المعارف للثعالبي(٣)، ومنها أيضاً كتاب الوساطة لقاضي الري على بن عبد العزيز الجرجاني(٤) كما حوت خزانة كتب غزنة أصولاً لابن سينا ولأبي ريحان البيروني ، كما أثبتناه(٥).

ولم تكن هذه السمة قصراً على خزائن الحكام والوزراء ، بل حوت دور وخزائن الكتب العامة والخاصة الكثير من أصول الكتب ، خاصة وقيام بعض العلماء بوقف كتبهم ومؤلفاتهم على مثل هذه الخزائن(٦) .

أما فيما يتعلق بالخزائن الخاصة فقد أشار الحاكم أبو عبد الله بن البيع إلى أنه امتلك جملة من (الكتب) بخط أبي بكر محمد بن عبد الله الوراق الريونجي (ت ٣٦٢هـ)(٧) ، كما امتلك الحاكم أبو عبد الله الكتبي الهروي، أصل كتاب تاريخ السنين لأبي يعقوب إبراهيم ... الهروي ، وقد قال في هذا : " ... وأصله عندي بخطه في عشرة أجزاء(٨) ، كما امتلك آل السمعاني بمرو

---

(١) انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٥٨ . وابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٠٣ .
(٢) انظر أبا الحسن أحمد بن فارس : الصاحبي في فقه اللغة العربية ص ٢ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٤ ، ص ٨٤ .
(٣) أنظر: الثعالبي : لطائف المعارف ، ص ١٧ .
(٤) انظر: الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٢ ، ص ٤ ـ ٥ .
(٥) انظر: ص ٩٢ ، ص ١٠٦ من الفصل الأول .
(٦) انظر: ص ١٦١ ـ ١٦٢ من الفصل الثاني .
(٧) انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ١١٧ .
(٨) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ١٦٤ .

أصل كتاب " التهذيب " للأزهري[1] ، وكان الزمخشري قد امتلكها واثبت ذلك على الصفحة الأولى من المجلد العشرين من هذه النسخة[2] ، واطلع الحاكم أبو عبد الله ابن البيع على أصول أبي إسحاق المحفوظي (ت ٣٨١هـ) وكانت بخطه وكانت كلها صحيحة[3] وامتلك عبد الغافر الفارسي أصل كتاب يعقوب بن أحمد المسمى جونة الند " الذي كتبه بخطه ، وفيه خط أبي عامر الجرجاني[4] ، وكان لأبي أحمد الغطريفي الجرجاني ت (٣٧٧هـ) أصول جيدة من الكتب بخطه وخط غيره[5] وكان لأحمد بن محمد بن أحمد بن شهردار المعلم الأصبهاني ت ٤٤٦هـ أصولا جيدة [6] .

(٢) الحرص على اقتناء كتب تتسم بالصحة والضبط :

اتسمت دور وخزائن كتب بلدان المشرق باقتنائها لكتب ومؤلفات تتسم بالصحة من حيث الضبط والشكل ، وكان هذا الأمر يتطلب قراءة الكتاب ومراجعته قبل نسخه ، أو شرائه ومن هنا ظهر ما عرف " بقراءة العرض وقراءة التصحيح " ، ومثل هذه القراءات ضوابط وضعت للتأكد من صحة الكتاب ، فقد وجد مكتوباً على ظهر كتاب لعبد القاهر الجرجاني " قرأ على الأخ الفقيه أبو نصر أحمد بن إبراهيم بن محمد السجزي أيده الله هذا الكتاب من أوله إلى آخره قراءة ضبط وتحصيل ، وكتبه عبد القاهر بن عبد الرحمن بخطه في شهر الله المبارك من شهور سنة أربع خمسين وأربعمائة " .[7]

ويشير أبو منصور الأزهري إلى أن الأيادي العالم ظل يتردد على شمر بن حمدويه سنين كثيرة لسماع نسخة من كتاب غريب المصنف لأبي عبيد القاسم ابن سلام ، حيث ضبط هذه النسخة من الكتاب ضبطاً حسناً ، وكتب فيها زيادات كثيرة في حواشي هذه النسخة عن شمر وقد أتاح للأزهري فرصة الإطلاع على هذه النسخة من الكتاب ، وما بها من زيادات ليقرأها عليه ويعارض بها نسخته [8] .

كما أثبت أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصبهاني (ت ٤٢١هـ) خطه على كتاب شرح الحماسة من تصنيفه ، حيث أثبت ما يفيد أن هذه النسخة من الكتاب قد قرأت

---

(١) انظر: ابن القفطي : أنباه الرواه ، ج ٤ ، ص ١٧٩ .
(٢) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ١٨٠ . وفقدت هذه النسخة فيما بعد أثناء هجمات التتار عام ٦١٧هـ).
(٣) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٢١٤ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ١٩٣ .
(٥) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٠١ .
(٦) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٤ .
(٧) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .
(٨) الأزهري : تهذيب اللغة ، ج ١ ، ص ١٩ .

عليه عام (٤١٧هـ) ، وكان هو نفسه قد قرأ كتاب سيبويه على أبي على الفارسي . وذلك ولاشك للتثبت من صحة هذه النسخ لهذه الكتب(١) .

ومما يذكر أيضاً في هذا الإطار أن أبا الفضل المنذري الهروي (ت ٣٢٩هـ) لازم أبا الهيثم الرازي سنين كثيرة، حيث عرض عليه بعض الكتب(٢) منها كتاب في الخيل وصفاتها(٣) ، ويبدو أن ذلك كان للتثبت من صحتها ، وحضر على بن زيد البيهقي (ت ٥٦٥هـ) درساً للإمام أحمد بن محمد الميداني في نيسابور عام ٥١٦هـ حتى يتمكن من تصحيح نسخة من كتاب السامي في الأسامي على مؤلفها أحمد بن محمد الميداني(٤) ، وأرسل الصاحب بن عباد إلى أبي على الحسن بن أحمد الفارسي طالباً منه أن يمكن أبا العلاء الحسين بن محمد بن مهرويه من أصل كتاب التذكرة لينسخه ، ثم يسمح له بعد النسخ بعرض الكتاب عليه لمراجعته والتثبت من صحته(٥) قبل أن يودعه الصاحب في خزانته .

كما قرأ كل من أبي القاسم الرقي وابي القاسم بن برهان كتاب التنبيه على مؤلفه أبي الفتح ابن الأشرس النحوي النيسابوري عام (٤٠٠هـ) لضبطه وتصحيحه على مؤلفه ، ونفس الكتاب أهداه أبو الفتح بن الأشرس بخطه إلى أبي العباس بن الثلاج حيث استعاره منه أبو الحسن على ابن عبيد الله السمسمي ، ونسخ منه نسخة ، قرأها على أبي العباس الثلاج لمراجعتها والتثبت من صحتها(٦) .

وحوت خزانة كتب أبي الفضل الميكالي نسخة من كتاب "الغريب المصنف" أشار الثعالبي إلى أنه لم ير نسخة "أصلح ولا أصح منها"، وذلك لأن الأمير أبا الحسين على بن إسماعيل الميكالي قرأها على أبي بكر أحمد بن محمد الجراح ، وقرأها أبو بكر على أبي عمر غلام ثعلب(٧) .

ويبدو لنا أن التأكد من صحة السماع المثبت على الكتب المقتناه ، كان يدخل في إطار الحرص على اقتناء كتب صحيحة ومضبطة ، فقد كان من الأهمية بمكان التأكد من صحة السماع ، لأن ذلك كان يكفل اقتناء وتداول كتب تتسم بالصحة والبعد عن التصحيف ، وقد عرف البعض بصحة السماع ، ومن هؤلاء أبو جعفر التاجر محدث خراسان (ت ٣٤٦هـ) ، الذي

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٢) المصدر نفسه : ج ١٨ ، ص ٩٩ .
(٣) الأزهري : التهذيب ، ج ١ ، ص ٨ .
(٤) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠ .
(٥) المصدر نفسه : ج ٧ ، ص ٢٥١ .
(٦) انظر: ابن القفطي : أنباه الرواه ، ص ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٧) انظر: الثعالبي : فقه اللغة وسر العربية ، ص ٤٣٤ .

كان من أثبت الناس أصولاً وأصحهم سماعاً[١] ، وكان أبو عبد الله بن الجـنيد الإسكافي (ت ٣٦٠هـ) أيضاً صحيح السماعات والأصول[٢] .

ومما يذكر في الحرص على اقتناء كتب صحيحة السماع أن أحد العلماء قال : " دفع إلى على بن أحمد الرزاز (ت ٤١٩هـ) بعد أن كف بصره جزءاً بخط أبيه فيه أمالي عن بعض الشيوخ في بعضها سماعه لخط أبيه العتيق ، والباقي فيه تسميع له بخط طري[٣] , وقال : انظر سماعي العتيق فأقرأه على[٤] ، وما كان فيه تسميع بخط طري ، فاضرب عليه ، فإنه كان لي ابن يعبث بكتبي ويسمع لي فيها ما لم أسمعه "[٥] وهكذا كان على بن أحمد الرزاز حريصًا على الإبقاء على الأجزاء الصحيحة السماع .

(٣) اقتناء كتب ومؤلفات حسنة الخط ، جيدة التجليد والتذهيب:

كان اقتناء كتب ومؤلفات حسنة الخط ، جيدة التجليد والتذهيب ـ على ما يبدو لنا ـ من أبرز وأهم السمات التي اتسمت بها دور وخزائن الكتب ، وندلل على هذا الأمر بما كان من استعانة هذه الخزائن بخبيرة الناسخين والخطاطين ، والمجلدين والمذهبين كابن البواب ، ويحيى بن محمد الغزنوي . ومما قيل بصدد نسخة كتاب غريب المصنف بخط أبي بكر القاري الرازي (توفي قبل ٣٠٠هـ) والتي اشتراها أبو محمد الشعراني لخزانة أبي الفضل بن العميد : وقيل في الإشادة بها : " ... النسخة ـ ... ـ حجة يرجع إليها ويعتمد في التصحيح عليها ، فإنه خط أبي بكر القاري رحمه الله " [٦] ، وقد سبق وأشرنا إلى ما اتسم به خط أبي بكر القاري.

وحتى على مستوى العامة من أهل العلم فقد كان امتلاك كتب ومؤلفات حسنة الخط والتجليد سمة اتسمت بها خزائن الكتب الخاصة ، فقد امتلك الحاكم أبو عبد الله بعض الكتب كتبت بخط الريونجي الوراق (ت ٣٦٢هـ) وكان قد عرف بحسن الخط [٧] .

وكان لأبي الفتح بن الأشرس النيسابوري نسخة من كتاب سيبويه بخطه ، مدحها ابن القفطي قائلاً : " ... رأيت له خطاً قريباً في الجودة ، غاية في الصحة ، ... وصنعة في الضبط

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ، ص ٨٢ .
(٢) المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ٩٩ .
(٣) يقصد خط حديث الكتابة .
(٤) في التعريف بالسماع انظر " عوامل إثراء المكتبات " ، ص ٢٧٠.
(٥) انظر: السمعاني : الأنساب ج ٣ ، ص ٥٨ .
(٦) ابن القفطي : إنباه الرواه ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .
(٧) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٧ .

والإتقان صنيع ، ولقد رأيت بخطه نسخة من كتاب سيبويه من ملكها من العلماء ضاهي بملكها ملك آل بويه، وخطه مما تقع المنافسة فيه ، ومتى فات عالماً تحصيله لم يقم عند شئ مقامه"[١].

ويبدو أثر الخط الحسن وأهمية التجليد والتذهيب في اقتناء الكتب فيما يذكره الراوندي المؤرخ ، إذ يقول : " ... وبلغت في علم الخط شأواً كبيراً ، بحيث يتضح أثر من ذلك في هذا الكتاب[٢] ، واستطعت أن أضبط سبعين نوعاً من الخط ، وأن اتكسب من نسخ المصحف وتذهيبه وتجليده ، وقد اتقنت تعلم هذه الفنون وحصلت من ذلك الكسب على الكتب العلمية" [٣] .

وقد اشار ابن فندق[٤] إلى أهمية الخط الحسن والنسخ ، وما يتعلق بهما من تجليد وتذهيب في اقتناء الكتب .

(٤) غلبة المذاهب والميول والاتجاهات على طبيعة خزائن الكتب :

اتضح من خلال المصادر التي أطلعنا عليها ، ومن خلال العرض السابق أن غلبة المذاهب والميول والاتجاهات على الكتب والمؤلفات الموجودة بأية خزانة ، كانت سمة من سمات دور وخزائن الكتب في بلدان المشرق الإسلامي ، فقد سبق وأثبتنا أن خزانتي عضد الدولة والصاحب بن عباد ، غلبت عليهما كتب الآداب ، خاصة واهتمامهما بالأدب[٥] .

كما سبق وأشرنا إلى أن دار كتب الري حوت كتباً ومؤلفات لاقت رفضاً من أهل السنة ، حتى قام السلطان محمود الغزنوي بحرق ما فيها من هذه الكتب[٦] ، وكان مما فيها ، كتاباً يؤيد مذهب الاعتزال .

وأدلتنا على ذلك الأثر الذي تركته المذاهب والميول والاتجاهات على خزائن الكتب كثيرة ، خاصة وأن البعض عمد إلى التأليف والكتابة والتصنيف في مذهب معين ، ليدعم بهذه المؤلفات هذا المذهب ، وكان من الطبيعي والحالة هذه أن يقوم مؤيدو هذه المذاهب بشراء هذه الكتب وإيداعها خزائنهم ، وقد سبق وأشرنا إلى أن المدارس أنشئت لتدعم أهل السنة ، وأن جل من عمل بالنظاميات كان من أهل السنة ، وعلى المذهب الشافعي[٧] ، فقد كان طبيعي إذن أن تحوي

---

(١) ابن القفطي : انباه الرواه ، ج ٤ ، ص ١٥٤ .
(٢) يقصد كتاب راحة الصدور وآية السرور الذي كتبه بخط يده .
(٣) انظر: الراوندي : راحة الصدور وآية السرور ، ص ٨٦ .
(٤) تاريخ بيهق : ص ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ، وحول أهمية الخط وأسس ومعايير الخط الحسن انظر الجاحظ : الحيوان ، ج ١ ، ط ٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.، ١٩٦٩م ، ص ٦٩ وما بعدها ، والبطليوسي : الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م ، ص ٦٦ وما بعدها ، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٧ ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩م، ص ١٣ وما بعدها وعبد الرحمن الصايغ : مخطوط صناعة الكتابة ، دار الكتب القومية ، مخطوط رقم ١٤ علوم معاشية ، ميكروفيلم ١٥٢٩ ص ٦
(٥) انظر: الفصل الأول : ص ٨٦ ، ص ٩٨
(٦) انظر: الفصل الثاني : ص ١١٦.
(٧) انظر: الفصل الثاني : ص ١٤٩.

خزائن كتب هذه المدارس ما يدعم هذا المذهب ، ومن هذا أيضاً أن ضياء الدين بن شيخ السلامية بنى بآمد مدرسة لأصحاب الشافعي ، ووقف أملاكه عليها[١] ، ولاشك أن طبيعة الدراسة بالمدرسة انعكست على خزانتها .

ويشير ياقوت الحموي[٢] إلى أن أهل الري كانوا أهل سنة إلى أن تغلب أحمد بن الحسن الماردانى عليها فاظهر التشيع ، وتقرب إليه الناس بتصنيف الكتب في هذا الأمر ، وكان ذلك في عام ٢٧٥هـ .

كما ألف أبو بكر البيهقي الخسروجردي(ت ٤٥٨هـ) الكثير من المصنفات في نصرة مذهب الشافعي ، وكان له من المؤلفات حوالي ألف جزء ، وقد حاز هذه المؤلفات ـــ ولاشك ـــ أنصار هذا المذهب ويعلق أمام الحرمين الجويني على هذه المصنفات فيقول : " ... ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منه، إلا البيهقي فإن له على الشافعي منه لتصانيفه في نصرة مذهبه "[٣] .

وكذلك ألف القاضي أبو يعلي بن الفرا الحنبلي (ولد بمرو ٣٨٠هـ) الكثير من المؤلفات والمصنفات في مذهب أحمد بن حنبل ، وقد أنتشرت مؤلفاته[٤] ولاشك أن من امتلكها كان من مؤيدي ذلك المذهب ، وكان لأبي الحسن الرُهني العالم والأديب الكثير من المصنفات في مقالات الشيعة[٥] .

كما أشار ياقوت الحموي[٦] إلى أن الإمام أبا المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن محمد الروياني الطبري (ت ٥٠٢هـ) صنف الكثير من المصنفات كان منها كتاب البحر ، فضله جماعة من فقهاء خراسان على كل ما صنف في مذهب الشافعي[٧] .

ولنا في خزانة قلعة آلموت[٨] خير دليل على العلاقة بين المذهب ومحتويات الخزانة ، فقد احتفظ الإسماعيلية[٩] في آلموت بمكتبة ضخمة زخرت بالمؤلفات عن الفلسفة والتنجيم ، تم

---

(١) انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ ، وقد كان ضياء الدين هذا حياً حتى عام ٦٢١هـ .
(٢) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٣٧ .
(٣) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٩٩ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٩٤ .
(٥) ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .
(٦) معجم البلدان : ج ٣ ، ص ١١٨ .
(٧) المصدر نفسه .
(٨) آلموت : إحدى القلاع الحصينة في نواحي قزوين ، أستولى عليها الحسن الصباح ٤٨٣هـ بعد ما رأى من حصانتها وبعد ما استمال أهلها ، انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٨ ، وابن الوردي : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٢ ، ص ١٣ ، ص ٣٣ .
(٩) الإسماعيلية هم طائفة قالوا أن الإمام بعد جعفر هو إسماعيل ، والإمام بعد إسماعيل هو محمد بن إسماعيل ، ويقال لهم في بعض المصادر الباطنية ، آلت زعامتهم إلى الحسن الصباح واستخدموا القتل للتخلص من خصومهم ويقال أن أحدهم قتل الوزير نظام الملك وبذل السلاجقة محاولات للتخلص منهم ، حتى كان ما كان من قدوم هولاكو المغولي ومحاربته لهم واستيلاءه على قلعة الموت ، انظرالبنداري : دولة آل سلجوق ، ص ٦٢ وما بعدها والشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، ١٩٩ـ٢٠١ ، وابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٤ وابن الوردي : تتمة المختصر ... ج ٢ ، ص ١٢ ، ١٣ ، ص ٣٣ .

اكتشافها أثناء حروب هولاكو خان[١] مع طائفة الإسماعيلية ، وقد كلف هولاكو عطا ملك الجويني بالاطلاع على هذه الخزانة وتفحصها ، فكان من بين ما عثر عليه بداخلها كتاب (سركدشت سيدنا) وهو كتاب عن تاريخ الحسن بن الصباح مؤسس هذه الجماعة وخلفائه من بعده ، وقد استفاد الجويني من هذا الكتاب أيما إفادة ، وأورد ملخصاً له ضمنه إحدى مؤلفاته[٢] ، وتؤكد هذه الخزانة علي ما نرنو إليه من غلبة المذاهب والميول والاتجاهات على محتويات خزائن الكتب .

(٥) التنوع والكثرة :

وبرغم علبة المذاهب والميول والاتجاهات على بعض خزائن الكتب ، إلا أن سمة التنوع والكثرة كانت ملحوظة على دور وخزائن كتب بلدان المشرق، فقد حوت خزانة السامانيين ألوانا متعددة من المعارف ــ كما سبق وأشرنا ــ وكذلك كانت خزانة كتب عضد الدولة وابن عباد ، فبرغم كثرة كتب الآداب إلا أنهما اشتملا على معارف أخرى متعددة، وتنوعت الكتب والمؤلفات أيضاً في الخزائن العامة ، فقد حوت دار كتب أبي العباس الضبي كتباً ومؤلفات في التفاسير والأحاديث والنحو واللغة والصرف والأبنية والشعر والتاريخ والرياضيات والطبيعيات وغيرها

ولم تكن خزائن الكتب الخاصة بمنأى عن هذه السمة ، فقد حاز الإمام السعيد أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) كتباً ومصنفات متنوعة في الأدب والتفسير والحساب والجبر ، وكان يقول مشيراً للكتب : اختيار الرجل يدل على عقله[٣] .

وقد ذكر السمعاني عن الإمام أبي البركات الكوفي (ت ٥٣٩هـ) أنه أخذ منه جزءاً من كتاب كان بيده وقال له : هذا لا يصلح لك ، له طالب غيرك ، ثم قال : " ينبغي للعالم أن يكون عنده كل شئ ، فإن لكل نوع طالباً "[٤] .

وكان لفخر الزمان مسعود بن أحمد الصوابي مؤلفات تنوعت ما بين دواوين شعر وفقه وتفاسير وعلم الأصول[٥] ، كما اتسمت مؤلفات أبي القاسم إسماعيل ــ الذي استوطن مرو ٥١٢ هـ بالتنوع في شتى فنون العلم ، كالفقه والخلاف والأدب والغريب وغيرها[٦]، وكانت الكتب التي يحملها أبو العباس الدغولي تتنوع ما بين الأدب واللغة والتاريخ .[٧]

---

(١) هولاكو خان : قائد المغول ، (ت ٦٦٤هـ) انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٤ .
(٢) انظر: خواندمير : تحقيق ودراسة كتاب دستور الوزراء ، ص ١٠١-١٠٢ ، والسيد الباز العريني : المغول ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨١م ص ٢١٦ .
(٣) ابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٢٤٣ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ٢٥٧ .
(٥) ابن فندق : المصدر السابق ، ص ٢٣٤
(٦) انظر: المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .
(٧) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٤٠ .

وقد حث بعض أهل العلم على التنوع فيما يمتلكه الفرد من الكتب والمؤلفات فقال بعضهم : ينبغي للمرء أن يذخر أنواع العلوم ، وإن لم تكن له بمعلوم ، وأن يستكثر منها ولا يعتقد الغني عنها ، فإنه إن استغنى عنها في حال احتاج إليها في حال ، وإن سئمها في وقت ارتاح إليها في وقت ، وإن شغل عنها في يوم ، فرغ لها في يوم[1] .

كذلك اتسمت دور وخزائن الكتب بكثرة ما بها من كتب ومؤلفات ، فكانت خزانة كتب ابن عباد بها ما يحمل على أربعمائة حمل ، وحصرت محتويات دار كتب الري في فهرس من عشر مجلدات وحصرت محتويات دار كتب أبي العباس الضبي في فهرست من ثلاث مجلدات كبيرة ، واشتملت خزانة كتب وقف الجامع بمرو على فهرس لكتب أبي ريحان البيروني في ستين ورقة فما بالنا بما تحويه الخزانة من كتب ومؤلفات أخرى .

ويكفينا أن نطالع حجم الكتب والمؤلفات التي كتبت وألفت لنعلم إلى أي مدى غلبت سمة الكثرة على دور وخزائن الكتب ببلدان المشرق الإسلامي ، وهو ما سنعرض له من خلال العرض لعوامل إثراء المكتبات .

(٦) بعض السمات الأخرى :

والواقع أن هناك سمات أخرى اتسمت بها دور وخزائن الكتب بالمشرق عرضنا لها ضمناً فيما سبق ، ومنها التنظيم الفني والإداري للخزائن من فهرسة وتصنيف وهيئة عاملة ، أضف إلى هذا خدمة الإعارة والإطلاع وتوفير الورق والحبر التي أتاحتها الكثير من هذه الخزائن .وقد فاقت بلدان المشرق غيرها في هذا الأمر ، بدليل ما أشار إليه ياقوت الحموي من أنه استعار أكثر من مئتي كتاب بدون رهن من خزائن الوقف بمرو .

على أية حال فقد كان هذا التعدد والتنوع ، وتلك الكثرة التي اتسمت بها دور وخزائن كتب بلدان المشرق ، مما دفع بنا إلى دراسة عوامل إثراء دور وخزائن الكتب .

---

(١) انظر: الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٣٦ .

عوامل إثراء دور وخزائن الكتب

ثانياً : عوامل إثراء دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي :

(١) الرحلة في طلب العلم ودورها في إثراء المكتبات :

حث الإسلام على السعي في طلب العلم والتعلم ، فكانت أول آية انزلت هي قوله تعالى : "اقرأ باسم ربك الذي خلق "[١] ، كما جاءت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاثة على العلم والسعي في طلبه ، ومن ذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه : ما من خارج يخرج من بيته يطلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع "[٢] .

وقد اعتنى كثير من مؤرخينا القدامي بالحديث عن العلم وفوائده وضرورة السعي في تحصيله ، ومن ذلك الفصل الذي وضعه ابن حبان البستي بعنوان ذكر الحث على لزوم العلم والمداومة على طلبه ، فقال فيه : الواجب على العاقل إذا فرغ من إصلاح سريرته أن يثنى بطلب العلم والمداومة عليه ، إذ لا وصول للمرء إلى صفاء شئ من أسباب الدنيا إلا بصفاء العلم فيه ، وحكم العاقل أن لا بقصر في سلوك حالة توجب له بسط الملائكة أجنحتها رضاً بصنيعه لك "[٣] .

على أية حال فقد كان أبناء بلدان المشرق من أسرع الناس استجابة لنداء العلم ، فسعوا في طلبه وتحصيله ، ورحلوا إلى شتى أنحاء المعمورة طلباً له ، وعلى ما يبدو لنا فقد كانت رحلاتهم العلمية هذه عاملاً من عوامل إثراء المكتبات الإسلامية ، إذ كانوا ـــ أثناء هذه الرحلات ـــ يحصلون الكتب والمؤلفات وينسخونها ، وقد شكلت هذه الرحلات العلمية ظاهرة علمية وثقافية استحقت وبكل جدارة الدرس والتحقيق خاصة وظهور مصطلحات كالجوال والرحال التي تعكس لنا مبالغة في الرحلات .

وفي التعريف بالرحال يقول السمعاني[٤] : ... هذه النسبة إلى المبالغة في الرحلة وكثرة الأسفار في طلب الحديث " ومن العجيب ما نلاحظه من أن السمعاني قرن بين الرحلة وطلب الحديث هذا مما يجعل البعض يظن أن الرحلات العلمية إنما كانت قصراً على طلب الحديث ، وهو أحد العلوم الدينية ، إلا أن الأمر لم يكن هكذا دائماً ، إذ هناك من جال وسافر قاصداً بلدان

---

(١) سورة العلق الآية ١ .
(٢) ابن حبان البستي : روضة العقلاء ، ص ١٠ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) الأنساب : ج ٣ ، ص ٤٨ .

المشرق كنيسابور ومرو والري وبلخ وسمرقند وغيرها طلباً لأنواع شتى من العلوم والمعارف ، كالآداب ، والتواريخ ، والطب ، وغيرها .

ولعل أبرز من رحل طلباً لعلوم الحديث والعلوم الدينية كان أبو العباس أحمد الكافوري الأصبهاني (ت ٣٤٥هـ)الذي كان من الجوالين الرحالة في طلب الحديث(١) وأبو بكر البيهقي الفقيه الشافعي (ت ٤٥٨هـ) ، الذي رحل طلباً للحديث وصنف فيه تصانيف كثيرة حتى بلغت تصانيفه ألف جزء(٢) ، وكان أيضاً أبو مسلم عمر بن على بن أحمد الليث (ت ٤٦٦هـ) حافظاً من أهل بخارى ، رحل في طلب الحديث وتعب في جمعه(٣) وكان أبو القاسم البصرأباذي ت ٣٦٧هـ من الرحالين في طلب الحديث (٤) ، وكان أبو بكر الشاشي القفال (ت ٣٦٥هـ) أعلم أهل ما وراء النهر بالأصول وأكثرهم رحلة في طلب الحديث(٥) . كما كان أحمد بن محمد أو سعد الماليني (ت ٤١٢هـ) أحد الرحالين في طلب الحديث المكثرين منه(٦) وكان أبو بكر الإسماعيلي الجرجاني الحافظ الكبير (ت ٣٧١هـ) يعرف بالرحال الجوال(٧) ، كما كان الجواليقي ، ممن رحل في طلب الحديث وتعب في جمعه(٨) .

كما عرف أبو القاسم عبد الرحمن بن منده الأصبهاني (ت ٤٧٠ هـ) بالحافظ الجوال(٩) وكذلك عرف أبو سهل الاسفراييني ت ٣٧٠ هـ(١٠) وكان الحافظ الاسترباذي المعروف بالإدريسي (ت٤٠٥هـ) ممن رحل في طلب العلم والحديث(١١) ، كما كان أبو نصر الغازي (الأصبهاني) (ت ٥٣٢هـ) من أكثر الناس رحلة في طلب العلم ، وأشار إليه السمعاني قائلاً ، ما رأيت في شيوخي أكثر رحلة منه(١٢)،وكان شيرويه بن شهردار بن شيرويه محدثاً واسع الرحلة(١٣) وكان أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ) من الرحالة إلى الآفاق في طلب الحديث ، حيث جمع وصنف وخرج وألف(١٤) وغير هؤلاء الكثير مما لا يتسع المجال لحصرهم ، إذ سينأى ذلك بنا عن لب الموضوع .

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٢٠ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٧٦ .
(٣) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٥١ .
(٤) السمعاني : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٩٥ .
(٥) الذهبي : العبر .... ، ج ٢ ، ص ١٢٢ . وابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية : ج ١ ، ص ١٢٤ .
(٦) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٥ ، ص ١٤٦
(٧) انظر: السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٢ ، ص ٦٩ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٩٨ .
(٨) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .
(٩) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .
(١٠) المصدر نفسه : ج ٢ ، ص ١٣٣ .
(١١) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٥٤ .
(١٢) انظر: الذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤١ .
(١٣) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٢٧١ .
(١٤) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٠٤ وما بعدها، وابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ، ص ٥٤ وما بعدها

على أية حال فقد شهدت بلدان المشرق الإسلامي رحلات علمية أخرى طلباً لأنواع أخرى من العلوم والمعارف غير علوم الحديث ، كالآداب والتواريخ وغيرها ، ومن هؤلاء الحسين بن الخضير الفقيه اللغوي (ت ٥٩٨هـ) الذي ارتحل إلى شيراز طلباً للفقه[١]، كما رحل أبو بكر أحمد بن على الأصبهاني لجمع التراجم والأبواب، هذا إلى جانب جمع الصحيح من الأحاديث[٢].

ومن الجدير بالذكر أن هذه الرحلات العلمية لم تكن بالرحلات السهلة والميسرة ، بل كانت شاقة ومكلفة ــ هذا في ضوء ما يمكن تصوره من صعوبة المواصلات البدائية المتاحة ، ووعورة الطرق وما يكتنفها من صعاب، وقد أدرك بعض مؤرخينا مثل هذه المصاعب والمشاق التي واجهت الرحالة في طلب العلم ، وقد عبروا عنها ، ومن ذلك ما ذكر السمعاني بصدد أبي الفضل محمد بن أحمد الكاغدي السمرقندي الذي أكثر من الرحلات طلباً للعلم حتى سمي بالرحال الأعين ، فقد أشار إلى أنه كان من أهل سمرقند وخرج في طلب العلم سنين كثيرة وتحمل المشقة في جمع الأخبار والحكايات فسمي رحالاً[٣] ، وكذلك عاني أبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧هـ) الكثير ، فقد ذكر أنه قال لإبنه : يابني مشيت على قدمي في طلب الحديث أكثر من ألف فرسخ ، وأشار إلى أنه لم يكن له في كثير من الأحيان شئ ينفق منه ، وأنه مكث ثلاثاً لا يأكل شيئاً حتى استقرض من بعض أصحابه ما ينفق منه[٤] ، وكذلك رحل أبو يوسف بن أبي معاوية الفارسي الفسوي (ت ٢٧٧هـ) أكثر من ثلاثين عاماً إلى البلدان النائية ، مغترباً عن أهله ووطنه طلباً للعلم [٥] ومثله كان أبو النضر الفقيه الطوسي(ت ٣٤٤هـ) ، الذي رحل إلى الأقاليم النائية والبلدان المتباعدة[٦] ، وظل أبو عبد الله بن منده الحافظ (ت ٣٩٥هـ) في رحلته العلمية بضعاً وثلاثين سنة [٧] ، كما رحل الخطيب التبريزي من تبريز إلى المعرة ماشياً إذ لم يكن له ما يستأجر به مركوباً ، وذلك ليحقق نسخة من كتاب كانت لديه على يد عالم لغة [٨] .

وقد كانت مثل هذه الرحلات العلمية تتكلف الكثير من النفقات والأموال حتى أن محمد بن سنجر الجرجاني القطابي (ت ٢٥٨ هـ) عندما خرج رحالاً طالباً للعلم أخرج معه ٩٠٠٠ دينار وخمسمائة دينار ، وفي رواية أخرى سبعة آلاف وخمسمائة دينار[٩]، كما أنفق أبو عمرو

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٨ ، ص ١٠٠ .
(٢) السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ،
(٣) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٤٨ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٢٥٩ .
(٥) المصدر نفسه : ج ١١ ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .
(٦) المصدر نفسه : ج ١١ ، ص ٢٢٩ .
(٧) الذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .
(٨) انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢٠ ، ص ٢٥ ، وابن القفطي : انباه الرواه ، ج ٤ ، ص ٢٨ وما بعدها والذهبي : العبر ج ٢ ، ص ٣٨٤ .
(٩) انظر: السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٩ ، ص ٣٣٩ . والسمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٩٨ . والذهبي : تذكرة الحفاظ ط ١٣٧٤هـ ، ج ٢ ، ص ٥٧٨ .

أحمد بن عمر بن أحمد البكرابادي مالاً عظيماً في رحلاته العلمية إلى سجستان وبست وهراة ونيسابور وأصبهان والعراق والبصرة وبغداد واليمن وغيرها[١] . وأنفق إسماعيل بن محمد بن عبدوس الدهان ماله على الأدب (وكان معاصراً لياقوت الحموي).[٢]

هذا وقد اتخذت الرحلة لطلب العلم أشكالاً متعددة ، فمنهم من رحل لتحصيل كتاب بعينه لم يتيسر تواجده لديه ، في القطر الذي يعيش فيه ، ومن ذلك ما أشار إليه السمعاني من أن الناس كانت تقصد أبا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربري راوية كتاب الجامع الصحيح لمحمد بن إسماعيل البخاري لتحصيل ذلك الكتاب عنه[٣]، كما قصد السمعاني نفسه خطيب مشكان عندما علم أن عنده كتاب التاريخ الصغير لمحمد بن إسماعيل البخاري[٤]، كما رحل أبو الخير أحمد بن إسماعيل يوسف الطالقاني القزويني بصحبة السمعاني لسماع كتاب التفسير للثعلبي[٥] .

وقد خاطر بعضهم لتحصيل كتاب بعينه ، ومن ذلك ما يذكره المبرد [٦] بصدد رحلته لتحصيل كتاب سيبويه[٧] إذ قال : ركبت البحر تعظيماً له واستعظاماً لما فيه[٨] .

كذلك سلك بعض العلماء سبيل الرحلات العلمية طلباً لتعلم مذهب معين ومعرفته والإلمام به وتحصيل الكتب التي تتناوله ومن ذلك ما ذكر من أن إبراهيم بن موسى كان يقول : كنا جماعة صبيان نختلف من بكر أباد إلى إبراهيم بن هاني نتفقه ونتعلم مذهب الشافعي رضي الله عنه[٩]، كما أشار السمعاني أن الناس كانوا يقصدون أبا إسحاق إبراهيم بن أحمد المرو الروذي لتعلم المذهب[١٠]، كذلك رحل أبو ذر محمد بن الفضل... التميمي ت ٣٢٤هـ إلى الشام ومصر والعراق ليتفقه بمذهب الشافعي[١١].

---

(١) السهمي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٠ .
(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٧ ، ص ٤٠ .
(٣) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٠٩ .
(٤) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٣٠٦ .
(٥) المصدر نفسه : ، ج ٤ ، ص ٣١ . والثعلبي : هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثعلبي صاحب كتاب التفسير انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٤٣ .وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٣٦ ، وابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج١، ص١٠٢ .
(٦) المبرد : هو محمد بن يزيد أبو العباس المبرد ، كان إماماً في النحو واللغة ، ولد ٢١٠هـ ، ت ٢٨٥هـ ، وقيل ٢٨٦هـ انظر الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ وما بعدها . وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ص ٣١٣ وما بعدها .
(٧) سيبويه : كتاب سيبويه نسبة إلى عمرو بن عثمان بن قنبر ت ١٧٧هـ وهو من أهل العلم واللغة ، عرف باستاذ النحاة ، انظر: ابن النديم : الفهرست ، ص ٧٦ .وابن القفطي : انباه الرواه ، ج ٢ ، ٣٤٦
(٨) ابن النديم : الفهرست ، ص ٧٧ .
(٩) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٢ ، ص ٦٩ .
(١٠) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٢٦٢ . ويبدو أن السمعاني يقصد المذهب الشافعي.
(١١) السهمي : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣٧٦

كذلك قصد بعض علماء بلدان المشرق الرحلات العلمية طلباً للسماع أو القراءة أو التحصيل عن عالم بعينه ومن هؤلاء الحسن بن سفيان محدث خراسان الذي كانت تضرب إليه آباط الإبل في معرفة الحديث والفقه ، وقد توفي ٣٠٣هـ [١] ، كما رحل الكيا الهراسي العالم ت ٥٠٤هـ إلى نيسابور قاصداً إمام الحرمين[٢] حيث لازمه حتى برع في الفقه والأصول[٣] ورحل الخطيب التبريزي (ت ٥٠١هـ) من تبريز قاصداً أبا العلاء المعري ليحقق عليه نسخة من كتاب الأزهري [٤] ورحل أبو نصر حامد بن صالح البرازاني من برو جرد إلى طوس قاصداً أبا حامد الغزالي للتفقه عليه [٥] .

وكان أبو العباس الأصم محدث خراسان (ت ٣٤٦هـ) من أبرز العلماء الذين قصدهم أهل العلم ، وهذا أمر أقر الحاكم أبو عبد الله إذ قال مارأينا أحد الرحالة في بلد من بلاد الإسلام أكثر منها إليه يعني أبا العباس الأصم ، فقد رأيت جماعة من أهل الأندلس القيروان وبلاد المغرب على بابه ، ورأيت جماعة من أهل أطرار وأسفيجاب وأهل المشرق على بابه ، وكذلك رأيت في غرض الدنيا من أهل المنصورة ومولتان وبلاد بست وسجستان على بابه وكذلك رأيت جماعة من أهل فارس شيراز وخوزستان على بابه ، فناهيك بهذا شرفاً واشتهاراً وعلواً في الدين وقبولاً في بلاد المسلمين [٦] .

كذلك خرج أبو الحسن على بن عيسى بن الفرج بين صالح الربعي النحوي ، (ت٤٢٠هـ) متجهاً إلى شيراز قاصداً أبا علي الفارسي عشرين سنة للقراءة عليه[٧] ورحل أبو محمد الجويني الملقب بركن الإسلام (ت٤٣٨هـ) قاصداً أبا الطيب الصعلوكي في نيسابور حيث ظل ملازماً له فترة من الزمن ، كما رحل إلى مرو قاصداً القفال العالم[٨] ومن أبرز العلماء الذين كانوا مقصداً لكل أهل العلم ، طالبيه وراغبيه أمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت٤٧٨هـ) فقد رحل إليه طلبه العلم من كل مكان ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة متفقه ، وعند وفاته غلقت الأسواق وكسر تلاميذه أقلامهم ومحابرهم وظلوا كذلك لمدة عام ، وكانوا حوالي أربعمائة طالب علم[٩] .

---

(١) ابن أبي دلجة : الفلاكة والمفولكون ، ص ٨١ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ١٢٤ .
(٢) إمام الحرمين هو : أبو المعالي الجويني ، أحد العلماء البارزين ، ت ٤٧٨هـ انظر: الفصل الثاني ، ص١٥٢
(٣) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ، وابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٠ .
(٤) ابن القفطي : انباه الرواه ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، الذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ ، وابن الوردي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٩٧ .
(٥) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣ .
(٦) السمعاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٩ . والذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٧٤ .
(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .
(٨) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٩٦ .
(٩) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٢٨ .

هكذا حرص أبناء بلدان المشرق على الرحلات العلمية والتي اتخذت أشكالا متعددة ، إما طلباً للكتب والمؤلفات وسعياً لتحصيل كتاب بعينه ، وإما طلباً لمعرفة مذهب بعينه ودراسته وتحصيل كتبه ومؤلفاته ، وإما قصداً لعالم بعينه بغية القراءة عليه والسماع منه وتحصيل كتبه ومؤلفاته، وقد كان أبناء المشرق في كل هذه الحالات يحصلون على الكتب والمؤلفات بشتى الطرق ، إما شراءاً وإما نسخاً وكتابة ، فقد كان والد السمعاني قد خرج إلى الرحلة وكان أثناءها يحصل الكتب[١] كما خرج الشيخ أبو الحسن سعد الخير بن سعد الأنصاري ت ٥٤١هـ طلباً للعلم ومسافراً من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق حتى وصل إلى الصين ، وكان كثير المال ، حصل الكتب[٢] وكتب عبد الله ابن منده الحافظ الأصبهاني الجوال ت ٣٩٥ هـ أثناء رحلاته ما لا ينحصر[٣] .

وعلى أيه حال فقد حرص بعض علماء المشرق على أصطحاب الوراقين معهم أثناء رحلاتهم العلمية تسهيلاً لعملية نسخ الكتب وكتابتها وشراءها. ومن ذلك أن محمد بن سنجر الجرجاني القطاني (ت ٢٥٨هـ) خرج إلى الرحلة وأخرج معه إسحاق الكوسج... وكان إسحاق يورق له . ومن طريف ما يذكر أن إسحاق الكوسج ذلك الوراق كان يتزوج في كل بلدة ينزلون إليها أثناء الرحلة ، وكان القطابي يؤدي عنه مهر العروس التي يتزوجها. [٤] وكان بعضهم يعمد إلى حمل محبرته ، وكاغده إثناء الرحلة لتيسير أمر النسخ والكتابة ، ، كما فعل إبراهيم بن محمد أبو القاسم الصوفي النضر آبادي الذي كان يحمل معه المحبرة والمقلمة والكاغد في كل مكان[٥]. وهكذا كانت الرحلات العلمية ، وكما يبدو لنا من عوامل إثراء دور خزائن الكتب .

(٢) نقل الكتب وحملها من مكان إلى آخر ودوره في أثراء المكتبات :

كانت عملية نقل الكتب وحملها من مكان إلى آخر ــ وعلى ما يبدو لنا ــ من العوامل التي ساعدت على إثراء وثراء خزائن الكتب ببلدان المشرق الإسلامي .

فقد ساهم الخطيب التبريزي مثلاً في نقل نسخة من كتاب التهذيب في اللغة للأزهري ، وكانت في عدة مجلدات لطاف وكان يريد تحقيق ما فيها وأخذه عن عالم باللغة فدل على أبي العلاء المعري ، فجعل الكتاب في مخلاه وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢١٠ .
(٢) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٥٧٨ .
(٣) الذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .
(٤) انظر: السهمي : تاريخ جرجان ،ج٩ ، ص ٣٣٩ وانظر : السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٩٨ .
(٥) ابن جماعه الكناني : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٢٣ ، وبالمصدر إشارة إلى أن النصر آباذي المذكور كان حياً عام ٣٦٦هـ حيث رحل طلباً للحج .

ما يستأجر به مركوباً ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف ببغداد إذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة وليس بها سوى عرق الخطيب" [١] .

وهكذا استقرت نسخة كتاب التهذيب التي امتلكها الخطيب التبريزي في إحدى خزائن الوقف ببغداد ، فكان نقله لها من تبريز إلى المعرة سبباً ساعد على تواجدها بهذه الخزانة .

كما يحكي ناصر خسرو عن نفسه ، أنه أثناء رحلته التي قام بها كان يحمل سلتين من الكتب خرج بها من بلاده واضطر إلى بيعهما في البصرة ، حتى يتمكن من دخول الحمام ، وبهذه الطريقة انتقلت كتبه التي حملها معه في رحلته إلى البصرة ، فأثريت بها خزانة كتب من ابتاعها[٢] .

وكذلك حمل ونقل أبو نصر سهل بن المرزبان مجموعات من كتب الآداب والشعر من بغداد إلى نيسابور ، فأفاد منها الثعالبي النيسابوري وأثريت بها خزائن كتب علماء وأدباء نيسابور ممن أتيح لهم نسخ ما حمله ابن المرزبان والإطلاع عليه ، خاصة وما سبق وأشرنا إليه من أنه حمل كتباً ودواوين لم تكن قد دخلت نيسابور بعد .[٣]

كما نقل أبو الفضل الشرمقاني الفقيه والأديب الخراساني ت ٣١٦هـ ، حمله من كتبه إلى نسا عندما تقلد القضاء بها[٤] ، ونقل أبو محمد الباهلي صاحب الأصمعي كتب الأصمعي[٥] إلى أصبهان ولم تكن وعلى ما يبدو قد دخلت إلى أصبهان قبلها ، وفي هذا يقول ياقوت الحموي نقلاً عن آخرين: .. "ولما أقدم الخصيب بن أسلم أبا محمد الباهلي صاحب الأصمعي إلى أصبهان نقل معه مصنفات الأصمعي ، وكان قدومه أصبهان بعد سنة عشرين ومائتين " [٦].

كما حملت كتب جعفر بن أحمد المروزي ـ وكان أول من ألف في المسالك والممالك كتاباً على حد تعبير ابن النديم إلى بغداد ، فبيعت سنة(٢٧٤هـ)[٧] ، وحملت كتب أبي بكر على ابن محمد الخراساني العلوي الصوفي من نواحي بلاد الجبال إلى حيث وصلت لابن النديم [٨] فأثريت بها خزانة كتبه .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢٠ ، ص ٢٥ . وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٩٢ ، والدلجي : الفلاكة والمفلوكون ص ٦٦ .
(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٤٧ .
(٣) انظر : الفصل الثالث ، ص ١٧٦ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .
(٥) الأصمعي هو : أحد علماء اللغة والأدب ، انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ص ١٧٠ - ١٧٦
(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .
(٧) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢١٤ ، وما بعدها .
(٨) المصدر نفسه : ص ٥٠٦ .

ونقل قاسم بن ثابت الذي رحل مع أبيه إلى بلدان المشرق وعني بجمع الحديث واللغة ، كتباً إلى بلاد الأندلس كان منها كتاب العين للخليل بن أحمد ، فكان أول من أدخل هذا الكتاب إلى بلاد الأندلس (١) .

كذلك قصد رجل من الصين محمداً ابن زكريا الرازي طلباً للعلم ، فأقام لديه نحو سنة تعلم فيها العربية كلاماً وخطاً حتى صار فصيحاً ، فكتب عن الرازي بعض الكتب بمساعدة تلاميذ الرازي ، وقد حمل هذا الرجل هذه الكتب إلى بلاد الصين (٢) ، فلا شك أنها ساهمت في نقل معارف وعلوم وأفكار وآداب معينة ، وبالتالي ساهمت في إثراء خزائن الكتب المنقولة إليها.

هكذا ساهمت عملية حمل ونقل الكتب من مكان إلى آخر في نقل العلوم والمعارف والآداب ، وفي إثراء دور وخزائن الكتب التي تستقر بها هذه الكتب المنقولة .

على أن عملية نقل الكتب والمؤلفات من مكان إلى آخر لم تكن عملية مجردة ، نتج عنها فقط إثراء خزائن الكتب التي نقلت إليها هذه الكتب ، بل إن المسألة تعدت حدود النقل إلى أبعاد أخرى ، تتضح في ذلك الدور الذي لعبته هذه الكتب في تغيير بعض المفاهيم والاعتقادات والمذاهب ، وندلل على هذا الأمر بما ذكر في مصادرنا بصدد كتب الشافعي(٣) التي نقلت إلى بلدان المشرق الإسلامي .

فقد حكى عن الإمام الزاهد الحافظ عبدان(٤) أنه : هو الذي أظهر مذهب الشافعي بمرو بعد أحمد بن سيار ، وذلك بما حمله من كتب الشافعي إلى مرو(٥) ذلك أن أحمد بن سيار حمل كتب الشافعي إلى مرو وأعجب بها فنظر في بعضها عبدان وأراد أن ينسخها فمنعها أحمد بن سيار عنه ، فباع ضيعة كانت له بجنو جرد وخرج إلى مصر وأدرك الربيع بن سليمان(٦) وغيره من أصحاب الشافعي ونسخ كتبه ... وأدرك من الفقهاء والمشايخ ما لم يدركه غيره ، وحمل عنهم ورحل إلى الشام والعراق وكتب عن أهل مصر ، ورجع إلى مرو ، وكان أحمد بن سيار مازال

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٤١ .
(٢) ابن النديم : المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(٣) الشافعي : هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، ولد ١٥٠هـ ، ت ٢٠٤هـ ، قدم مصر ١٩٨هـ ، وهو صاحب المذهب الفقهي المعروف بمذهب الشافعي، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ص ٢٨١ : ٣٢٧.
(٤) عبدان : هو الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى المروزي ، الإمام الورع ، ولد ٢٢٠هـ / ت ٢٩٣هـ وهو الذي أظهر المذهب الشافعي بمرو بعد أحمد بن سيار، أنظر السمعاني: الأنساب، ج ٤ ، ص ١٢٩ وما بعدها.
(٥) انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ، ص ٩٨ ، و ج ٤ ، ص ١٣٠ .
(٦) هو الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي ، أبو محمد المصري صاحب الشافعي وخادمه وراوية كتبه ، دخل الناس غليه من أقطار الأرض لأخذ علم الشافعي وعنه قال الشافعي : الربيع راويتي . أنظر ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج ١ ، ص ٣٣ .

على قيد الحياة ، فدخل عليه مسلماً ومهنئاً بالقدوم ، فاعتذر أحمد بن سيار من منع الكتب عنه ، فقال عبدان: لا تعتذر فإن لله منه على في ذلك،ذلك أنك لو دفعت إلى الكتب كنت اقتصرت على ذلك وما كنت آخرج إلى مصر ولا كنت أدركت أصحاب الشافعي،ففرح بذلك أحمد بن سيار[١].

وهكذا فقد ساهم أحمد بن سيار في إدخال كتب الشافعي إلى مرو ، ولم تكن قد دخلتها من قبل ، كما ساهم عبدان أيضاً في ذلك الأمر .

ومما يذكر عن عبدان هذا ، أنه أول من حمل مختصر المزني إلى مرو[٢] ، كما حمل أبو العباس الدغولي ت ٣٨٩هـ كتب الشافعي إلى سرخس وكان أول من حملها إليها[٣] . وكان ابن أبي عمران الشافعي[٤] أول من نقل وحمل كتب الشافعي إلى استراباذ [٥] ، كما رحل أبو سعيد عبد الرحمن بن سعيد بن حازم المسوس إلى مصر وحمل كتب الشافعي عن الربيع بن سليمان ونقلها إلى مسوس (وهي إحدى قرى مرو) [٦] .

هكذا ساهمت عملية نقل الكتب من مكان إلى مكان في إثراء دور وخزائن الكتب التي نقلت إليها كما ساهمت في نشر المذاهب والاعتقادات .

(٣) انتشار النسخ والكتابة ودورها في إثراء المكتبات :

يبدو لنا أن الإلمام بالنسخ والكتابة وانتشارهما كانا من الأمور التي يسرت عمليه إثراء دور خزائن الكتب ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومنها أن الإمام أبا إسحاق إبراهيم بن خالد بن نصر الحرميهنى[٧] خرج مع رفيق له في إحدى الرحلات العلمية ووقع سماعه[٨] في كتب ذلك الرفيق ، وتوفي ذلك الرفيق ودفنت كتبه وكان إبراهيم بن خالد قد فارقه لسبب ما ، وعندما بحث عنه علم بموته وبما كان من دفن كتبه ، فما كان منه إلا أن قام بنسخ هذه الكتب من حفظه[٩].

---

(١) انظر السمعاني: الأنساب ، ج ٢ ، ص ٩٨. وانظر أيضاً : ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج ١ ، ص ٤٧
(٢) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٩ ، وابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤٧ . والمزني : هو إسماعيل بن يحيي بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المعروف بأبي إبراهيم المزني ، المصري ، وعنه قال الشافعي : المزني ناصر مذهبي ، ولد ١٧٥هـ ، ت ٢٦٤ هـ ، انظر أبي قاضي شهبة : المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٧. وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢١٧ .
(٣) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ .
(٤) هو إسحاق بن موسى بن عبد الرحمن بن عبيد اليحمدي الاستراباذي : انظر السهمي : تاريخ جرجان ، ج ١٣ ص ٤٧٤ .
(٥) المصدر نفسه : ج ١٣ ، ص ٤٧٤.
(٦) السمعاني :المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ .
(٧) هو أحد حفاظ مرو المشهود لهم ، ، انظر السمعاني : الأنساب ج٢ ، ص ٤٧ .
(٨) السماع هو : أن يسمع التلميذ أو السامع المرويات التي يلقيها الشيخ من حافظته ، أو يقرؤها من كتابه ، وهي أرفع أنواع الرواية عند الأكثرين ، وللمزيد انظر د . أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٧٧
(٩) السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

ولو لم يكن الإمام المذكور ماهراً بالنسخ والكتابة وملماً بأصولهما لما استطاع أن ينسخ هذه المجموعة من الكتب التي فقدها. وكذلك قام ابن راهويه[١]ـ بنسخ جميع كتب الشافعي ، وذلك بعد ما أدرك فضل الشافعي[٢]، كما دخل أبو الحسن على بن محمد بن لالويه نسف وأقام بها على المستغفري العالم حيث كتب ونسخ عامة كتبه[٣] وكان الحافظ أبو نصر الحسن بن حيويه المقري[٤] يقضى عامة أيامه في كتابه ونسخ المصاحف والحديث ، وقد كان على حد تعبير السمعاني حسن الخط،كما كتب محمد بن أبي الخليل عن أبي عبد الله المرندي أكثر من خمسمائة جزء[٥]وهذا كم هائل من الكتابات ، ولولا إلمامه بأصول النسخ والكتابة ما كان ليستطيع كتابته.

ويذكر أيضاً أن أبا الحسن على بن سليمان الفرغليطي ـ وهو من بلاد الأندلس ـ جاء إلى نيسابور حيث نسخ جميع كتب أبي بكر بن الحسين البيهقي[٦] ، وكان النسخ سبيله في ذلك ، ويشير السهمي[٧] إلى أن إسحاق بن إبراهيم الصوفي الاسترابادي كتب الكثير حتى يقال أنه كتب عن سبعمائة شيخ في حين يذكر الذهبي[٨] أن أبا حازم العبدوي ... الهذلي المسعودي النيسابوري ت ٤١٧هـ كتب عن عشرة أنفس عشرة آلاف جزء[٩] ، وكما كتب أبو صالح المؤذن النيسابوري (ت٤٧٠هـ) عن ألف شيخ [١٠] ، ولنا أن نتصور حجم ما كتبه عنهم ، وكتب إسحاق[١١]بن إبراهيم الحربي ت ٢٨٥ هـ بيده اثني عشر ألف جزء في فقه اللغة .

ومما يذكر في شدة الحرص على النسخ والكتابة ما يذكر عن أبي إسحاق إبراهيم بن الحسين ... الهمداني ت ٢٨١هـ المعروف بسيفنة من أنه كان إذا التقى بمحدث لا يفارقه حتى يسمع ما عنده ويكتبه[١٢]. كما نسخ الأشهبى ت (٥٣٢هـ) بخطه على حد تعبير السمعاني شيئاً خارجاً عن الحد[١٣] في حين كتب أبو سعد الماليني الهروي ت ٤١٢هـ من الكتب الكبار الطوال ما لم يكن عند أحد من الناس [١٤] .

---

(١) هو أبو يعقوب اسحاق بن أبي الحسن ، أحد أئمة الإسلام ، سكن نيسابور ، ولد ١٦٦ه ، ت ٢٣٧ هـ ، انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٩٩ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ٢٠٠ .
(٣) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٦٧٠ .
(٤) ابن حيويه المقرئ كان حافظ مكثرا من الحديث ، حسن الخط ، حريصا على طلب العلم ، ت بأصبهان ٥٣٠هـ ، انظر السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٧١٠ وما بعدها .
(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٢٩ .
(٦) السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ .
(٧) تاريخ جرجان ، ج ١٣ ، ص ٤٧٤ .
(٨) العبر ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .
(٩) الذهبي :العبر : ج ٢ ، ص ٢٣٣ .
(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١١٨ .
(١١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ٣٢ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ١١٨ .
(١٢) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٦٤٩ .
(١٣) انظر: السمعاني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧١ .
(١٤) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

والجدير بالذكر أن أبناء المشرق الإسلامي شغفوا بالنسخ والكتابة أيما شغف وكان لبعضهم مهارات خاصة في النسخ ، ومن ذلك ما يذكر بصدد الحسين بن أحمد بن على بن الحسين بن فطيمه البيهقي الذي أصابته علة في يده قطعت أصابعه على أثرها، فكان يضع الكاغد (الورق) على الأرض ويمسك القلم برجله ويكتب وينسخ خطاً مقروءاً[١] ، كما أن لأحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني[٢] مهارات خاصة في الكتابة والنسخ فكان يكتب الكتاب مبتدئاً بآخر سطوره ثم هلم جرا إلى السطر الأول ، فيخرجه ولا عيب فيه[٣] ، وكذلك كان للطبري مهارات خاصة في النسخ والكتابة ، فظل لسنوات عديدة يكتب وينسخ في اليوم والليلة أربعين ورقة[٤] في حين كان أبو إسحاق إسماعيل بن زيد الجرجاني يكتب في ليله سبعين ورقة بخط دقيق [٥]

ومما يدلل على أن النسخ والكتابة كانا من العوامل التي ساعدت على إثراء دور وخزائن الكتب ، ماذكره ياقوت الحموي بصدد مؤلفات ومصنفات الأصمعي وأشعار شعراء الجاهلية التي جاء بها أبو نصر الباهلي إلى أصبهان .

ذلك أنه لما هم أبو نصر الباهلي بالخروج متأهباً للحج أخذ يبحث عن رجل يسلمه الكتب والمؤلفات التي كانت بصحبته ـــ على سبيل الأمانة ـــ فدل على رجل يدعى محمد بن العباس ، وكان مؤدباً فسلم إليه الباهلي كتبه ودفاتره ، وخرج للحج ، فأخرجها محمد بن العباس لعامة الناس ، وأتاح لهم فرصة نسخها ، وعندما عاد الباهلي وعلم بذلك ثارت ثائرته ، وذكر لأبي محمد بن العباس أنه كان يأمل في التكسب من هذه الكتب فسعى البعض لدى أهل البلدة لجمع الأموال له مقابل نسخهم للكتب ، فجمع له محمد جراء ذلك عشرة آلاف درهم[٦] .

وهكذا ساهم إلمام أهل أصبهان بالنسخ والكتابة وأصولها في نسخ مجموعات من الكتب لم تكن قد نزلت أصبهان من قبل ، ولاشك أن هذه النسخ التي انتسخت استقرت في خزائن كتب ناسخيها ، كما أشار الراوندي إلى أن النسخ وكتابة المصاحف كان سبيله للكسب وتحصيل الكتب العلمية[٧] أشار القزويني إلى أن القاضي عمر بن سهلان ـــ من أهل ساوة ـــ نسخ عدة نسخ من كتاب الشفاء لابن سينا وباعها [٨] .

---

(١) انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٣٩ .
(٢) احمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني ، عرف ببديع الزمان الهمذاني ، كان شاعراً معروفاً ولد بهمذان وانتقل إلى هراة وسكنها ثم ورد نيسابور ٣٨٢هـ ، ت ٣٩٨هـ ، انظر : ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٤٠ والزركلي : الأعلام : ج ١ ، ص ١١٥ .
(٣) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٤٠ ، والزركلي : الأعلام ، ج ٨ ، ص ١١٥ .
(٤) عن الطبري انظر : الفصل الثالث ص ١٨١ . وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ٤٠
(٥) انظر: السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٣ ، ص ١٠٢ . والسمعاني : الأنساب ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .
(٦) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج٢ ، ٢٨٥ ، وقد ذكر ياقوت الحموي ما يفيد أن هذه الواقعة حدثت بعد عام ٢٢٠ هـ ، في أصبهان .
(٧) انظر: الراوندي : راحة الصدور ، ص ٨٦ .
(٨) انظر: القزويني : آثار البلاد ، ص ٣٨٧ .

والجدير بالذكر أن عملية النسخ والكتابة لم تكن تمارس بعشوائية ، بل كان هناك ضروريات كان لابد من توافرها لتتم عملية النسخ والكتابة على أكمل وجه ، ومن ذلك حسن الخط وصحة الضبط والإلمام بأصول الكتابة . ككيفية البدء بالكتابة وكيفية إنهاء الكتابة ومواضع ترك الفراغات والهوامش[١] ، وقد عرف كثير من أهل المشرق بحسن الخط وصحته ، ومن هؤلاء أبي حيان التوحيدي[٢] الذي عرف بحسن خطه وصحته وسلامته من التصحيف والتحريف ، حتى أن ابن عباد ألزمه نسخ ثلاثين مجلدة من رسائله الخاصة عندما قصده ، ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن أبي حامد الروزباري القاضي (ت٥٤٠هـ) الذي عرف بحسن الخط وملاحته والحافظ أبو نصر الحسن بن محمد .. بن حيوه المقري اليوناراتي ، الذي سبق واشرنا إليه ، فقد كان يقضي عامة أيامه مستغرقاً بكتابة المصاحف[٣] .

كما كان توفر الورق أو الكاغد وغيره من أدوات الكتابة من الضروريات اللازمة لتيسير عملية النسخ والكتابة ، وكم كانت بلدان المشرق الإسلامي غنية بهذه المواد خاصة أنواع الورق الجيد ، كالكاغد السمرقندي ، والكاغد الخراساني وغيرهم مما سنعرض له في حينه .

ولشدة حرص أبناء المشرق الإسلامي على تحقيق أعلى مستوى من النسخ والكتابة ، فقد حرص بعضهم على الاستعانة ببعض الوراقين والنساخ . وذلك لنسخ الكتب والمؤلفات ، ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزاهد الأصبهاني (ت ٣٣٩هـ) الذي خرج من نيسابور قاصداً أحد العلماء للكتابة عليه ، وأخرج معه جماعة من الوراقين لتحقيق هذا الغرض[٤] ، كذلك صحب محمد بن سنجر الجرجاني القطابي ، إسحاق الكوسج الوراق ليورق له وينسخ له كل ما يريد أثناء رحلته العلمية [٥] ، هذا مما يدفعنا إلى القول بأن الورق والوراقين كانا من عوامل إثراء المكتبات ، وهو ما سنعرض له .

والجدير بالذكر أن عملية نسخ الكتب وكتابتها لم يكن يلجأ إليها إلا في حالة تعذر شراء الكتاب ،أما لندرته وإما لغلاء سعره . وقد أشار ابن جماعة الكناني[٦] إلى هذا الأمر فقال تحت عنوان (في تحصيل الكتب وشراءها) : "..... إذا أمكن تحصيلها شراءً لم يشتغل بنسخها ولا ينبغي أن يشتغل بدوام النسخ إلا فيما يتعذر عليه تحصيله لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه " .

---

(١) لمزيد من المعلومات حول أصول النسخ والكتابة ، انظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ، ص ١٩٥ وانظر ابن جماعه الكناني : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٦٧ ، ص ١٧٠ ، ١٨٠ .
(٢) عن أبي حيان التوحيدي انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ٥ ، وما بعدها من صفحات .
(٣) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٧١٠ .
(٤) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٥٤٦ .
(٥) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٩ ، ص ٣٣٩ . والسمعاني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٨ .
(٦) تذكرة السامع والمتكلم : ص ١٦٥ .

وخلاصة القول فإن انتشار النسخ والكتابة كانا وعلى ما يبدو لنا من العوامل التي ساهمت وبشكل مباشر في إثراء خزائن كتب أبناء بلدان المشرق الإسلامي ، كما كانت كذلك بالنسبة لجميع أنحاء بلدان العالم الإسلامي ، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله : " ... وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم ، وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاءة له ، وتنافس أهل الأقطار في ذلك وتناغو فيه[1] .

(٤) الورق والوراقون ودورهما في إثراء المكتبات :

لم تكن عملية النسخ والكتابة التي لعبت دورها في إثراء خزائن الكتب لتتأتي بدون الورق والوارقين ، حيث لعب الورق دوراً هائلاً في هذا المضمار ، خاصة واشتهار بلدان المشرق الإسلامي بأفضل أنواع الورق ، ألا وهو الكاغد Kaghad [2]، فقد كانت بلدان المشرق الإسلامي هي المهد الأول الذي نشأ فيه ذلك النوع من الورق . وقد كان لذلك النوع من الورق سماته ومميزاته التي جعلت منه أبرز وأهم وأفضل مواد الكتابة في ذلك الوقت [3]، وقد عرف من ذلك الورق أنواعاً متعددة كان منشؤها في غالب الأمر في بلدان المشرق الإسلامي ، ومن أبرز أنواعه كان الكاغد السمرقندي ، فقد أشار الإصطخري[4] على أنه ليس في شئ من بلدان الإسلام النوشادر والكاغد إلا في ما وراء النهر ، كما أشار السمعاني إلى أن الكاغد لا يعمل في المشرق إلا بسمرقند[5] .

وقد كان الكاغد السمرقندي يضرب به المثل لشدة نقائه وجودته ، حتى أن ناصر خسرو عندما كان في طرابلس وشاهد صناعة الورق بها ، فقال .. ويصنعون بها الورق الجميل مثل

---

(١) انظر: ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٥.

(٢) الكاغد لفظة فارسية من الكلمة الفارسية Kaghad وهو نوع من أنواع الورق الراقي ، يقال أن أول من اخترعه تسي لن الصيني ١٠٥م ، وكان يصنع من الخرق وحبائل الصيد ، وقد جاء بالمصباح المنير أنه معروف بفتح الغين وبالدال المهملة ، وورد في المعجم الفارسي أن الكاغد هو الورق ومنه الكاغد السمرقندي افخر أنواع الورق الذي كان يصنع بسمرقند ، وللمزيد من المعلومات انظر أحمد بن محمد بن على المقري : المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، ج ١ ، المكتبة العلمية بيروت ، لبنان ، د.بت ص ٥٣٥ ، ود.إبراهيم الدسوفي شتا : المعجم الفارسي الكبير ، مكتبة مدبولي القاهرة ١٩٩٢م ، ص ٢١٦٣ - ١٢٦٥ .

(٣) شهدت الحضارة الإسلامية العديد من مواد الكتابة ، كالرقوق والقراطيس وغيرها ، وقد كان الورق الكاغد أفضلها حتى أن هارون الرشيد كان قد أعطى أوامره بالا يكتب الناس إلا في الكاغد ، ولمزيد من المعلومات انظر هالة شاكر عبد الرحمن : الورق والوراقون في العصر العباس ، رسالة ماجستير منشورة ، ٢٠٠٤م ، ص

وانظر: أيضا The encyclopaedia of islam – second edition leiden, ١٩٩٠ , vol. ١v,p. ٤١٩

وانظر أيضا : Hitti, philip; History of the Arabs , tenth deition, ١٩٧٠ , p.٤١٤ مترجم .

(٤) المسالك والممالك ، ص ١٧٨ .

(٥) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٨ .

الورق السمرقندي ، بل وأحسن منه "[١] . وقد أشار الثعالبي[٢] إلى ذلك النوع من الورق وذكر أنه " أحسن وأنعم وأرفق وأوفق" ، لكثرة ما عرف عن الكاغد السمرقندي من الجودة والنقاء ، فقد حرص معظم أبناء العالم الإسلامي على الحصول عليه واستخدامه حتى أن ذلك النوع من الورق كان يحمل من سمرقند إلى الوزير جعفر المعروف بابن حنزابة في مصر[٣] .

هذا وقد شاهدت بلدان المشرق الإسلامي شيوع أنواع أخرى من الورق ، ساهمت على ما يبدو في أثراء الحياة الثقافية والعملية بوجه عام ، وفي إثراء خزائن الكتب على وجه الخصوص فقد ذكر ابن النديم[٤] أن من أنواع الورق الخراساني الذي يصنع من الكتان على غرار الورق الصيني ، السليماني والطلحي والنوحي والفرعوني ، والجعفري ، والطاهري[٥] وهذه الأنواع التي يشير إليها ابن النديم تنتسب في معظمها إلى بعض أبناء المشرق الإسلامي . فالطلحي ينسب إلى طلحة ابن طاهر ثاني أمراء الدولة الطاهرية في خراسان ، والذي حكم في الفترة من ٢٠٧هـ على ٢١٣هـ [٦] .

والنوحي يرجح انتسابه إلى الأمير نوح الساماني[٧] ومنها أيضاً الورق الطاهري الذي ينسب إلى الأمير طاهر الثاني الذي ولى خراسان في الفترة من ٢٣٠هـ إلى ٢٤٨هـ ، والورق السليماني ينسب إلى سليمان بن راشد ناظر بيت المال بخراسان عهد الخليفة هارون الرشيد .[٨]

وهناك أنواع أخرى من الورق لوحظ بعد التحقق أن الفضل في ظهورها ، إنما يرجع إلى بلدان المشرق الإسلامي ومنها الكاغد المنصوري الذي ينسب إلى أبي الفضل منصور بن نصر

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٤٨ .
(٢) لطائف المعارف : ص ١٢٦ ، ثمار القلوب : ص ٤٣١ .
(٣) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٧ ، ص ١٧٦ .
(٤) الفهرست : ص ٣٢ .
(٥) المصدر نفسه ص ٣٢ .
(٦) انظر: ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٥١ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٨٤ .
(٧) عرف في تاريخ الدولة السامانية أثنان باسم نوح الساماني ، هما نوح الأول الساماني الذي حكم من سنة ٣٣١ هـ : ٣٤٣هـ ، ونوح الثاني الساماني الذي حكم من سنة ٣٦٦هـ : ٣٨٧هـ ، وأشارت دائرة المعارف الإسلامية أن المقصود هو نوح الأول الساماني ، ويرجح ذلك الأمر إلى كوركيس عواد ، مستنداً في ذلك إلى أن ابن سينا أشار إلى دار كتب كان يمتلكها نوح الأول الساماني وكانت عديمة المثل ، ذكر أنه عاينها بنفسه ، وقد أثبتنا أن ابن سينا إنما دخل هذه الدار في عهد نوح الثاني الساماني ، حيث أن نوح الأول توفي قبل مولد ابن سينا وعليه فإننا نرجح أنه نوح الثاني الساماني : انظر encyclopaedia of islam, p. ٤١٩ وكوركيس عواد : الورق أو الكاغد ، صناعته في العصور الإسلامية ، مجلة المجمع العلمي بدمشق ، م ٢٣ ، كانون الثاني ١٩٤٨م صفر ١٣٦٧هـ ، ص ٤٣١
(٨) . Look : Encyclopaedia of Islam p. ٤١٩
وكوركيس عواد: الورق أو الكاغد صناعته في العصور الإسلامية، مجلة المجمع العلمي بدمشق، م ٢٣ ص ٤٣١

ابن نصر بن عبد الرحيم ... الكاغدي (ت ٤٢٣هـ) وهو من أهل سمرقند ، وكان ممن عملوا في صناعة الكاغد وبيعه ، وقد أشار السمعاني إلى ذيوع وشهرة ذلك النوع من الورق [١].

وهناك نوع آخر عرف بالكاغد الحسني، نسبة إلى أبي الحسن بن ناصر الكاغدي المعروف بالدهقان . وقد اتسم ذلك النوع من الكاغد بجودة الصناعة والنقاء والبياض ، وقد أشار إليه السمعاني وذكر أنه : " ... لم يلحقه من سبقه في جودة الصنعة ونقاء الآلة "[٢] وقد أشار السمعاني إلى أن أبا الحسن ناصر الكاغدي كان يحضر مجالس العالم التي كان السمعاني يمليها بسمرقند ، مما يعني أنه كان معاصراً للسمعاني .

وهكذا فقد كان لأبناء بلدان المشرق ، حكامهم وأمرائهم وعلمائهم اهتمام بأنواع الورق ، فعرفت بعض أنواع الورق بأسمائهم ، مما يعكس لنا الدور الذي لعبوه في تحسين هذه الأنواع من الورق والارتقاء بها ، وإلا فما عرفت بأسمائهم .

على أية حال فقد عرفت بعض بلدان المشرق بصناعة الكاغد ومن ذلك بلده خوانا التي ذكرها ياقوت الحموي وقال أنها تسمى كاغد كنان ، أي صناع الكاغد وهي بلدة من أعمال أذربيجان بين مراغة وزنجان في طريق الري [٣] .

وترجع أهمية الورق والعلاقة بينه وبين خزائن الكتب إلى أن الورق كان عنصراً هاماً من العناصر المكونة لأية مكتبة أو خزانة كتب ، ودليلنا على ذلك ما ذكره ابن البواب[٤] من أنه وجد في مكتبة بهاء الدولة بن عضد الدولة أنواعاً من الورق الكاغد السمرقندي ، والصيني العتيق كل طريف وعجيب[٥] . أخذها وكتب فيها سنين ، حيث قال ابن البواب موجها حديثه لبهاء الدولة : " ... يا مولانا في الخزانة بياض صيني عتيق مقطوع وصحيح ، فتعطيني المقطوع منه كله دون الصحيح ... فمضيت وأخذت جميع ما كان فيها من ذلك النوع ، فكتبت فيه سنين "[٦] .

كما كان الورق الخراساني يحمل لأبي إسحاق الحربي من خراسان حتى يساعده على النسخ والكتابة ، ونحن نعلم أنه كتب أثني عشر ألف جزء[٧] ، وقد سبق وأشرنا إلى أن بعض خزائن

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٩ . وانظر أيضاً : الذهبي : العبر ... ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ .
(٢) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٩ .
(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ ، وحول الورق وصناعته انظر : محمود خليفة ، مخطوط صناعة الورق والليق والحبر ، دار الكتب المصرية ، رقم ٣٩ ، ميكروفيلم ١٨٨٨٩ ، ورقة ١ .
(٤) عن ابن البواب انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ، ص ٣٤٢ .
(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ١٢٣ .
(٦) المصدر نفسه ، ج ١٥ ، ص ١٢٤ .
(٧) انظر: الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ٣٢ ، وياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ١١٨.

الكتب كانت تمنح الورق للمترددين عليها لممارسة النسخ والكتابة كخزانة كتب ابن حبان البستي وخزانة كتب أبي عبد الرحمن بن هانئ النيسابوري وغيرها .

هذا وقد وصلت سمعة الورق الخراساني السمرقندي إلى أقصى مدى ممكن ، فكانت هذه الأنواع من الورق عنصراً أساسياً في خزائن الكتب الموجودة في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، وكان الاعتماد على هذه الأنواع في شتى مناحي الحياة الثقافية والإدارية ، فقد كان بخزانة كتب ابن أبي بعرة قمطر من الكتب حوى ضمن ما حوى ورق صيني وورق خراساني (١).

وعلى أية حال فسواء كانت خزائن الكتب محتوية على الورق وتمنحه للمترددين عليها أم لا فقد كان توافر الورق وتوافر أنواع جيدة منه من العوامل التي يسرت ـــ وعلى ما يبدو لنا ـــ عملية نسخ وكتابة الكتب والمؤلفات والتي كانت ولا جدال تستقر في خزائن كتب هؤلاء العلماء الذين اضطلعوا بأمر نسخ هذه الكتب ، أو خزائن كتب أولى الأمر ، فساعد ذلك على إثراء المكتبات ، فقد كان أهل العلم شديدي الحرص على توفير الورق اللازم لعملية النسخ ، ومن طريف ما يذكر في هذا أن رجلاً باع سراويله غير مرة لشراء كاغد للكتابة عليه(٢) ، وأيا كان مدى صحة هذه الرواية ، فإنها تعكس لنا حرصاً على توفير الورق اللازم للكتابة .

أما فيما يتعلق بالوراقين ، فيبدو لنا أن الوراقين كان لهم دور بارز ومميز في إثراء عالم الكتب والمكتبات ، خاصة وما قاموا به من نسخ وتجليد وتذهيب للكتب والمؤلفات .

ويمكننا إدراك حجم الأثر الذي لعبه الوراقون إذا ما علمنا أمران ، **أولهما** أن بعض بل كثير من خزائن الكتب سواء العامة أم الخاصة كانت تعج بالوراقين ، ودليلنا على ذلك ، ما سبق وذكرنا من أن أبا حيان التوحيدي عمل بالنسخ لدى ابن عباد ، وقد وصفه ابن عباد في أحد اللقاءات بالوراق وقال له : " اقعد فالوراقون أخس من أن يقوموا لنا "(٣). كما كان ابن البواب الخطاط والناسخ يعمل بخزانة بهاء الدولة بن عضد الدولة ، بل والأكثر من ذلك أنه كان هو المتولي لشئونها وخازنها(٤) .

أما الأمر الثاني فيتضح فيما كان يعمد إليه أهل العلم من الاستعانة بالوراقين في نسخ الكتب والمؤلفات سواء الخاصة بهم ، أو تلك التي يسعون إلى جمعها واقتنائها .

---

(١) انظر: ابن النديم : الفهرست ، ص ٦ ، وابن القفطي : إنباه الرواه ، ص ٤٣ .
(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ٧ ، ص ٨٤ .
(٣) انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ٢٦.
(٤) المصدر نفسه : ج ١٥ ، ص ١٢٣ وما بعدها .

وعليه فلم يكن عجيباً أن نجد بعض الوراقين وقد اختص ببعض أهل العلم ، ومن هؤلاء نذكر الحسين بن عبد الله السمرقندي (ت ٢٨٢هـ) الذي كان وراقاً لداود بن على الأصبهاني (ت ٢٧٠هـ)[١] ، كما كان أبو عبد الله الوراق يورق أيضاً لداود بن على الأصبهاني[٢]، وكان أبو محمد بن حميد بن فروة بن فرمنك الوراق الفرمنكي وراقاً لأبي حذيفة إسحاق بن بشر وكان ذلك الوراق من أهل بخارا[٣] ، وكان أبو محمد جبريل بن عون الأفراني (ت٣٨٨هـ) وراقاً لمحمد بن إسماعيل البخاري ، خاصة في تلك الفترة التي قضاها البخاري في نسف[٤] ، وكان أبو الفضل بن أحمد الرازي الوراق مختصاً بأبي زرعة الرازي ووراقاً له[٥] ، وبالغ بعضهم في الاستعانة بالوراقين حتى أنهم كانوا يقيمون معهم في ديارهم ، ومن هؤلاء سهل بن المرزبان الذي سبق وأشرنا إليه ، والذي كان كثير الاعتماد على الوراقين لنسخ كل ما يجلبه وما يجلب إليه من الكتب ، وهو ما عبر عنه الثعالبي بقوله : " .. ولا بها سواه من تسمو همته على يساره لارتباط الوراقين في داره" مما يوحي بملازمة الوراقين له في داره وإقامتهم عنده[٦] وحرص البعض الآخر على اصطحاب الوراقين أثناء رحلاتهم العلمية ، وهو ما سبق وأشرنا إليه في إطار الحديث عن الرحلات العلمية .

ويشير السمعاني إلى أن أحد وراقي البصرة ، كان قد نسخ لوالده شيئاً كثيراً[٧] ولاشك أن هذه الكتب والمؤلفات التي نسخها ، إما أنها آلت إلى السمعاني ابنه فأثريت بها خزانة كتبه ، وإما أنها آلت إلى خزانة كتب مدرسة السمعانيين بمرو فأثريت بها ، بهذا يكون ذلك الوراق قد ساهم ــ بما قام به من نسخ الكتب ــ في إثراء بعض خزائن الكتب .

ولكن ترى هل توقف دور الوراق عند حد النسخ فقط؟ الواقع أن هذا أمر لا يمكن الجزم به خاصة وأن ضبط الكتب وتصحيحها وتجليدها وتذهيبها وبيعها كان من بين المهام المنوطه به[٨]، وندلل على هذا الأمر بما ذكر عن أبي جعفر الزوزني النحوي اللغوي الشاعر ، الذي عمل

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٨ ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، وداود بن على الأصبهاني ، كان فقيها زاهدا ، أصله من أصبهان ، ولد عام ٢٠٠هـ وتوفي ٢٧٠هـ ، وللمزيد انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٤٧
(٢) انظر: الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٦٩ .
(٣) انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٣٧١ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٤ . وعمل له أيضا بالوراقة محمد بن أبي حاتم الوراق ، انظر الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ط ١٣٧٤هـ ، ج ١ ، ص ٥٥٦ .
(٥) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٨٦ . وأبو زرعة الرازي هو أحد الحفاظ ، المشهود لهم بخراسان ، ت بالري ٢٦٤هـ ، انظر المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤ .
(٦) انظر: الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٤٥٢ .
(٧) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٨٢ .
(٨) حول طبيعة عمل الوراق انظر : السمعاني : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٤٤ ، والقلقشندي ، صبح الأعشى ج ٢ ، ص ٥١٦ ، د / صلاح على عاشور : الوراقون والنساخون بالعراق والمشرق في العصرين البويهي والسلجوقي ، بحث مقدم من خلال المؤتمر الدولي حول تاريخ المسلمين الاقتصادي ، ١٩٩٨م ، ص ٩٩ ، وانظر أيضاً : هالة شاكر : الورق والوراقون في العصر العباسي ، ص ١٣٠ وما بعدها .

بالوراقة ، وكان مختصاً بنسخ كتب الأدب ، فقد ذكره ابن القفطي قال : " ... كان مختصاً بنسخ كتب الأدب بخط مقروء صحيح أحسن الخط[١] ، وقد قال عنه عبد الغافر الفارسي : لقد رأيت نسخة من كتاب يتيمة الدهر في خمس مجلدات بخطه المليح لأبي منصور الثعالبي ، بيعت بثلاثين ديناراً نيسابورية ، وكانت تساوي أكثر من ذلك ، ولقد كتب نسخة من غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي وقرأها على جدي الشيخ أبي الحسن عبد الغافر بن محمد الفارسي قراءة سماع ، وعلى الحاكم الأمام أبي سعد قراءة تصحيح وإتقان ، أقطع أنه لم يبق من ذلك الكتاب نسخة أبين ولا أملح منها ، وهي برسم الكتب الموضوعة في الجامع القديم ، وموقوفة على المسلمين "[٢] ، وقد توفي بغزنة سنة ٤٦٣هـ .

وهكذا يبدو مما ذكر كيف كان أبو جعفر حريصاً على ضبط وتصحيح ما كتب ، بقراءته على الحاكم الإمام أبي سعد قراءة تصحيح وإتقان ، كما اتضح لنا مدى الحرص على حسن الخط فيما يكتب . وقد استقرت هذه النسخة من الكتاب المذكور في إحدى خزائن الوقف ، فلا شك أنها أثريت بها .

ويتجلي لنا ذلك الدور الذي لعبه الوراقون في إثراء دور وخزائن الكتب من خلال ما قام به بعضهم في الترويج لبيع بعض الكتب ، وندلل على هذا بما سبق وذكره ابن سينا من أنه ذهب إلى سوق الوراقين وقد عرض عليه أحد الوراقين كتاباً فرده ابن سينا ظناً منه أن لا فائدة في هذا العلم . ثم عاد واشتراه بعد أن رغبه الوراق الدلال فيه وذكر له أنه رخيص[٣] فاشتراه ابن سينا وآل بهذا إلى خزانة كتبه الخاصة . ويبرر لنا ذلك الدور أيضاً من خلال قصة الطبري مع أبي القاسم الحسين بن حبيش الوراق ، إذ سأله الطبري أن يجمع له الكتب التي كتبت في القياس فجمع له بن حبيش الوراق نيفاً وثلاثين كتاباً ، ظلت عنده لفترة من الزمن ، فلا شك أن خزانة الطبري الخاصة أثريت بها ، وبما قام بنسخه منها [٤].

والجدير بالذكر أن بعض الوراقين قد تخصصوا في نسخ علوم خاصة أو معارف معينة ، فكان أبو طاهر عمر بن حمد بن علي بن معدان الوراق الأصبهاني (ت ٤٥٠ هـ) يكتب الأدب[٥] في حين تخصص عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله (ت ٤٨٩هـ) في كتابة المصاحف[٦]

(١) انظر: ابن القفطي : انباه الرواه ، ج ٣ ، ص ٦٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ص ٦٦ - ٦٧ .
(٣) انظر: ابن جماعه الكناني: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص ١٦٤،وانظر أيضاً الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٠٨ .
(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ٧٨ .
(٥) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ١٥٣ .

كما تخصص أبو حذيفة عبد الرحمن بن الحسن الزورني أيضاً في كتابة المصاحف ، فكتب أربعمائة جامع للقرآن ، باع كل جامع منها بخمسين ديناراً[١]، وكان إبراهيم بن محمد أبو حاجب الوراق الاسترابادي يكتب المصاحف[٢] وكان أبو غالب الذهلي السهروردي ينسخ أعداداً فائقة من كتب التفسير والحديث والفقه لنفسه وللناس[٣] ، ولاشك أنه ساهم بهذه الأعداد في إثراء بعض خزائن الكتب ، كما كان إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٨هـ) مختصاً بكتابة المصاحف[٤]، وبصفة عامة فقد أشار المقدسي[٥]إلى مهارة أبناء إقليم فارس في كتابة المصاحف.

وفي إطار التدليل على أثر ذلك الدور الذي لعبه الوراقون في إثراء دور وخزائن الكتب ، نشير إلى أن بعض العلماء عملوا بالوراقة ، فقد كان السيرافي أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت ٣٦٨هـ) عالم القراءات والنحو اللغة والعروض والفقه وغيره يعمل بالنسخ ، فكان ينسخ الكراس بعشرة دراهم ، خاصة وما عرف عنه من حسن الخط[٦] .

وكان أبو أحمد محمد بن عيسى الزاهد الجلودي (ت ٣٦٨هـ) يورق ويأكل من كسب يده[٧] وكان منتجب الدين أبو الفتوح العجلي الأصبهاني الراوية (ت ٦٠٠هـ) يكتب ويبيع ما يتقوت به[٨] ، كما كان أبو العباس أحمد بن محمود الزاهد (ت ٣٧١هـ) يورق ولا يأكل إلا من كسب يده[٩] وكان أبو العباس الأصم المحدث (ت ٣٤٧هـ) يورق ويأكل من كسب يده[١٠] ، وكان أبو المعالي عبد الملك الجويني المعروف بإمام الحرمين (ت ٤٧٨هـ) ينسخ بالأجرة[١١]، وقد يكون هؤلاء العلماء قد مارسوا الوراقة لفترة محددة ولظروف اضطرتهم لهذا ، ولكنهم ساهموا بهذا الأمر في إثراء عالم خزائن الكتب ، بما تأتي لهم نسخه وكتابته .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .
(٢) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٣ ، ص ٧٤١ .
(٣) الذهبي : العبر ... ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .
(٤) ابن القفطي : أنباه الرواه ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .
(٥) انظر: أحسن التقاسيم ، ص ٤٣٧ .
(٦) انظر: السمعاني : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ وابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ص ٢٩٤ . والذهبي : العبر ... ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .
(٧) السمعاني : الأنساب ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، والذهبي : العبر ، ج ٢ ، ١٢٩ .
(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٠٨، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٣٤١ ،
(٩) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٤١ .
(١٠) انظر السمعاني : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٨، وابن الجوزي: المنتظم ، ج ٤ ، ص ١١٢ ، والذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٧٤ .
(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

أما فيما يتعلق بالوراقين ، أصحاب المهنة الأصليين ، فقد لوحظ عليهم أيضاً أنهم كانوا هم الآخرين من أهل العلم ، فقد كان أبو بكر الوراق الفارسي ت ٣٩٠هـ ، محدثاً[١] ، وكذلك كان أحمد بن أحمد بن شعيب أبو منصور الوراق (ت ٣٥٥هـ)[٢] .

وكان عبد الله بن أبي سعيد أبو محمد الوراق راوية (ت ٢٧٤هـ) ثقة صاحب أخبار وآداب[٣] كما كان الجعل الكاغدي (ت ٣٦٩هـ) ، فقيها رفيع القدر[٤] ، وكان عبيد بن محمد الوراق النيسابوري (ت ٢٥٥هـ) محدثاً ثقة[٥]، وكان على بن عبد الله الفرغاني الوراق (ت ٣٢٢هـ) أيضاً محدثاً ثقة[٦] في حين كان أبو عبد الله الحسين بن جعفر المعروف بابن شيبة الجرجاني (ت ٣٩٨هـ) راوية[٧] ، وكان أبو محمد الوراق النسفي (ت ٣١١هـ) محدثاً[٨] وكان أبو القاسم ظاهر المولقاباذي (ت٣٥٧هـ) محدثاً ولم يكن في جماعة الوراقين من هو أحسن خطاً منه [٩] وكان ابن زريق وأبو يعقوب النيسابوري من المحدثين .[١٠] وكان أبو حاتم الوراق النيسابوري شاعراً . [١١]

وهكذا كان معظم وراقي بلدان المشرق الإسلامي من أهل العلم والمعرفة ، وهكذا ساهموا في كتابة ونسخ أعداد هائلة من الكتب استقرت ولا جدال في خزائن الكتب سواء الخاصة أم العامة ، فكان ذلك من عوامل ثرائها .

(٥) كثرة التأليف والتصنيف :

لوحظ على علماء وأدباء وفقهاء بلدان المشرق الإسلامي أمر كان على ما يبدو لنا من عوامل إثراء دور خزائن الكتب العامة والخاصة ، على حد سواء ، ألا وهو كثرة التصنيف والتأليف الذي لم يقتصر على فرع معين من فروع المعرفة ، بل امتد ليشمل شتى المعارف ، وهذا أمر يلحظة القارئ المدقق للمصادر التاريخية .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٥ ، ص ١٢٧ .
(٢) الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ١٩٣ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٥٣ .
(٤) الزركلي : الأعلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .
(٥) الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٩٧ .
(٦) المصدر نفسه : ج ١٢ ÷ ص ص ٤ ، ٥ .
(٧) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .
(٨) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٦١٧ .
(٩) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٤١٠ .
(١٠) الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ، و ج ٦ ، ص ٣٧٦ .
(١١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٥١٠ ، السمعاني : الأنساب : ج ١ ، ص ١٨١ ، وياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٢٦ .

فقد ظل الطبري ــ كما سبق وأشرنا ــ يكتب لمدة أربعين سنة في كل يوم أربعين ورقة، كما أنه قال لأصحابه يوماً : " ... أتنشطون لتفسير القرآن ، قالوا : كم يكون قدره ؟ قال ثلاثين ألف ورقة ! فقالوا : هذا مما تفني الأعمار قبل تمامه ، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة ثم قال : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فذكر نحو مما ذكره في التفسير "[1]. وكان أبو الفضل محمد بن أحمد الشهير بالحاكم المروزي أو بالحاكم الشهيد لا يترك التصنيف والكتابة ، وقد ذكره ولده أبو عبد الله بن الحاكم الشهيد فقال: " ... عهدت الحاكم وهو يصوم الأثنين والخميس، ولا يدع صلاة الليل في السفر والحضر، ولا يدع التصنيف في السفر والحضر ، وكان يقعد والسفط والكتب والمحبرة بين يديه ، وهو وزير السلطان فيؤذن لمن لا يجد له بداً من الإذن ثم يشتغل بالتصنيف فيقوم الداخل ، ولقد شكاه أبو العباس بن حمويه قال : " ندخل عليه ولا يكلمنا ، ويأخذ القلم بيده ويدعنا ناحية [2] " ، وهكذا فقد كان الحاكم الشهيد لا يترك التصنيف .

وتطالعنا المصادر بصور هائلة لحجم المؤلفات والمصنفات التي قام بها علماء بلدان المشرق الإسلامي ، فقد ذكر أن أبا علي الماسرجس الحافظ كتب الكثير من المؤلفات وصنف "المسند الكبير" في ألف وثلثمائة جزء[3] ولقد أشير إليه فقيل : " هو سفينة عصره في كثرة الكتابة "[4] ، وممن عرف بكثرة الكتابة والتصنيف الواعظ الشاهيني المعروف بابن شاهين [5] وتحدث عن نفسه قال : " ... كتبت الحديث وأنا ابن إحدى عشر سنة ... وصنفت ثلاثمائة مصنف وثلاثين مصنفاً ، أحدها التفسير الكبير ألف جزء ، والمسند ألف وخمسمائة جزء ، والتاريخ مائة وخمسون جزءاً والزهد مائة جزء " وقال : " ... كتبت بأربعمائة رطل حبر . وحسبت ما اشتريت به الحبر إلى هذا الوقت فكان سبعمائة درهم ، وقيل أنهم كانوا يشترون الحبر أربعة أرطال بدرهم "[6] وقد ظل ابن شاهين هذا يكتب زمناً طويلاً .

وعرف أيضاً عن الحاكم أبي عبد الله المعروف بابن البيع (ت ٤٠٥هـ) أن تصانيفه بلغت قريباً من خمسمائة جزء ، وقيل ألف جزء ، وقيل ألف وخمسمائة جزء[7] ، ويذكر أن أبا

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، وابن كثير: البداية والنهاية : ج ١١ ، ص ١٤٥، وابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٧٠ .

(٢) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٤٧٧ ، وقد قتل الحاكم الشهيد على باب مرو ... والكتب بين يديه ... وهو يصنف على ضوء الشمع وذلك عام ٣٣٤هـ ، انظر المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٧٨ .

(٣) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ١٧١ ، وابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٤ ، ص ٢٤٤ ، والذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ١٢٠ وما بعدها ، وأبو علي الماسرجس هو احد الحفاظ ، قيل انه احد اركان الحديث بنيسابور رحل كثيرا طلبا للعلم و ت ٣٦٥ .

(٤) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٥) ابن شاهين هو : أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان ، أصله من مرو الروذ ، ولد ٢٩٧هـ ، وتوفي ٣٨٥هـ انظر: السمعاني: المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ .

(٦) السمعاني : الأنساب ج ٣، ص ٣٨٩، وما بعدها ، وانظر ايضا ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ٣١٦ .

(٧) انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٨٠، وانظر ايضاً ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج ١ ص ١٧٠ .

بكر أحمد بن الحسين ... البيهقي (ت ٤٥٤هـ) [١] ، ألف من الكتب ما يبلغ قريباً من ألف جزء مما لم يسبق إلى مثله "[٢] .

وكتب مكي بن أحمد بن سعدويه البرذعي " بخراسان ما يتحير فيه الإنسان كثرة " على حد تعبير ياقوت الحموي[٣] وصنف أبو الفضل على بن الحسين الهمذاني (ت ٤٢٧هـ) بنيسابور كتاباً في ألف جزء ولم يبيضه[٤] . كما صنف الباز الأشهب أبو العباس القاضي بشيراز (ت ٣٠٦هـ) نحو أربعمائة مصنف[٥] ، وصنف السمعاني الذيل على تاريخ الخطيب أربعمائة طاقة وتاريخ مرو خمسمائة طاقة والأنساب ثلاثمائة وخمسون طاقة ، وطراز الذهب في أدب الطلب مائة وخمسون طاقة ، وتحفة المساجد مائة طاقة وخمسون طاقة ، وعز العزلة سبعون طاقة ، والمناسك ستون طاقة ، والتحبير في المعجم الكبير ثلاثمائة طاقة ، والأمالي خمسمائة طاقة ، وقد ذكر ابن قاض شهبة نقلاً عن الذهبي ، أن الطاقة نصف كراس[٦] .

كما صنف أبو الحسن النيسابوري الحافظ (ت ٣٣٨هـ) مسند كبير في أربعمائة جزء ، وأحكام في مئتين وستين جزءاً ، وتفسير في مئتي وثلاثين جزء[٧]، وصنف محمد بن عبد الله بن حمشاذ (ت ٣٨٦هـ) أكثر من ثلاثمائة مصنف[٨] .

وهكذا بلغت مصنفات ومؤلفات بعض علماء بلدان المشرق حداً وكماً هائلاً ، وقد يستشعر البعض المبالغة في هذه الأعداد التي سبق وأشرنا إليها ، وقد يرى البعض الآخر أن أجزاء الكتب المشار إليها كانت ولاشك صغيرة الحجم ، ومهما كان الأمر فإنه لاشك في أن هذه المصنفات كثرت أم قلت ، ساهمت في إثراء دور وخزائن الكتب ، لمن حصل عليها إما بالنسخ وإما بالشراء ، وإما بغيرهما .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو ، هل كانت الكثرة هي فقط السمة المميزة لعملية التصنيف ، والتأليف ؟؟ !

الواقع أنه وبالنظر إلى بعض الكتب المصنفة والمؤلفة لبعض العلماء لوحظ أن بعضهم أختص بالتصنيف في نوع معين من فروع العلم والمعرفة ، ومن ذلك أن أبا صالح بن سليمان

---

(١) وهو من أهل خسرو جرد ، إمام حافظ فقيه في أصول الدين ، رحل كثيرا وورد نيسابور عام ٤٤١هـ وتوفي ٤٥٤هـ ، انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ، ص ٦٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ، وانظر الذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .
(٣) انظر: ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ٤٥٢ ، وكان مكي هنا قد نزل نيسابور سنة ٣٣٠ هـ وخرج إلى ما وراء النهر سنة ٣٥٠هـ ، وتوفي بالشاش ٣٥٤هـ.
(٤) انظر: الذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، وابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٩٠
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .
(٦) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢٥ .
(٧) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٤١ ، ص ٧٦ . والذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٥ .
(٨) ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

المعروف بسلمويه بن صالح ــ وهو من أهل مرو ــ كان له التصانيف في أخبار مرو(١) في حين صنف أبو محمد الفارسي النحوي (ت ٣٤٧) في علوم الأدب(٢) وصنف أبو الشيخ الحافظ أبو محمد عبد الله ... بن حبان الأصبهاني كتباً كثيرة في الأحكام(٣) ، وكان أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) كثير التأليف للكتب في علوم اللغة(٤) ، وصنف أبو بكر أحمد بن اسحاق شيخ الشافعية بنيسابور الكتب الكبار في الفقه والحديث(٥) .

في حين عرف عن بعضهم التنوع فيما يصنف ويؤلف من الكتب ، فقد صنف أبو محمد الجويني ت ٤٣٨هـ ــ التصانيف الكثيرة في أنواع العلوم(٦) وكانت مصنفات ابن فورك (ت ٤٠٦هـ) في الأصول وغيرها من فروع العلم ، خاصة أنه تصدر توسع في دراسة علوم الأدب والكلام والوعظ والنحو(٧) .

(٦) عملية البيع والشراء ودورها في إثراء خزائن الكتب :

يبدو لنا أن علميتي البيع والشراء ساهمتا بشكل مباشر في إثراء وغناء بعض دور وخزائن الكتب بالكثير من الكتب والمؤلفات ، وإن كانت عملية البيع تفقد الطرف البائع ما امتلك من الكتب ، إلا أنها كفلت للمشتري الحصول على كتب ومؤلفات أثرت بها مكتبته أو خزانته .

وفي إطار شراء الكتب والمؤلفات ذكر السمعاني أن أبا إسحاق إبراهيم بن خالد بن نصر الجرميهني (٨) الحافظ اشتري كتب ابن عون بعد موته ، ولاشك أن خزانة أبي إسحاق إبراهيم ابن خالد أثريت بما آل إليها من هذه الكتب .

وذكر ابن النديم(٩) أن رجلاً خراسانياً اشترى كتابين كانا في تركة إبراهيم بن عبد الله الناقل النصراني ، وكان الكتابان قد عرضا على أبي زكريا يحيى بن عدي بمئة دينار وعشرين ديناراً ، وعندما ذهب لتدبير المال المطلوب جاء ذلك الخراساني واشترى الكتابين في جملة من الكتب بثلاثة آلاف دينار ، وهكذا أثريت خزانة ذلك الخراساني بما اشتراه من هذه الكتب .

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٢٨١ . والتصنيف يقصد به التأليف ، ومعنى صنف الأشياء ، جعلها أصنافاً والكتاب ألفه . انظر المعجز الوجيز ، ص ٣٧٢ .
(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٤ ، ص ١١٥ .
(٣) الذهبي : العبر ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ٨٦ .
(٥) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، وقد توفي أبو بكر هذا في ٣٤٢هـ .
(٦) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ١٥ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ . وهو من أبناء نيسابور ، انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٥٥ .
(٧) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .
(٨) هو من جرمهين ؛ وهي إحدى قرى مرو ، وتوفي ٢٥٠. هـ . انظر السمعاني : الإنساب ، ج ٢ ، ص ٤٧ وابن عون هو إبراهيم بن محمد بن أحمد بن أبي عون (ت ٣٢٢هـ) انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١ ، ص ٢٣٤ .
(٩) ابن النديم : الفهرست : ص ٣٥٤ .

ومن أبرز وأهم أدلتنا على ذلك الدور الذي لعبته عمليتا البيع والشراء ، ما ذكر من أن أبا محمد الشعراني اشترى نسخة من كتاب غريب المصنف بخط أبي بكر القاري الرازي لخزانة أبي الفضل بن العميد ، وقد كانت بستة عشر ديناراً مصرية ، وقد كانت هذه النسخة غاية في النفاسة ، حتى أن كل من امتلكها ضن بها خوفاً وحرصاً عليها ، وقيل أيضاً أنها بيعت بثلاثين ديناراً مصرية[١]، (والدينار المصري هو على ما يبدو ــ الذي يحمل طابع الدولة الفاطمية).

ومن امتلك كتباً عن طريق الشراء أبو بكر محمد بن سليمان بن على الكاخشتواني البخاري (ت٤٤٩هــ) الذي كان يشتري الكتب من السوق ليحدث بها[٢] ومنهم أيضاً أبو مطيع معاوية بن يحيى الذي كان على بيت المال بالري[٣] .

وكان ابن سينا ممن يحرصون على شراء الكتب بدليل ما سبق وأشرنا إليه من أنه حضر حلقة ينادي فيها على كتب ، حيث اشترى منها كتاباً بعدما كان متردداً في شرائه ، ويبدو في قصة ابن سينا هذه ، ذلك الدور الذي لعبه الوراق أو دلال الكتب في الترويج لذلك الكتاب والترغيب فيه حتى اشتراه ابن سينا بعد تردده ، حيث قال له الوراق : ألا تشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج لثمنه " [٤] . وكذلك حرص بعض أهل العلم على شراء الكتب وبالغوا في هذا الأمر ، فكان بعضهم يشتري كل كتاب يراه وعندما سئل أحدهم في هذا قال : ربما احتجت إلى ما لا أحتاج إليه (الآن) ، وكان البعض الآخر يشتري الكتب بالدين والقرض .[٥]

وقد كان دلال الكتب يروج لبيع الكتاب مستغلاً في ذلك أموراً منها اسم المؤلف وخط الناسخ وموضوع الكتاب وتجليده وتغليفه ونوع ورقه ، ومن أبرز دلالي الكتب عبد العزيز بن خلف القاري دلال الكتب[٦] ، وإسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث السمرقندي ت ٥٣٦هــ[٧] .

وكانت هناك بعض الآداب اتبعت عند شراء الكتب ، منها فحص الكتاب وتصفح أوراقه وترتيبه ، وقد أجمل ابن جماعه الكناني[٨] هذه الآداب فقال : " ... وإذا اشترى كتاباً تعهد أو له

---

(١) انظر: ابن القفطي : إنباه الرواه ، ج ٤ ، ص ١٠٠ ، ١٠١، وعن الدنيار المصري انظر : د/عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، ط ١٩٧٣م ، ص ١٢٧ .
(٢) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٠ .
(٣) المصدر نفسه : ج ١ ، ص ١٨٣ .
(٤) انظر : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ١٨١ وابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٣
(٥) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، ص ١٣٧ .
(٦) انظر: السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٦ ، ص ٨ .
(٧) انظر: ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٩٨ .
(٨) تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٧٢ .

وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه ويصفح أوراقه ، واعتبر صحته ومما يغلب على الظن صحته إذا ضاق الزمان عن تفتيشه " .

(٧) مجالس الأمالي ودورها في إثراء المكتبات :

لعبت مجالس الأمالي ــ وعلى ما يبدو لنا ــ دوراً هائلاً في إثراء المكتبات في بلدان المشرق الإسلامي، وهذه المجالس نسبة إلى الإملاء وهو على حد تعبير حاجي خليفة(١): " أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس فيتكلم العالم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من العلم ، ويكتب التلاميذ ، فيصير كتاباً يسمونه الإملاء والأمالي ، وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية وغيرها في علومهم " .

ولكن ترى أين كانت تعقد مجالس الأمالي هذه ؟ !!

كان المسجد ــ وعلى ما يبدو لنا ــ من أولى الأماكن التي شهدت مجالس الإملاء هذه ، فقد كان لأبي بكر محمد بن أحمد بن إسماعيل ت ٣٥٤هـ مجلس إملاء في جامع جرجان(٢) وعقد مجلس الإملاء لأبي سعيد الحسن بن محمد ... القزاز الفسوي نزيل شيراز والمتوفي (٣٧٥هـ) في الجامع في باب المصاحف أيام الجمعة بعد الصلاة(٣) وكان الناس قديماً يفتخرون بإملاء باب المصاحف هذا ، وكذلك أملى أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ... ابن بكر النيسابوري في مسجده العتيق برباط دهستان(٤) وسنلاحظ فيما هو آت كيف كانت المساجد مهداً ومعقلاً لمجالس الأمالي ، ولم تكن المساجد هي فقط الأماكن التي شهدت مجالس الإملاء ، بل شهدتها أيضاً المدارس ودور العلم ، ومن ذلك أن أبا الحسن محمد بن على ... الماسرجيس الفقيه الشافعي عقد له مجلس الإملاء في دار السنة بنيسابور عام ٣٨١هـ (٥) .

ومن الأمور العجيبة حقاً أن مجالس الأمالي لم تقتصر على حلقات العلم بالمساجد والمدارس ودور العلم ، بل أن دور ومنازل بعض العلماء كانت مركزاً لمثل هذه المجالس ، ومن ذلك أن أبا محمد عبد الله بن محمد بن جعفر القزويني الفقيه الشافعي ، كان يعقد مجلس الإملاء في داره ، وكان يجتمع إليه حفاظ الحديث ، وقد وصف السمعاني مجلس إملائه فقال : " كان مجلسه حسناً وقوراً يجتمع فيه جمع كثير "(٦) .

---

(١) حاجي خليفه : كشف الظنون : ج ١ ، ص ١٦١ .
(٢) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٧ ، ص ٢٤٢ .
(٣) السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٣٨٦ .
(٤) السهمي : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٤٣١ .
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .
(٦) السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٤٩٤ .

ولكن كيف يتأتى لهذه المجالس أن تساهم في إثراء دور وخزائن الكتب ؟ !!

الواقع أننا إذا ما علمنا حجم الحاضرين لهذه المجالس ، وحجم الذين يكتبونها ، لتمكنا من إدراك طبيعة وحجم الدور الذي لعبته الأمالي في إثراء دور وخزائن الكتب ، فقد شهدت بعض مجالس الأمالي أعداداً هائلة من ذوي العلوم والمعارف والآداب ممن يكتبون ما يملى عليهم ، ومن ذلك أنه اجتمع في مجلس إملاء أبي جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض الفريابي حوالي ثلاثين ألف " ممن كان يكتب من أملائه "[١] وهذا كما يبدو عدد هائل ، كما كان يحضر مجلس إملاء أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل الحاملي عشرة آلاف رجل[٢] .

وهذه إعداد هائلة ، فلو قدر لكل واحد منهما كتابة نسخة مما يملى عليه من الكتب والمؤلفات فلنا أن نتخيل حجم ما سيتم كتابته ونسخه ، ولنا أن نضع في الاعتبار أن كل ما سيكتب سيؤول إلى الخزانة الخاصة بكل من يكتب هذه الأمالي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا إذا ما علمنا حجم وعدد المجالس التي أملاها أهل العلم لأمكننا وضع تفسير موضوعي لظاهرة الثراء العددي والحجمي الذي اتسمت به خزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي

حيث أملى محمد بن الفضل المعروف بأبي عبد الله الصاعدي الفراوي أكثر من ألف مجلس[٣] وأملى أبو القاسم الشحامي النيسابوري المحدث أيضاً ألف مجلس[٤] ، وأملى أبو القاسم التيمي الطلحي الأصبهاني الحافظ الكبير[٥] حوالي ثلاثة آلاف مجلس ، وذكر ابن قاض شهبة أنه أملى نحواً من ثلاثة آلاف وخمسمائة مجلس[٦] .

وقد حاول بعض أهل العلم والمعرفة تسهيل عملية النسخ والكتابة في مجالس الأمالي بتوفير الورق والحبر لمحاجيه ، وعليه فلم يكن عجيباً أن تعلم أن أبا الطيب سهل بن أبي سهل الصعلوكي النيسابوري كان يضع في مجلس الإملاء أكثر من خمسمائة محبرة[٧] وكان عدة أصحاب المحابر الذين يحضرون مجلس أبي الحسين بن المستفاض (ت ٣٠١هـ) حوالي عشرة آلاف[٨] .

---

(١) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٧٦ . ينسب إلى فارياب من نواحي بلخ ، وذكره ابن كثير وأشار إلى انه طاف البلاد طلباً للعلم وقد توفي ٣٠١هـ ، انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ١٢١ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ٢٠٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢١١ ، والعالم المذكور سكن نيسابور ، ورحل إليه طلبة العلم من كافة الأنحاء حتى قيل: "للفرواي ألف راوي"، ت ٥٣٠هـ انظر المصدر نفسه وانظر ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية،ج ١، ص ٢٩٩

(٤) الذهبي: العبر ...، ج ٢، ص ٤٤٥، وكان أبو القاسم المذكور محدثا ومستمليا ورحل في طلب العلم، ذكره الذهبي وقال: " مسند خراسان " و ت بنيسابور ٥٣٣هـ ، انظر المصدر نفسه ، وانظر ابن كثير : المصدر السباق ، ج ١٢ ، ص ٣١٥ .

(٥) هو أحد أئمة التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب ، كان قدوة أهل السنة في زمانه ، ولذلك عرف بقوام السنة (ت ٥٣٥هـ)، انظر الذهبي المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ ، وابن كثير : المصدر السابق ج ١٢ ، ص ٢١٧ .

(٦) انظر: ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٧) انظر: السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٥٤٠ ، وابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٧ . وقد توفي أبو الطيب المذكور ٤٠٤هـ .

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ، ص ١٢١ .

وقد لوحظ على من يحضرون مجالس الأمالي هذه ، أنهم لم يكونوا في غالب الأمر مجرد طلبة عاديين،بل كانوا وفي كثير من الأحيان من العلماء ، فكان يحضر مجلس إملاء أبو إسحاق المزكي (ت ٣٦٢هـ)[١] صفوة أهل العلم ، وكان منهم أبو العباس الأصم[٢] ، ومن في مستواه ، وقد أشار أحد الحفاظ إلى صفة من يحضرون مجلسه من العلماء فقال : "... وكنا نعد في مجلسه أربعة عشر محدثاً منهم العباس الأصم ، وأبو عبد الله بن الأحرم وأبو عبد الله الصفار وأقرانهم "[٣] ، وكان يحضر مجلس إملاء أبي حامد أحمد بن إبراهيم ... المزكي ابن المزكي (ت ٣٨٦هـ) لسادة العلوية والفقهاء والفضلاء من الفريقين[٤] ، كما أشار الحاكم أبو عبد الله أن العماري (ت ٣٩٠هـ) حدث إملاءاً بحضرة أكثر مشايخ نيسابور[٥] .

وفيما يتعلق بطبيعة العلوم والمعارف التي كانت تدار حولها مجالس الأمالي ، فإننا نرى أنها لم تكن تختص بعلم بعينه ، بل امتدت لتشمل فروع شتى من العلوم والمعارف ، هذا وإن اختص كل عالم بفرع من فروع المعرفة ، أو بأكثر من فرع .

فقد كان لأبي الحسين الفارسي النحوي أمالي في الأدب والنحو، وقد أشار ياقوت الحموي[٦] إلى أنه ورد خراسان ونزل نيسابور وأملى بها من الأدب والنحو ما سارت به الركبان " على حد تعبيره ، وأملى أبو سعيد البغدادي الضرير من نيسابور على عهد عبد الله بن طاهر بها ــ كتباً في معاني الشعر والنوادر[٧] ، وأملى الوركاني مجالس في الحديث بأصبهان[٨] وكان لأبي القاسم يوسف بن عبد الله الزجاجي شروح كثيرة وأمالي في دقائق علم اللغة [٩] .

وهكذا لم تقتصر الأمالي على نوع معين من العلوم والمعارف ، بل إنها وعلى ما يبدو ــ امتدت لتشمل شتى العلوم والمعارف .

---

(١) أبو اسحاق المزكي : شيخ نيسابور في عصره وكان من المنفقين على العلماء والفقراء ، ت ٣٦٢هـ انظر السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ ، والذهبي : العبر ... ، ج ٢ ، ص ١١٣ .
(٢) أبو العباس الأصم هو : أحد العلماء المشهورين ، ت٣٤٦ هـ ، انظر: السمعاني : الأنساب : ج١ ، ص١٧٩.
(٣) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ .
(٤) المصدر نفسه : ج٥ ، ص ٢٧٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .
(٦) معجم الأدباء : ج ١٨ ، ص ١٨٧ .
(٧) الأزهري : تهذيب اللغة ، ج ١ ، ص ٢٤ .
(٨) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٥٩٢ .
(٩) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ١٢ ، ص ٤٥٤ ، وقد سكن العالم المذكور استراباذ وجرجان وأكثر مقامه كان بجرجان وأصله من همذان ، ت باستراباذ عام ٤١٥هـ .

على أية حال فقد حرص أهل العلم على كتابة هذه الأمالي وامتلاكها حتى أن بعض مريدي العلم لازموا العلماء لأجل كتابة أماليهم ، ومن ذلك أن أبا الفضل المنذري[١] لازم أبا الهيثم الرازي[٢] سنين حتى كتب عنه أماليه وفوائد كثيرة أكثر من مئتي مجلد[٣] .

هذا وقد برع علماء بلدان المشرق في إلقاء الأمالي حتى أن بعضهم كان يملي من خاطره بدون النظر في الكتب ، ومن هؤلاء : أبو البركات محمد بن الموفق الخبوشاني[٤] الذي أملى كتابه المحيط في شرح الوسيط من حفظه وذلك بعدما فقد أصل كتابه[٥] .

وعلى الجانب الآخر فقد حرص بعضهم على أن تكون الأمالي من أصول الكتب كما فعل أبو عبد الله محمد بن الحسين الطيفوري الذي أملى من أصل كتابه بجرجان[٦] . وكان بعضهم يملي بالكتاب في أكثر من مكان أو أكثر من بلده مما يكفل للكتاب المزيد من الشيوع والانتشار ، ويكفل للكثير من أهل العلم الإطلاع عليه وامتلاكه ، بنسخه من خلال مجالس الآمالي ، ومن ذلك أن أبا تراب أملى بهراة أجزاء من كتاب الاعتقاب ، ثم عاد إلى نيسابور وأملى بها باقي الكتاب[٧] ، وقد كفل ذلك للكتاب أن يظهر بكل من هراة ونيسابور . ومن الأمور الجديرة بالذكر والملاحظة أن بعض العلماء كان يحدد تاريخ بدء ما يمليه من العلم ومن أمثلتنا على ذلك ما ذكره إمام الدين أبو القاسم القزويني الرافعي[٨] إذ قال مشيراً إلى كتابه شرح المسند : ... ابتدأت في إملائه في رجب سنة ٦١٢هـ [٩] .

كما حرص بعض العلماء على ذكر الوقت الذي استغرقه إملاء كتاب ما ، وكثيراً ما كان يستغرق الإملاء الوقت الكثير ، فيشير الزمخشري إلى أنه استمر في إملاء كتابه " الكشف عن حقائق التنزيل " مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه " مما يعني أن إملاء الكتاب استمر قرابة العامين[١٠] ، ويرى الزمخشري أنه كان مقدراً له أن يتم إملائه في أكثر من ثلاثين سنة ، وبهذا يكون قد تم إملائه في وقت قياسي ، ومن الأمور الجديرة بالتقدير أنه أملى الكتاب

(١) أبو الفضل المنذري : لغوي ونحوي ت ٣٢٩هـ ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ، ص ٩٩
(٢) أبو الهيثم الرازي: هو أحد النحويين والأدباء والحفاظ، لم يكن ضنيناً بعلمه وأدبه، أنظر ابن القفطي: أنباه الرواه ج ٤، ص ١٨٨ .
(٣) انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٨ ، ص ٩٩ ، وابن القفطي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٨٨ .
(٤) ولد الخبوشاني ٥١٠هـ ، ت ٥٨٧ هـ ، والخبوشاني نسبة إلى خبوشان وهي بلدة بناحية نيسابور ، انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ، ص ٢٤٠ .
(٥) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ٢٣٩
(٦) أنظر السهمي : تاريخ جرجان ، ج ١٠ ، ص ٣٧٥ .
(٧) انظر الأزهري : تهذيب اللغة ، ج ١ ، ص ٢٦ ، وانظر أيضا ابن القفطي : أنباه الرواه ، ج ٤ ، ص ١٠٣، وأبو تراب هو أحد علماء اللغة ، انظر المصدر نفسه ، ص ١٠٢ .
(٨) أبو القاسم القزويني أحد علماء الحديث ، كان إماماً في الفقه والتفسير والحديث والأصول ، ملماً بالآداب ، توفي بقزوين ٦٢٤هـ ، انظر ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٣٩٣ وما بعدها .
(٩) المصدر نفسه : ص ٣٩٥ .
(١٠) انظر الزمخشري : الكشاف ... ، ج ١ ، ص

بناءً على طلب بعض أهل العلم ، ونزولاً على إلحاح شديد لاحتياجهم إلى مصنف في هذا العلم وقد عبر الزمخشري عن ذلك فقال مشيراً إلى هؤلاء العلماء " ... واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم " الكشف عن حقائق التنزيل " ، وقد اعتذر لهم إلا أنهم ألحوا عليه(١) .

وهناك من العلماء من كانت مجالس علمه أمالي ، من هؤلاء أبي عبد الله محمد بن الحسين بن إبراهيم الفارسي الاسترابادي (ت ٣٨٦هـ) ، الذي كان له مجلس إملاء من سنة تسع وسبعين إلى أن توفي أي من ٣٧٩هـ على ٣٨٦ هـ(٢) .

وكثيراً ما كان يذكر العالم دواعي وأسباب إملائه ، لذك الكتاب أو لذلك العلم ، كما فعل أبن حبان في مقدمة كتابه مشاهير الأمصار(٣) .

ومن المظاهر التي تسترعى الانتباه في مجالس الأمالي ، ظهور ما عرف بالمستملي والذي كان ظهوره إفرازاً وإرهاصا لهذه الأعداد الهائلة من الجموع التي كانت تحضر مجالس الأمالي، وترتكز مهمة المستملي على ترديد ما يذكره العالم حتى يسمعه الحاضرون خاصة،وهذه الأعداد الهائلة من الحضور .

وقد اختص بعض العلماء ببعض المستملين الذين لوحظ عليهم إلماما بالكثير من فروع العلم والمعرفة المختلفة ، فكان أبو بكر محمد بن أبان المستملي البلخي من حفاظ الحديث بخراسان ، وكان يستملي على وكيع بن الجراح ، وكان له تصانيف ت ٢٤٥هـ (٤).

كما كان أبو العباس محمد بن محمد المعروف بالخطيب (ت ٣٦٠هـ) مستملياً للشيخ أبي بكر الإسماعيلي(٥) في أماليه(٦) وكان أبو إسحاق المستملي البلخي (ت ٣٧٦هـ) مستملياً على أبي بكر عبد الله بن محمد الطرخاني الحافظ ، وكان أبو إسحاق المذكور عالماً عارفاً بأحاديث أهل بلخ ومشايخهم ، وتواريخهم ، كما كان راوية .(٧)

وكان زاهر بن طاهر المعروف بأبي القاسم الشحامي النيسابوري (ت ٥٣٣هـ) مستمليا وكان من علماء الحديث ، رحل في طلبه ، وقد سبق وأشرنا إلى أنه أملى ألف مجلس(٨) ، وكان

---

(١) انظر: الزمخشري : الكشاف ، ج ١ ، المقدمة .
(٢) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ١١ ، ص ٤٠٨ .
(٣) انظر : ابن حبان : مشاهير الأمصار ج ١ ، ص .
(٤) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٨٧ .
(٥) أبو بكر الإسماعيلي : هو أحد علماء بلدان المشرق البارزين ، من الحفاظ والرحالة الجوالين طلبا للعلم ، ينسب إلى جرجان ، ت ٣٧١هـ ، انظر السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧١ .
(٦) انظر: السهمي : المصدر نفسه ، ج ١١ ، ص ٣٨٥ .
(٧) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ٢٨٧ .
(٨) انظر: الذهبي : العبر ... ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ . وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٥ .

أبو بكر العطار (ت ٤٦٦هـ) مستملياً للحافظ أبي نعيم ، وكان هو نفسه من الحفاظ[(١)] وكان أحمد بن المبارك أبو عمر المستملي النيسابوري (ت ٢٨٤هـ) من أهل العلم ، استملى على المشايخ ستاً وخمسين سنة[(٢)] . وقد كان من الضروري ألا تخلو مجالس الأمالي من المستملي ، خاصة وعظم حجمها ، وفي حالة غياب أحد المستملين ، كان لابد وأن يخلف مكانه من يقوم مقامه ، حتى أن أبا عمرو المستملي كان يقول أبو بكر الثعالبي[(٣)] خليفتي في الاستملاء ، يستملي على الشيوخ حتى أجئ أنا[(٤)].

هذا وقد شهدت بعض المجالس وجود أكثر من مستملي ، ومن هذه المجالس ، مجلس أبي إسحاق إسماعيل بن سعيد الكسائي ، الذي كان في مجلسه أكثر من مستملي[(٥)] .

وعلى أية حال فقد حرص أهل العلم على عقد مجالس الإملاء لضمان نشر علومهم ومؤلفاتهم لذوي الحاجة إليها ، فكان بعضهم كلما حل بمكان عقد مجلس الإملاء أو عقد له ، ومن هؤلاء السمعاني الذي عقد له مجلس الإملاء بسمرقند ، وقد أقر بهذا الأمر في أكثر من موضع من مؤلفه الأنساب[(٦)] .

(٨) السماع ودوره في إثراء المكتبات :

كان السماع ـ وعلى ما يبدو لنا ـ من العوامل التي ساعدت على إثراء خزائن الكتب بالكتب والمؤلفات الموثوق بها ، ذلك أن السماع هو إملاء الشيخ من حفظه ، أو من كتاب على الحاضرين ، وللسامع أن يروي ما سمعه من لفظ الشيخ[(٧)] ، ويبدو لنا أيضاً أنه أبيح للسامع كتابة ما سمع أو نسخه ، فقد كان أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري[(٨)] يقول : " صنفت المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعه "[(٩)] وكذلك يشير السمعاني إلى أن جده الإمام أبا المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت ٤٨٩هـ) : " جمع الأحاديث الألف الحسان في مسموعاته عن مائة شيخ له عن كل شيخ عشرة أحاديث "[(١٠)] ، كما أشار إلى

---

(١) انظر الذهبي : العبر : ج ٢ ، ص ٣٢٠ .
(٢) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٧٧ .
(٣) أبو بكر الثعالبي : هو أحد أهل العلم .
(٤) السمعاني : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٥٧٢ .
(٥) السهمي : تاريخ جرجان ، ج ١٣ ، ص ٤٧١ .
(٦) انظر السمعاني : الأنساب ، ج٥ ، ص ١٩ ، وج٥ ، ص ٥٨٢ .
(٧) د.ناصر محمد عبد الرحمن: الاتصال العلمي في التراث الإسلامي ، دار غريب للطباعة ، ١٩٩٤م ص ١٩١
(٨) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري هو : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، أحد علماء الحديث ، وهو صاحب كتاب صحيح مسلم ، ت ٢٦١هـ ، انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٩٤ وما بعدها .
(٩) السمعاني : الأنساب ، ج ٤ ، ص ٥٠٣ .
(١٠) المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

أنه سمع من الأديب الصالحاني (ت ٥٣١هـ) أجزاء بأصبهان وكتب عنه من شعره[١] هذا مما يعكس لنا وجود ارتباط ما بين السماع وبين الكتابة والنسخ ، أو التأليف أو حتى الرواية.

ومما يدعم هذا الأمر أنه كان لأبي سعد أحمد بن محمد الخليل بن حفص الماليني الهروي ، كثير من الكتب كانت كلها سماع من الإمام أبي بكر الإسماعيلي ، ومن غيره ، وقد تركها كلها وديعة عند السهمي صاحب كتاب تاريخ جرجان، وذلك عندما خرج من جرجان عام ٤٠٧هـ[٢]

كما كان لأبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن الحسين الماسرجس (ت ٣٧٨هـ) سماعات كثيرة عن أبي حامد الشرقي ، ومكي بن عبدان[٣] ، ورحل أبو بكر بن المرزبان إلى عبد بن حميد الكشي مع ابني عمه حيث قرأ عليهم وسمعوا منه كتابا التفسير والمسند من أولهما إلى آخرهما في فترة استغرقت أربعة أشهر ، وقد فرغوا من السماع في شهر ربيع الآخر سنة ٢٢٩ هـ[٤] . وقد كفل لهم ذلك السماع كتابة هذه المؤلفات وروايتها أيضاً ، مما كفل لها مزيداً من الانتشار وأتاح فرصة نسخها والاحتفاظ بها لبعض الراغبين فيها ، كما ساهم السماع في خروج بعض الكتب إلى حيز الوجود من ذلك أن أبا بكر الإسماعيلي كان قد خص حفيده أبا العباس بن مرداس الفقيه العالم بسماع كتاب تفسير شبل ولم يقرأ لأحد بعده[٥] ، وقد كفل ذلك خروج هذا الكتاب إلى حيز الوجود ، وحق له بطبيعة الحال رواية الكتاب بعد نسخه .

وقد أقر الأزهري صاحب كتاب تهذيب اللغة أن كتابه هذا نتاج سماعات أو روايات عن ثقة فقال : " ولم أودع كتابي هذا من كلام العرب إلا ما صح لي سماعاً منهم أو رواية عن ثقة أو حكاية عن خط ذي معرفة ثاقبة "[٦] .

مما يؤكد ما نرنو إليه من أن السماع لعب دوراً ملموساً في إثراء دور وخزائن كتب بلدان المشرق ، ببعض الكتب والمؤلفات .

ولقد كان من الأهمية التأكد من صحة السماع ، لأن ذلك كان يكفل تداول كتب تتسم بالصحة والبعد عن التصحيف[٧] ، وهو ما عرضنا له تفصيلاً في إطار العرض لسمات دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي .

وقد تتضح أهمية السماع ، ودوره في إثراء خزائن الكتب ، إذا ما علمنا بوجود علاقة ما بين النسخ والسماع ، فقد كان بعض المستعمين يعمدون إلى نسخ ما يسمعون — هذا وإن لاقت

---

(١) السمعاني : الأنساب ، ج ٣ ، ص ٥٠٩ .
(٢) انظر: السهمي : تاريخ جرجان ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، وما بعدها .
(٣) السمعاني : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٧٠ وما بعدها .
(٤) المصدر نفسه : ج ٥ ، ص ١٥٥ ، وما بعدها .
(٥) انظر: السهمي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٨٥ .
(٦) الأزهري : تهذيب اللغة ، ج ١ ، ص ٤٠ .
(٧) التصحيف: صحف الكلمة ، أخطأ في قراءتها وروايتها في الصحيفة ، أو حرفها عن وضعها ، انظر المنجد ، ص ٤١٧

هذه الظاهرة عدم القبول من بعض أهل العلم ـ إلا أن الكثير من أهل العلم أجازوا عملية النسخ والكتابة أثناء السماع[١] .

(٩) إهداء الكتب والتأليف للغير ودورهما في إثراء المكتبات :

شهدت بلدان المشرق الإسلامي ظاهرة ثقافية ساهمت ـ وعلى ما يبدو لنا بشكل أو بآخر ـ في إثراء عالم المكتبات ببلدان المشرق الإسلامي ، وهذه الظاهرة هي عملية تأليف وإهداء الكتب للغير ، وقد سبق وأشرنا في الفصل الأول إلى مدى اهتمام الحكام والوزراء بأهل العلم ، حتى اختصهم بعض العلماء بكتبهم ومؤلفاتهم ، ويبدو أن هذه الظاهرة انعكست آثارها على العامة من الناس ، والعامة من أهل العلم والمعرفة .

فقد كان لأبي عامر الجرجاني[٢] مؤلفات ومصنفات باسم أحد شيوخ غزنة ، قام بتأليفها له وإهداءها إليه ، فلاشك أن خزانته أثريت بمثل هذه المؤلفات ، كما ألف عمر بن محمد النسفي الحافظ[٣] كتاباً لأبي هارون موسى بن عبد الله بن إبراهيم ... الأغماتي الذي جاء من بلاد المغرب طلباً للعلم في سمرقند سماه " عجالة النخشبي لضيفة المغربي "[٤] ، وألف أبو الفتح بن الأشرس النحوي النيسابوري[٥] كتاباً لابن الأجل أبي الخطاب ، صاحب بهاء الدولة [٦] ،وأهدى الثعالبي كتاب غرر ملوك الفرس لصاحب الجيش[٧].

وصنف ابن دريد[٨] كتاب الجمهرة في اللغة للأمير أبي العباس إسماعيل بن عبد الله بن ميكال[٩] .

---

(١) وللمزيد من المعلومات حول ما أثير من خلاف حول عملية النسخ والكتابة أثناء السماع ، انظر الخطيب البغدادي : كتاب الكفاية في علم الرواية ، ط ١ ، مطبعة السعادة ، د.ت ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢) أبو عامر الجرجاني : أديب فاضل ، عرف بحسن الخط وصحة الضبط ، ويبدو أنه كان من أبناء القرن الرابع الهجري ، حيث كان أحد أصحاب عبد القاهر الجرجاني . أنظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ١٩٢ وما بعدها .

(٣) عمر بن محمد النسفي الحافظ ، أحد علماء بلدان المشرق ينسب إلى نسف وهي نخشب بما وراء النهر ، وهو من أبناء القرن السادس الهجري ، أشار السمعاني إلى أنه التقى بالأغماتي المغربي عام ٥١٦ في حين أشار ياقوت إلى هذا اللقاء في عام ٥٦١هـ ، وبينهما خلاف في هذا انظر السمعاني : الأنساب ، ج ١ ، ص ١٩٤ وما بعدها ، وانظر: ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٦ ، ص ٧٠ .

(٤) السمعاني : المصدر نفسه ، وياقوت الحموي : المصدر نفسه .

(٥) هو أبو الفتح بن الأشرس النحوي ، كان من أدباء وعلماء نيسابور ، عرف بحسن الخط ودقة الضبط والإتقان كان حياً عام ٤٠٠هـ ، أنظر ابن القفطي : أنباه الرواه .. ، ج ٤ ، ص ص ١٥٤ ـ ١٥٧ .

(٦) المصدر نفسه : ج ٤ ، ص ١٥٦ وما بعدها .

(٧) انظر الثعالبي: غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، مكتبة الأسدي ، طهران ١٩٦٣م ، ص ١ .

(٨) هو : محمد بن دريد بن عتاهية ، ولد بالبصرة ، وأقام بفارس مدة ، كان من أحفظ الناس وأوسعهم علماً ، وكان يقال : ابن دريد أشعر العلماء ، وأعلم الشعراء ، انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٨ ص ص ١٢٧ ، ١٣٧ وحول كتاب الجمهرة وإهدائه لأبي العباس انظر ابن دريد : جمهرة اللغة ، ج ١ ، ص ٢ ، ٣ .

(٩) الأمير إسماعيل بن عبد الله ميكال ، أحد أمراء البيت الميكالي في نيسابور ، وهو من أبناء القرن الرابع الهجري . أنظر : الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص .

وصنف عثمان بن جني[١] كتاب الخصائص لبهاء الدولة [٢] ، وصنف الميداني[٣] كتاب مجمع الأمثال لضياء الدولة ، وكان ذلك الأخير قد سأله أن يجمع له كتاباً في الأمثال[٤] وأهدى المقدسي كتابه أحسن التقاسيم إلى الوزير أبي الحسن على بن الحسن[٥] وأهدى ابن سينا الرسالة النيروزية لخزانة أحد الأمراء[٦] ، وألف عدة مؤلفات أهداها لأصحابه والمقربين إليه[٧].

وألف ابن مندويه الأصبهاني عدة رسائل طبية لبعض القائمين على علاج المرضى ببيمارستان أصبهان وبعض أهل العلم [٨] .

وصنف محمد بن عبد الله بن تاج الأصبهاني كتاباً سماه الرسائل إلى أبي الحسين محمد بن أحمد التقياني ت ٣١٠هـ [٩]، كما كتب أبو حيان التوحيدي كتاب المحاضرات للدلجي ، بشيراز[١٠]. وقد ذكر الخطيب البغدادي ما يشير إلى شيوع ظاهرة إهداء الكتب . [١١]

والواقع أن الأمثلة على تأليف الكتب وإهداءها للغير كثيرة ، مما لا يتسع معه المجال لذكرها ، وأهم ما يعنينا هو ما ساهمت به هذه الظاهرة في إثراء دور خزائن كتب من أهديت إليهم هذه المؤلفات .

(١٠) بعض العوامل الأخرى :

لم تكن هذه هي فقط العوامل التي ساعدت على إثراء دور وخزائن الكتب ببلدان المشرق الإسلامي ، بل إن هناك عوامل أخرى عرضنا لها ضمناً ، أثناء الدراسة ، كان أبرزها اهتمام وتشجيع أهل الحكم والرياسة ، بأهل العلم من العلماء والأدباء وغيرهم ، وعشقهم للكتب والمؤلفات ، ثم انتشار مؤسسات الخير التي حوت بين جنباتها دور وخزائن للكتب ، كالمساجد والمدارس والرباطات والمراصد وغيرها مما سبق وعرضنا لها ، أضف إلى هذا شيوع ظاهرة وقف الكتب وسعي كل أهل العلم والمعرفة على وقف مؤلفاتهم أو كتبهم على دور وخزائن الكتب.

---

(١) ابن جني هو: أبو الفتح عثمان بن جني، من أحد الأدباء النحويين المشهود لهم ، ولد ٣٣٠هـ ، وت ٣٩٢هـ ، وكان من كتاب الإنشاء أيام عضد الدولة وبعدها، انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٨١ - ٩١

(٢) حول إهداء هذا الكتاب انظر ابن جني : كتاب الخصائص ، ج ١ ، ص ١ .

(٣) الميداني هو : أبو الفضل أحمد ابن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري هو أحد الأدباء المشهود لهم ت ٥١٨ هـ بنيسابور ، انظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٥، وما بعدها وانظر أيضاً ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ، ص ١٤٨ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، ابن العماد شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٥٨ .

(٤) انظر الميداني : مجمع الأمثال ، ج ١ ص ٢٧ وما بعدها .

(٥) انظر المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٦٦ .

(٦) ابن سينا : الرسالة النيروزية ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم ٧٤٤٤ ، الورقة الأولى.

(٧) انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ ، ص ٤١٩ ، وانظر خواندمير : دستور الوزراء ص ٢٢٩

(٨) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ... ص ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣

(٩) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٤١ .

(١٠) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ١٤ .

(١١) انظر : تقييد العلم ، ص ١٣٢ ، وما بعدها .

ومما سبق نخلص إلى أن دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي اتسمت ببعض السمات ، كان منها اقتناء أصول الكتب وأحسنها وأفضلها من حيث حسن الخط وصحة الضبط وحسن التجليد والتذهيب ، ثم التنوع والكثرة ، حتى إنه ليمكننا القول بأن خزائن كتب بلدان المشرق كانت خزائن موسوعية اشتملت على كل علم وفن ، أضف إلى هذا غلبة الميول والاتجاهات والمذاهب على طبيعة كل خزانة ، ثم هذا التنظيم الفني والإداري الرائع الذي لعب دوره في تسهيل الحصول على الكتب والمؤلفات ، ولن نجافي الحقيقة إذا ما قلنا أن خزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي ، فاقت دور وخزائن كتب هذا العصر ، هذا مع وضع الفارق الزمني ومعطيات كل عصر في الاعتبار .

وقد لوحظ على هذه السمات أنها لم تكن قصراً على نوع من هذه الخزائن دون الأخرى ، بل كانت هذه السمات عاملاً مشتركاً ما بين خزائن كتب الحكام والوزراء ، وخزائن الكتب العامة والخاصة ، كل على حد سواء .

وقد لوحظ على عوامل إثراء المكتبات التي عرضنا لها أموراً منها شيوع هذه العوامل وانتشارها في شتى أنحاء بلدان المشرق ، كما لوحظ أيضاً أن هذه العوامل لم تكن لتترك أثرها على نوع من خزائن الكتب دون الأخرى ، بل امتد أثرها ليشمل كافة دور وخزائن كتب بلدان المشرق ، حتى وكأني ببلدان المشرق وقد أصبحت داراً هائلة للكتب .

*****

الخاتمة

(الخاتمـــة)

مما سبق يتضح لنا أن دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي كانت إحدى المؤسسات التعليمية والثقافية التي ساهمت وبشكل فعال في إثراء الحياة العلمية والثقافية وفي التكوين العلمي والثقافي لأجيال من العلماء والأدباء والفقهاء، الذين تفخر بهم حضارتنا الإسلامية، ممن عرضنا لهم خلال هذه الدراسة ، ويمكننا بعد هذا العرض السابق الخروج بعدة نتائج منها :

أولاً : أن ظهور خزائن الكتب بشكلها المعروف جاء استجابة وتلبية لبعض الظروف ، كان في مقدمتها ذلك الأمر الإلهي بالدعوة للقراءة والعلم والذي أرتبط بظهور الإسلام ، ثم حركة الفتوحات الإسلامية التي أتاحت للمسلمين التعرف على تراث الأمم السابقة ونقله، ثم حركة الترجمة التي تبعت حركة الفتوحات الإسلامية ، والتي مهدت بدورها لدخول بعض العناصر التي نقلت لنا خلاصة فكر وثقافة الحضارات السابقة .

ثانياً : أنه كان لحكام ووزراء بلدان المشرق الإسلامي دور بارز وفعال في إثراء عالم الكتب والمكتبات خاصة ، واهتمامهم بأهل العلوم والمعارف ، والآداب ، ثم سعيهم لإنشاء وامتلاك دور وخزائن للكتب ، كانت ولا شك مثالاً يحتذى لكل من تردد على هذه الخزائن من العلماء والأدباء والفقهاء وغيرهم . خاصة أن هذه الخزائن كانت تخضع لتنظيم فني وإداري رائع ، من حيث الفهرسة والتصنيف والهيئة العاملة بداخلها .

ثالثا : أنه وعلى الرغم من خصوصية خزائن كتب أهل الكحم والرياسة ، إلا إنها كانت ملتقى للكثير من العلماء والأدباء ، مما كانوا على صلة مباشرة بأهل الحكم والرياسة .

رابعاً: اتضح لنا أيضا مما سبق ذيوع وانتشار خزائن الكتب العامة في أنحاء بلدان المشرق الإسلامي ، كما لاحظنا إلى أي مدى ساهمت خزائن الكتب العامة والملحقة في تكوين الجانب التعليمي والثقافي للعلماء والأدباء وغيرهم .

خامساً: اتضح لنا أيضاً أن ظاهرة وقف الكتب والمكتبات لعبت دوراً هائلاً وبارزاً في إثراء عالم الكتب والمكتبات .

سادساً: أتضح أيضاً أن خزائن الكتب الخاصة لم تقف بمنأى عن ذلك الدور الفعال الذي لعبته خزائن الكتب العامة ، فساهمت هي الأخرى في تشكيل وبلورة النواحي التعليمية والثقافية ببلدان المشرق الإسلامي ، خاصة وأن كثير من هذه الخزائن فتحت أبوابها للمقربين من أهل العلم والثقافة ، كما شهدت أيضاً بعض مظاهر النشاط العلمي والثقافي والتي جاء في مقدمتها نسخ الكتب .

سابعاً: أن دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي ــ بكافة أنواعها ــ خضعت لتنظيم فني وإداري عال ورفيع المستوى من حيث الفهرسة والتصنيف ، واختيار هيئة عامله على قدر عال من العلم والثقافة ، وقد تساوى في ذلك خزائن كتب الحكام والوزراء ، ودور وخزائن الكتب العامة ، وخزائن الكتب الخاصة ، هذا وإن روعيت الدقة في خزائن كتب الحكام والوزراء .

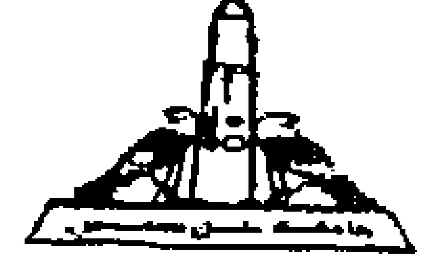
ثامناً: كشفت لنا هذه الدراسة عن الآثار السلبية لبعض حوادث الكتب والمكتبات ، والتي كانت ناجمة عن الصراعات السياسية والمذهبية ، أو الناجمة عن حوادث سرقة الكتب وحرقها وغرقها ، وتلك الناجمة عن تدهور الأحوال الاقتصادية والثقافية .

تاسعاً: أبرزت لنا هذه الدراسة السمات العامة ، التي اتسمت بها دور وخزائن الكتب ، ببلدان المشرق الإسلامي ، وذلك ببعض السمات العامة التي عكست لنا دقة متناهية في اختيار كتب أية خزانة ، كما عكست تميزاً وتفرداً في طبيعة خزائن كتب بلدان المشرق ، خاصة واحتوائها على كتب اتسمت بالصحة والجودة من حيث الخط الحسن ، والتجليد والتذهيب الجيد .

عاشراً:أتضح أيضاً أن ذلك التميز ، وذلك الثراء الذي اتسمت به دور وخزائن الكتب ببلدان المشرق الإسلامي لم يكن نابعاً من فراغ ، بل هو نتاج لمجموعة من العوامل الهامة ، كان منها ذيوع وانتشار الرحلات العلمية ، وانتشار النسخ والكتابة ، وتوافر الورق الجيد وازدياد أعداد الوراقين ، وكثرة مجالس الأمالي والسماع ، وشيوع ظاهرة إهداء الكتب ، هذا إلى جانب ما سبق وأشرنا إليه من اهتمامات أهل الحكم والرياسة وغيرها.

وأخيراً فإنه نظراً للدور الحضاري الهام الذي لعبته دور وخزائن كتب بلدان المشرق الإسلامي في الحضارة الإسلامية ، فإننا نوصي بضرورة التركيز على الجوانب التاريخية من تاريخ المكتبات ، خاصة في أقسام الوثائق والمكتبات والكليات المختلفة ، والتي تهتم في المقام الأول بالتنظيم الفني والإداري للمكتبات ، مغفلة الجوانب التاريخية ، والتي تعتبر علامات مضيئة على طريق دراسة علوم المكتبات .

*****



كلية البنات
قسم التاريخ

(ملخص الرسالة باللغة العربية)

هالة شاكر عبد الرحمن : دور وخزائن الكتب في المشرق الإسلامي (إيران ، خراسان ، وما وراء النهر) منذ عصر المأمون وحتى القرن السابع الهجري ، دكتوراه جامعة عين شمس كلية البنات ، قسم التاريخ ، **إشراف الأستاذة الدكتورة / سيدة اسماعيل كاشف** ــ أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي والوسيط بكلية البنات ، جامعة عين شمس .

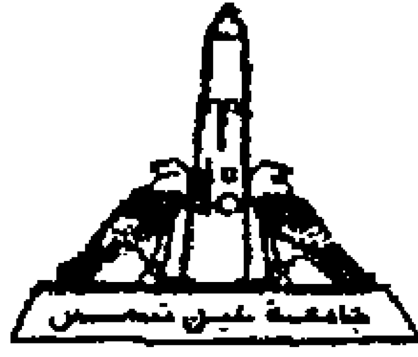
يهدف هذا البحث إلى توضيح ذلك الدور الحضاري ، الذي لعبته دور وخزائن الكتب في تشكيل وبلورة الحياة العلمية والثقافية ببلدان المشرق الإسلامي (إيران ، خراسان ، وما وراء النهر) على وجه الخصوص ، والحضارة الإسلامية بصفة عامة .

فقد أبدى أبناء بلدان المشرق اهتماماً فائقاً بالعلم وأهله ، فسعى الحكام والوزراء وأولو الأمر إلى تشجيع العلماء وتقريبهم ، ومنحهم الأموال والأعطيات ، وسعى العلماء بدورهم إلى البحث والتنقيب ، وتأليف الكتب والمؤلفات، وكان من جراء ذلك أن بدأت دور وخزائن الكتب في الشيوع والانتشار في شتى أنحاء بلدان المشرق الإسلامي .

فظهرت دور الكتب العامة وخزائن الكتب التي فتحت أبوابها للعامة والخاصة من الناس، ما بين قارئ ومطلع ومستعير وناسخ ، ولم تكتف هذه المؤسسات العلمية بذلك ، بل منحت الكثير من المترددين عليها فرصة الاستعارة لأعداد هائلة من الكتب والمؤلفات لأوقات طويلة، كما سعت إلى توفير أدوات النسخ والكتابة من أقلام وأحبار وأوراق للمترددين عليها .

ويبدو لنا أن هناك الكثير من العوامل ساهمت وبشكل مباشر في إثراء دور وخزائن الكتب ببلدان المشرق ، ومن هذه العوامل ذيوع وانتشار ظاهرة وقف الكتب والمكتبات ، وكثرة الرحلات العلمية ، ونقل الكتب من مكان إلى آخر ، وانتشار النسخ والكتابة ، وتوفر الورق وأدوات الكتابة، وكثرة انتشار الوراقين ، وكثرة التأليف، وشيوع إهداء الكتب، ورعاية الحكام والوزراء للعلم وأهله ، وحرص العامة والخاصة من الناس على اقتناء الكتب والمؤلفات .

كما أتضح لنا أن هناك بعض السمات والمميزات التي اتسمت بها دور وخزائن الكتب في بلدان المشرق الإسلامي ، وكان منها الحرص على اقتناء أصول الكتب ، والحرص على اقتناء كتب حسنة الخط ، جيدة التجليد والتذهيب ، صحيحة الضبط والشكل ، أضف إلى هذا كثرة التنوع ، وغلبة الميول والاتجاهات عليها ، هذا فضلاً عن التنظيم الفني والإداري الرائع الذي اتسمت به هذه المؤسسات ، والذي بدا جلياً في نظم التصنيف والفهرسة والاستعارة ، وفي اختيار القائمين بالعمل والإشراف عليها ، إذ كان معظمهم من صفوة أهل العلم ، وقد ساهم ذلك بدوره في إثراء الحياة العلمية والثقافية ببلدان المشرق الإسلامي .



Ain Shams University
Faculty of women

Summary

HALA SHAKER ABD AL RAHMAN : Book houses and libraries in the eastern Islamic countries (IRAN, KHURASAN,& Lands behind Amudarya), since Alma amoun's Era till the 7 th (H) century for Doctor degree in the islamic history, supervised by prof., **Doctor, SAYEDA ISMAIL KASHEF**, chair professor of Islamic and medieval history, Ain shams uni., Women's collage (Faculty of Girls) history department.

The main purpose of this paper is explaining the cultural role, that book houses and libraries played in the eastern islamic, countries (Iran, Khurasan, and Iands behind Amudarya), and in the Islamic civilization .

The easterns Paid a great interest with sciences and scientists , rulers, of the east and their minsters encouraged the scientists to research and write in every subject.

As a result of that, the numbers of books increased, book houses and libraries, spread every where, Alot kinds of libraries appeard, such as, public libraries, Mosques' libraries, schools' libraries, and private libraries.

Those libraries were opend for all kinds of people, they supplyed them with books , paper and writing materials, they were also centers for studying , learning, copying binding and discussing.

Many factors played an actire role in increasing and fenriching those libraries, such as Al (Waqf) system, scientific journeys, books' transporting, the spread of copying, writing, the appearance of paper makers (Al waraqun) and the spread of book gifting.

Those libraties included the orginal copys of books, They included the books which were written in a perfect way, they were classified., They had many bibliographies and indexes, they had alos a hihg standard system of borrowin.

They were administrated by groups of known literates and scientists.

الملاحـــق

ملحـــق (١)

رسالة أبي محمد عبد الله بن أحمد الخازن إلى أبي بكر الخوارزمي(١) : وجاء في الرسالة:

" ... كتابي أطال الله بقاء الأستاذ سيدي ومولاي من الحضرة التي نرحل عنها اختياراً ، ونرجع إليها أضطراراً ، ونسير عن أفيائها إذا أبطرتنا النعمة ، ثم نعود إلى أرجائها إذا أدبتنا الغربة ، ومن لم تهذبه الإقالة ، هذبه العثار ، ومن لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار ، وما الشأن في هذا ولكن الشأن في عشر سنين ، فاتت بين علم ينسى وغم لا يحصى ، إنفاق بلا إرتفاق ، وأسفار لم تسفر عن طائل ، ولم تغن عن ريش طائر ، وبعد عن الوطن على غير بلوغ الوطر ، ورجعت يشهد الله صفر اليدين ... أتلو " والعصر إن الإنسان لفي خسر " ، وأنا بين الرجاء في أن أقال العثار ، والخوف من أن يقال زأر الليث فلا قرار ، إلا أني كنت قدمت تطهير نفسي فلججت حتى حججت ، وعدت بغبار الإحرام وبركة الشهر الحرام ، وحين خيمت بأصبهان أنهى سيدنا الأستاذ الفاضل أبو العباس ـــ ادام الله تمكينه ـــ خبرى إلى الحضرة العالية ـــ حرس الله بهاءها وسناءها ، والناس ينظرون هل أقبل فيتلقوني بأكبر الرتب ، أم أسخط فيتحاموني كالبعير الأجرب ، فورد توقيع مولانا الصاحب الجليل كافي الكفاة ـــ أدام الله مدته وكبت أعداءه وحسدته بعالي خطه وقد نسخته على لفظه ، ليعلم مولانا الأستاذ ـــ أدام الله عزه ـــ أن الكرم صاحبي لا برمكي وعبادي لا حاتمي .

... وعدنا للقرب في المجلس وكرم اللقاء في المشهد ... وأقبلنا على العلم وصافحنا يد النثر والنظم ، وراجع الطبع شيئاً كان يدعى الشعر ، ... وشوقي إلى سيدي الأستاذ الشوق الذي كنت أصلي بناره ، وأرى إزاء داره ، ولم استطع في التقريب أكثر من أن خرجت عن الموصل إلى جرجان وشارفت أدني خراسان ، ولله اللطائف التي تخلصتني من الموصل ، فإني كنت في وقعة باد ، اباده الله ... وأنا أجري حديثاً وانتجز كتاباً جديداً ، فأما شعري فليس يروى إلا في ديوان باد منذ فارقت آل عباد ، وفجعت بكتبي جملة ، وضرب عليها أولئك اللصوص ضربة ... هذا ولو كنت عاملاً لكنت اليوم في مرموق الدرجات ، فقد وردت ورأيت جماعة لم أكن يومئذ دونها ، وقد صارت في منازل أحتاج إلى خافيه العقاب حتى الحق بها ... " .

---

(١) أورد الثعالبي نص هذه الرسالة في إطار ترجمته لأبي محمد عبد الله بن أحمد الخازن ، وبالرسالة إشارة لما كان من مفارقته لحضرة الصاحب بن عباد لمدة عشر سنوات ، وما كان من سرقة وضياع كتب أبي محمد عبد الله الخازن أثناء الرحلة التي قام بها ، بعدما عزله ابن عباد وأعفاه من خدمته . انظر نص الرسالة : الثعالبي يتيمة الدهر ، ج ٣ ، ص ص ٣٧٩ - ٣٨٢ .

ملحق رقم (٢)

علي بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب (ت ٤١٣هـ)[١]

قال ابن البواب : " كنت اتصرف في خزانة الكتب لبهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز على اختياري ، وأراعيها له وأمرها مردود إليّ ، فرأيت يوماً في جملة أجزاء منبوذة جزءاً مجلداً بأسود قدر السكرى ، ففتحته فإذا هو جزء من ثلاثين جزءاً من القرآن بخط أبي على بن مقلة ، فأعجبني وأفردته ، فلم أزل أظفر بجزء بعد جزء مختلط في جملة الكتب إلى أن اجتمع تسع وعشرين جزءاً ، وبقي جزء واحد ، استغرقت تفتيش الخزانة عليه مدة طويلة ، فلم أظفر به ، فعلمت أن المصحف ناقص ، فأفردته ودخلت إلى بهاء الدولة وقلت : يامولانا ، ههنا رجل يسأل حاجة قريبة لا كلفة فيها ، ... ومعه هدية ظريفة تصلح لمولانا ، قال : أي شئ هي ؟ قلت مصحف بخط أبي على بن مقلة ، فقال هاته وأنا أتقدم بما يريد ، فأحضرت الأجزاء ، فأخذ منها واحداً وقال: أذكر أنه كان في الخزانة ما يشبه هذا ، وقد ذهب عني ، قلت هو مصحفك وقصصت عليه القصة في طلبي له حتى جمعته إلا أنه ينقص جزءاً ، وقلت : هكذا يطرح مصحف بخط أبي على ، فقال لي: فتممه لي ، قلت : السمع والطاعة ، ولكن على شريطة أنك إذا أبصرت الجزء الناقص منه ، ولا تعرفه أن تعطيني خلعة ومائة دينار ، قال : افعل ، وأخذت المصحف من بين يديه وانصرفت إلى داري ، ودخلت الخزانة أقلب الكاغد العتيق وما يشابه كاغد المصحف ، وكان فيها من أنواع الكاغد السمرقندي الصيني العتيق كل ظريف عجيب .

فأخذت من الكاغد ما وافقني ، وكتبت الجزء وذهبته وعتقت ذهبه وخلعت جلداً من جزء من الأجزاء فجلدته بهِ، وجلدت الذي قلعت منه الجلد وعتقته، ونسى بهاء الدولة المصحف،ومضى على ذلك نحو السنة فلما كان ذات يوم جرى ذكر أبي على بن مقلة ، فقال لي: ما كتبت ذلك ؟ قلت بلى ، قال فأعطينيه ، فأحضر المصحف كاملاً فلم يزل يقلبه جزءاً جزءاً وهو لا يقف على الجزء الذي بخطي، ثم قال لي: أيما هو الجزء الذي بخطك ؟ قلت له : لا تعرفه فيصغر في عينك ، هذا مصحف كامل بخط أبي على بن مقلة ونكتم سرنا !! قال : أفعل . وتركه في ربعة عند رأسه ولم يعده إلى الخزانة وأقمت مطالباً بالخلعة والدنانير وهو يمطلني ويعدني ، فلما كان يوما قلت يامولانا : في الخزانة بياض صيني ، وعتيق مقطوع وصحيح ، فتعطيني المقطوع منه كله دون الصحيح بالخلعة والدنانير ، قال مر وخذه فمضيت ، وأخذت جميع ما كان فيها من ذلك النوع ، فكتبت فيه سنين " .

---

(١) النص مأخوذ عن ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج ١٥ ، ص ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

ملحق (٣)

رسالة أبي حيان التوحيدي للقاضي أبي سهل على بن محمد [1] :

قال ياقوت الحموي : ... وكان أبو حيان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلة جدواها وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته ، وكتب إليه القاضي أبو سهل على بن محمد يعذ له (أي يلومه) عن صنيعه ويعرفه قبح ما اعتمد في الفعل وشنيعه ، فكتب إليه أبو حيان يعتذر من ذلك :

" ... حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظني بمودتك وطول جفائك ... وأفاني كتابك غير محتسب ولا متوقع ... وشكرت الله تعالى على النعمة به عليّ وسألته المزيد من أمثاله الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق على والصبابة نحوي ما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمى إليك فيما كان من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء ، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك كأنك لم تقرأ قوله جل وعز: "كل شئ هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون "وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: "كل من عليها فان" وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشئ من الدنيا ، وإن كان شريف الجوهر ، كريم العنصر ... ثم إني أقول : إن كان ــ أيدك الله ــ قد نقب خفك ما سمعت ، فقد أدمى أظلي ما فعلت ، فليهن عليك ذلك فما انبريت له ولا اجترأت عليه حتى استخرت الله عز وجل فيه أياماً وليالي ، وحتى أوحى إلي في المنام ما بعث راقد العزم ... وحث على تنفيذ ما وقع في الروع ... وأنا أهون عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت أو بالعذر إن استوضحت ... إن العلم يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم ، كان العلم كلاً على العالم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً وصار في رقبة صاحبه غلاً ... ثم أعلم علمك الله الخير أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه ... وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة على لا لي ، ومما شحذ على ذلك ... فشق عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوي وغلطي ، إذا تصفحوها ، ويتراءون تقصي عيبي من أجلها ، فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ...؟ فجو ابي لك أن انتابني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بعد الممات .

وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد ولا ظهر لي من إنسان منهم حافظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهره والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخصر في الصحراء، وإلى

---

(١) في هذه الرسالة يوضح أبو حيان التوحيدي دواعي حرقه لكتبه ويشير إلى من أقتدي بهم في هذا الأمر . انظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج١٥ ، ص ص ١٦ - ٢٥ .

التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلي تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن للحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ... " .

وبعد قلي في أحراق هذه الكتب أسوة بأئمة، يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم ... منهم: أبو عمرو بن العلاء وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف ، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر.

وهذا داود الطائي ، وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادة ، ويقال له تاج الأمة ، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: نعم الدليل كنت والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول .

وهذا يوسف بن أسباط ، حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه وسد بابه ، فلما عوتب على ذلك قال : دلنا العلم في الأول، ثم كاد يضلنا في الثاني فهجرناه لوجه من وصلناه وكرهناه من أجل ما أردناه .

وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك ، وهذا سفيان الثوري : مزق ألف جزء وطيرها في الريح وقال : ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفاً .

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد : " قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل ، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار " ، وماذا أقول وسامعي يصدق أن زماناً أحوج مثلي إلى ما بلغك لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ... ، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فقليل والله تعالى شاف كاف و"إن احتجت إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس إلى أن تفي الأنفاس بعد الأنفاس، "وذلك من فضل الله علينا وعلي الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون " فلم تعنى عيني أيدك الله بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة المقابلة والتصحيح بالسواد والبياض...وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب،وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليها ، وهل المغرم بحبها إلا كمكاثير هما؟ هيهات الرحيل ..."[1].

(١) أورد ياقوت الحموي نص الرسالة كاملاً وأشار إلى أنها كتبت في حوالي الأربعمائة من الهجرة .

ملحق (٤)

رسالة رشيد الدين الوطواط إلى الحسن القطان [١]:

يقول ياقوت الحموي : " فظفرت برسائل الرشيد محمد بن محمد بن عبد الجليل القمري البلخي المعروف بالوطواط متضمنة لأجوبة يدل آخرها على إضراب القطان عن تهمته والإذعان بإبراء ساحته .

نسخة الرسالة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم : قرع سمعي من أفواه الواردين وألسنة الطارئين على خوارزم أن سيدنا ــ أدام الله فضله ــ كلما تفرغ من مهمات نفسه ووظائف درسه ، أقبل بمجامعه على آكل لحمي والإطناب في سبي وشتمي وينسبني إلى الإغارة على كتبه ، ويبالغ في هتك أستار الكرم وحجبه ، أهذا يليق بالفضل والمروة ؟ أو يجمل بالكرم والفتوة أن يفتري على أخيه المسلم بمثل هذا الكذب المقلق ، والبهتان المؤلم ، والله إذا نفخ في الصور يوم النشور ، وجمعت عباد الله في مواقف العرضات ، وتطايرت صحائف الأعمال إلى أربابها وسئلت كل نفس عما كسبت ، فمن مسئ يسحب على وجهه إلى النار ، ومن محسن يحمل على أعطاف الملائكة إلى الجنة ، لم يتعلق في ذلك المقام الهائل أحد بذيلي ، طالباً مني ملكاً غصبته ولا مالاً نهبته ، أو دماً سفكته ، أو ستراً هتكته ، أو شخصاً قتلته ، أو حقاً أبطلته .

وهأنذا قد آتاني الله من الوجه الحلال قريباً من ألف مجلد من الكتب النفيسة والدفاتر الفائقة والنسخ الشريفة ووقفت كلها على خزائن الكتب المبنية في بلاد الإسلام ــ عمرها الله ــ لينتفع المسلمون بها ، ومن كانت عقيدته هكذا كيف يستجيز من نفسه أن يغير على كتب إمام من شيوخ العلم ، أنفق جميع عمره حتى حصل أوراقاً يسيرة ، لو بيعت في الأسواق لما أحضر بثمنها مائدة لئيم ، الله الله / لا يفترين سيدنا ــ أدام الله فضله ــ فالافتراء بالكذب على مثلي ذنب يتعثر في أذياله يوم القيامة ، وليخافون الله الذي لا إله إلا هو ، وليتذكرن يوماً يثاب الصادق فيه على صدقه ويعاقب الكاذب على كذبه والسلام " .

فورد على الرشيد جواب عن هذه الرسالة يكون في نحو كراستين يغلظ له في القول ويصرح فيه بالسب والتهمة ، فكتب إليه الرشيد :

" بسم الله الرحمن الرحيم " ورد كتاب سيدنا ــ أطال الله بقاءه ــ ... مشتملاً من الإيذاء والإفحاش على كلمات ، بل على ظلمات ، لو أطفأ ــ أدام الله علوه ــ بعض لهيبه ، وسكن ثائرة غضبه ، ثم عاد

---

(١) يشير ياقوت الحموي أن الوطواط بعث بعدة رسائل إلى الحسن القطان ليبرىء نفسه من التهمة التي ألصقها به الحسن القطان إذ أتهم القطان الوطواط بسرقة كتبه ، انظر : نص الرسالة : معجم الأدباء : ج ٩ ، ص ص ٩٧ - ١٠٥ .

إليه متصفحاً لألفاظه ومعانيه ، متفحصاً عن مقاطعه ومبانيه ، لما ارتضى ذلك من دينه ، وعقله ولما استحسنه من كرم وفضله .

إلا أني أعذره فيما قال قصر كلامه أو طال لعلمي أنه أدام الله علوه ، مسلوب مغلوب ، جريح أسنة القهر ، طريح صدمات الدهر ، عضته أنياب النوائب ، وخدشته أظافر المصائب نهبت كتبه وأمواله وغصبت رحاله وأثقاله وطالب الثأر يقصد كل راحل وقارس وصاحب الضالة يتهم كل قائم وجالس ، ولقد علم سيدنا أدام الله علوه ــ أن واقعة مرو عمرها الله كانت واقعة عامة شملت كل جبهة وحافر وطبقت كل هائم وظافر ، وكان قد لحقت في ذلك الوقت بعسكر خوارزم شاه من طبقات الناس أوزاع وأخياف ، ومن حشرات الأرض أنواع وأصناف قصارى هممهم القتل والإغارة ، ومنتهى أربهم الإحراق والإبادة .

وأوباش مرو أيضاً كانوا يخرجون من مكامنهم في الليالي ويتعرضون لبيوت السادات والموالي ، فليس بمستبعد أن يكون قد ظفر بكتبه من أولئك الأقوام أحد لا يعرف شأنه ، ولا يعلم مكانه ، أما أنا فالله تعالى يعلم ــ وقد خاب من استشهده باطلاً ــ أني ما فتحت للإغارة بابه ، ولا نهبت كتابه ، بل ذهبت يوماً على مقتضى إشارته الكريمة لأحمل كتبه إلى المعسكر ، فلما دخلت داره الرفيعة ورأيت كتباً كثيرة فوق ما يحيط به عد ، أو يشمل عليه جد ، فقلت أنقل هذه أمر مشكل وحمل هذه خطب معضل ، فتركتها لحالتها في أماكنها وخليتها برمتها في معادنها، وخرجت كما دخلت خالى الحقائب فارغ الزكائب ، فإن كنت غصبت يوم وقعة مرو أو قبلها أو بعدها من كتبه ــ أدام الله علوه ــ كتاباً أو جزءاً أو دفتراً أو من سائر أمواله شيئاً صغر أو جل كثر أو قل ، أو رضيت أن يغصبه أحد من أتباعي والمنتمين إليّ ، أو عرفت غاصباً غصبه ، أو ناهباً نهبه ، فأخفيت ذلك عنه أو كتمته منه ، فأنا برئ من الله وهو برئ مني ، وإن كنت فعلت بنفسي شيئاً مما ذكرت أو رضيت أن يفعله أحد من المتعلقين بي ، أو عرفت فاعلاً فعله ، فعليّ لله أن أحج بيته المعظم المكرم راجلاً حافياً وعلى عاتقي الزاد والمراد عشر مرات ، وإن كنت فعلت شيئاً من ذلك ، أو رضيت أن يفعله أحد من المتعلقين بي أو عرفت فاعلاً فعله فكل مال ملكته يميني فهو في سبيل الله على مساكين الحرمين ، وإن كنت فعلت شيئاً من ذلك أو رضيت أن يفعله أحد من المتعلقين بي ، أو عرفت فاعلاً فعله فكل عبد ملكته أو أملكه حر وإن كنت فعلت شيئاً من ذلك أو رضيت أن يفعله أحد من المتعلقين بي أو عرفت فاعلاً فعله فكل امرأة تزوجتها أو أتزوجها فهي طالق مني ثلاث طلقات ، هذه الأيمان والنذور كتبتها ببناني ، وأجريتها على لساني لا خوفاً من غوائله ولا هرباً من حبائله ، فإن الصلح أمن أهله ، والإسلام جب ما قبله ، ولكن إظهاراً لخلو راحتي وبراءة ساحتى ، وشفقة عليه ــ أدام الله علوه ــ وصيانة لفاضل مثله لا مثيل له في أقطار الشرق والغرب

في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية
وما أدريك ما هيه نار حامية
سورة التكاثر ثمان آيات
بسم الله الرحمن الرحيم
ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف
تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم
اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن
يومئذ عن النعيم
سورة العصر ثلاث آيات
بسم الله الرحمن الرحيم
والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر
سورة الهمزة تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم
ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب
أن ماله أخلده كلا لينبذن في الحطمة وما أدريك
ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة
إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة
سورة الفيل خمس آيات
بسم الله الرحمن الرحيم
ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم
في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من
سجيل فجعلهم كعصف مأكول
سورة قريش أربع آيات
بسم الله الرحمن الرحيم
لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف

(صحيفتان من مصحف بخط علي بن هلال البواب ، خازن خزانة شيراز)

انظر: د. أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي - المخطوط ، ج٢ ، لوحة " ٦ "

ألم تر أنا أرسلنا الشياطين
على الكافرين تؤزهم أزا

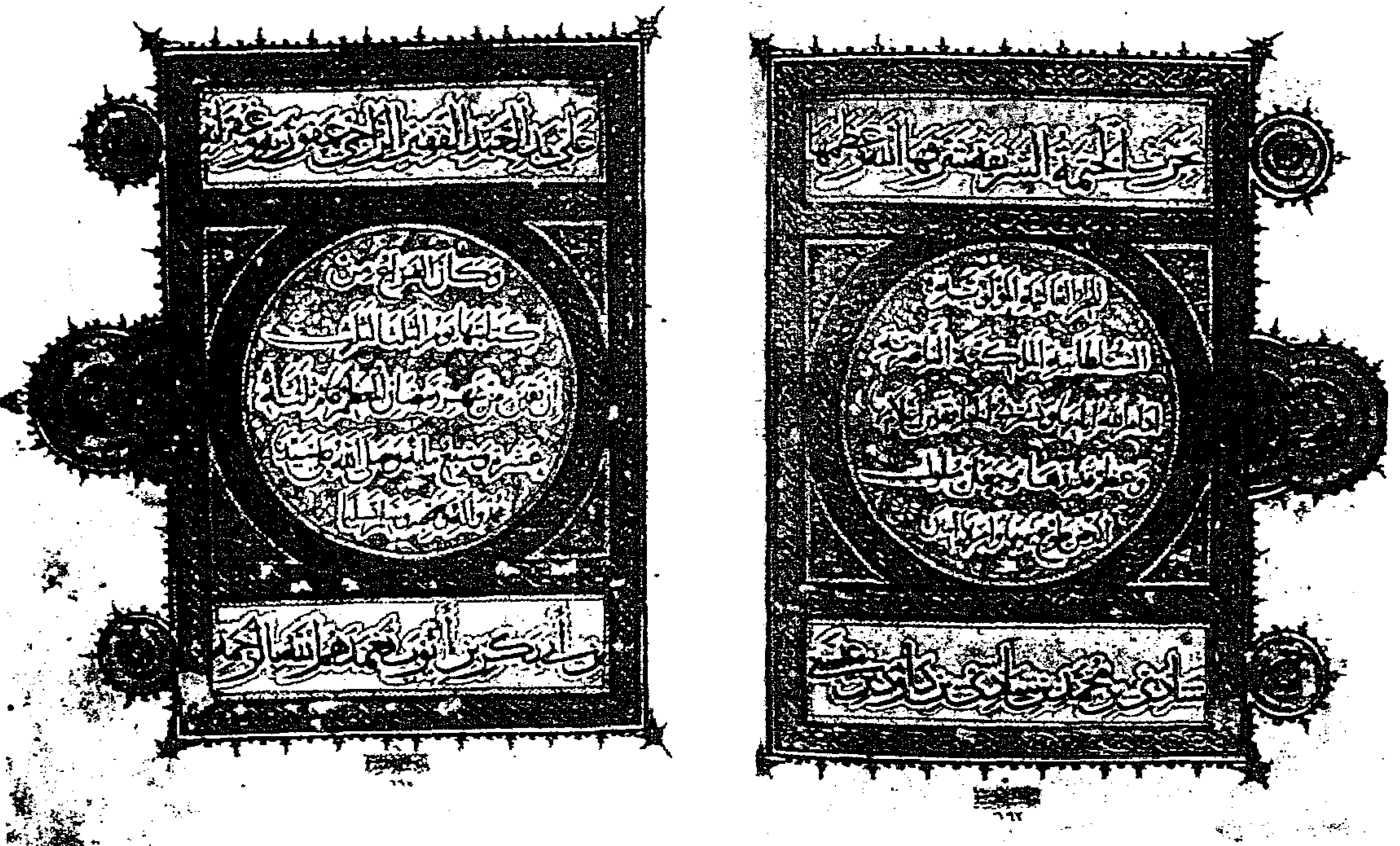
فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم
عدا

قوله تعالى

يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا

(مصحف مفسر بخط عثمان بن الحسين الوراق الغزنوي سنة ٤٨٤هـ ، وضعت فيه الحركات بالمداد الأحمر والشدات والهمزات بالمداد الأخضر)
(انظر: د. أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ، ج ٢ ، لوحة " ٧ ")

(مصحف مذهب ومزخرف بخط أبي بكر بن عبد الله الغزنوي في غزنة ، سنة ٥٧٣هـ)
(انظر: د. أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ، لوحة " ٨ ")



(واجهة مصحف بخط على بن هلال بن البواب ، نموذج لزخارف الكتب والمصاحف)
(انظر : د. أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق لوحة " ٢٥ ")

(خريطة توضح أبرز وأهم مدن بلدان المشرق الإسلامي)

(النظر : كي لي سترنج ، بلدان الخلافة الشرقية)

(معاني وتفسيرات)

رقم الصفحة	الكلمـــة	معناهـــــــا
٩	القماطر	هي ما تصان فيه الكتب ، أنظر المنجد ، ص ٣٣٧ .
	الفلوات	جمع الفلاة وهي الأرض الواسعة المقفرة ، انظر المعجم الوجيز ص ٤٨١ .
٢٠	أبخع	من أصل الفعل بخع بخوعاً وبخاعة، أي تذلل له وأطاع وأقر، المعجم الوجيز، ص ٣٨.
٢١	القامة	وحـــدة قـــياس طـــولها ست أقدام ، تستخدم عادة في قياس أعماق البحر . انظر المعجم الوجيز ، ص ٥٢١ .
٥٦	عين	أي النفيس من كل شئ ، انظر المعجم الوجيز ، ص ٤٤٤ .
١٥٧	فرد	الفرد ، يقصد بها المنقطع النظير الممتاز ، انظر المعجم الوجيز ٤٦٦
١٦٢	يكتري	يستأجر ، انظر المعجم الوجيز ، ص ٥٣٣ .
١٦٢	ابن بجدتها	هو العالم بالشيء المتقن له،وأصله الدليل الهادي في الصحراء، المعجم الوجيز ص ٣٦
١٦٣	انتجع	يقـــال انتجع فلاناً : قصده يطلب معروفه ، والمقصود الاستفادة من علومهم ومعارفهم ، انظر المعجم الوجيز ، ص ٦٠٣ .
	الطارق	هو الآتي ليلاً ، انظر المعجم الوجيز ، ص ٣٩٠ .
١٧٤	التالد	هو الرجل بالمكان ، انظر المعجم الوجيز ص ٧٦ .
	منقر	من أصل الفعل نقر، وتعني بحث عن ، انظر المعجم الوجيز ص ٦٢٩
١٩١	بحّاث	اجتهد في الأمر وتعرف حقيقته ، انظر المعجم الوجيز ص ٣٧ .
١٩٨	الجنان	وهي من كل شيء جوفه وقلبه ، انظر المعجم الوجيز ، ص ١٢١ .
٢٠٠	عتقه	عتق : تركه ليقدم ويطيب ، أنظر المعجم الوجيز ، ص ٤٠٥ .
٢٠٦	ذهن سيال	من أصل الفعل سال، أي جرى وتدفق ، انظر المعجم الوجيز ص ٣٣٢
٢٠٦	اللازورد	حجـــر من الأحجار النحاسية ، وهو حجر رخو وأصفاه لوناً السماوي ،وله استخدامات كثيـــرة ، انظـــر أحمد بن يوسف التيفاشي : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧م ، ص ص ١٧٧ ــ ١٨٦ .
٢١٥	الزنجفر	مادة تستخدم في التذهيب تؤخذ من الكبريت الأصفر، انظر مخطوط عمدة الكتاب لمؤلف مجهول ، ص ٢٠، ويقال أنه معدن متفتت أحمر يصبغ به، انظر المنجد ص٣٠٧ .
٢٣٨	يخترم العلوم	أي يستأصلها ويفنيها ، انظر المعجم الوجيز ، ص ١٩٣ .
٢٥٧	طما	ارتفع (وزاد) ، انظر المعجم الوجيز ، ص ٣٩٥ .
	التصحيف	صحف الكلمة ، أخطأ في قراءتها وروايتها في الصحيفة أو حرفها عن موضعها ، انظر المنجد ، ص ٤١٧ .

(المصادر والمراجع)

أولاً : المصادر :

١ ـ القرآن الكريم .

(١) المخطوطات :

٢ــ **أسامة بن منقذ:** كتاب العصا ، مخطوط ، دار الكتب والوثائق القومية رقم ٩١١٣ (ز) ميكرو فيلم رقم: ١٨٦٨١ .

٣ ــ **الخوانساري** : روضات الجنات ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٦٠٩ ميكروفيلم رقم ٣٦٤١٨ .

٤ ــ **ابن سينا** : الرسالة النيروزية ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ميكروفيلم رقم : ٧٤٤٤ .

٥ ــ **عبد الرحمن الصايغ** : صناعة الكتابة ، مخطوط دار الكتب القومية ، رقم ١٤ علوم معاشية ، ميكروفيلم رقم: ١٥٢٩ .

٦ ــ **محمد مرتضى الحسيني** : حكمة الإشراق على كتاب الآفاق ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٩٩ (تاريخ) ميكروفيلم رقم ١٩٢٧٧٠٠ .

٧ ــ **مجهول:** عمدة الكتاب في الأحبار ، مخطوط ، دار الكتب الصمرية ، ٣٨ (صناعة) (تيمور) ميكروفيلم رقم ٢١١٣٩ .

٨ ــ **مجهول** : نظم تدبير السفير في صناعة التسفير ، مخطوط دار الكتب المصرية ٣١٩ (مجاميع) ، ميكروفيلم رقم ١٧٤٩٠ .

٩ ــ **محمود خليفة** : صناعة الورق والليق والحبر ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٣٩ (صناعة) ميكروفيلم رقم ١٨٨٨٩ .

(٢) المصادر العربية المطبوعة :

١٠ ــ **أبو شامة** : (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ، ت ٦٦٥هـ). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، دار الجيل ، د . ت .

١١ ــ **أبو شجاع** : (محمد بن الحسين ظهير الدين الروزاروري ، ت ٤٨٨ هـ /١٠٩٥م ، ذيل تجارب الأمم ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د . ت .

١٢ ــ **ابن أبي أصيبعة** : (موفق الدين أبو العباس أحمد ، ت ٦٦٨هــ /١٢٦٩م) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨م.

١٣ ــ **ابن الأثير** : (عز الدين أبو الحسن على بن محمد ، ت ٦٣٠ هــ ١٢٣٢م) : الكامل في التاريخ ، أجزاء متعددة ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧هــ ١٩٨٧م.

١٤ ــ **الأزهري** : (أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، ت ٣٧٠هــ) : تهذيب اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون، ج١ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، دار القومية العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

١٥ ــ **الأصطخري** : (ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي ، ت ٣٤١هــ ٩٥٢م): المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال ، الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٣٨١هــ ١٩٦١م .

١٦ ــ **الأصفهاني** : (على بن الحسين ، ت ٣٥٦هــ) : كتاب الأغاني ، ج١٧ ، ط١٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .

١٧ ــ **الباخرزي** : (أبو الحسن على بن الحسن ، ت ٤٦٧هــ) : دمية القصر، ط ١ ، المطبعة العلمية ، حلب ، ١٩٣٠م .

١٨ ــ **البطليوس** : (ابن السيد ، ت ٤٢٢هــ) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣م .

١٩ ــ **البلاذري** : (أحمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩هــ ٨٩٢م): فتوح البلدان ، تحقيق /عبد الله أنيس الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٤٠٧هــ ١٩٨٧م .

٢٠ ــ **البنداري** : (الفتح بين على بن محمد البنداري ، ت ٦٤٣هــ ١٢٤٥م) : كتاب تاريخ دولة آل سلجوق ، شركة طبع الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣١٨هــ ١٩٠٠م .

٢١ ــ **ابن تغري بردي** : (أبو المحاسن جمال الدين يوسف ، ت ٨٧٤هــ ١٤٧٠م) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، د . ت .

٢٢ ــ **الثعالبي**: (أبو منصور عبد الملك بن محمد، ت ٤٢٩هــ ١٠٣٨م) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، مطبعة الظاهر ، القاهرة ، ١٩٠٨م .

٢٣ ــ فقه اللغة وسر العربية ، مطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٩٢٧م .

٢٤ ــ غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، مكتبة الأسدي ، طهران ، ١٩٦٣م .

٢٥ ــ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، شرح وتحقيق د. مفيد محمد قميحة .

٢٦ ــ الإعجاز والإيجاز ، المكتب العالمي للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٢م .

٢٧ ــ لباب الآداب ، ط١ ، دار الكتب العربية ، بيروت ، ١٩٩٧م .

٢٨ ــ لطائف المعارف : دار الطلائع للنشر والتوزيع ، القاهرة ، د . ت . جميع الأجزاء ، ط ٢ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

٢٩ ــ **الجاحظ** : (أبو عثمان عمرو بن بحر ، ت ٢٥٥هـ ٨٦٩م) كتاب الحيوان ، ج ١ ، ط٣ ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٩م.

٣٠ ــ التاج في الأخلاق ، ط ٢١ المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٤م .

٣١ ــ **ابن جماعة الكناني**: بدر الدين بن أبي اسحق إبراهيم ، ت ٧٣٣هـ : تذكره السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، جمعية دائرة المعارف ، حيدر أباد ، ١٣٥٣هـ .

٣٢ ــ **ابن جني**: (أبو الفتح عثمان بن جني ، ت ٣٩٢هـ) الخصائص، تحقيق / محمد على النجار ج١ ، ط ٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م .

٣٣ــ **الجهشياري**: (أبو عبد الله محمد بن عبدوس، ت ٣٣١هـ ٩٤٣م): كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفي السقا وآخرون ، ط١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٨م.

٣٤ ــ **ابن الجوزي** : (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ، ت ٥٩٧هـ ١٢٠١م) :المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .

٣٥ ــ **حاجي خليفة** : (مصطفى بن عبد الله ، ت ١٠٥٨هـ ١٦٤٨م) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، ج ١ ، نشر جامعة استانبول ، د . ت .

٣٦ ــ **ابن حبان البستي** : (محمد بن حبان ، ت ٣٥٤هـ ، روضة العقلاء ، مطبعة السنة المحمدية ، د . ت .

٣٧ ــ مشاهير علماء الأمصار ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

٣٨ ــ **أبو الحسين** : (أحمد بن فارس اللغوي : من أبناء القرن الرابع ، ت ٣٧٧ هـ) : الصحابي في فقه اللغة، وسنن العرب في كلامها، المكتبة السلفية ، مطبعة المؤيد ، القاهرة ١٣٢٨هـ ١٩١٠م .

٣٩ ــ معجم مقاييس اللغة : تحقيق عبد السلام هارن ، م ١ ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ١٤١١هـ ١٩٩١م ..

٤٠ ــ **الحسيني** : (صدر الدين عب بن ناصر ، ت بعد ٦٢٢هــ) : زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق د . محمد نور الدين ، ط٢ ، دار أقرأ للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٤٠٦هــ ١٩٨٦م .

٤١ ــ **ابن خردذابة** : (أبو قاسم عبد الله بن أحمد ، ت ٣٠٠هــ ٩١٢م) : المسالك والممالك ط١ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٨هــ ١٩٨٨م .

٤٢ ــ **الخطيب البغدادي** : (أبو بكر أحمد بن علي : ت ٤٦٣هــ ١٠٧٢م) : تاريخ بغداد ، أجزاء متعددة ، المكتبة السلفية ، المدينة المنورة ، د . ت .

٤٣ ــ تقييد العلم ، ط ٢ ، دار إحياء السنة النبوية ، ١٩٧٤م .

٤٤ ــ كتاب الكفاية في علم الرواية ، ط ١ ، مطبعة السعادة ، د . ت .

٤٥ ــ **ابن خلدون** : (عبد الرحمن بن محمد : ت ٨٠٨هــ ١٤٠٥م): المقدمة ، دار ابن خلدون الإسكندرية ، د . ت .

٤٦ ــ **ابن خلكان** : (أبو البعاس شمس الدين أحمد بن محمد ، ت ٦٨١هــ ١٢٨٢م) : وفيات الأعيان ، تحقيق د.إحسان عباس ، جميع الأجزاء ، دار صادر ، بيروت د.ت .

٤٧ ــ **ابن دريد** : (أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي : ت ٣٢١هــ) كتاب جمهرة اللغة ، ج ١ مكتبة المثنى ، بغداد ، د . ت .

٤٨ ــ **الدلجي** : (أحمد بن علي الدلجي) :الفلاكة والمفلكون، مطبعة الشعب ، مصر، ١٣٢٢هــ .

٤٩ ــ **الذهبي** : (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، ت ٧٤٨هــ ١٣٧٤م) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ج ٢ ، ط ٧ ، مؤبسسة الرسالة ، ١٤١٠هــ ١٩٩٠م .

٥٠ ــ العبر في أخبار من غبر ، ج ١ ، ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٨م.

٥١ ــ **الراغب الأصبهاني** : (ابو القاسم حسين بن محمد) : محاضرات الأدباء وتمحاورات الشعراء والبلغاء ، ج ١ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦١م .

٥٢ ــ **ابن رستة** : (أبو علي أحمد بن عمر ، ت : ٣١٠هــ ٩٢٢م) ، الأعلاق النفيسة ، ط ١ دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨هــ ١٩٨٨م .

٥٣ ــ **الزبيدي** : (محب الدين أبي فيض يالسيد محمد مرتضى ، ت ١٢٠٥هــ ١٧٩٠م): شرح القاموس المسمى تاج العروس ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ت .

٥٤ ـ **الزمخشري** : (محمود بن عمر ـ ت ٥٢٨ هـ) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ج ١ ، ط ٣ ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

٥٥ ـ **السبكي** : (تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافي ، ت ٧٧١هـ) : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو وآخرون ، ج ٦ ، ط ١ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

٥٦ ـ **السجستاني** : (أبو بكر عبد الله بن أبي داود بن الأشعث ، ت ٢٧٥ هـ ٨٨٨م) : كتاب المصاحف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٥٧ ـ **ابن سعد** : (أبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدي ، ت ٢٣٠ هـ ٨٤٤م) : الطبقات الكبرى ، م ٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧ـ ١٩٥٨م .

٥٨ ـ **السمعاني** : (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ، ت ٥٦٢هـ ١١٦٦م) ، الأنساب جميع الأجزاء ، ط ١ ، دار الجنان ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٥٩ ـ **السهمي** : (أبو القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم ، ت ٤٢٧هـ) : تاريخ جرجان المسمى بكتاب معرفة أهل جرجان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٣٦٩هـ ١٩٥٠م .

٦٠ ـ **السيوطي** : (جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ت ٩١١هـ ١٣٠٥م) ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ج ١ ، ط ٣ ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٩٨٥م .

٦١ ـ تاريخ الخلفاء ، ط ٢ ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

٦٢ ـ **ابن شاكر الكتبي** : (محمد بن أحمد ، ت ٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات ، ج ١ ، ج ٢ ، ط١ دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠م .

٦٣ ـ **الشهرستاني** : (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨هـ) الملل والنحل ، ج ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت .

٦٤ ـ **الصفدي** : (صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤هـ) الوافي بالوفيات ، ج ١ ، مطبعة الدولة ، استانبول ، ١٩٣١م .

٦٥ ــ **ابن عبد البر** : (يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي ، ت ٤٦٣هــ) : جامع بيان العلم وفضله ، ج ١ ، إدارة المطبعة المنيرية ، القاهرة ، د . ت .

٦٦ ــ **ابن عبد الحكم** : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، ت ٢٥٧هــ ٨٧١م) : سيرة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، دار الفضيلة ، القاهرة ، ١٩٩٤م .

٦٧ ــ **ابن عبد ربه** : (أحمد بن محمد الأندلسي ، ت ٣٢٨هــ) العقد الفريد ، ج ٢ .

٦٨ ــ **ابن العبري** : (غريغوريوس الملطي ، ت ٦٨٥هــ) ، تاريخ مختصر الدول ، د . ت .

٦٩ ــ **العماد الأصبهاني** : (عماد الدين محمد بن محمد سفي الدين ، ت ٥٩٧هــ) ، خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد بهجه الأثري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٨٤هــ ١٩٦٤م .

٧٠ ــ **ابن العماد الحنبلي** : (أبو الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي ، ت ١٠٨٩هــ) : شذرات الذهب ج ٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د . ت .

٧١ ــ **أبو الفداء** : (عماد الدين إسماعيل بن على ، ت ٧٣٢هــ) : تقويم البلدان ، ط باريس ، ١٨٦٠م .

٧٢ ــ المختصر في أخبار البشر ، ط ١ ، د . ت .

٧٣ ــ **أبو الفقضل الميداني** : (أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري ، ت ٥١٨هــ): مجمع الأمثال، ج ١، ط ١،دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٨هــ ١٩٨٨م .

٧٤ ــ **ابن الفوطي** : تلخيص مجمع الآداب ، دار الكتب ، دمشق ، د.ت .

٧٥ ــ **الفيروز آبادي** : القاموس المحيط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٧م .

٧٦ ــ **ابن قاضي شهبة** : (أبو بكر بن محمد الأسدي ، ت ٨٥١ هــ ، طبقات الشافعية ، ج ١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د . ت .

٧٧ ــ **القزويني** : (أبو عبد الله زكريا بن محمد ، ت ٦٨٢هــ) : آثار البلاد وأخبار العباد ، ط دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م .

٧٨ ــ **القزويني** : (عبد الكريم بن محمد الرافعي ، من أبناء القرن السادس الهجري): التدوين في أخبار قزوين ، ج ٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م .

٧٩ ــ **ابن القفطي** : (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن إبراهيم الشيباني ، ت ٦٤٦هــ ١٢٤٧م) ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، ١٣٢٦هــ .

٨٠ ــ إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ٤ ، ١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ١٤٠٦هــ ١٩٨٦م .

٨١ ــ **القلقشندي** : (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد ، ت ٨٢١هــ ١٤١٨م) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج ١ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٨٧م .

٨٢ ــ **القوبائي الأصفهاني** : (أبو القاسم أحمد بن محمد الحسيني) رسالة الإرشاد في أحوال الصاحب الكافي إسماعيل بن عباد، ت ٣٨٥هــ ، مطبعة المجلس، طهران، إيران ، د.ت.

٨٣ ــ **ابن كثير** : (الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، ت ٧٧٤هــ : البداية والنهاية ، أجزاء متعددة ط ٢ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٤١١هــ ، ١٩٩٠م .

٨٤ ــ **المتيني** : شرح اليميني المسمى بالفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي ، دار الكتب العلمية ، ١٩٢٤م .

٨٥ ــ **المسعودي**: (أبو الحسن علي بن الحسين ، ت ٣٤٦ هــ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج٣ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٨٨م .

٨٦ ــ **مسكويه** : (أبو على أحمد بن محمد المعروف بمسكويه ، ت ٤٢١ هــ) : كتاب تجارب الأمم جميع الأجزاء ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د . ت .

٨٧ ــ **المقري**. : (أحمد بن محمد بن على المقري ، ت ١٠٤١هــ) : المصباح المنير في غيرب الشرح الكبير ج ١ ، المكتبة العلمية ، بيروت ، د . ت .

٨٨ ــ **المقريزي** : (تقي الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥ هــ) : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٢٧٠م .

٨٩ ــ **ابن منظور** : (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، ت ٧١١هــ) ، لسان العرب ، عدة أجزاء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د . ت .

٩٠ ــ **ابن النديم** : (أبو الفرج محمد بن اسحقاق ، ت ٣٨٥هــ) : الفهرست ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨م .

٩١ ــ **أبو نعيم الأصبهاني** : (أحمد بن عبد الله) : ذكرى أخبار أصبهان ، ج ١ ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٠م .

٩٢ ــ **النسوي** : سيرة جلال الدين منكبرتي ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٣م .

٩٣ ـ **النويري** : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٣هـ ، ١٣٣١م): نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٧ ، ط١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩م .

٩٤ ـ **ابن هشام** : (أبو محمد عبد الملك بن هشام ، ت ٢١٨هـ) : السيرة النبوية ، ج ١ ، المكتبة العلمية ، بيروت ، د . ت .

٩٥ ـ **ابن الوردي** : (زين الدين عمر بن مظفر بن عمر ، ت ٧٤٩ هـ) : تتمة المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٥هـ .

٩٦ ـ **ياقوت الحموي** : (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، ت ٦٢٦هـ ، ١٢٢٩م): معجم الأدباء ، جميع الأجزاء ، ط ٣ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٠هـ .

٩٧ ـ معجم البلدان : جميع الأجزاء ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٠هـ .

(٣) المصادر الفارسية المعربة والغير معربة :

٩٨ ـ **أبو عبد الله الحاكم النيسابوري** : ت ٤٠٥هـ : تاريخ نيشابور ، ترجمة محمد بن حسين خليفة نيشابوري ، إيران ، ١٣٧٥هـ .

٩٩ ـ **أبو الفضل البيهقي** : (محمد بن حسين البيهقي ، ـ ٤٧٠هـ) : تاريخ البيهقي ، ترجمة د. يحيى الخشاب وآخرون ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢م .

١٠٠ـ **ابن اسفنديار**: تاريخ طبرستان ، ترجمة د. أحمد محمد نادي ، ط١ ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٢م .

١٠١ ـ **ابن فندق** : (أبو الحسن على بن زيد ، ت ٥٦٥هـ): تاريخ بيهق ، دردد نراد نسخة نشر مايه كنا بفروشي فروغي در جانجانه اسلامية ، جاب شد .

١٠٢ـ **الثعالبي** : (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، ت ٤٢٩هـ ١٠٣٨م) : شاهنامه ثعالبي ، در شرح أحوال سلاطين إيران ، ترجمة محمود هدايت ، مطبعة المجلس طهران ، ١٣٦٩هـ .

١٠٣ـ **الراوندي** : (محمد بن على سليمان ، ت ٥٥٩ هـ) : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي وآخرون ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مطابع دار العلم بالقاهرة ، ١٩٦٠م .

١٠٤ــ **الكرديزي** : (أبو سعيد عبد الحي بن ضحاك بن محمود) زين الأخبار تصحيح : سعيد نفيسي ، تهران ، ١٣٣٣هــ .

١٠٥ــ **المافروخي** : (مفضل بن سعد بن الحسين ، من علماء القرن الخامس الهجري) ، كتاب محاسن أصفهان ، تصحيح : السيد جلال الدين الحسيني الطهراني ، مطبعة المجلس ، تهران ١٣٥٢هــ .

١٠٦ــ **النرشخي**: (أبو بكر محمد بن جعفر ، ت ٣٤٨هــ) ، ترجمة أبو نصر أحمد بن محمد ، طهران ، د.ت .

١٠٧ــ **خواندمير** : (غياث الدين خواندمير ، ت ٩٤٢ هــ ١٥٣٥م) : دستور الوزراء ، ترجمة وتعليق د. حربي أمين سليمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م .

١٠٨ــ كتاب رجال حبيب السير ، دراسة وترجمة : هالة حسن محمد بسيوني ، من خلال رسالة للماجستير ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٤٢٢هــ ، ٢٠٠١م .

١٠٩ــ **عباس إقبال** : (وزارات در عهد سلاطين بزرك سلجوقي آز تاريخ تشكيل ابن سلسلة كارمك سلطان سنجر ، ٤٣٢هــ : ٥٥٢هــ) ، ترجمة وتعليق أحمد كمال الدين حلمي ، تهران ١٣٣٨هــ .

١١٠ــ **على أصغر فقيهي** : تاريخ جامع قم انتشارات إسماعيليان ، قم ، د . ت .

١١١ــ **فضل الله روزبهان** : مهمان نامه ، بخارى ، تهران ، د.ت .

١١٢ــ **فضل الله الهمذاني** : (رشيد الدين فضل الله) جامع التواريخ ، تاريخ غازان خان ، ترجمة : د. فؤاد عبد المعطي الصياد ، الدار الثقافية للنشر ، د.ت .

١١٣ــ **ناصر خسرو** : ت ٤٨١هــ ١٠٨٨م : سفر نامة ، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر ، والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري ، ترجمة : يحيى الخشاب مطبوعات البنك العربي الدولي للمعلومات ، د.ت .

١١٤ــ **نجم الدين الرازي** : مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد ، ترجمة : أحمد إسماعيل علي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس ، ١٩٧٧م .

١١٥ــ **نظام الملك** : (الحسن بن إسحق بن العباس أبو علي الطوسي ، ت ٤٨٥هــ) ، سياسة نامة ترجمة: د. السيد محمد الغزاوي ، دار الرائد العربي ، توزيع دار ركابي ، د.ت.

ثانيا : المراجع العربية والرسائل العلمية والأبحاث المنشورة :

(١) المراجع العربية :

١١٦ــ **إبراهيم الدسوقي نشتا** : المعجم الفارسي الكبير ، القاهرة ، د . ت .

١١٧ــ **أحمد سعيد الدمرداش** : البيروني ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠م .

١١٨ــ **أحمد محمد الشنواني** : كتب غيرت الفكر الإنساني ، ج ١ ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٩٩م.

١١٩ــ **الزركلي** : الأعلام قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين ، ج ٢ ط ٧ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦م .

١٢٠ــ **المعجم الوجيز** : مجمع اللغة العربية ، طبعة ٢٠٠٥م .

١٢١ــ **المنجد في اللغة والإعلام** : ط ١٦ ، ط ٣٠ ، ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٨م .

١٢٢ــ **ديوان أبي الطيب المتنبي** : دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د . ت .

١٢٣ــ **أوليري (ديلاس)**: الفكر العربي ومكانه في التاريخ ، ترجمة د. تمام حسان ط٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧م .

١٢٤ــ **د. أيمن فؤاد سيد** : الكتاب العربي المخطوط ، ج١ ، ج٢ ، ط١، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٩٩٧م.

١٢٥ــ **د. حامد الشافعي دياب**:الكتب والمكتبات في الأندلس،ط١،دار قباء للطباعى والنشر،١٩٩٨م

١٢٦ــ **د. حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الإسلام ، ج١ ، ط٣ ، دار الجيل ، بيروت ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩١م.

١٢٧ــ **د. حسن محمد عبد الشافي** : مكتبة الطفل ، ط١ ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٩٣م .

١٢٨ــ **د.حسين مؤنس**: أطلس تاريخ الإسلام، ط١ ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة، ١٩٨٧م.

١٢٩ــ **دي طرازي (فيليب)** : خزائن الكتب العربية في الخافقين ، م١ ، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة ، دار الكتب ، لبنان ، د.ت.

١٣٠ــ **د. زكي حسن** : فنون الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ ، ١٩٣٨م.

١٣١ـ **د. سيده إسماعيل كاشف** : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٦م.
١٣٢ـ **د. السيد الباز العريني** :المغول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
١٣٣ـ **عبد الجواد الأصمعي**:تصوير وتجميل الكتاب العربي في الإسلام، دار المعارف،مصر د.ت
١٣٤ـ **د.عبد الستار الحلوجي**: المخطوط العربي ، ط٣ ، دار الثقافة العلمية الإسكندرية ١٩٩٨م.
١٣٥ـ **عبد السلام هارون** : رسائل الجاحظ ، ج١، ط١ ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١م .
١٣٦ـ **د. عبد العزيز عزت** : ابن مسكويه ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط١ ، ١٩٤٦م.
١٣٧ـ **د. عبد المنعم ماجد** : نظم الفاطميين ، طبعة ١٩٧٣م .
١٣٨ـ د. على أبو ملحم : رسائل الجاحظ الأدبية ، ط ١، دار مكتبة الهلال، بيروت ، ١٩٨٧م.
١٣٩ـ **فاضل أحمد الطائي** : أعلام العرب في الكيمياء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦م.
١٤٠ـ **فامبري (أرمينيوس)**: تاريخ بخارى، ترجمة د. أحمد محمود الساداتي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، د . ت .
١٤١ـ **كوركيس عواد** : خزائن الكتب في العراق ، مطبعة دار المعارف ، بغداد ، ١٩٤٨م .
١٤٢ـ محمد أبو زهرة : محاضرات في الوقف ، ط٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧١م.
١٤٣ـ **د. محمد جمال الدين سرور** : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري ، ط٢ ، دار الفكر العربي ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
١٤٤ـ **د. محمد ضياء الدين الزيس** : النظريات السياسية ، ط٧ ، دار التراث ، القاهرة ،١٩٧٦م.
١٤٥ـ **د. محمد عبد العظيم** : دراسة نقدية لمصادر أقاليم ومدن الشرق الإسلامي ، آداب الزقازيق ٢٠٠٣م.
١٤٦ـ السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠١م .
١٤٧ـ **د. محمد ماهر حمادة** : المكتبات في الإسلام ، ط ٧ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،١٩٩٦م.
١٤٨ـ **محمود مقديش** : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، ١٩٨٨م .
١٤٩ـ **د. ناجي معروف**: أصالة الحضارة العربية ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٥م.

١٥٠ـ **ناصر محمد عبد الرحمن** : الاتصال العلمي في التراث الإسلامي من صدر الإسلام حتى نهاية العصر العباسي ، دار غريب للطباعة والنشر ، ١٩٩٤م .

١٥١ـ **د. ناهد محمد سالم**:نظم تصنيف المعرفة عند المسلمين،دار الثقافة العلمية،الإسكندرية د.ت.

١٥٢ـ **هالة شاكر عبد الرحمن**:الورق والوراقون في العصر العباسي،ط١،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠٤م .

١٥٣ـ هونكه (زيجريد) : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون ، وكمال دسوقي ، ط٩ ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٩١م .

١٥٤ـ **د. يحيى وهيب الجبوري** : الكتاب في الحضارة الإسلامية ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٨م .

١٥٥ـ **يوسف العش** : دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، سوريا، ١٩٩١م.

(٢) الرسائل العلمية :

١٥٦ ـ **إبراهيم علي البهي علي** : التطورات الحضارية في خراسان في العصر السلجوقي الثاني ٤١٥هـ : ٥٩٠هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة بنها ، ١٩٩٦م .

١٥٧ـ **جمال فوزي محمد** : الأحوال الحضارية في إيران من سنة ٤٨٥هـ : ٦٢٨هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م .

١٥٨ـ **حجاجي إبراهيم محمد** : صناعة الأصباغ والألوان ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب سوهاج ، ١٩٨٢م .

١٥٩ـ **سهام محمد المهدي** : تجليد الكتب في مصر في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب القاهرة ، ١٩٧٤م .

١٦٠ـ **سميحة أبو الفضل** : السامانيون ودولتهم فيما وراء النهر ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة دمشق ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

١٦١ـ **عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم** : الحياة الثقافية والعلمية في نيسابور منذ بداية القرن الثالث حتى أوائل القرن الخامس الهجري ٢٠٥هـ : ٤٣٢هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠م .

١٦٢ــ **مصطفى سيد سلطان** : مدينة مرو تاريخها السياسي والحضاري منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العسر العباسي الأول ، ١٣١هـ : ٢٣٢هـ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ٢٠٠٠م .

١٦٣ــ **هاشم عبد الراضي محمد عيسى** : الحياة الاجتماعية والفكرية في العراق منذ سنة ٣٣٤هـ ٩٤٥م ، وحتى نهاية القرن الخامس الهجري ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ١٩٩٥م.

(٣) الأبحاث المنشورة :

١٦٤ــ **د. أيمن فؤاد سيد** : المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي ، ضمن أبحاث كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .

١٦٥ــ **د. حسن مجيب المصري** : أثر الفرس في حضارة الإسلام ، ضمن أبحاث كتاب دراسات في الحضارة الإسلامية ، بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، المجلد الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .

١٦٦ــ **د. سعيد عاشور** : العلم بين المسجد والمدرسة ، ضمن أبحاث كتاب المدارس في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .

١٦٧ــ **د. صلاح علي عاشور** : الوراقون والنساخون بالعراق والمشرق في العصرين البويهي والسلجوقي ، ضمن أبحاث المؤتمر الدولي حول تاريخ المسلمين الاقتصادي ١٩٩٨م.

ثالثاً : المراجع الأجنبية :.

168 – Gibb, Kramers: Shorter Encyclopaedia of Islam, Leidn, London, 1953.

169 – Hitti, Philip – The Near east in history, A500 year story, D.V. An Annostrand company, London, England . N.D.
- History of Arabs, tenth edition, 1970.

170 – Stphan and Nandy Ronart: Concise encyclopaedia of Arabic civilization, Amsterdam, N.D.

رابعاً : الدوريات :

١٧١ــ **د. أيمن فؤاد سيد** : أبو حيان التوحيدي ، مؤلفاته المخطوطة والمحفوظة والمطبوعة ،مجلة فصول ، المجلد الرابع عشر ، العدد الثالث ، ١٩٩٥م .

١٧٢ـ **سعيد الديوه جي** : خالد بن يزيد ، مجلة المعلم الجديد ، ج ١ ، السنة العاشرة ، ١٩٤٦م.

١٧٣ـ **عبد الحسين نوائي** : فرمان تدريس نظامية نيسابور باسم محي الدين محمد بن يحيى النيسابوري ، مجلة يادكار ، صفر ـ ربيع أول ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م .

١٧٤ـ **فؤاد سيد** : نصان قديمان في إعارة الكتب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، ج١ ، مجلد ٤ ، مطبعة مصر ، مايو ١٩٥٨م .

١٧٥ـ **كوركيس عواد** : الورق أو الكاغد ، صناعته في العصور الإسلامية ، مجلة المجمع العلمي بدمشق ، م ٢٣ ، كانون الثاني ١٩٤٨م ، صفر ١٣٦٧هـ .

١٧٦ـ **هنري لامنس** : دور العلم وبيوت الحكمة ، مجلة المشرق ،السنة ٣٨ عام ١٨٤٠م .

خامسا : **دوائر المعارف** :

177- The Encyclopaedia of Islam, second edition, Leiden, 1990.

*****

المحتويات

تابع المحتويات

تابع المحتويات

تابع المحتويات